غير مخصص للبيع


هدية العدد

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد 240 - جمادى الآخرة 1417 - أكتوبر/ نوفمبر 1996
ALFAISAL MAGAZINE ISSUE 240 _ OCT./NOV. 1996

خلفاء موسى.. أضاعوا شريعته!

الحساسية والطعام علاقة يسودها الغموض

السّندباد: رحلة في الذات العربية

المشاركة: من وسائل الطفل لاكتشاف ذاته..

التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير

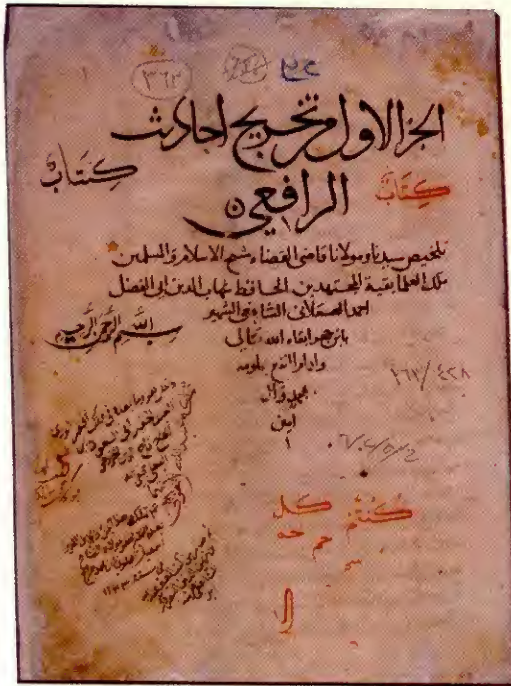
تأليف: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، ابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة 852 هـ.

يعد كتاب «الوجيز في الفروع» الذي ألَّفه أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ) حُجّةً في الفقه الشافعي، لذا كثرت شروحه، ومن بينها «فتح العزيز على كتاب الوجيز» لأبي القاسم عبدالكريم بن محمد الرافعي (ت 623 هـ). وقد اهتم علماء الحديث بهذا الشرح؛ فخرَّجوا أحاديثه، وبيَّنوا صحيحها من ضعيفها، ومن بين هؤلاء: سراج الدين ابن الملقن (ت 804هـ) في كتابه «البدر المنير»، وقد اختصره تلميذه الحافظ ابن حجر العسقلاني، وسمّاه «التلخيص الحبير».

وهذه النسخة هي الجزء الأول من الكتاب، وتقع في 186 ورقة، وقد كُتبت في حياة المؤلف، وقوبلت على الأصل المنقولة عنه، ولنفاستها فقد تَمَلَّكها عدد من العلماء، منهم: مُحَدِّث الشام في وقته إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني (ت 1162 هـ) صاحب كتاب «كشف الخفاء»، وعبدالله بن زين الدين البصروي (ت 1170هـ)، له عدة مؤلفات، من بينها «جمان الدرر من ترجمة الحافظ ابن حجر».

والمخطوطة من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم 363.

إعداد: إبراهيم باجس عبدالمجيد


الجز الاول تخريج احاديث
كتاب الرافعي


كتاب الطهارة
باب الماء الطاهر

في العدد القادم:
● الإعلام الإسلامي والإعلام المضاد
● اللغة بين الإنسان والحيوان
● ملح الطعام .. عدو قاتل أم سرّ من أسرار الحياة؟!

رئيس التحرير
د. زيد بن عبدالمحسن الحسين



عن العدد الماضي

خصصت مجلة الفيصل الشهرية في عددها لشهر جمادى الأولى حيزاً من صفحاتها للحديث عن اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية. واستعرضت المجلة مسيرة التطور في المملكة العربية السعودية التي بدأها وأرسى قواعدها، ودعائمها، موحد هذا الكيان جلالة الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه.

وأبرزت في هذا المجال الإنجازات الضخمة التي حققتها المملكة في مختلف المجالات التعليمية والصحية والزراعية والصناعية والمواصلات.

وتضمن العدد مقالاً لرئيس التحرير الدكتور زيد بن عبدالمحسن الحسين تناول فيه سيرة الملك عبدالعزيز ونهجه في البناء. وأوضح أن ذكرى اليوم الوطني هي مناسبة لتسليط الضوء على حياة الملك عبدالعزيز فكراً ومنهجاً وعملاً لاستخلاص العبر منها.

وبين أن الأمجاد التي صنعها الملك عبدالعزيز وتبلورت في الحقائق الماثلة التي تعج بها جنبات التاريخ، وتثري الفكر السياسي لتعكس مبلغ تعويل هذا القائد على تطبيق منهج علمي محكم في رفع قواعد الكيان الذي قاده بأعمال بطولية مثالية توجت بإعلان الوحدة.

وأشار إلى أن هذا الإنجاز الذي جاء تعبيراً عن تلاقي رغبات المواطنين مع طموحات الموحد حول تعزيز قدرات الكيان الجديد بما يتناسب مع الرسالة التي يضطلع بها، وبما يضمن له مرونة الحركة وإيجابية التفاعل مع الآخرين أخذاً وعطاءً وفق المنهج الذي اختطه الملك عبد العزيز رحمه الله.

وقد حفل العدد بكثير من المقالات والآراء لكبار المفكرين التي كتبوها ما بين عامي 1935/1343 - 1946/1365 عند التقائهم بالملك عبدالعزيز، منها: مقال لعباس محمود العقاد، وآخر لأحمد حسن الزيات، وثالث بعنوان «نابليون العرب» نشرته الرسالة نقلاً عن مجلة فرنسية، ومقال لأمين الرافعي، ومقال لعاصم محمد بهجة البيطار، وقصيدة للشاعر خليل مطران، وأشعار أخرى متفرقة لعدد من الشعراء.

كما تضمن العدد ملفاً خاصاً عن الترجمة وأثرها في الآداب والعلوم، أبرز الدور الكبير الذي اضطلعت به الحضارة الإسلامية في رفد الحضارة الإنسانية بذخائر علومها وفنونها وثقافتها.

واس - وكالة الأنباء السعودية
1417/5/10هـ - 1996/9/23م

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن دار الفيصل الثقافية

ملاحظات عامة :

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

1 - أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدَّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

2 - ألا يكون الموضوع منشوراً من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

3 - حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

4 - أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري - إن وجد - وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة، إضافة إلى صورة ملونة حديثة.

5 - الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

العنوان ص.ب (3) الرياض 11411 - المملكة العربية السعودية
هاتف 4653026 - 4653027 - 4647884 - فاكسملي: 4647851

ردمد 1140 - 0258 رقم الإيداع 14/0542

الاشتراكات السنوية :

للأفراد 150ريال سعودي، للمؤسسات 250 ريال سعودي.

الإعلانات :

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

الأسعار السعودية 8 ريالات - الكويت 650 فلس - الإمارات 7 دراهم - قطر 7 ريالات - البحرين 750 فلس - عُمان 750 بيسة - الأردن 500 فلس - اليمن 40 ريالاً - مصر جنيهان - السودان 150 جنيه - المغرب 8 دراهم - تونس 600 مليم - الجزائر 10 دنانير - العراق 400 فلس - سورية 30 ليرة - ليبيا 800 درهم - موريتانيا100أوقية - الصومال 2000 شلن - جيبوتي 150 فرنك - لبنان مايعادل 4 ريالات سعودية - الباكستان 20 روبية - المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

البريد

رجاء واعتذار

الإخوة القراء..

تلبية لرغبة كثيرين منكم تمت زيادة باب «البريد» إلى صفحتين بدلاً من صفحة واحدة. والمجلة حريصة على أن تنشر جميع الرسائل التي ترد إليها من القراء الكرام في أبوابها المختلفة: البريد، ومناقشات وتعليقات، وتباشير، إضافة إلى الردود الخاصة، وزاويتي عناوين، وبين القارئ والقارئ. وحيث إنه يتعذر علينا نشر الكم الكبير من هذه الرسائل العزيزة، فإننا نضطر إلى الاكتفاء بنشر رسالة واحدة شاملة إذا تكرر المضمون، كما أننا نراعي أن تكون الرسائل من دول مختلفة، وأن تتباعد المسافة الزمنية لنشر الرسائل التي ترد من شخص واحد حتى تُتاح الفرصة للآخرين؛ الأمر الذي يدعونا إلى التنويه إلى أن عدم نشر رسالة من هذه الرسائل لا يعني إهمالها، وإنما يكون ذلك للاعتبارات السابقة، ولمعايير موضوعية تؤخذ في الحسبان؛ تتصل بجدة مضمون الرسالة وموضوعيته، ووضوح الأفكار من غير إسهاب، مع رجاء كتابة الاسم الصريح للقارئ وعنوانه.

ومما لا شك فيه أن رسائل القراء هي عيون ترى بها المجلة إيجابياتها وسلبياتها، وتتعرف بها أذواق قرائها ورغباتهم، وهذا الباب نافذة للحوار والتداول حول القضايا التي تطرحها المجلة، والقضايا العامة الأخرى التي يمكن أن يتطرق إليها الأخوة القراء.

لذا ترجو المجلة أن تمتد الجسور بين «الفيصل» وقرائها، وأن يرد إلينا من الرسائل ما يتضمن النقد الموضوعي والرأي الصادق الصريح من أجل إثراء الساحة الثقافية بالأفكار البناءة الجادة.

روسية تبحث عن مصادر الثقافة العربية

أنا طالبة روسية، أدرس اللغة العربية، وأحرص على إتقانها والمطالعة بها، لذلك أبحث عن المصادر التي تمكنني من إجادتها. ولما كانت المجلات والصحف العربية نادرة في مدينة «كييف» عاصمة أوكرانيا، حيث أتلقى دراستي، فلا سبيل إلى توثيق صلتي بمصادر الثقافة العربية المطبوعة إلا من طريق الاشتراك، وهذا ما أنا عاجزة عنه، لأن ظروفي لا تمكنني من شراء الصحف يوميًا، ناهيك عن الاشتراك فيها مدة عام، أو ستة أشهر. لذلك عرضت لديّ فكرة، رأيت أن أعرضها عليكم، وكلّي أمل في أن تلقى قبولاً منكم، وتحقق رغبتي في التواصل مع اللغة والثقافة العربيتين، والفكرة هي: أن تساعدوني في إيصال مناشدتي (للأخوات) العزيزات قارئات «الفيصل» أن يتكرّمن بتزويدي بكل عدد من «الفيصل»، وغيرها من المجلات العربية الرصينة بعد أن يقرأنها. من جانبي لا أعد بمقابل مادي، وقد عرّفت في صدر هذه الرسالة بظروفي، ولكن أتعهد بأن أتجاوب ثقافيًا مع قارئات «الفيصل». ونظرًا لأنني لن أتمكن من إرسال مطبوعات، فسأقوم برد هذا الجميل في صورة طوابع بريدية لمن يهوين جمع الطوابع، أو بطاقات بريدية، وأوراق نقدية روسية وأوكرانية قديمة، وهدايا أخرى رمزية. وآمل أن تفتح هذه المناشدة بابًا لتبادل الثقافة والآراء المفيدة.

TARAVNIKOVA OXANA ترافينكوفا أوكسانا
P.O BOX 7268 KIEV - 34
UKRAINE

نوره الشملان حركت موضوعًا مهجورًا

تناولت د. نوره الشملان موضوعًا حيويًا وشائقًا في العدد 234، فقد عرضت «العفّة» بصورة شاملة في مقالها، وهو موضوع غير مطروق في الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى. لذلك وددت لو أن الكاتبة الفاضلة توسعت في تناولها، وحبذا لو تطرقت إلى بيت عنترة المعروف:

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلُّه
حتى أنال به كريم المأكل

وهو البيت الذي صوّر فيه ذروة العفة، فلو أن الكاتبة شرحت هذا البيت، ودلالات العفة فيه، لكان موضوعها أكثر تكاملاً.

حراز قاسم
4 زنقة سيبيريا، حي حدو
الحسيمة، المغرب

التوزيع لا يواكب تنامي قراء «الفيصل»

أرجو إعادة النظر في الطريقة المتبعة في توزيع «الفيصل» في اليمن، فأقل ما يمكن أن يُوصف به حال قراء مجلتنا العزيزة في مناطق ومحافظات متعددة أنها «حالة ارتباك»، لعدم انتظام التوزيع، فمع وجودي في العاصمة صنعاء ـ أيام الدراسة ـ؛ إلا أن الحصول على أعداد «الفيصل» بانتظام أمر صعب، ويتفق في ذلك معي قراء كثيرون، أما في خلال أشهر العطلة (الإجازة) فإنني لا أستطيع الحصول عليها لأن أعداد «الفيصل» لا تصل إلى محافظة البيضاء إلا نادرًا، وإذا وصلت فإن النسخ تكون معدودة ومحدودة جدًا.. أرجو بحث زيادة النسخ المرسلة إلى اليمن، وإعادة ترتيب أسلوب التوزيع أيضًا حتى نضمن وصول مجلتنا الأثيرة إلى المدن الكبيرة ـ على الأقل ـ، فالجهة التي تتولى التوزيع ينبغي أن تواكب الزيادة المطردة في أعداد القراء.

عبدالرحمن الهُصيصي
ص.ب 38041
البيضاء، اليمن

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على بعضها الآخر للقراء **يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بع**

منبر الآراء

أحيي فيكم روح التعاون المثمر مع الأقلام المتعددة في العالم العربي والإسلامي، مما جعل الفيصل - بحق - منبراً للآراء التي تثري الساحة الثقافية، وحديقة تنتج ثمرات مختلفة الألوان، طيبة المذاق. فشكراً لكم على ما تبذلونه من جهد لتقدموا إلى قراء «الفيصل» مادة مفيدة.

د. محمد مرتاض
كلية الآداب، جامعة تلمسان
المنصورة، تلمسان
الجزائر

دقة الرصد وإشراق الإبداعات

.. بداية، ولأن المناسبة عزيزة على قلوبنا جميعاً، ولأنها لا تتكرر في حياة الأشخاص كثيراً إلا بمشيئة الله - جل في علاه -، فإنني أتمنى أن تفسحوا بين صفحاتكم جزءاً خاصاً يضم كلمات الكُتّاب والقراء التي تعبر عن حبهم للفيصل وتقديرهم لعطائها المتميز الذي أثرى الوجدان العربي على مدى عقدين.

.. إننا نقدر همـوم ومتاعب رحلة العطاء الكبير التي آليتم على أنفسكم التمسك بها والمضي في مسيرتها؛ إيماناً منكم بأن مسيرة العمل الثقافي الإبداعي تفوق بكل متاعبها مسيرة أي أعمال أخرى، وهذا - في رأيي - يجب أن يكون موضع فخار بما قدمتم وأعطيتم، فلا تخجلوا من تسجيل مشاعرنا على صفحاتكم، فهي كلمة حق يجب أن تقال وتُسَجَّل بمداد الفخر والاعتزاز.

.. لقد أشرقت الإبداعات على صفحاتكم في مجالات المعرفة كافة؛ فقد واءمتم عبر السنوات العشرين بين الأصالة بتراثها العريق والمعاصرة بمختلف اتجاهاتها في نهج اتسم بالتوازن بين الجديد والقديم، وبالتنويع في الموضوعات ومجالات المعرفة والعلوم المختلفة، ولم يخلُ عدد من تسليط الأضواء على كتب التراث واللغة العربية وفنونها وآدابها. وعلى النهج نفسه سارت اختياراتكم للكتب المترجمة وما تحمله من موضوعات .. هذا بخلاف المتابعات القيمة للندوات الشهرية والمحاضرات ورسائل الدراسات العليا والأخبار العلمية والاستطلاعات المصورة بجرعاتها الثقافية المتميزة، ومتابعة معارك التنمية وإبراز خصائصها ومشكلاتها، والعديد من الدراسات النفسية والاجتماعية، والمشاركة الدائمة في المهرجانات الأدبية والثقافية، ومتابعة المناسبات العالمية، وإجراء الحوارات مع قمم وأعلام الفكر والأدب، والرصد الدقيق للجوانب التاريخية والحضارية للبلدان العربية والإسلامية، والتجوال في أنحاء المعمورة لتعرُّف تراث الشعوب وعاداتها، والعروج على متاحفها الأثرية، وذلك بالكلمة الراقية والصورة الموضحة المعبرة.

المهندس الزراعي/ عبدالمقصود السعيد عبدالمقصود
الإدارة الزراعية بالمنصورة محافظة الدقهلية، مصر

زاوية لظاظا..
واستطلاعات عن المدن

لو أنكم عرضتم في كل عدد استطلاعاً عن إحدى مدن العالم العربي والإسلامي، لكان هذا مما يزيد العلاقة بين أبناء الوطن ترابطاً. فمثلما تُرسِّخ موضوعاتكم الفكرية وحدة الفكر الإسلامي، فإن استطلاعات المدن ستحقق الوجه الآخر لهذا الغرض، إذ إنها ستعمق العلاقات بيننا، وتتيح التعرف إلى عادات الشعوب وتقاليدها.

كما اقترح تخصيص مساحة (صفحة أو زاوية) يقوم د. حسن ظاظا من خلالها بالإجابة عن أسئلة القراء واستفساراتهم. أعلم أنكم تفردون صفحات عديدة بعنوان: مناقشات وتعليقات، ولكن هذه الصفحات، تستقبل الموضوعات الطويلة عادة، والتي تشتمل على وجوه من المناقشة وإبداء الرأي وعرضه، أو توضيح نقاط غابت عن الكاتب، أو جاء حولها بمعلومات مغايرة. أما المساحة التي اقترح تخصيصها للدكتور حسن ظاظا، فللإجابة عن الأسئلة القصيرة المهمة، وتوضيح الوقائع التاريخية، وشرح بعض المصطلحات، والمسميات التي تأتي ضمن مقالاته، أو تقديم معلومات وفذلكات قصيرة ومختصرة عن الأسماء اليهودية التي أدت أدواراً مهمة في طوائفهم المثيرة للجدل. وأرى أن هذه المساحة يمكن تخصيصها كل ثلاثة أو أربعة أشهر، ليتمكن القراء من إرسال أسئلتهم.

فراس محمد قاسم حمودة
حريقة، ص. ب 25599 دمشق، سورية

التحرير:

نأمل من الأخوة القراء إرسال الأسئلة التي يريدون توجيهها إلى الدكتور ظاظا على عنوان المجلة، وهو على إستعداد للإجابة عنها.

التجارب الغنية
تنير سبل طالبي المعرفة

باب «من تجاربهم» هو شمعة متوهجة، وحصيلة أدبية وثقافية وعلمية قيمة، وقد كتبت هذه الخاطرة بعد قراءتي زاوية «من تجاربهم» التي كتبها الدكتور أحمد كنعان في العدد 236 حول تجربته حينما كان طالباً في كلية الطب بجامعة دمشق، إذ أكد لنا بـ«التجربة الشخصية» أن العلم عامة، وعلم الإنسان خاصة، هو سبيل واضحة لمعرفة وجود الله، ووحدانيته.

وذكّرتنا التجربة الحية للدكتور كنعان بالاسم الذي اشتُهرت به كلية الطب في السابق، إذ كانت تُسَمَّى «كلية المشايخ»، وذلك لاستقامة جلّ طلابها، لما علموه من الحق المبين.

لقد تجلت عظمة الفائدة في طرح مثل هذه الموضوعات، ومن وحي هذه التجربة أقترح تكثيف نشر موضوعات أخرى مماثلة، أو إحداث زاوية خاصة تربط بين العلم والإيمان، وتنير سبل طالبي المعرفة، وتؤكد لهم أن العلم طريق إلى الله، القائل: *وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون*. **الذاريات**: 20 - 21.

عماد غازي كنعان
ص.ب 5956، الرمز البريدي 31432 الدمام

...سائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١



تربية..

إطلالة



يتزايد الاهتمام هذه الأيام بطرح شؤون التربية والتعليم في عالمنا العربي والإسلامي، حتى لا تكاد تخلو وسيلة إعلامية من تناول بعض همومها. ويتخذ هذا الاهتمام شكلاً موسمياً يتصل ببدء العام الدراسي، أو ببروز قضية من القضايا التربوية التي تفرض نفسها على ساحة النقاش والتداول، في حين أن اهتمامنا بهذه القضايا ينبغي أن يتسم بالديمومة، على أساس تحقيق مبدأ التقويم المستمر، بما يتناسب مع اتصال التربية الوثيق بالحياة في جوانبها المختلفة، وكونها مسألة تعني كل قطاعات المجتمع، وتتصف بتشعب أوجهها، وتنوع مشكلاتها، وتعدد الأطراف المسؤولة عنها.

ولما كانت المجتمعات تحتاج إلى وقفات للتقويم، وإعادة ترتيب الأولويات، والموازنة بين المكتسبات والإخفاقات؛ فإن النظام التربوي يصبح من أكثر قطاعات المجتمع حاجة إلى هذا التقويم، لما بينه وبين المجتمع من صلة وثيقة، ولاسيما أن التربية من أكثر العلوم الاجتماعية تطوراً وتجدداً، وكذلك من أكثرها تأثراً بحركة المجتمع والتغيرات التي تعتمل في داخله، والتي تتسم في عصرنا هذا بالسرعة والعمق، كما أنها مسؤولة عن كثير من هذه التغيرات السريعة المتلاحقة، لأنها بقدر ما هي نتاج المجتمع وحصيلته، فإنها موجهته، ووسيلته لتشكيل الواقع، واستشراف آفاق المستقبل، والاستعداد له بما يضمن للمجتمع تفاعلاً إيجابياً مع المستجدات، وحركة فاعلة نحو التطور والمواكبة من دون حدوث هزات تنال من ثوابته ومنطلقاته الرئيسة.

وتتوقف فعالية التقويم على اتباع منهجية مرنة تستوعب داخلها المدخلات المهمة، وشبكة العلاقات القائمة بينها، وتؤدي إلى مخرجات عملية قابلة للتطبيق واستقصاء النتائج. ويحتاج هذا التقويم صدقاً مع النفس، وتحديد السلبيات بدقة، ورسم وسائل التغلب عليها، واتخاذ التدابير العملية اللازمة في هذه السبيل، من خلال ما هو متاح من الإمكانات من غير إغراق في التنظير، أو إفراط في الآمال.

ويكشف تقرير اللجنة التي شكلها وزير التربية في الحكومة الفيدرالية الأمريكية لدراسة النظام التعليمي قيمة الصدق والموضوعية المتجردة في علاج المشكلات في المجتمعات المتقدمة، التي لم يُغرها ما هي عليه من تقدم بالتقاعس، والرضا بالواقع الذي تعيشه، وإنما تدفع هذه المجتمعات بقوة نحو تحقيق مزيد من الإنجازات والمكتسبات على الأصعدة كافة لضمان استمرار تقدمها، والمحافظة على المكانة التي تبوأتها بفضل دأبها على الجد والعمل من خلال منظومة تربوية تعلي من شأن التعليم، وتؤكد قيمته في حياة الأفراد والأمم. فقد جاء في هذا التقرير: «إنه لو قامت قوة معادية بفرض أداء تعليمي قليل الجودة على الشعب الأمريكي لاعتُبر ذلك مدعاة للحرب، ولكن ذلك يحدث الآن من خلالنا نحن الذين سمحنا به. لقد بددنا هدراً المكاسب التي حصلنا عليها من رفع مستوى التحصيل العلمي لطلابنا بعد التحدي الذي واجهناه بإطلاق القمر الصناعي سبوتنيك. إن هذا التدني في قبول تلك المستويات من التعليم عمل بلا تفكير، وعملية نزع لسلاح التعليم».

ويتساءل المرء، وهو يقرأ مثل هذا التقرير: كيف يكون النظام التعليمي الأمريكي على هذا النحو من السلبية، ويتأتى للولايات المتحدة الأمريكية أن تتصدر الدول في مضمار التقدم المادي؟ الواقع أن التقرير بتركيزه على سلبيات النظام التعليمي رمى إلى وضعها في بؤرة الاهتمام، حتى تتركز الجهود لإيجاد الحلول المناسبة التي تضمن الفعالية للنظام التعليمي، وللولايات المتحدة استمرار تقدمها، انطلاقاً من أن مستقبل الأمة يُصنَعُ في فصولها الدراسية، وهذا المعنى هو ما أشار إليه الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، حين قال: إن من يتساءل كيف سيكون القرن الحادي والعشرون، عليه أن يجد الجواب عن سؤاله في الفصول الدراسية الأمريكية.

وهذا القدر من الثقة الذي يبدو في حديث بوش، يُستشفّ منه أن هناك جهوداً ستبذل، لتلافي كل ما أشار إليه ذلك التقرير من جوانب سلبية. وما يزال الجدل مستمراً حول ضرورة إعادة النظر في النظام التعليمي الأمريكي، حتى يكون على مستوى طموحات الشعب الأمريكي في المحافظة على ما تحقق من مستويات مرتفعة في مجالات الحياة كافة، وبما يضمن اطّراد التقدم مستقبلاً. وقد انتقد المرشح الجمهوري للرئاسة روبرت دول هذا النظام انتقاداً شديداً، في المناظرة التلفازية التي جرت بينه وبين الرئيس الأمريكي كلينتون، مشيراً إلى أن النظام التعليمي الأمريكي كان أكثر فعالية في حقبة الستينيات عما هو عليه الآن؛ مما يدعو إلى ضرورة إعادة النظر فيه.

وتأتي الدعوة إلى التقويم الدوري للنظام التربوي وضرورة إرساء أسس ومرتكزات قوية له، من واقع أن التربية مقصدها إكساب الفرد عناصر ثقافة المجتمع، والمكونات التي تشكل في النهاية قوام شخصية الأمة؛ كما أنها وسيلة لتفتيق طاقات الإنسان، وتحريره من الجمود والقيود، ودفعه إلى المبادرة والإبداع. كل ذلك يجعل من التربية عملية طويلة وممتدة وشديدة التعقيد، بحيث لا يمكن فصل عناصرها وإخضاعها للاختبار المعملي كما هو الحال في العلوم التجريبية. فما تودعه أوعية المنظومة التربوية من قيم وموجهات وأفكار تسري في ثنايا المجتمع من خلال عملية تفاعلية مركبة، تشارك فيها المؤسسات المختلفة التي يقيمها المجتمع لتحقيق غايات التربية، ونتائج هذه العملية لا تتكشف أو لا تظهر بصورة ملموسة تُمكّن من القياس إلا بعد وقت طويل نسبياً، قد يستغرق عمر جيل كامل من أفراد المجتمع. لذلك، فإن التيقن من فعالية المنظومة التربوية يقتضي المراجعة المستمرة، أما إرجاء هذه المراجعة والتقويم مدة زمنية طويلة، فإنه يعد ضرباً من المغامرة غير المحسوبة وغير المحمودة العواقب، فقد يخسر المجتمع جيلاً بأكمله فضلاً عن الموارد والطاقات التي قد تُهدر حين تأتي النتائج مخيبة للآمال، وتكون الممارسات التطبيقية على عكس السياسات والأهداف المأمولة.

ولما كان تقويم العملية التربوية على هذه الدرجة من الأهمية، فإن التأسيس له ينبغي أن يتم برؤية متكاملة ومتعمقة، بعيداً من أساليب التناول الانطباعي الذي لا يكفل طرحاً مؤصلاً، ولا يستطيع إدراك جزئيات الظاهرة محل الطرح، ذلك أن كل جزئية - مهما صغرت - في أية ظاهرة موضع بحث تؤثر تأثيراً محسوساً في مفردات الظاهرة، وحركتها واتجاهاتها، وأما البحوث الجزئية، على أهميتها، فنتائجها لا ترقى إلى مستوى التعميم. فالمجال المحدود لهذا النوع من البحوث، والأدوات البحثية التي تُعدّ بما يناسب محدودية المجال، يجعل من الصعب أن تتجاوز النتائج نطاق البحث، وأي محاولة لذلك، من شأنها أن تُحدث إرباكاً في المساعي المبذولة لرصد الظاهرة، ومن ثم، فإن التأسيس لتقويم يُعتد به، يقتضي إعداد آلية بحثية على درجة عالية من التخصص والإلمام بالقضية، كما يتطلب أن يتسم البحث بالشمول، حتى يمكن تعميم نتائجه بثقة.

إن الحديث باهتمام عن أهمية البحوث والدراسات التربوية التي تمثل مفاتيح للتقويم المؤسس يأتي من منطلق أن من يبتغي حلولاً عملية، عليه أن يتخذ أسلوباً علمياً منضبطاً، ويتزود بالأدوات التي تقوده إلى تلك الغايات. فمن المهم جداً إجراء حصر شامل لكل المشكلات، وتشخيصها بأساليب علمية دقيقة، وصولاً إلى وضع حلول واقعية لها، حتى لا تتراكم هذه المشكلات فتتحول إلى معوقات تمنع الوصول إلى الأهداف المأمولة.

وقضية بحجم تقويم العملية التربوية، وأهميتها المركزية تلح - بلا شك - على وجوب تضافر جميع الطاقات العلمية العربية، وهي - بلا ريب - قادرة على التوصل إلى تقويم علمي موضوعي لحال التربية في عالمنا العربي وتشخيص واقعها. ولا غرو، فالمجتمعات العربية تتوافر على مؤسسات بحثية متعددة، ما بين جامعات ومعاهد ومراكز ومؤسسات علمية متخصصة، ذلك من جانب، ومن جانب آخر، فإن الساحة العلمية، فيما يختص بالتربية، غنية بالبحوث النوعية المختلفة التي أُجريت على مستويات مختلفة، كتلك التي تقوم بها إدارات التربية المحلية، والمؤسسات الإعلامية، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، مثل رعاية الأطفال المعاقين ومراكز تأهيل الأحداث ومؤسسات رعاية كبار السن، وغير ذلك من البحوث التي قد تحمل مؤشرات مهمة يمكن الاسترشاد بها في حالة التصدي لقضية التربية بمنظور أشمل وبمعايير مناسبة للتقويم، تؤدي إلى نتائج واقعية.

والمقصود من هذا التقويم أن يكون أساساً لتخطيط علمي فعال يُعنى بتطوير النظام التربوي ليأتي ملبياً لحاجات المجتمع، وذلك بالاستغلال الأمثل للإمكانات والموارد المتاحة، وبأن تكون الأهداف التربوية متناسبة مع هذه الإمكانات، وقابلة للترجمة إلى برامج إجرائية تُنفَّذ على أرض الواقع.

وأهم الغايات التي ينبغي أن يحققها النظام التربوي - بما يشتمل عليه من مناهج وطرائق تدريس وأساليب تقويم - إيجاد إنسان

لا اغتيالَ العقل

متكامل الشخصية، متشرب ثقافة الأمة، منفتح على الثقافات الأخرى. ولا تتحقق هذه الغاية بالتلقين وحشو الذهن بالمعلومات، فهذا الأسلوب لا يُوجِدُ إلا نُسَخًا مكرورة، غير قادرة على التفكير المستقل، مكبلة بقيود التبعية، وإنما يكون ذلك بتعويده ممارسة الفكر الناقد والحوار الموضوعي وشحذ الذهن، الأمر الذي يؤدي إلى تنمية القدرات المعرفية والإدراكية، وصقل مهارات الملاحظة والقياس والتحليل والاستنتاج، ليتفاعل ذلك كله في بناء شخصية فاعلة متوازنة، مفعمة بروح المسؤولية، واثقة من قدراتها، معتمدة على ذاتها، مؤهلة للتعلم، ومواجهة المواقف المختلفة. ومما لا شك فيه أن بيئة المدرسة إذا ما توافرت لها عناصر التفاعل الاجتماعي المواتية قادرة على أن تبذر في شخصية الطفل البذور الأولى لمكونات الإحساس بالانتماء إلى المجتمع، والتفاعل مع قضاياه، إضافة إلى إبراز المواهب الذاتية والملكات الشخصية. يقول ابن سينا في كتابه «السياسة»: «إن الصبي يحادث الصبيان، والمحادثة تفيد انشراح العقل، وتحل منعقد الفهم، لأن كل واحد من أولئك، إنما يتحدث بأعذب ما رأى وأغرب ما سمع، فتكون غرابة الحديث سببًا للتعجب منه، والتعجب منه سببًا لحفظه وداعيا إلى التحدث به، ثم إنهم يترافقون ويتعارضون الحقوق، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة، وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم، وتحريك لهممهم، وتمرين لعاداتهم».

وهكذا، فإن الطالب في بيئة المدرسة يتعرض لمواقف اجتماعية تعينه على معرفة قيم المجتمع وعاداته وتقاليده وطبائع أفراده، ويتنامى إحساسه بذاته من خلال الأنشطة المختلفة التي يمارسها، إضافة إلى ما تقوم به الأسرة من دور لتعميق هذا الإحساس بالذاتية، وتكوين السلوك الاجتماعي الذي يؤهله للتفاعل مع محيطه، وينمي فيه مشاعر الانتماء إلى هذا المحيط. وبذلك، فإنه لا يمكن أن تتحقق الفعالية لأي نظام تربوي إذا انقطعت الصلة بين المدرسة والبيت. ونذكر في هذا المقام أن المرأة اليابانية حين يغيب ابنها عن الدرس لسبب من الأسباب القاهرة، تذهب إلى المدرسة بدلاً منه، فتجلس في قاعات الدرس، تتابع باهتمام كأي تلميذ مجتهد، حرصًا منها على ألا يفوت ابنها شيء من العلوم. وهذا المثال يؤكد أن نهوض أي أمة لا يأتي من فراغ، وإنما يكون ذلك بتغلغل اتجاهات إيجابية نحو العلم والعمل في تربيتها، حتى تغدو جزءًا أصيلاً من تكوين الشخصية، التي ستتأصل فيها - بلا شك - قيم النظام والدقة والإتقان وحب المعرفة والاستطلاع.

وإذا كنا نتطلع إلى أن تقوم المؤسسات التعليمية بدورها المنوط بها، فإنه لا ينبغي الاكتفاء بتوجيه الانتقادات إليها، من غير أن يكون هناك توصيف دقيق للمشكلات، واقتراحات عملية وواقعية لحل هذه المشكلات، لإن إطلاق الانتقادات والأحكام على عواهنه لا يؤدي إلا إلى تسرية اليأس والإحباط في نفوس القائمين على أمر تلك المؤسسات من معلمين ومربين، يوضعون دائمًا في موضع المساءلة، من دون النظر إلى الأعباء التي تقع عليهم، والمعوقات التي تعرقل جهودهم للقيام بمسؤولياتهم، إذ إن هناك شبكة مترابطة وحلقة متصلة للنظام التربوي، يجب أن تؤخذ في الحسبان، لمعرفة طريقة توزيع الأدوار والمسؤوليات والأساليب التي يصل بها النقد إلى الجهة المقصودة، حتى يكون فعالاً في عملية التقويم. ويقتضي الحال أن ندرك أن المعلم لم يعد ملقنًا، يقوم بحشو أذهان طلابه بالمعلومات، ويدفعهم إلى استظهارها وترديدها بلا فهم لأبعادها، وإنما أصبح دوره منصبًا على تمليك طلابه المفاتيح الضرورية للتعلم، وتهيئة الأجواء المناسبة لهم للمضيّ في طريق العلم، بما يجعل الطالب أكثر إيجابية عن ذي قبل، وهذا ما يدفع إلى التساؤل عن موقف الطالب واتجاهاته نحو التعليم، وهل هو مهيأ لقبول هذا الدور الإيجابي الذي عليه أن يقوم به، وذلك حتى نقف على مدى توافر الرغبة لديه للتعلم، لأن التعليم عملية نفسية لا يمكن أن تتم من غير وجود هذه الرغبة وبروز الحافز الداخلي لارتياد آفاق العلم خلال سنوات طويلة من العمر.

فالعملية التعليمية قد تستغرق أكثر من ربع قرن، تُحسب على النحو التالي:

يدخل الطالب المدرسة الابتدائية وعمره ست سنوات، ويمضي بها ست سنوات، ثم يقضي ست سنوات في المرحلتين المتوسطة والثانوية، ثم أربع سنوات في التعليم الجامعي، ثم تأتي المرحلة ما بعد الجامعية، فيقضي ثلاث سنوات تقريبًا في الماجستير، ثم نحو خمس سنوات في الدكتوراه.

وهذه السنوات الطويلة التي يقضيها الطالب في طلب العلم لا بد أن تُستثمر جيدًا، بأن يُبنى عقله بناءً متكاملاً، من خلال تنويع العلوم والمعارف الذي يكسبه شمول النظر إلى ما في هذه الحياة من سنن كونية تتصف بالدقة والتوازن، ويمنحه صورًا ذهنية عما في هذا الوجود، لأنه حتى في حال وصوله إلى مرحلة التخصص الدقيق من غير أن تكون هذه الصور حاضرة في ذهنه لن يكون إنسانًا مبدعًا في مجاله، فهذه الصور هي التي تمده بالشمولية التي تفرضها طبيعة الحياة، كما تمده بالحيوية والمرونة والاستعداد للتفاعل الإيجابي مع معطيات الحياة. وعندما يوجد الإنسان صاحب الرؤية الشاملة والمتكاملة للكون والحياة، تكون غايات التعليم قد تحققت، لأن التعليم الفعال هو الذي يستفز العقل ليعمل بكل طاقاته.

أما عندما تتحول الغاية إلى وسيلة، ويصبح الحصول على الشهادة هدفًا يسعى إليه الطالب، ويكون اجتياز الامتحان بأي طريقة الهاجس الذي يؤرقه، فإن ذلك يمثل انحرافًا عن غايات التعليم، بل تهديدًا للقيم التي ينبغي أن تغرسها التربية، والتي هي مسوغات وجودها، لأن مثل هذا الإنسان الذي لا همّ له إلا النجاح مهما كانت الوسائل التي يسلكها لتحقيقه، لن يتورع عن الضرب بقيم المجتمع عرض الحائط للوصول إلى مبتغاه، وتكون التربية بذلك قد أدت إلى غايات تتناقض مع غاياتها الأصيلة؛ وهذا ما يقتضي أن يتركز التقويم على نوعية التعليم لا على كَمّه، حتى لا يُصاب المجتمع بما يُعرف بأمراض الشهادات DIPLOMA DISEASES، وهذا موضوع نال اهتمامًا كبيرًا في الغرب وحظي بدراسات واسعة، لذلك فمن الواجب الانتباه إلى الأغراض الحقيقية للتعليم.

وقد أدرك السلف قيمة العلم وضرورة إعمال العقل، متبعين في ذلك النهج الرباني الداعي إلى البحث والنظر في الوجود، والاهتداء بنور العلم والمعرفة للوقوف على أسرار الكون، حتى تكتمل للإنسان إنسانيته، فيقول سبحانه وتعالى: *وما يعقلها إلا العالمون*. العنكبوت: 43، وحث الإسلام على حفظ العقل وصيانته وأوجب تنميته بالتفكير الصحيح وبالعلم النافع، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى»، ولا سبيل إلى تنشئة العقول وتربيتها على قوة المدارك، وحسن النظر في الأمور إلا بالعلم، وعلى هذا النهج المعلي لشأن العقل والداعي إلى طلب العلم قامت الحضارة الإسلامية محررة الإنسان المسلم من أغلال الجهل وهيمنة التبعية، لينطلق بعقله وفكره يبدع في كل مجال، فانفتحت له ميادين العلوم والفنون، حتى سادت الأمة الإسلامية بعطائها الحضاري المتميز الذي انبنت عليه حضارات أمم أخرى استمدت منها علومها ومعارفها.

ومن جهة أخرى، فإن الاهتمام الكبير الذي توليه وسائل الإعلام المختلفة لقضايا التربية والتعليم تطرح تساؤلات حول العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الإعلام والتربية، وقد ظهرت آراء متعددة في الغرب لتقنين هذه العلاقة، ورسم حدودها وملامحها، إذ ذهب بعض التربويين إلى أن دور المدرسة في العملية التعليمية وصل إلى نهايته، بعد تنامي دور وسائل الإعلام في تشكيل الاتجاهات وتوجيه القيم وبث الأفكار، بل الإسهام الفاعل في العملية التعليمية من خلال إعداد برامج متخصصة تتوجه إلى الطلاب في المراحل المختلفة، أو من طريق البرامج العامة التي تشتمل على مضامين تربوية، إضافة إلى البرامج الموجهة لتعليم الكبار، أو المعدة بهدف تحقيق غايات التعليم المستمر في المجتمع الذي يُعنى بمتابعة المستجدات في المجالات المختلفة، والتعريف بها؛ الأمر الذي يتيح لأفراد المجتمع فرص المواكبة لكل جديد يطرأ، مما يزيد معلوماتهم، ويصقل مهاراتهم، ويطور خبراتهم، فيملكون بذلك قدرات التعامل مع المواقف المختلفة بثقة وثبات.

وتتجه آراء أخرى إلى ضرورة تجديد الإطار القديم للمدرسة، ورفد بنيتها وأساليبها بالتقنيات الإعلامية الحديثة مما يُنشِّط دورها ويجعلها قادرة على استيعاب الجديد، وأداء رسالتها في تهيئة الأجيال للمستقبل.

ومما لا شك فيه أنه لا يمكن إنكار الرسالة التربوية التي تؤديها المدرسة، بحيث لا تكون التأثيرات المتزايدة لوسائل الإعلام مدعاة لإلغائها والاستغناء عنها، وإنما تكون صيغة التكامل بين دوريهما أساسًا لتحقيق الغايات التربوية المتوخاة وفق منظور شامل يحدد مسؤوليات مؤسسات المجتمع المعنية بالتربية بدقة، ويكون تعدد وسائلها وأساليبها إغناء للنظام التربوي في المجتمع، مادامت الموجهات الثقافية والفكرية والعلمية التي تؤطر سياستها، وتحدد مقاصدها قد توحدت.

إن التربية مسؤولية كبرى، فهي وسيلة الأمة للحفاظ على وجودها وكيانها، وتحقيق التواصل بين أجيالها، بنقل تراثها وثقافتها من جيل إلى جيل بمرونة لا تؤثر في قيمها وثوابتها، وتضمن لموروثها الثقافي الحيوية ودوام التجدد. وهذه المسؤولية بجسامتها وعظمها لا يمكن أن تضطلع بها المؤسسات التعليمية وحدها - وإن كانت تتحمل جزءًا كبيرًا منها -، وإنما ينبغي أن تشارك في حملها المؤسسات التربوية الأخرى، ليكون تنوع الأدوار ترسيخًا للبنية التربوية التي تتأسس عليها صياغة المستقبل، وتحقيق النهوض الحضاري للأمة.

د. زيد بن عبد المحسن الحسين



الحساسية من الطعام: الأسباب والعلاج

هناك نوعان من الحساسية من الطعام: حساسية فورية، وأخرى متأخرة. وتبين الإحصاءات أن 10٪ من الناس يُصابون بالحساسية من الطعام، وتُصنَّف الحساسية بحسب أعراضها، ومن أهمها: الشرى، والرشح الموسمي أو حمى القش، والربو، والأكزيما أو حساسية الجلد، والاضطراب المعدي.
ولكن: ما الأسباب التي تؤدي إلى هذه الحساسية؟ وهل من الممكن تشخيص الحساسية مختبريًا؟ وهل هناك طرق أكثر فعالية في تشخيص الحساسية؟ وما الأطعمة المسببة للحساسية؟ هذه الأسئلة وغيرها تجيب عنها د. منير الباتي.

طالع ص 14



السندباد وكسر نمطية الحياة

احتل السندباد - برحلاته السبع إلى أبعد الجزر والمدن المفعمة بعبق السحر والأسطورة والعلاقات الإنسانية الغرائبية التي تفوق حد التخيل - جزءًا كبيرًا من ذاكرة الإنسان العربي. وقد كانت ألف ليلة وليلة - التي ضمت قصصه وقصصًا أخرى مماثلة - حقلاً مرجعيًا شُكِّلت منه عشرات القصائد سواء أكانت عربية أم عالمية. وتأخذ شخصية السندباد في الخطاب الشعري المعاصر مكانة متميزة؛ فابتدع الشعراء منها تشكيلاً جديدًا، وعدُّوها تجسيدًا لرحلة الإنسان لارتياد آفاق مجهولة.
محمد عبدالرحمن يونس عرض نماذج شعرية استفادت من طاقات الرمز السندبادي الإيحائية والجمالية.

طالع ص 67

ابن فرناس لم يكن مخطئًا!!



دفع عباس بن فرناس حياته ثمنًا لمغامرته المتمثلة في محاولة تقليد الطيور باختراع وسيلة مستوحاة من حركتها وأساليب طيرانها. وكانت هذه المغامرة فتحًا في مجال الطيران الذي بلغ فيه الإنسان مدًى بعيدًا حتى ضاق الفضاء بطائراته ذات الأشكال والمواصفات المتعددة.
وما يزال الطيران بتقنيات الطيور - لا الطائرات الجامدة - هدفًا يسعى إلى تحقيقه مهندسو الطيران، وقد قطعوا بالفعل أشواطًا جديدة في هذا الصدد، وذلك بعد التطورات المثيرة التي أضافوها إلى الجيل الجديد من الحافلة الجوية AIR BUS.
عدنان عضيمة ألقى أضواءً على هذه التقنيات وبيّن ما حفلت به من تطورات.

طالع ص 83

من كتاب العدد



عبدالله بن إدريس

- من مواليد بلدة حرمة في نجد، عام 1349هـ.
- ليسانس في الشريعة واللغة العربية.
- عمل مفتشًا فنيًا، ثم مديرًا للتفتيش والامتحانات، فمديرًا للتعليم الفني بوزارة المعارف.
- عمل رئيسًا لتحرير مجلة «الدعوة» ومديرًا عامًا لمؤسستها قرابة عقد من الزمن اعتبارًا من غرة المحرم 1385هـ.
- شغل منصب الأمين العام للمجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، كما كان رئيسًا للنادي الأدبي بالرياض.
- عمل مديرًا للدراسات العليا والبعثات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كما عمل مديرًا عامًا للثقافة والنشر العلمي بالجامعة، وعضوًا بالمجلس العلمي بها.
- من مؤلفاته المطبوعة: «شعراء نجد المعاصرون»، كما أن له عددًا من الدواوين الشعرية، منها ديوان «في زورقي».



الطيب شبشة

- الطيب محمد عبدالرازق بشيري، وشهرته الطيب شبشة.
- كاتب وصحفي سوداني، بدأ اشتغاله بالصحافة عام 1956م، فعمل محررًا بكل من جريدة العلم، وصوت السودان، والأمة، والنيل، والصراحة، والثورة، والصحافة، وأخيرًا الأيام، التي وصل فيها إلى وظيفة رئيس تحرير بالإنابة.
- التحق بالعمل في جريدة الجزيرة السعودية منذ يناير 1979م، وما يزال يعمل بها إلى اليوم.
- له كتاب منشور بعنوان «علاقة الحاكم والمحكوم في المملكة العربية السعودية»، وله ديوان شعر مخطوط بعنوان «أوجاع ليست خرساء»، وقد نُشرت بعض قصائده في الصحف السودانية وفي صحيفتي الجزيرة والمسائية السعوديتين.



د. غنيم غانم الينبعاوي

- من مواليد ينبع النخل، السعودية 1368هـ/1948م.
- حاصل على درجة الدكتوراه في علم اللغة من جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- يعمل أستاذًا مساعدًا بقسم اللغة والنحو والصرف بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- ناقش بعض الرسائل العلمية داخل الجامعة.
- من مؤلفاته: «جهود ابن جني في الصرف وتقويمها في ضوء علم اللغة الحديث» تحت الطبع، «الدراسات اللغوية عند ابن مالك بين فقه اللغة وعلم اللغة» تحت الطبع.
- يقوم حاليًا بتحقيق علمي لكتاب: «التعريف بضروري قواعد علم التصريف» للزبيدي صاحب تاج العروس المتوفى سنة 1205هـ.

د. منيرة كامل البياتي

- من مواليد بغداد 1942م، بريطانية الجنسية.
- إخصائية طب الأطفال والبحوث السريرية في مستشفى «إيلينك» بلندن.
- شاركت في عدد من المؤتمرات والندوات، منها: الندوة العالمية التاسعة والعاشرة والحادية عشرة لأمراض الشقيقة بلندن في أعوام 1992م، 1994م، 1996م، وندوة الجمعية الأوربية لأمراض الحساسية عند الأطفال والمناعة السريرية، وندوة الجمعية الطبية الملكية بلندن في عام 1993م، والمؤتمر السنوي الخامس والستون لجمعية طب الأطفال البريطانية في 1993م.
- لها بحوث متخصصة منشورة في عدد من الدوريات العربية والأجنبية.



رفاهية ممزوجة بدم الأطفال المقهورين وعرقهم

لم يكد ذوو الضمائر الحية في العالم ليفيقون من الصدمة التي سببها لهم الكشف عن الأعداد الكبيرة من الأطفال الذين يتعرضون للاعتداء الجنسي والاغتصاب، في أوربا والغرب بعامة، حتى برزت إلى السطح قضية أخرى لها صلة وثيقة بإزهاق براءة الأطفال، ليست أقل إثارة للصدمة والاستياء من الأولى. إنها قضية تسخير الأطفال، واستغلالهم للقيام - مكرهين - بأعمال شاقة، لا تتناسب مع طبيعة سنهم، ولا مع أعوادهم الطريّة وعقولهم الغضّة التي تحتاج إلى رعاية.

على أن استغلال الأطفال في العمل أصبح مشكلة روتينية، لكثرة ما تثار في الصحف، وما تصدره المنظمات الدولية والإقليمية ذات



الصلة من بيانات وإحصاءات، إلا أن ما طغى على ساحة الرأي العام في الولايات المتحدة الأمريكية - مؤخرًا - لم يكن من قبيل الإثارة الروتينية، وخاصة بعد أن اتضح أن الضالعين في تسخير الأطفال، واستغلالهم، هم من الأسماء اللامعة في المجتمع الأمريكي، لذلك طغت هذه القضية على ما سواها من القضايا الإنسانية التي تطرحها الجمعيات الخيرية، والمنظمات التي ترعى حقوق الإنسان.

وكانت مجلة تايم الأمريكية قد ذكرت في يونيو الماضي، أن الشرارة الأولى لهذه القضية انطلقت من خلال برنامج تلفازي صباحي عندما أعلنت السيدة كاثي لي جيفورد - التي تملك شركة لإنتاج الملبوسات - أن شركتها - وول فارت للأزياء - تعمل فيها فتيات من هندوراس، تتقاضى الواحدة منهن أجرًا لا يتجاوز 31 سنتًا في الساعة. كان ذلك اعترافًا من السيدة كاثي باستغلالها الصغيرات أبشع استغلال، ولم تكن تدري أنها قدمت هدية عظيمة للناشطين المدافعين عن حقوق الطفل، لإثارة القضية على نطاق أوسع، والخروج بها من دائرة التناول الصحفي اليومي المعتاد. ويؤكد ذلك تشارلز كيرناغان، المدير التنفيذي للجنة العمل القومية في مدينة نيويورك، وهي منظمة صغيرة تُعنى بحقوق الإنسان، إذ يقول: إن اعتراف كاثي وفر البداية لإثارة القضية بطريقة لم تتحها لنا فرصة مماثلة من قبل. وكان كيرناغان قد استشهد باعترافات كاثي خلال جلسة استماع حول القضية.

لقد أدار المعنيون بقضية الأطفال المقهورين، حملتهم بطريقة ناجحة، لاستصراخ الضمائر الحية، وأثارت الحملة في الأذهان تساؤلات ذات مغزى: ما مدى رغبة الأمريكيين في التضحية بأطفال من البلدان الأخرى من أجل توفير ما يريده أطفال أمريكا؟ هل بالإمكان وقف الصفقات التي تُعقد، ويجني أصحابها الأرباح الفاحشة من ورائها، ويكون استغلال الطفل هو السبب في إدرار تلك الأرباح، وخاصة في مجال الصناعة، وهو ما يؤكده الخبراء في مجال التجارة؟

إن التطبيق الصارم لقوانين حماية الطفل وحظر تسخير الأطفال، وكذلك التطبيق الحازم لمتطلبات الأمن والسلامة في المصانع، من شأنهما أن يؤديا إلى انهيار كثير من الصناعات القائمة على مثل هذه المخالفات في بلدان كثيرة. ويا للعجب، إن تطبيق هذه القوانين سيكلف الدول النامية والمتقدمة معًا، الكثير من الأموال، حسبما يرى أولئك الخبراء.

إلى متى يتمتع هؤلاء بالرفاهية الممزوجة بدم الأطفال الأبرياء وعرقهم؟! ففي أنحاء العالم يعيش نحو مئتي مليون طفل، يعملون مدة عمل كاملة، ولا تتاح لهم الفرصة للعب أو الذهاب إلى المدرسة، والملايين من الأطفال يباعون بيع الرقيق، ويتم تجويعهم، وضربهم ضربًا مبرحًا، إذا صرخوا، وتتم إعاقتهم، بكسر عظامهم، أو طمس عيونهم، إذا ثاروا أو حاولوا العودة إلى أوطانهم، حيث يوجد آباؤهم وأمهاتهم. والأطفال هم التروس الحقيقية لبعض الصناعات الخطرة، إذ يستغلونهم في شحذ شفرات المقصات الضخمة، ومزج مسحوق البارود لصناعة المفرقعات النارية، كما يقومون بخياطة الكرات مستخدمين إبرًا يتجاوز طولها طول ذراع الطفل نفسه. وفي بعض الدول لا تتم صناعة السجاد اليدوي الفاخر م ندون أن يشترك في العمل أطفال، يُستَغَلُّون أبشع استغلال، ولا يكفي ما يتقاضونه لإشباع بطونهم الصغيرة!

مستقبل أوربا في ظل تباين قوانين المخدرات



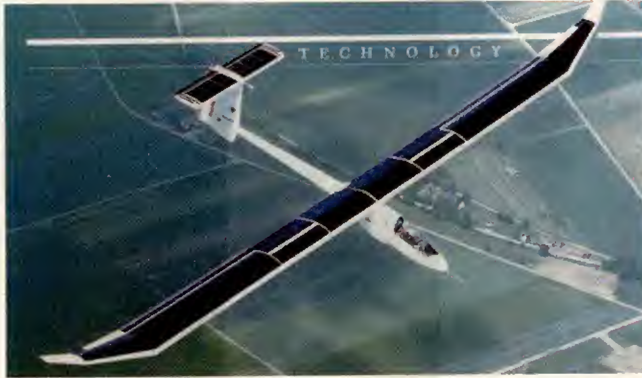
على الرغم من الاتفاق العالمي حول شرور المخدرات وخطرها الاجتماعي والصحي؛ إلا أن اختلاف منظور بعض الدول حول مكافحة إدمان المخدرات يضع عراقيل حقيقية أمام الجهود الدولية الرامية إلى تطويق الخطر الزاحف إلى المجتمع البشري، ويفتح أبوابًا تستعصي على الإغلاق، ينفذ منها المهربون، الذين يخرجون بطرق مشروعة من دول تتساهل في المكافحة.

من نماذج هذا التباين الخلاف القائم بين فرنسا وهولندا بشأن المخدرات، وهو الخلاف الذي يتوقع المراقبون أن تلقي انعكاساته ظلالاً على الوحدة الأوربية القادمة، واتفاقات الحدود المفتوحة بين الدول الأوربية.

مع نهاية السبعينيات الميلادية ابتكر الهولنديون نموذجًا خاصًا بهم لمكافحة إدمان المخدرات، ويقوم هذا النموذج على فكرة أن استخدام المخدرات جزء من السلوك الإنساني، لذلك يتعذر استئصالها. أما فرنسا فتُعدّ من البلدان القليلة التي لا تميز بين الأنواع المختلفة من المخدرات، وتعاقب على تعاطيها في جميع الأحوال. وفي مذكرة رسمية أُعدت حديثًا من قبل الحكومة الفرنسية يشير أحد المختصين إلى أن هناك انقسامًا نفسيًا (سيكولوجيًا) حقيقيًا بين فرنسا وهولندا بشأن هذا الأمر، وقال: إن الهولنديين لا يعدون المخدرات شرًا مطلقًا يمكن استئصاله من جذوره، بل يعدونها حقيقة اجتماعية. ويقول لورنس فوليا في تقرير صحافي: إن هذا الاختلاف بين المنظورين هو أساس النزاع في المهمة العسيرة بين البلدين - فرنسا وهولندا - في مكافحة المخدرات.

ويشير التقرير - كذلك - إلى أن الهولنديين يعترفون بأن تجارة المخدرات الدولية تزداد في بلدهم، ويرون أن الموقع الجغرافي لبلدهم يجعلها نقطة انتقال للمخدرات. ويشعر الهولنديون بالقلق من اتساع الإنتاج المحلي لأقراص الأمفيتامين وأقراص النشوة الغامرة التي تُعدّ للتصدير؛ إلا أنهم - في الوقت نفسه - يزعمون بأنهم معزولون عن التأثر بها نتيجة ما يصفونه بـ «القوانين القمعية» لمكافحة المخدرات التي تتبناها الدول المجاورة..

«إيكاري» وعصر الطيران النظيف



هل يستشرف العالم عصرًا جديدًا في مجال الطيران؟ التجربة الناجحة التي أجريت في ألمانيا لطائرة تسير بالطاقة الشمسية SOLAR - ENERGY، طرحت هذا التساؤل، وجاءت الإجابة من زاوية شديدة الأهمية: الطيران النظيف من أجل حماية البيئة. أما التجربة المثيرة، التي يؤمل أن تكون فتحًا جديدًا في عالم الطيران، وتوظيف الطاقة الشمسية زهيدة التكلفة، فقد جرت - مؤخرًا - في مطار لوفنج خارج مدينة شتوتجارت، حيث حبس ثلاثون ألف متفرج أنفاسهم وهم يشاهدون ويتابعون تلك الطائرة الأنيقة ذات الأجنحة السوداء والهيكل الأبيض، تدرج على أرض المطار، ثم ترتفع في الفضاء، وتحلق في الجو.. ولما أخذت الطائرة إيكاري ICARE وضعها الطبيعي في السماء، جاء الهتاف مدويًا والتصفيق عاليًا، ترحيبًا بنجاح تجربة الطيران باستخدام وقود الطاقة الشمسية. وعلى ارتفاع 400 متر قام الطيار ورنر سولتز - خلال خمس عشرة دقيقة - بثمانية انعطافات قبل أن يهبط بطائرته «إيكاري» على أرض المطار.

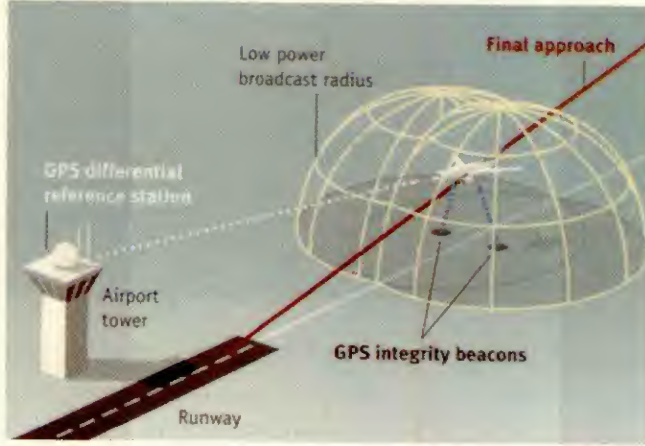
طائرة «إيكاري» التي حققت هذا الرقم القياسي في الطيران بوقود نظيف، فيها من المميزات ما يجعلها مرغوبة ومقبولة عالميًا، فهي تلبي متطلبات الطيران الآمن من بداية تحركها على أرض المطار، وإقلاعها واستوائها في الجو، إلى حين هبوطها على المدرج. وتتمثل هذه المتطلبات في قوة الهيكل وثباته، والقدرات التي تحول دون تحطم الطائرة، وهذان المعياران يستحضران معهما محاذير الأوزان، مما يجعل الطيران باستخدام الطاقة الشمسية تحديًا هندسيًا كبيرًا، وأملاً طالما حلم به الإنسان.

التقنية التي تعمل الطائرة إيكاري وفقها، بسيطة. فالطاقة الشمسية التي يحوزها سطح الطائرة، تقوم بتشغيل محرك كهربائي يولد طاقة لتحريك المروحة الوحيدة للطائرة، وباستطاعة هذا المحرك أن يولد طاقة 12 كيلو واط، وهو - في الوقت نفسه - يزن 11 كلجم، أي ما يعادل خُمس وزن محرك عادي يعمل بالقدرة نفسها.

ثمة قصة وراء تصميم الطائرة إيكاري التي حازت النجاح، فقد أعلنت مدينة أولم ULM - شرق شتوتجارت - عن منح جائزة مقدارها أربعة وستون ألف دولار أمريكي، لأفضل رحلة طيران تقوم بها طائرة تسير بالطاقة الشمسية، وفور وصول الإعلان أبدت ست وأربعون جامعة وشركة خاصة ومركز بحث رغبتها في تصنيع هذا النوع من الطائرات، والمشاركة في المنافسة، ولكن سرعان ما انخفض عدد الجهات المهتمة بتصنيع الطائرة المطلوبة إلى سبع عشرة جهة فقط، وفي الموعد المحدد للاختيار، يوم العرض، لم تدخل حظيرة الطائرات في مطار لوفنج، غير أربع طائرات، الطائرة إيكاري وثلاث أخريات، ولم تحلق في السماء سوى إيكاري.

هبوط أكثر أمانًا للطائرات

أصبح ممكنًا للطائرات أن تهبط في مدارج المطارات بطريقة مأمونة في الأحوال التي تكون فيها حدود الرؤية صفرًا، وهي الحالة التي يُطلق عليها فئة 3. وقد وصف تحقيق هبوط الطائرات بأمان في الظروف الجوية الأكثر سوءًا بأنه تحوُّل كبير في هذا المجال، جاء نتيجة تطوير نظام تحديد المواقع العالمي، وهو جزء من شبكة العمل 24 العالمية لوضع الأقمار الصناعية في مداراتها.



في تجارب المحاكاة الخاصة بظروف الفئة 3 التي ترعاها إدارة الطيران الفيدرالية في أمريكا استطاع هذا النظام أن يوجه هبوط 110رحلات لطائرة افتراضية من نوع بوينج 737 من أصل 111 محاولة (وقد ألغيت الرحلة رقم 111 نظرًا لتوقف القمر الصناعي عن العمل فجأة بسبب إجراءات الصيانة)، وفي تجربة أخرى استطاع النظام توجيه 50 رحلة افتراضية لطائرة بوينج من أصل 50 رحلة.

ارتكزت التجربتان على تحسينات تُعرف بنظام المواقع العالمي التفاضلي لإثبات الدقة في حدود بضعة أقدام.

وعلى الرغم من أن الدقة الفعلية لهذا النظام الحديث في حدود متر واحد، إلا أن الجهات العسكرية - لأسباب أمنية - تقلل درجة دقة النظام للجهات غير العسكرية إلى عدة مئات من الأقدام.

لقد استُخدم في التجارب أحدث نظام من أنظمة تحديد المواقع التفاضلي الذي ابتكره كلارك كوهين من جامعة ستانفورد، وتم تركيب جهازي إرسال واستقبال بحجم بطاقة الائتمان (أو مرشدي إشعاع لاسلكي) على أعمدة على بضعة أميال من مدرج الهبوط، وخلال عملية الهبوط تتلقى الطائرة إشارات من كلٍّ من نظام تحديد المواقع العالمي التفاضلي وأجهزة الإرسال والاستقبال الأرضية، عن مدى دقة قراءة الموقع لمسافة تقل عن قدم واحد.

وإذا تمت الموافقة على استخدام هذا النظام الحديث، فإنه سيكون بوسع الطائرات أن تسلك في الأحوال الجوية السيئة المسارات المتعرجة نفسها التي غالبًا ما تسلكها في الأحوال الجيدة، فبموجب النظام المطبَّق حاليًا يُفرض على الطائرات في الظروف الجوية السيئة أن تتخذ مسالك طويلة بخطوط مستقيمة، أما النظام الجديد؛ ففضلاً عن أنه الأكثر براعة؛ فإنه يقلل التأخر في الإقلاع والهبوط الناجم عن سوء الأحوال الجوية.

(عن مجلة بيبولارد سينس، 1996/4/30م).

قشور البرتقال قد توقف مذبحة رجالية!

يبدو أن نافذة لأمل جديد ستُفتح للمصابين بسرطان البروستاتا، نتيجة الأبحاث المستمرة للتوصل إلى علاج لهذا النوع من السرطان. وتشير أخبار معامل الأبحاث الطبية إلى إرهاصات صنع عقار من مواد طبيعية. فقد توصل كينيث بيينتا من جامعة ميتشجان الأمريكية، بالتعاون مع زملاء من جامعة ولاية وين في ديترويت إلى أن خلاصة قشور البرتقال يمكن أن تبطئ من انتشار الخلايا الخبيثة في أجسام الفئران.

استخلص بيينتا وزملاؤه مادة البكتين، وهي مادة كاربوهيدراتية توجد في قشور البرتقال والتفاح، وقاموا بتجزئتها وتحطيمها إلى كرات صغيرة، عالجوها أولاً بمادة قلوية ثم بمادة حمضية، ولما كانت هذه الكرات قابلة للذوبان في الماء؛ فقد تمت اضافتها إلى الماء الذي تشربه الفئران. ثم قام الباحثون بحقن الفئران بخلايا أورام سرطانية من البروستاتا التي تنتشر بسرعة إلى رئات الفئرات، ونجم عن الحقن حدوث عشرة أورام سرطانية جديدة تقريبًا، وذلك بعد 30 يومًا من عملية الحقن، ولكن يبدو أن تلك الكرات أوقفت الخلايا السرطانية في مسالكها. فالفئران التي تناولت ما نسبته 1٪ من محلول البكتين المعدل تحسنت حالاتها، ولم تصب رئات نصف تلك المجموعة من الفئران بأورام سرطانية إطلاقًا، أما النصف الآخر فلم تصب رئاتها إلا بعد يومين أو ثلاثة، كما جاء في مجلة معهد السرطان القومي العدد 87.

وكان قد ثبت في وقت سابق أن الأجزاء الصغيرة من مادة البكتين تلتصق بجزيء موجود على سطح الخلايا السرطانية يعرف باسم جالاكتين-3، وهو بروتين



التقدم في غياب الضمير



ما الحدود المسموح بها للتضحية بالبيئة وبالإنسان لصالح التقدم؟ وهل هنالك - في الأصل - حدود بهذا المعنى؟ أم هو جشع بعض الناس الذي يُصور إمكان التضحية ويسوغها، فتدهس عجلات التقدم التي لا كوابح لها فئات عديدة من البشر؟

في جنوب البيرو تجازف شركة موبيل للنفط بأرواح مئات من أفراد القبائل الأمازونية في سبيل بحثها عن مكامن النفط في الغابة المطرة. وفي تركيا قامت شركة شل بضخ المياه الملوثة من حقول النفط إلى طبقات الصخور المائية التي تمد نحو مليوني نسمة بمياه الشرب!!

تقول مجموعة العمل الدولية للشؤون الفطرية IWGIA التي تتخذ من كوبنهاجن مقرًا لها: ثمة ثلاث قبائل في منطقة لابيدراس في جنوب البيرو تعيش على الفطرة، منها اثنتان لم يرهما الغرباء إلا من بعيد، وهذه المنطقة هي التي تشيد عليها شركة موبيل معسكرها وقاعدة انطلاقها للتنقيب عن النفط في غابات الأمازون.

وفي عامي 1984م و 1985م حدثت مواجهات عنيفة بين موظفي الشركة وأفراد من القبيلة الثالثة التي يُطلق عليها اسم ناهوا NAHWA، حيث كانت موبيل تنقب عن النفط في أرض مجاورة لمستوطنة القبيلة. ويقول علماء الأجناس الحكوميون إنه في عام 1986م هلك نحو 50 - 60٪ من أفراد قبيلة ناهوا البالغ تعدادهم ثلاثمئة شخص، وذلك بفعل أمراض أصابتهم مثل ذات الرئة، والملاريا، والسعال الديكي وغيرها من أمراض لم تكن معروفة لديهم، جلبها عمال النفط معهم إلى المنطقة.

أما ما حدث في منطقة ديار بكر في تركيا فقد وُصف بأنه نوع من التلوث المنظم، فقد أدارت شركة شل حقل النفط مدة ثلاثين عامًا، وضخت المياه الملوثة بالزيت من آبار عميقة، وللتخلص من ملايين الجالونات من تلك المياه الملوثة قامت الشركة بحفر ثقوب في مصادر المياه النقية غير العميقة ثم ضخت فيها المياه الملوثة.

وقد اعترفت شل - في سلسلة من المذكرات الداخلية الخاصة بها التي تسربت إلى منظمة السلام الأخضر في تركيا - باحتمال حدوث آثار مأساوية على إمدادات المياه التي تغذي ديار بكر. وفي أعقاب الأخبار السيئة التي أُعلنت عن شل في نيجيريا ومصير شعب أوغوين وما حدث من تلوث في المياه في تلك المنطقة، جاءت واقعة ديار بكر لتزيد من حرج الشركة. فقد أوضحت المستندات بأن مصادر إمدادات المياه للمدينة ستصبح ملوثة خلال ثلاثين عامًا، وستبقى كذلك مدة تتراوح بين مئة وثلاثمئة عام، وينبغي على ديار بكر أن تعمل على معالجة مياه الشرب بإزالة النفط والمعادن الثقيلة والملوثات الأخرى، أو أن توجد بديلاً لمصدر إمدادات المياه.

لم تستطع شل أن تتنصل من المسؤولية، وعلى الرغم من أن موقفها المعلن: أنها لا تظن بأنه ستكون هناك مشكلة تلوث؛ إلا أنها قبلت تحمل المسؤولية كاملة، وبدأت باستكشاف طرق لوقف ممارساتها، وأخذت تخطط لإعادة ضخ المياه الملوثة إلى الطبقة الأعمق الحاملة للنفط، ويُنتظر أن تكتمل هذه الخطة بحلول عام 1998م.

ما يُستغرب له أن شل حاولت تسويغ فعلتها بالقول: عندما بدأت الشركة ضخ المياه الملوثة في طبقات ميديات MIDYAT الصخرية المائية، لم تكن تلك الطبقة تُستخدم لمياه الشرب، ولم تستخدم ديار بكر مياه الشرب من ذلك المصدر إلا في عام 1977م..!!

(عن الجارديان، العدد 24، وتاريخ 1996/6/16م)

يرتبط بالمواد الكاربوهيدراتية. ويُعتقد أن هذه المادة تتيح للخلايا أن يتعرف بعضها بعضًا قبل أن تتفاعل معًا، ويرى بيينتا وزملاؤه أن البكتين المعدل يوقف عملية ارتباط الجالاكتين -3 بالمواد الكاربوهيدراتية الموجودة على أسطح الخلايا الأخرى، ونتيجة لذلك فإن الباحثين يعتقدون بأن أورام الخلايا السرطانية لا تعود تلتصق بجدران الأوعية الدموية، ولا بجدران بعضها بعضًا وبذلك لا تتمكن من الانتشار في أنحاء الجسم لتشكل أورامًا ثانوية.

ويحاول فريق بيينتا معرفة أي أجزاء البكتين هي التي ترتبط مع الجالاكتين -3، ويقول هارميش أحد أعضاء الفريق من جامعة وين الحكومية: إن الذين أجريت لهم جراحة أو عولجوا بالأشعة في وقت قريب يمكن أن يحصلوا على الفائدة القصوى من هذا الاكتشاف الذي سيوقف انتشار سرطان البروستاتا مدة خمس سنوات على الأقل. إلا أن باحثين آخرين يحذرون من أن مفعول البكتين المعدل قد لا يعطي النتيجة المرجوة للمرضى من البشر، كما أعطاها للفئران. ويقول جوناثان واكمان من مستشفى همرسميث في لندن إنه لأمر رائع أن يُعثر على دواء من مواد طبيعية يؤخذ من طريق الفم، ويضيف: ولكن ذلك لا يعني أن الدواء الذي يعطي مفعوله في الفئران يعطي بالضرورة المفعول نفسه للبشر.

يُذكر أن سرطان غدة البروستاتا من أكثر أنواع السرطان انتشارًا بين الرجال، وخاصة في البلدان الصناعية، وغالبًا ما يمكن علاج الورم البدائي الذي يصيب البروستاتا، ولكن حالما ينتشر السرطان إلى الأعضاء فإنه يستعصي على العلاج. في الولايات المتحدة حيث ينتشر هذا النوع على نطاق واسع يتم تسجيل 240 ألف حالة جديدة كل عام، أما الوفيات المسجلة بسبب هذا المرض فتبلغ 40 ألف حالة كل عام.

عن مجلة نيو سينتست
العدد 78، 1996/6/1

الحساسية من الطعام

لماذا.. وكيف علاجها؟

د. منيرة البياتي

ما أنواع الحساسية التي تصيب الإنسان من الطعام؟
عرف الإنسان منذ القدم العلاقة بين الطعام وبعض الاضطرابات التي تصيبه، وتعلَّم تجنبها من خلال الخبرة التي انتقلت من خلال الموروث الشعبي والتقاليد. ويصاب 10٪ من الناس بالحساسية من الطعام، وتُصنَّف الحساسية بحسب أعراضها، ومن أهمها الشرى والرشح الموسمي، أو حمى القش والربو والأكزيما، أو حساسية الجلد والاضطراب المعوي.

وهناك مجموعة أخرى من الحالات لها علاقة مباشرة بالطعام، كالصداع النصفي «الشقيقة» الذي يصيب الكبار، وحالة شبيهة بها هي آلام البطن الدورية «الشقيقة البطنية» عند الصغار، والأطفال المفرطي الحركة Hyperactive، والكآبة والتعب المزمن والإرهاق وآلام المفاصل.

أعراض الحساسية

الحساسية من الطعام نوعان: حساسية فورية Immediate Allergy، وحساسية متأخرة Late Allergy. تبدأ أعراض الأولى عادة بعد تناول الطعام بنحو 10- 15 دقيقة، أما أعراض الثانية، فتبدأ بعد ساعات أو أيام من تناول الطعام. ويُعدّ الشرى أحد أنواع الحساسية الفورية التي تظهر في شكل اندفاعات جلدية محمرة اللون ذات بثور حكاكة Urticaria، تنتشر في الوجه والصدر والذراعين، أو تظهر في شكل تورم ترافقه حكة An-gioedema في الشفتين وداخل الفم والبلعوم وأحيانًا في الجبهة وحول العينين. وتؤدي في بعض الحالات الخطرة إلى الاختناق وفقدان الوعي، وأحيانًا الموت. ويعاني المصاب بالرشح الموسمي، أو حمى القش - التي قد تكون حالة حساسية فورية أو متأخرة - من حكة في الأنف والبلعوم، وعطاس وتدمع العينين وسعال متكرر. ويعاني المصاب بالربو من ضيق في التنفس وسعال مع أزيز. ويظهر احمرار ترافقه حكة تؤدي إلى تشخن الجلد وتقشره عند أولئك المصابين بحساسية الجلد، أو ما يعرف بالأكزيما، التي تصيب مناطق مختلفة من الجسم كالخدين وحوالي الفم عند الأطفال، وفي الرسغين والمرفقين. وتؤدي أعراض الاضطراب المعوي إلى تَقَرُّح في الفم أو آلام في البطن يرافقه غثيان وتقيؤ أو إسهال يرافقه انتفاخ وغازات.

ويُعدّ الصُداع النصفي «الشقيقة» من أنواع الحساسية المتأخرة، وتبدأ أعراضه في الظهور بعد ساعات أو أيام من تناول أنواع معينة من الطعام، وتظهر الأعراض بشكل ألم في الرأس، ثم شعور بالغثيان والرغبة في التقيؤ. و«الشقيقة البطنية» التي تصيب أطفال المدارس تكون على شكل ألم شديد في البطن مع شعور بالغثيان والتقيؤ والصداع أحيانًا. أما الطفل المفرط النشاط Hyperactive، فإنه يعاني من حالة اضطراب في السلوك وفقدان التركيز وحركة دائمة تؤدي إلى إرهاق الأسرة والمدرسة. ويفقد الشخص المصاب بالكآبة رغبته في الحياة، ويعاني من إحساس دائم بالتعب والإرهاق وآلام المفاصل. وجميع هذه الحالات التي ذكرت سالفًا هي أشكال من الحساسية للطعام.

ما الأسباب التي تؤدي إلى الحساسية؟

أولا: على عكس المناعة التي هي رد فعل ذاتي على الأشياء الغريبة التي تدخل أجسامنا دون نتائج أو تأثيرات فزيولوجية، أو مرضية كالجراثيم والطعام الذي يعتاده جهازنا المناعي منذ الصغر، فإن الحساسية هي رد فعل مناعي غير طبيعي للأجسام الغريبة التي نتعرض لها في حياتنا، مثل المادة البروتينية الداخلة في تركيب الجرثومة، أو البروتين والسكر الذي يتكون منه الطعام. فعندما يتناول المتحسس طعامًا فإن مناعته الذاتية تستجيب لطعام معين كما لو كان هذا الطعام هو شيء غريب دخل جسمه، إذ يحدث تفاعل

الطعام


يصاب 10٪ من سكان العالم بالحساسية من الطعام


المواد التي تضاف إلى الطعام لإعطائه نكهة معينة من أهم مسببات الحساسية


الرضاعة الطبيعية وحدها - وليس الصناعية - تؤمّن للطفل مناعة من الحساسية

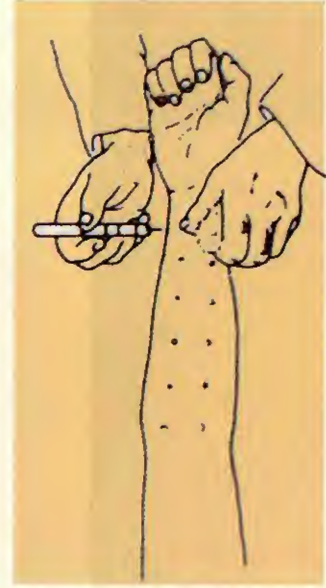
بين مولد المضاد Antigen مع الجسم المضاد Antibody، ومولد المضاد في هذه الحالة هو البروتين أو السكر في الطعام كالحليب مثلاً، أو قد يكون مادة مرتبطة بها أو مضافة إليها كالمواد المنكهة Flavourings التي تضاف عادة لإعطاء الطعام نكهة معينة، أو قد تكون مادة حافظة Food per-servative، تضاف للمحافظة على خصائص الطعام من التغير، أما الجسم المضاد فهو مولد المناعة في الدم Im-munoglobulin، وهكذا تتم عملية التفاعل التي تؤدي إلى انبعاث مواد مضرة من الخلية كالهستامين ومواد أخرى تكون سببًا في إحداث الحساسية، أو قد تؤدي إلى ترسب المركب المناعي في أعضاء مستهدفة كالجلد مسببة الأكزيما، أو في المفاصل مسببة الألم.

وقد يحدث أحيانًا أن يصاب المرء بالحساسية من طعام معين سبق أن تناوله من قبل، ولم تظهر في حينه أية أعراض، ويعود السبب في ذلك إلى أن تناول الطعام أول مرة سيحفز جهازه المناعي للاستجابة Sen-sitization، ولن تظهر عليه أعراض الحساسية لسرعة ابتلاعها من خلايا الدفاع في الدم Phagocytosis والقضاء عليها. وعند تناول الطعام نفسه مرة أخرى يستجيب الجسم إما بشكل مناعة ووقاية Prophylactic، أو بشكل تحسس، وهي الحالة المضرة An-tiphylactic التي يقوم فيها الجسم بإنتاج أجسام مضادة بشكل سريع وغزير؛ مما يؤدي إلى تفاعل بين مولد المضاد ومولد المناعة، وهذا بدوره يؤدي إلى ظهور أعراض الحساسية.

ثانيًا: يؤثر الطعام في الجسم كتأثير



بعض الأدوية، ولاسيما الأسبرين، تؤدي إلى الإصابة بالحساسية


اختبار الجلد لبيان التحسس قد تكون نتيجته مضللة أحيانًا


صورة رسمتها طفلة مصابة بالصداع النصفي (الشقيقة)

العقاقير «الدواء»، فبعضه مثلاً يسبب تقلص الأوعية الدموية مما يؤدي إلى ارتفاع الضغط الدموي؛ كالمنبهات التي تحتوي على مادة الكافيين مثل القهوة والشاي والكوكاكولا وهي مادة منشطة للجهاز العصبي، وتساعد الإنسان خلال النهار على التركيز الذهني. وعند تناول كميات كبيرة من الكافيين تعادل 200 ملغم، أو ما يعادل تناول ما بين 2ـ 3 أقداح من القهوة يصاب الشخص أحيانًا بالتعرق وخفقان القلب والشعور بالارتباك والقلق، وقد تسبب التسمم في حال تناول كميات أكبر، وتكون أعراضه الارتعاش ونوبات الصداع أو ارتداد الطعام في المريء.

والأطعمة الأخرى التي لها تأثير عقاقيري قد تكون غنية بمادة الهستامين كالسمك والروبيان، أو منبهة لخلايا خاصة في الجسم تساعدها على انبعاث مادة الهستامين كالفراولة التي تؤدي إلى انبساط الأوعية الدموية وتؤثر ـ من ثم ـ في الجهاز العصبي مسببة أعراضًا مزعجة. أما مادة التيرامين المنشطة للأوعية الدموية فهي موجودة في الجبن الصلب، وكلما ارتفعت نوعية الجبن وغلا سعره ازداد ضرره على الشخص المصاب بالحساسية. أنواع جبن غالية الثمن مثل جبن «ستلتون» تحتوي على 4200 وحدة من مادة التيرامين، وجبن «إدام» يحتوي على 200 وحدة، هذا بينما يخلو جبن «كوتاج» الأبيض المناسب السعر عادة من هذه المادة تمامًا. كما يوجد التيرامين في الخميرة والموز والأفوكاتو. وتكثر مادة الكتوبامين في الحمضيات كالبرتقال والألنكي والليمون. وتوجد مادة الفنايل آثيلمين في الشوكولاتة التي تؤدي كل أنواعها إلى ظهور أشكال معينة من الحساسية كالشرى أو الطفح الجلدي واحتقان الوجه، والصداع النصفي خاصة. وهناك حالة تعرف بـ «أعراض المطعم الصيني»، التي تشبه الأزمة القلبية، ويعود سببها إلى مادة الصوديوم كلوتاميت المنكهة المستخدمة في تهيئة الطعام الصيني. وتسبب مادة أخرى حالة تهيج وحركة غير عادية للأطفال، وهي مادة الساليسيلات الطبيعية الموجودة في التفاح والخيار واللوز والمشمش والخوخ والإجاص. وتسبب بعض الأطعمة أو مكوناتها تفاعلات بوساطة تقنيات غير واضحة لنا في الوقت الراهن، ولا يعني العجز عن تقديم تفسيرات علمية لهذه الحالات عدم وجودها.

ثالثًا: يُمتص الطعام في الأمعاء الدقيقة بعد عملية الهضم مباشرة، ويعاني المتحسس من خلل في الامتصاص نتيجة لاضطراب فزيولوجي في وظيفة الأمعاء بسبب التغير الذي يطرأ على غشائها. فعندما يتحلل الطعام في أثناء الهضم إلى جزيئات بسيطة التركيب كيماويًا تتمكن الجزيئة الصغيرة من النفاذ إلى الأوعية الدموية من خلال ثغور صغيرة في جدار الأمعاء، «التي تعمل كبوابة تسمح أو لا تسمح بالمرور»، أما نفوذ الجزيئة الكبيرة غير المهضومة فيكون أقل، لكن هذه العملية تصبح معكوسة لدى المتحسس، إذ تُمتص الجزيئة الكبيرة بشكل أفضل من الجزيئة الصغيرة.

رابعًا: يفرز الجهاز الهضمي أنزيمات، وهي مواد بروتينية تؤدي دورًا مساعدًا مهمًا في عملية الهضم، إذ تحول الطعام المعقد إلى جزيئات بسيطة التركيب، وتؤدي قلة هذه الأنزيمات أو نقصها إلى خلل في عملية الهضم، ويقودها هذا بدوره إلى حالة حساسية. فنقص أنزيم الحليب يحول سكر اللاكتوز الثنائي إلى سكر الغلوكوز الأحادي وهذا يسبب حالة منتشرة لدى سكان الشرق الأوسط معروفة باسم «حساسية سكر الحليب».

خامسًا: يؤدي العامل الوراثي دورًا مهمًا في انتقال الحساسية عبر الأجيال، وتوجد غالبًا حالات الحساسية المختلفة عند أفراد العائلة الواحدة، حيث يعاني الوالدان والأبناء جميعًا من الربو أو الأكزيما أو الصداع النصفي أو غيرها.

هل من الممكن تشخيص الحساسية مختبريًا؟

أصبح في الإمكان اليوم تشخيص الأطعمة المُضرة Offenders التي تُسبب الحساسية، ويُمنع المتحسس من

الحساسية من الطعام

لماذا.. وكيف علاجها؟

تناولها كليًا. وإذا أخذنا عينة من دم المتحسس وقمنا بفحصها مختبريًا نجد أن نسبة مولد المناعة العام Im-munoglbulin IgE عنده مرتفعة، وترتفع نسبة مولد المناعة الخاص بطعام معين كالبيض أو الحليب أو الشوكولاتة، ويمكن التحقق من ذلك مختبريًا من خلال عملية الفحص RAST، كما ترتفع نسبه الهستامين.

ويُستخدم نوع آخر من الفحص عن طريق وخز الجلد بإبرة بعد وضع قطرات مركزة من مختلف الأطعمة المشتبة فيها، بمسافة بوصة واحدة ما بين مادة وأخرى؛ فيحمر الجلد ويتورم الموقع حول الوخزة التي تحتوي على الطعام المؤذي للمتحسس.

وللأسف، لا يمكن الاعتماد كليًا على مثل هذه الفحوصات المختبرية التي قد تكون نتائجها مضللة أحيانًا.

هل هناك طرق أكثر فعالية في تشخيص الحساسية؟

جرت في السابق محاولات عدة كحساب النبض (1943م) الذي يُسرع بعد أكل الطعام المشتبه فيه أو تحليل الشعر، أو وضع مركز مادة الطعام تحت اللسان (1980م) وغيرها من محاولات، وكلها لا يمكن الاعتماد عليها. ويُعدّ تشخيص الطعام أو الأطعمة المسببة للحساسية مهمة في غاية الصعوبة. وتعد التحديات الغذائية حجر الزاوية في التشخيص وتجري على مراحل:

1- تدوين الملاحظات من قبل الشخص المتحسس:

بعد التحدث مع المتحسس ومحاولة اكتشاف الأطعمة المضرة يُطلب منه عمل تقويم لمجموع أيام الشهر يحتوي على جدول يجيب فيه عن مجموعة من الأسئلة. ويُطلب من المصاب بالشقيقة الجواب مثلاً عن الأسئلة التالية: هل عندك صداع اليوم؟ ماذا أكلت؟ ما العوامل التي تعتقد بأنها أثارتها؟ وهل النوبة خفيفة معتدلة أم حادة؟ وكم دامت ؟ وهل أصبت خلالها بالغثيان؟ وهل أخذت أي نوع من الأقراص كالأسبرين أو الباراستامول؟ ويساعد مثل هذا الجدول المتحسس والطبيب على تحديد الطعام المُضر.

2- المنع والتقديم:

الطريقة الوحيدة في الوقت الراهن لتشخيص حساسية الطعام تتضمن التزام حمية خاصة يُمنع فيها المتحسس كليا عن نوع أو أنواع أطعمة معروفة مسببة للحساسية Oligo-Antigentic diet مدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، فإذا تحسنت حالته يتم تقديم نوع واحد من الطعام تدريجيًا، ثم نوع آخر على أن تكون بينهما مدة أسبوع، فإذا عادت الأعراض يُحَدَّد بالضبط الطعام المُضر.

وفي الحالات الشديدة يخضع المتحسس إلى حمية خاصة تسمى حمية الاطّراح diet Elimination مدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع يطلق عليها اسم مرحلة «الغسيل»، أي غسيل الأمعاء. ثم يُستأنف تقديم نوع واحد من الطعام كل أسبوعين، فإذا عادت الأعراض يُحَدَّد بالضبط الطعام المُضر. وتتضمن هذه الحمية أطعمة قليلة معروفة غير مسببة للحساسية، مثل نوع واحد من اللحم قد يكون لحم ضأن أو لحم ديك رومي، وخضار واحد كالجزر أو الملفوف، ونشويات واحدة كالرز أو البطاطا، وفاكهة واحدة كالتفاح أو الكمثرى، وحليب الصويا بدل الحليب العادي مع ملح وسكر وشاي وماء. وقد لا تكون هذه الحمية مرغوبًا فيها من المتحسس لأنها مملة لتشابهها كل يوم، وربما غير مستساغة الطعم لخلوها من التوابل والمنبهات.



لحم الضأن من الأطعمة غير المسببة للحساسية

وهناك حمية خاصة تسمى حمية «العصر الحجري» يُمنع فيها المتحسس من كل الأطعمة المعروفة المسببة للحساسية ومن كل الأطعمة المعدة صناعيًا ومن الفاكهة الحمضية والقهوة والشاي.

3- التحدي العشوائي:

للتأكد من تشخيص الطعام المؤذي وطرح العامل النفسي يجري التحدي على مرحلتين بشكل عشوائي ومن دون علم المتحسس. يُعطى المتحسس في الأولى طعامًا يحتوي على المادة المسببة للحساسية لكن بشكل خفي، ويعطى في الثانية طعامًا خاليًا من هذه المادة، لكن له الطعم واللون والشكل نفسه. قطعة شوكولاتة مثلاً في الأولى وقطعة خروب في الثانية، أو قدح من عصير البرتقال الطازج في الأولى وعصير مشمش مُعلب مخلوط مع عصير الزبيب (ليعطي اللون والطعم نفسيهما) في الثانية، أو شوربة من دون بيض، ثم شوربة مع البيض، أو قهوة تحتوي على الكافيين وقهوة خالية منه، أو يُعطى أحيانًا مركز الطعام داخل كبسولة، وتراقب أعراض المرض كنوبة صداع أو ألم في البطن.

ما الأطعمة المسببة للحساسية؟

تُسبب الأطعمة جميعُها حساسية للأشخاص المتحسسين Sensitive، وهناك ما يُسمَّى بـ «التفاعل التقاطعي» Crossreaction الذي يقر أن المتحسس من نوع من الطعام قد يكون متحسسًا من طعام قريب منه بيولوجيًا. فالشخص المتحسس من البيض سيكون متحسسًا من لحم الدجاج؛ لأن بروتين البيض قريب بيولوجيًا من بروتين لحم الدجاج. والمتحسس من الحليب سيكون متحسسًا من لحم البقر، ولحم العجل، وذلك لتشابه البروتينين مرة أخرى. والمتحسس من الفول السوداني Peanuts سيكون متحسسًا من الباقلاء والبازلاء والعدس، وإذا كان

الحساسية من الطعام

لماذا.. وكيف علاجها؟

متحسسًا من اللُّقاح Pollen سيكون متحسسًا من القمح. ولا تسبب الأصباغ المستعملة في الطعام الحساسية، وهي كيماويًا ذات وزن جزيئي صغير، إلا عند ارتباطها بطعام آخر ذي وزن جزيئي كبير كالبروتين مثلاً. وتتحول بعض المواد في أثناء عملية الهضم من مادة غير مسببة للحساسية إلى مادة مسببة لها.

ترتبط الحساسية بأطعمة معينة، والمواد المقاومة للتأكسد، والمواد المنكهة، والطعام الذي يحتوي على مادة الساليسلات الطبيعية.

وعلى المصاب بالربو الامتناع عن تناول البيض والحبوب كالحنطة والشعير، والكوكاكولا المثلجة والأسبرين والحليب والجبن، ومشتقات الألبان والبيض والشوكولاتة والمكسرات، كالجوز والبندق والسمك والروبيان والدجاج والصويا ولحم الخنزير والسمك والروبيان.

ولاحظ الدكتور بنجامين فينجولد في سنة 1974م أن الطفل المفرط الحركة يهدأ وتخف حركته ويزداد تركيزه عند اتباع حمية خاصة Fein-gold diet خالية من مضافات الطعام Food additive وتتضمن الامتناع عن الطعام الجاهز الذي تضاف إليه مواد كيماوية، والامتناع عن الفاكهة أو الخضار لاحتوائها على مادة الساليسلات الطبيعية، والأسبرين lergenic من البيض النيئ. والحليب المغلي أقل ضررًا من الحليب غير المغلي. وقد يؤدي تناول نوعين من أنواع الطعام إلى ظهور الحساسية، لكنها لا تظهر عند تناول أي من هذين النوعين من الطعام بمفرده. بعض المصابين بالصداع النصفي مثلاً تتابهم نوبة صداع شديدة عند تناول الجبن والحليب سويًا، لكن لا يحدث لهم شيء عند تناول الجبن وحده أو الحليب وحده. ولحرارة الطعام دور مؤثر في استثارة الحساسية. فالشاي الساخن يسبب نوبة ألم في البطن والكوكاكولا المثلجة تسبب أزمة ربو.



المنبهات مثل القهوة تسبب خفقان القلب والتعرق ونوبات الصداع



الأطعمة المحتوية على مواد حافظة من أهم مسببات الحساسية

فقد لوحظ أن المصاب بالشقيقة أو الصداع النصفي يكون متحسسًا تجاه الشوكولاتة والجبن الصلب والألبان ومشتقاتها، والفواكه الحمضية كالبرتقال والألنكي والليمون ...إلخ، والمنبهات كالشاي والقهوة والكوكاكولا ولحم الخنزير والسمك والروبيان والقمح والبصل والطعام المقلي. والأطعمة الثلاثة الأولى تسبب آلام البطن عند الأطفال المصابين بـ «الشقيقة البطنية». أما الأطعمة المسببة للحساسية للمتحسس المصاب بالشرى والتورم، فهي الحليب والمكسرات كالجوز والبندق، إضافة إلى السمك والروبيان والخميرة ولحم الخنزير والشوكولاتة والموز والفراولة والصبغة النتروجينية، ولحم البقر واللوبيا والفاصوليا والفول والخميرة وصبغة النتروجين.

ومما يساعد المصاب بالأكزيما ويهدئ الحكة الحمية والامتناع عن أطعمة مثل البيض والحليب والجبن ومشتقات الألبان والشوكولاتة، والمكسرات كالجوز والبندق، والسمك والروبيان والدجاج ولحم البقر واللوبيا والفاصوليا والفول والخميرة وصبغة النتروجين.

وعلى المصاب بالرشح الموسمي أو حمى القش أن يتجنب البيض والقمح والساليسلات وصبغة النتروجين.

وعلى المصاب بالاضطرابات المعوية تجنب الحليب ومشتقاته والبيض والدجاج والقمح والرز لاحتوائه على مادة الساليسلات المصنعة، كما يُمنع من الحليب والسُكر والبيض وأي طعام أو شراب يحتوي على مواد منكهة أو ملونة، وعليه أيضًا تجنب معجون الأسنان والأدوية المضادة للسعال.

من كل ذلك نجد أن أكثر الأطعمة المسببة للحساسية هي الحليب والبيض والجبن الصلب ومشتقات الألبان والسمك والروبيان والشوكولاتة والفواكه الحمضية واللحوم، وخاصة لحم الخنزير والمكسرات، كالجوز والبندق والفول السوداني والقمح.

هل لطريقة طهي الطعام تأثير؟

تؤثر طريقة طهي الطعام بصورة متفاوتة في استثارة الحساسية. فالبيض المسلوق مثلاً أقل تحسيسًا Less Al-

هل لكمية الطعام تأثير؟

تؤثر كمية الطعام المتناوَلة في ظهور أعراض الحساسية، فحبةٌ أو حبتان من ثمرة الفراولة مثلاً، قد يتسامح معها الجسم Tolerate، لكن تناول صحن ممتلئ بالفراولة يثير الشرى والحكة. وقطعة صغيرة من الشوكولاتة قد لا تسبب ألمًا، لكن قطعة شوكولاتة كبيرة تسبب صداعًا في الرأس عند الكبار وآلامًا شديدة في البطن عند الأطفال. إلا أن حبة واحدة من الفول السوداني قد تكون قاتلة للمتحسس بهذا النوع من الطعام. ويدور النقاش الآن حول مشكلة الفول السوداني بسبب التوسع في استخدامه في طعام الأطفال الجاهز الذي يحفز بمرور الزمن الجهاز المناعي Sensitization ويشكل - من ثم - خطورة على حياة الطفل المتحسس، وبسبب ذلك مُنع استخدامه في صناعة الأغذية الجاهزة.

وبعد هذه الممنوعات والمحاذير كلها قد تكون النصيحة الملائمة لكل متحسس: اطبخ طعامك بالطريقة التي تستخدمها أمهاتنا باستعمال مواد طازجة، وابتعد من تناول الطعام الجاهز، وربما من الأفضل أن تأكل كما كان يأكل إنسان العصر الحجري!

خلفاء موسى.. أضاعوا شريعته!



د. حسن ظاظا

الشريعة مهما كان مصدرها، تمثل للأمة التي تُفرض عليها مجموعة من القيود والشروط والحدود، الهدف منها تنظيم المجتمع، وكبح جماح الغرائز من أن تنطلق بلا رقيب ولا حسيب؛ فلا يظلم القويّ الضعيف، ولا يسخّره أو يستعبده أو يستبيح ماله وعرضه، أو يستبيح دمه إن هو أبى هذه المظالم، أو اعترض عليها. فالشرائع هي قواعد لتعايش البشر بعضهم مع بعض، بمعزل عن الفوضى. والشرائع السماوية والوضعية في ذلك الهدف سواء، إلا أن الشرائع السماوية يقترن بها أساس مهم، هو الإيمان بإله مما يغرس مخافة في أعماق النفس الإنسانية تدعو من يهم بمخالفة هذه الشريعة إلى التفكير اتقاءً لنقمة قد تنزل به من قوة خفيّة هائلة تتدخل لتثأر للمظلوم من ظالمه. والشريعة السماوية تبدأ من أجل ذلك بدعوة إيمانية روحيّة، مقرونة ببعض العبادات التي تكون تعبيرًا عن الطاعة لهذه القوة العظيمة، ثم تقوم لها سلطة بشرية تحرسها، وتطبقها، وتراقب من يخالفها، وتعاقب من يتحدّاها. ولأن الشريعة السماوية لم يضعها البشر؛ ولأن التنوع والتكاثر والتسابق وتشابك المصالح والتقدم في الفكر والعمل سنّة هذا الكون على مرّ الزمان، مسّت الحاجة إلى علماء ومفكرين وحكماء يبذلون أقصى الجهد في الوصول، بما في الشريعة من أحكام ونُظُم، إلى القدرة على مواكبة التطوّر الحضاري وما يأتي معه من جديد. ومن هنا ظهر في الإسلام الأئمة المجتهدون، القادرون على التفسير والتحرّي والقياس والاستنباط والفتوى والقضاء، فيما يواجهونه من مسائل ومشكلات وقضايا، سماها كثير من قضاة المسلمين (النوازل)؛ لأنها أمور غامضة (تنزل) على رأس الفقيه كأنها اختبار يبلو الله به القاضي في عدالته ونزاهته، ولهذا كان كثير من الفقهاء يتهربون من مناصب القضاء عملاً بالحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «من ولي القضاء فقد ذُبح بغير سكين».

أما القوانين الوضعية فأثرها أيسر من ذلك؛ لأنها إما أن تصدر وتتقرر باستفتاء شعبي، أو برلماني، أو من حاكم قويّ مستبد - قد يكون مصلحًا وقد لا يكون - فإذا مات تفتت معه قانونه وأصبح هشيمًا تذروه الرياح. ولكن، لأن الإيمان الروحيّ الديني طبيعة في البشر، فكثيرًا ما يواجه الحاكم الطاغية مشكلات من رعيته؛ لأن أوامره تنافي ما طُبع عليه الناس. وقد تكون فيهم سلطة دينية تنفخ في نيران الخلاف بين قوانين الحاكم وقوانين الدين، كما حدث في الغرب من ثورات وحروب بين البابوية النصرانية والسلطة الملكية المطلقة، مما انتهى إلى الإطاحة بكلتيهما. ولو تأملنا في تاريخ هذه الحركات لاتضح لنا أن جوهر الخلاف كان سياسيًا لا دينيًا.. حتى في الإسلام، كان معظم الخلاف على الخلافة، وهو الأمر الرئيس الذي فصل بين السنّة والشيعة والخوارج على اختلاف آرائهم، واقترن هذا بولاة طغاة مثل زياد بن أبي سفيان (زياد بن أبيه) الذي ولاه معاوية العراق الذي كان يضم أنصار عليّ بن أبي طالب؛ فوجد زياد نفسه يواجه أعداء له وللدولة الأموية، فكان لابد أن يخيفهم ويهددهم ولو تجاوز حد العقوبة المقرر في الشريعة الإسلامية، فقال لهم في خطبة له: وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وأحدثنا لكلّ ذنب عقوبة: مَن غرّق قومًا غرّقناه، ومن أحرق قومًا أحرقناه، ومن نقبَ بيتًا، نقبنا عن قلبه! ومَن نبش قبرًا دفنّاه فيه حيًا!! - وقال لهم أيضًا: .. وإني أقسم بالله، لآخذن الوليّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انجُ سَعْد، فقد هلك سُعَيد.

ثم جاء من بعده الحجاج بن يوسف الثقفي واليًا على العراق للخليفة عبدالملك بن مروان، فكان أشد على الناس من زياد. وإذا كان في سياسة بعض الولاة تجاوزات وانحرافات عن الشريعة القرآنية، فقد بقيت هذه الشريعة مطهرة من العبث بها إلى يومنا هذا، يرجع إليها من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى؛ لأن كل كلمة وكل حرف كان قد جُمع وسُمع أكثر من مرة من فم من جاء بها - صلى الله عليه وسلم -، واستفاضت تلاوتها كما هي في حياته، وبعد مماته. وأكثر من ذلك وأهم من ذلك كله أن الله سبحانه تكفّل بحفظ هذا القرآن إلى قيام الساعة.

توراة موسى ضاعت عقب موته!

وليس الأمر كذلك في توراة موسى. فقد مات - عليه السلام - في ظروف غامضة أشد الغموض. مات دون أن يدخل أرض كنعان، فضلاً عن أن يفني الشعوب الكنعانية السبعة التي تسكن فلسطين. وبقيت الحرب سجالاً بينهم وبين بني

إسرائيل، لدرجة أن داود ـ عليه السلام، وقد تولى مُلك اليهود بعد موت موسى بأربعمئة سنة أو تزيد ـ اضطر إلى مفاوضة الكنعانيين في غزّة حتى يردُّوا إليه نسخة التوراة ـ أي شريعة موسى ـ وكانوا قد استولوا عليها قديمًا في بعض حروبهم مع بني إسرائيل، وهكذا استردها صُلحًا من غير قوة ولا تهديد، ثم ضاعت بدورها، ولم يعد يعرفها أحد من اليهود.

وتعاقب على اليهود خمسة عشر ملكًا، كانوا جميعًا ضعفاء، حتى حكم يوشياهو بن آمون (ت نحو عام 640 ق.م) خليفة داود وابنه سليمان ـ عليهما السلام ـ. وكان يوشياهو هذا شابًا تقيًا، فأمر بإعادة ترميم المعبد الذي بناه سليمان في أورشليم/القدس، وكان يرسل من القصر لجنة للمحاسبة والمراقبة، وأخذ المال من صندوق النذور لإنفاقها على ترميم الهيكل بدل تركها للكهنة يتقاسمونها وينفقونها في ما لا يفيد. ونحو عام 620 ق.م «وفي السنة الثامنة عشرة للملك يوشياهو، أرسل الملك شافان بن أصليا بن مشُلّم الكاتب إلى بيت الربّ قائلاً: اصعَد إلى حلقيا الكاهن الأعظم ليحسب النقود الممنوحة لبيت الربّ التي جمعها حَرَسُ الباب من الشعب؛ فيدفعونها إلى القائمين بالعمل في بيت الربّ، ويدفعوا منها للعمال القائمين بترميم الصدوع في بيت الرب، النجارين والبنائين والنحاتين، ولشراء الأخشاب، والحجارة المصقولة لأجل ترميم البيت، ولا يحاسَبون عن النقود التي وُهبت لهم؛ لأنهم قد أدُّوا عملهم بأمانة. وقال حلقيا الكاهن الأعظم لشافان الكاتب (قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب!)، وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه، وجاء شافان الكاتب إلى الملك، وردّ على الملك خبرًا وقال: قد أفرغ عبيدُ له النقود الموجودة في البيت ودفعوها إلى يد عاملي الشغل الموكَّلين ببيت الرب. وأخبر شافان الكاتب الملك قائلاً: قد أعطاني حلقيا الكاهن سفرًا، وقرأه شافان أمام الملك. فلمّا سمع الملك كلامَ (سفر الشريعة)، شقّ ثيابه! وأمر الملك حلقيا الكاهن، وأحيقام بن شافان، وعكبور بن ميكا، وشافان الكاتب، وعسايا خادم الملك قائلاً: اذهبوا فاسألوا الربّ لأجلي ولأجل الشعب ولأجل كل اليهود في أمر كلام هذا السفر الذي عُثر عليه. فما أعظم غضب الرب الذي اشتعل علينا، من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر، ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا. فذهب حلقيا الكاهن وأحيقام وعكبور وشافان وعسايا إلى (خُلدة النبيّة) زوجة شلّوم بن تقوة بن حرحس، حارس الثياب. وهي ساكنة في أورشليم في القسم الثاني، وكلّموها. فقالت لهم: هكذا قال الربّ إله إسرائيل. قولوا للرجل الذي أرسلكم إليّ، هكذا قال الرب، إنني جالب شرًا على هذا المكان وعلى سكّانه، كل كلام السِّفر الذي قرأه ملك يهوذا، لأنهم تركوني وأوقدوا لآلهة أخرى لكي يغضبوني بما جنت أيديهم، فيشتعل سخطي على هذا المكان ولا ينطفئ. أما ملك يهوذا الذي أرسلكم لتسألوا الرب فأجيبوه هكذا: بما أنك قد رقّ قلبك، وتواضعت أمام الرب حين سمعت ما تكلّم به على هذا المكان، من أنهم يصيرون عبْرة ولعنة، ومزّقت ثيابك وبكيت أمامي، فقد سمعت أيضًا، يقول الرب: لذلك فإنني سألحقك بآبائك، فتضمّ إلى قبرك بسلام، ولا ترى عيناك كل الشرّ الذي أنا جالبه على ذلك المكان! فأبلغوا الملك الجواب.

مغامرات «قضاة» إسرائيل ـ على انحرافهم وجهلهم وجبروتهم ـ أضحت لدى اليهود وحيًا سماويًا يقرؤونه في صلواتهم، ويستلهمون منه الخطب والمواعظ والقصص والمسرحيات والأفلام السينمائية إلى الآن!

فأرسل الملك، فجمعوا إليه كل شيوخ يهوذا وأورشليم، وصعد الملك إلى بيت الرب، وكل رجال يهوذا وسكّان أورشليم معه، والكهنة، والأنبياء، وجميع الشعب من الصغير إلى الكبير، وقرأ على مسامعهم كل كلام سفْر الشريعة الذي عُثر عليه في بيت الرب. ووقف الملك على المنبر، وقطع عهدًا أمام الرب بطاعة الرب، والتزام وصاياه وشهاداته وفرائضه، بكل القلب وكل الروح، لإنفاذ كلام العهد المكتوب في هذا السفر! ووقف الشعب كله عند العهد. وأمر الملك حلقيا الكاهن الأعظم وكهنة الصفّ الثاني وحُرّاس الباب أن يُخرجوا من هيكل الرب جميع الأدوات المصنوعة للبعل والأوثان الخشبية (الأشيرة) ولكل جنود السماء (الكواكب)، وأحرقها في ساحات قدرون خارج أورشليم، وحمل رمادها إلى بيت إيل (المعبد المركزي لأعدائه السامريين بالقرب من نابلس)، وقضى على كهنة الأصنام الذين كان ملوك يهوذا قد عيّنوهم ليُوقدوا على المرتفعات في مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم، والذين يوقدون للبعل: الشمس، والقمر والكواكب وكل جند السماء. وأخرج السارية الخشبية (أشيرة) وثن عشتروت من بيت الرب إلى وادي قدرون، خارج أورشليم وأحرقها في وادي قدرون، وسحقها حتى صارت غبارًا، وذرّى الغبار على مقابر الشعب! وهدم بيوت المخنثين التي عند بيت الربّ، حيث كانت النساء ينسجن خيامًا لأجل عشتروت (للدعارة). وجاء بجميع الكهنة من مدن يهوذا، ودنّس المرتفعات التي كان الكهنة يوقدون عليها من جَبَع في (الشمال) إلى بئر سَبْع (جنوبًا)، وهدم مشارف الأبواب التي عند مدخل «يوشع» رئيس المدينة، التي إلى اليسار في باب المدينة. إلاّ أنّ كهنة المرتفعات لم يصعدوا إلى مذبح الربّ في أورشليم، بل أكلوا خبزًا فطيرًا بين أمثالهم، ونَجّس تُوفتَ (معبدهم) الذي في وادي بني هنّوم (وادي جهنّم) حتى لا يقرّب أحد ابنه أو ابنته للصنم (مُلُك)، وأباد تماثيل الخيل الذي قدّمها ملوك يهوذا للشمس، عند مدخل بيت الربّ عند سكن نَتْنَمَلكُ الخصيّ، الذي في الأروقة، كما أحرق مركبات الشمس بالنار، والمذابح التي على سطح علّية آحاز (الملك) التي أقامها ملوك يهوذا والمذابح التي أقامها منسّى (الملك) في مقصورتي بيت الربّ هدمها الملك، وأسرع من هناك وذرّى منابرها في وادي قدرون، والمرتفعات المواجهة لأورشليم، التي عن يمين جبل الهَلاَك، التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتروت، نجاسة أهل صيداء، وكموش رجس المؤابيين، ومُلكوم وصمة بني عمون، لطخها الملك بالنجاسة، وحطم الأنصاب، وقلع الغابات، وملأ أماكنها بعظام الموتى. وحتى المذبح الذي في (بيت إيل) في المرتفع الذي أقامه يربعام بن نباط الذي أضل إسرائيل، هذا المذبح والمرتفع قوّضهما جميعا. وأحرق المرتفع وحطّمه غبارًا، وأحرق الغابة. ونظر يوشياهو فرأى القبور التي هناك، في الجبل، فبعث وأخذ العظام من القبور، فأحرقها على المذبح، حسب قول الربّ الذي نادى به رجل الله الذي تنبأ بهذه الأمور، ثم قال: ما هذه الكومة التي أرى؟ فقال له أهل المدينة: هي قبر رجل الله الذي جاء عن يهوذا وتنبأ بهذه الأمور التي فعلتها بمذبح بيت «إيل»، فقال: رَمُوه! لا يحرك أحد عظامه، وعظام النبي

أضاعوا شريعته!

الذي جاء من السامرة. وأزال يوشياهو جميع معابد المرتفعات في كل مدن السامرة التي بناها ملوك إسرائيل إسخاطًا للربّ، وصنع بها مثلما صنع في «بيت إيل»، وذبح جميع كهنة المرتفعات التي هناك على المذابح. وأحرق عظام الناس عليها، وعاد إلى أورشليم. وأمر الملك جميع الشعب قائلا: اعملوا فصحًا للربّ إلهكم كما هو مكتوب في سفر هذا الميثاق، ولم يُعمل فِصحٌ منذ أيام (القضاة) الذين قضوا في إسرائيل، ولا في جميع أيام ملوك إسرائيل وملوك يهوذا، مثل هذا الفصح الذي عُمل للرب في السنة الثامنة عشرة للملك يوشياهو في أورشليم. أمّا أصحاب التوابع والعرافون ومستخيرو الأصنام الصغيرة (الترافيم) والأوثان العادية وجميع الأرجاس التي كانت في أرض يهوذا، وفي أورشليم، فقد أزالها يوشياهو، لكي يقيم كلام التوراة المسطور في الكتاب الذي وجده حلقيا الكاهن في بيت الربّ، ولم يكن قبله ملك مثله، لأنه أقبل على الربّ بكل قلبه وكل روحه وكل قوّته، بحسب كل توراة موسى. ولا قام بعده مثله (سفر الملوك الثاني - فصل 22: 3 إلى آخر الفصل، والفصل 23:1 - 25).

كيف علموا أنها التوراة؟

ومعذرة للقُرّاء الكرام من إيراد هذا النص الطويل، فله في تاريخ الفكر اليهودي أهمية أساسية، إذ منه نستنتج أمورًا خطيرة أهمها:

1- أن المملكتين اليهوديتين في فلسطين، على مدى أكثر من ثلاثة قرون، كانتا تعيشان بلا كتاب، ولا شريعة. وأن النظام السياسي والديني والقضائي كان متروكًا للأقوى، يفرضه كما يشاء.

2- أن نصوص الشريعة التي جاءهم بها موسى، كان الفلسطينيون قد أخذوها بين الغنائم في بعض حروبهم المبكرة مع «قضاة بني إسرائيل»، والمقصود بمعنى القضاة في هذه التسمية «الحكام»، وسنرى حالاً أنهم كانوا يرأسون قبائل بني إسرائيل وأسباطهم بالقوة والسطوة، فهم قضاة بلا قانون، إلا قانون السلطة المفروضة غوغائيًا، وثمنًا لبعض الانتصارات المحدودة على الفلسطينيين، وبلا شريعة لا مكتوبة، ولا محفوظة في الصدور، ولا محكمة؛ لأنه لم تكن هناك دولةٌ لها نظم وحدود.

- أن شريعة موسى قد ضاعت، وصارت نسيًا منسيًا، ولم يعد يذكرها أحد إلا من بعيد جدًا، حتى وجد حلقيا الكاهن الأعظم في هيكل سليمان - بعد قرنين من موت سليمان، وأثناء أعمال العمارة والترميم - «سفرًا»، فلما قُرئ على الملك يوشياهو صرخ وبكى وشق ثيابه وأعلن أنه «كتاب الشريعة» التي أضاعها أسلافه! كيف تأكد من ذلك؟! ألأنه وُجد في الهيكل؟ هذه يمكن أن تكون قرينة لمن يظن أنها توراة موسى، وإن ساق «درايفر» ناقد التوراة البريطاني الحديث رأيًا أقرب إلى المعقول في مقدمته لدراسة العهد القديم، يرجح فيه أن هذا السِّفْر الذي وجدوه وقرؤوه في جلسة واحدة أقرب إلى أن يكون سفر التثنية، آخر أسفار التوراة الخمسة، وهو ملخص قضائي للأسفار الأربعة السابقة المملوءة بالحوادث التاريخية والمعجزات والخلافات والحروب. ويتضح - كما يقول الباحثون - أنه لكاتب متأخر عن موسى، كتبه ليكون مرجعًا سهلاً وسريعًا لفض المنازعات بين الناس، بدليل أنه الوحيد في التوراة الذي يتكلم على النظام الملكي عند بني إسرائيل، ولم يعرفوا هذا النظام إلا بعد موت موسى بزمن طويل، قرابة أربعمئة عام. ثم إن هذا السفر يذكر بوضوح في نهايته موت موسى ودفنه، وأن قبره غير معروف، إذ يقول الكاتب لهذا السفر: ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا! (التوراة - سفر التثنية - 34:6).

4- أن كل ما أمر به موسى في شريعته لم يكن يعمل به أحد حتى توحيد الله، إذ كان اليهود - كما رأينا - يقدمون القرابين للبعل وعشتروت والكواكب وبروجها، ويحرقون أطفالهم بنين وبنات للإله مُلُك في وادي جهنّم، بل يعبرون الأردن للحج إلى معبد الإله ملكوم. وبعد ذلك بثلاثة آلاف سنة تزعم الصهيونية بمنتهى الوقاحة أمام العالم أن بيدها توكيلاً من الله للاستيلاء على أرض كنعان (فلسطين) مكافأة لشعب الله المختار على قوة إيمانه وتقواه وطاعته لموسى! والأدهى من ذلك والأمرّ أن العالم يصدق هذا الهزل ضد ما يقوله رواة التوراة التي بين أيديهم من المسيحيين واليهود!

5- حرص كهنة الهيكل على حطام الدنيا والاستيلاء من دون وجه حق على تبرعات المتعبدين في الهيكل إلى أن تصدّع وتخرّب، واحتاج هذا الملك التقي يوشياهو إلى تخصيص لجنة لإحصاء النذور وصرفها في أعمال الترميم والتجميل. بل أفدح من ذلك أنهم أباحوا أركانًا من المعبد المقدّس لارتكاب الزنا واللواط، وسؤال المنجمين والعرّافات وأصحاب التوابع من الجن والمستفتحين بالأزلام والمتنبئين، ياللفوضى!

6- عملُ يوشياهو من إحراق أدوات الكفر وقتل العاهرات والمخنثين وكهنة الشرك والكفار وتذرية ذلك كله على قبور بني إسرائيل يمثل تعبيراً واضحًا عن تحميل الملك مسؤولية هذه الجرائم للغابرين من اليهود، واتهامه صراحة للكهنة والملوك وفيهم سليمان بن داود - جدّه - وقد ذكره باسمه.

- كلام (خلدة النبية) كلام ذكي جدًا؛ لأنه عامٌ وغير محدد إلاّ بشيء واحد، هو أن الله يريد شرًا بتلك الأمة بعد أن يلقى هذا الملك التقي يوشياهو ربّه، وقد تحقق ذلك فحلّ الشر بالمملكتين: إسرائيل الشمالية، التي انهزمت وأخذ الشتات بهزيمتها عشرة أسباط من بني إسرائيل اشتهرت باسم (القبائل العشر الضائعة)؛ لأنها أضاعت الدين، وأضاعت الانتماء، حتى قال شيوخ في التلمود: إن الناس جميعًا يكرهون اليهود، فإن كان فيهم من يحب اليهود فلابد أن يكون من بقايا القبائل العشر الضائعة. وهي خرافة تضاف إلى الرصيد التلمودي الضخم جداً من الخرافات. فاليهودي إنسان؛ نفسه وماله وعرضه حرام على أي شريك له في الإنسانية، وهو - على كل حال - له شريعة واضحة، وأخلاقية، ولكنه كثير التضييع لها. فموسى نفسه عندما فوجئ بعبادة العجل لم يحطم العجل، بل حطّم الألواح! ولكن الله رحمه؛ لأن غضبه هذا كان في سبيله، فغرس في ذاكرته أحكامها، قالوا: وألفاظها. وضاعت مع ذلك بين الكنعانيين في غزة و(قضاة) الأسباط في بني إسرائيل إلى أن استردّها منهم داود - عليه السلام -، بالمفاوضات، لا بالحرب، مع أنه كان رجل حرب. ثم ضاعت هذه أيضًا في مناوشات السامريين (مملكة الشمال) واليهود (مملكة الجنوب)، ثم في الحروب الطاحنة الماحقة التي كسر بها الأشوريون السامرة، وكسر بها الكلدانيون البابليون مملكة اليهود في أورشليم/القدس، وكانت التوراة وكتب الأنبياء وكتب الحكمة أي مجموع العهد القديم، من أوائل ضحايا هذه الحروب. ومع ذلك تشبث بها اليهود في نكبتهم - ربما أكثر من تشبثهم بها في دولتهم -، وظهر أنبياء في الأسْر والقهر مثل دانيال وحزقيال، كما ظهر في نيران المعارك التي سبقت هذه الأحداث الجسام أنبياء مخلصون لرسالتهم مثل إشعيا وعاموس وهوشع، وعشرات، بل مئات من الأنبياء الكذابين، كان منهم في أورشليم /القدس أثناء حصار جيش بختنصر لها خمسون

نبيًا كذَّابًا، يقودون المعارضة ضد النبي إرميا الذي كان يَعظُ بحلٍّ المشكلة مع بابل لا بالحرب والمقاومة، حيث القوى غير متعادلة، بل بالتفاهم والسلام ولو بخسارة، لأن الخسارة عقوبة المفرط القصير النظر، أو غير المتمسك بإيمانه، أو المشغول عن الأمة بما في الدنيا من شهوات وملذات.

ومما يلاحظه دارس نصوص ما بعد توراة موسى في أسفار «العهد القديم»، وهي ما يسمونه بالنصوص التاريخية التي تبدأ بيشوع (يوشع) بن نون، خليفة موسى وقائد جنده، وأول الداخلين من بني إسرائيل إلى فلسطين «أرض الميعاد»، ثم يليه سعيٌ سياسي حثيث إلى إقامة كيان سياسي لبني إسرائيل في هذه الأرض التي غزوها، أو تسللوا إليها، في جهود طائفة يحملون في فهرست أسفار العهد القديم اسم (القضاة). وتسميتهم باللغة العبرية (شوفطيم) وهي صيغة جمع من (شُوفط) ويعبرون بها عن (القاضي). ولكن (القاضي) تحمل معناه كلمة أخرى في العبرية والعربية وكثير من اللغات واللهجات السامية هي (ديّان). فما الفرق في المعنى بين (شُوفط) و (ديّان)؟ كلمة (شُوفط) قديمة في اللغة البابلية الأشورية، يرجع استعمالها إلى ما قبل تاريخ موسى، وكان معناها المهمة التي يقوم بها رجل تتوافر فيه العدالة والقوة وشدة الشكيمة، بحيث يصدر الحكم في المنازعات ويشرف على إنفاذه وتطبيقه، فهو باختصار (الحاكم). وفي مواضع من كتاب اليهود كان الملك يوصف بأنه (شوفط). ثم أصبح هذا - في وقت متأخر - اسما لوظيفةَ الحاكم في مدن المستعمرات الفينيقية اللبنانية على الساحل الإفريقي، ولاسيما في إمارة قرطاجة في تونس، بعد موسى بقرون طويلة. وحرّف القرطاجيون نطق الكلمة من الشين إلى السين (سُوفيط) وهو عندهم قاضي المحكمة العليا.

أما من يحملون لقب (شوفط) في التاريخ العبري فأناس من بني إسرائيل محاربون أشداء، قد يكون لديهم إلمام بالأعراف الشعبية في الفصل في المنازعات، ولكنهم كانوا يجهلون شريعة موسى جهلاً مطبقًا، وكان الالتجاء إلى القوة القتالية عند أكثرهم هو الحل المفضل للفصل في المنازعات. فهم على أكثر تقدير (رؤساء عشائر) وأحيانا (رؤساء عصابات) يُذكّروننا بمغامرات الزير سالم، أو أبي زيد الهلالي، أو السير الشعبية لسيف بن ذي يزن، أو الظاهر بيبرس، أو لبعض عباد الله الصالحين مثل السيد البدوي، أو عبدالسلام الأسمر، أو عبدالقادر الجيلاني. مع فارق مهم، هو أن مغامرات (قضاة إسرائيل) صارت لديهم وحيا سماويا يقرؤون منه في صلواتهم، ويستنيرون به في سلوكهم السياسي والاجتماعي مع غير اليهود، ويستلهمون منه الخطب والمواعظ، والقصص والقصائد والمسرحيات وأفلام السينما إلى الآن.

إهمال للشريعة وسفك للدماء بلا حدود!

وإذا كان يوشع بن نون هو خليفة موسى على بني إسرائيل، فإنه يبدو لقارئ سيرته على أنه فاتحة حقبة القضاة الأشداء الذين أخذ كل منهم بنصيب في فرض وجود بني إسرائيل على أرض الميعاد. وهو يحمل من موسى - عليه السلام - روحا من النبوة، فالرب يوحي إليه بما ينبغي عمله «وكان بعد وفاة موسى عبد الرب أن الربّ كلّم يوشع بن نون، خادم موسى، قائلاً: إن موسى عبدي قد مات والآن قم فاعبُر هذا الأردن أنت وجميع هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل» (يشوع 1: 1، 2). ثم يُوقّف على أبعاد مهمته العسكرية هذه «كل مكان تطؤونه بأخمص أقدامكم قد أعطيته لكم، كما قلت لموسى. من الصحراء ولبنان هذا إلى النهر الكبير، نهر الفرات، جميع أرض الحيثيين، وإلى البحر الكبير الذي في جهة مغارب الشمس، تكون حدودكم! لا يثبت أحدٌ أمامك طيلة أيام حياتك. كما كنت مع موسى أكون معك، لا أخذلك ولا أهملك (يشوع 1: 3 - 5). لكن الرب يقول في نفس هذا الموقف: «إنما تشدَّد وتشجع جداً لتحفظ جميع الشريعة التي أمرك بها موسى عبدي وتعمل بها، لا تحيد عنها يمنة ولا يسرة حتى تفلح أينما توجهت. لا يبرح سفْر هذه التوراة من فمك، بل تأمل فيه نهارًا وليلاً، لتحفظه، وتعمل بكل المكتوب فيه، فإنك بذلك تُقوِّم طرقك وحينئذ تفلح» (يشوع1: 7، 8). وإن كان تحالفه مع أمرأة كنعانية من أريحا تدير فيها بيتًا للزنا والفجور، ثم مكافأته إياها على إرشاد الغزاة إلى مقاتل أريحا أن تركها تعيش بعد أن قتل كل أهل البلدة أو شرّدهم واستولى على جميع ممتلكاتهم، ما عدا هذه المرأة - رحاب - وأهلها ليس من الأوامر المكتوبة بالنص في توراة موسى والله أعلم (يشوع 2: 8 - 22) وكذلك (يشوع 6: 22 - 25). ولازمت المعجزات يوشع، فقد انحسر ماء الأردن لجيشه حتى يعبر إلى أريحا، كما انحسر ماء البحر لموسى حتى يهرب بقومه من فرعون ويوشع في زمرتهم. وفي إحدى معاركه - معركة «جبعون» التي كان يواجه فيها ستة من ملوك الجنوب في أرض كنعان - أوقف الله له حركة الشمس والقمر حتى يواصل المعركة ويطارد المنهزمين في جبعون (يشوع - الفصل العاشر بتمامه). وقراءة سفره كاملاً تترك القارئ على يقين بأنه ترك الكنعانيين في فلسطين جثثا هامدة، وأقر بني إسرائيل في جميع أرجائها، وهو أمر يخالف واقعه هذه السيرة، فعلى ما يقرب من ثلاثة قرون مرت من بعد وبنو إسرائيل يناضلون في الاستقرار في أرض كنعان، ويخوضون مع (القضاة) وهم الأشدّاء الأبطال الأسطوريون من بني إسرائيل حروبا طاحنة ضد الكنعانيين.

ويبدأ سفر القضاة بأن بني إسرائيل قد أهملوا الشريعة، فسلط الرب عليهم «يابين» وهو واحد من ملوك الكنعانيين، وكان ذلك بعد أن حكم فيهم أول قضاتهم «عُثنيئيل» أربعين سنة، استنقذهم أثناءها من عسف أمراء العراق في ما بين النهرين، فعاشوا آمنين.

وبعد موته خلفه رئيس آخر هو إهُودن من سبط بنيامين، وبطولته أنه اغتال عجلون - ملك مؤاب - بسيف صغير ذي حدين، خبأه في ثيابه أثناء زيارة لهذا الملك. وانتهت المؤامرة - كما يقول الراوي - بقتل عشرة آلاف من رعية عجلون (القضاة 3: 16إلى آخر الفصل).

وخلفه «شمَجْر بن عناتْ»، وكان الفلسطينيون هدفا لضرباته، أخذ مرة منخاسا للبقر فقتل به ستمئة فلسطيني! (القضاة 3: 31).

ويتوالى أولئك المقاتلون (القضاة) وشريعة موسى غائبة منسية. وظهرت في مجتمع بني إسرائيل نساء أسطوريات منهن روث ونعومي ودبورة. وهذه الأخيرة كانت عرّافة اشتهرت بلقب «نبية» لأنها كانت تجلس على الطريق تحت نخلة بين الرامة (رام الله) وبيت إلْ (نابلس) وتنبئ من يسألها عن المكتوب له في القدر، ثم اشتغلت بتحريض قومها على قتال الكنعانيين وسائر من يسكن فلسطين من غير بني إسرائيل. واختارت مقاتلاً من قومها هو (باراق بن أبي نوعَم) لقتال (سيسرا) قائد (يابين) ملك الكنعانيين. ثم تم اغتيال هذا القائد وهو نائم في خيمة امرأة من صديقات دبورة هي (ياعيل) القينية. وأنشدت دبورة بهذه المناسبة قصيدة حماسية تعد من أقدم نصوص الشعر الحماسي في الأدب العبري (القضاة - الفصل الرابع).

ويتوالى هؤلاء المغاوير من بني إسرائيل، وسيَرُهم ممتلئة بالمبالغات. فنرى (القاضي جدعون) مثلاً يخرج للقاء المديَنيّن بجيشهم المكون من مئة وخمسة آلاف، ولم يكن معه إلا 300 رجل

أضاعوا شريعته!

فقط، فيهزمهم ويأسر ملوكهم ولا يبقى من هذا الجيش العرمرم غير ألف وخمسمئة رجل!! وبعد موته عاش اليهود في فلسطين وشرق الأردن في عزة ومنعة وسلام.. أربعين سنة. «وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل عادوا إلى الفجور باتباع الأصنام. واتخذوا لأنفسهم (بَعَلْ بريت) إلهًا.

ولم يذكر بنو إسرائيل الرب إلههم الذي أنقذهم من أيدي جميع أعدائهم المحيطين بهم، ولم يحسنوا إلى عشيرة جدعون - آل يروبعل - نظير الخير الذي عمله لإسرائيل» (القضاة 8: 33- 35).

وهذا قاض آخر اسمه (أبيملك) من أبطال التآمر والقتل واغتصاب السلطة والرئاسة. وكان في ذلك كله يستعين بأخواله في شكيم على أعمامه وإخوته من عشيرة يروبعَل في عُفرة، وهكذا قتل سبعين رجلاً من عشيرة أبيه. وبعد هذا كله مات قتيلاً بحجر رحى ألقته عليه امرأة من شكيم، العشيرة التي اعتمد عليها في الوصول إلى الرئاسة! واستمرّ بنو إسرائيل في الفوضى، وتجاهل شريعة موسى، حتى الإيمان بالله تعالى. ونختتم هذه السلسلة من القضاة باثنين فاقا الأقران في العنف والحماقة وعدم الإيمان:

أولهما أشهر من نار على علم. فهو (شمشون) الجبّار، ابن مَنُوَحْ من سبط دانّ، وكان أبوه يعيش في بلدة «صُرْعَه» مع زوجة عاقر. فظهر لها ملاك الربّ وبشرها بغلام، وأمرها ألا تأكل - في أثناء حملها - إلاّ حلالا نظيفًا، وألا تشرب خمرًا، وأن تنْذُر الولد لخدمة الله، فلا تحلق شعرة واحدة من رأسه لأنه سيكون منذورا لله، ومخلّص بني إسرائيل من الفلسطينيين! (القضاة: 13: 2 - 6).

وُلد شمشون وشبّ، وصار عملاقًا ذا قوة تدهش الجميع. ولكنه في تنقلاته في أرض كنعان رأى فتاة فلسطينية أحبّها واقترن بها ضد رغبة أبيه وأمه، وكان الفلسطينيون في ذلك الزمان متسلطين على بني إسرائيل. وظهرت بوادر قوته وجبروته عندما كان يسير مع أبويه إلى عشيرة زوجته، إذ طلع عليهم أسد فتي يزأر ويهجم. فأخذه شمشون وفسخه نصفين من غير أي سلاح. وفي رحلة العودة رأى رمّة الأسد وقد عشش فيها النحل، وبنى قرصًا من العسل، فأخذه وأكل منه وأعطى أبويه فأكلا (كانت زوجته تعتمد على حبه لها في أن تستخلص منه ما تريد من الأسرار والمعلومات).

وأحس أن امرأته الفلسطينية تبوح بأسراره للفلسطينيين، فغضب وقرر محاربتهم بمفرده، فنزل إلى عسقلان وقتل منهم ثلاثين رجلاً، وأخذ ثيابهم فوزّعها على أهل زوجته، جائزة لهم على كشف أسراره بتوسط زوجته. وفي قصة زواجه الخاسر هذا أراد أن يقوم بتخريب حقول الفلسطينيين، فاصطاد ثلاثمئة ثعلب (الراجح أنه ابن آوى) وربط في ذيل كل اثنين منها شعلة وأطلقها في الحقول فأحرقت كل ما فيها حتى أشجار الزيتون. وطالب الفلسطينيون أهل يهوذا بتسليم شمشون إليهم، فأوثقوه بحبال متينة من الكتان وجرّوه إليهم، فلما رأى جموعهم تمطّى في الحبال فقطعها، ثم أبصر حمارًا ميتًا فنزع فكه وقتل به ألف رجل من الفلسطينيين!! وبعد هذه المغامرات ذهب إلى غزة، ووجد هذا الرجل «المنذور الناسك لله على يد الملائكة» امرأة من البغايا فبات عندها، وطار خبره إلى أهل البلد فكمنوا له حول البيت وأغلقوا باب المدينة الكبير. فنزعه من مكانه وحمله بكامل أجزائه وهرب إلى قمة جبل في مواجهة مدينة الخليل. ثم إذا به يقع في حب فلسطينية أخرى هي دليلة. وتواطأت هي مع قومها حتى عرفت منه أن سرّ قوته في شعره الذي لم يُحلق منذ أن وُلِدَ. وبعد حكايات ومسامرات عرفت منه هذا السرّ الخطير، بعد أن حاول أكثر من مرة أن يضللها. فاحتالت حتى حلقت له شعره، فذهبت قوته وأخذه أهل غزة فأعموا عينيه وشدوا عليه سلاسل من النحاس ووضعوه في السجن يدور في طاحونة ثقيلة جداً أعوامًا طويلة حتى طال شعره وعادت إليه قوته. وفي عيد من أعيادهم الوثنية سحبوه إلى المعبد ليراه الجمهور ويشمتوا به. فوقف بين دعامتين تحملان المعبد، ودعا الله أن يمكنه من الثأر ثم دفع العمودين، فانهار البناء وأهلك من فيه جميعًا، وفي مقدمتهم شمشون (القضاة، الفصول 13إلى 16). ويقول شيوخ التلمود إن شمشون عوقب بقلع عينيه لأن نظر بهما إلى نساء أجنبيات.. بشهوة.!!

والنموذج الثاني من أولئك القضاة هو (يفتاح). كانت أمه بغيًا محترفة، أنجبته من إسرائيلي من «زبائنها» اسمه «جلعاد»، وكان جلعاد متزوجًا وله من زوجته أبناء. فلما كبروا، ومات أبوهم، طردوا يفتاح وأمه بلا ميراث ولا نفقة؛ بحكم أنهم غرباء عن بني إسرائيل. وأصبح يفتاح من شُذّاذ الآفاق، وتزعم عصابة من القتلة واللصوص، ثم إن بني عمّون (عمّان) حاربوا بني إسرائيل وهزموهم. فقرر شيوخ إسرائيل أن (يستفيدوا) من يفتاح ويستعينوا به في ردع العمّونيين. وبعد جدل طويل كان ملك العمونيين يطالب فيه بالأرض في مقابل السلام (نعم منذ أكثر من ألفين من السنين!)، وكان ابن البغيّ هذا يماطل ويسوق المسوّغات والعلل، حتى اندلعت الحرب بين الطرفين، وعاد منها يفتاح منتصرًا، فنذر لله - يا للعجب! - أن أول من يستقبله عند عودته إلى بلده سيذبحه قربانا لله ويحرقه احتفالا بالنصر. فهذا القاضي لم يسمع حرفًا واحدًا من توراة موسى، وإنما كان قاطع طريق وكان سفاحًا لا يفكر في شريعة، ولا عرف ولا قانون. ويشاء الله أن يبين له خطيئته، فتكون ابنته هو أول من يسرع للقائه وتهنئته! وأصر هذا الأحمق على إنفاذ نذره وسط تضرع الناس وبكاء النساء اللائي يعرفن ابنته «وهي وحيدة، لم يكن له ابن أو ابنة غيرها» (القضاة 11: 24)، ومع ذلك أصرّ هذا المتوحش على نذره، ووافق على أن يمهل البنت شهرين تخرج أثناءهما في مأتم من الصبايا للبكاء على شبابها وبتوليتها! وفي نهاية الشهرين أنفذ نذره فقتلها وقدمها قربانًا لله!! «فصارت عادة عند بني إسرائيل أن تخرج الصبايا كل سنة للنوح على ابنة يفتاح الجلعادي أربعة أيام كل عام» (القضاة 11: 39، 40).

كان لابد، والحالة هذه، أن تنفضّ هذه الزحمة من (القضاة) الذين يحاربون ويقاتلون ويحكمون بالقوة، وبالإرهاب، بلا شريعة، ولا أخلاق، كل يتبع هواه، وأن يعيش اليهود مثل باقي خلق الله، حياة طبيعية، على قدم المساواة مع البشر جميعًا. وقد بدأ هذا مع داود - عليه السلام -؛ فحياته تمثل العبور من تقاليد القضاة الإرهابية إلى أخلاق من يحبون السلام من عباد الله، وتأكد هذا في عهد ابنه سليمان - عليه السلام -، ثم أصيب اليهود بعده بالشقاء والتفرق والتمزق الذي كان يلازمهم منذ أيام موسى - عليه السلام - وإلى أيامنا هذه. وقد نعود إلى بحث هذه الظاهرة إن شاء الله.

التآمر والقتل واغتصاب السلطة كانت سمات عهد «القضاة» الذي اصطبغ بالدماء. وقد بلغ هؤلاء «القضاة» حدوداً من الغدر وسفك الدماء لم يبلغها أحد من الطغاة من قبل!



حق الطفل في "المشاركة"

في ضوء الوثائق العالمية لحقوق الطفل



عبدالتواب يوسف

إذا ما رغبنا في الحديث عن حق الطفل في «المشاركة» وجدنا أنفسنا أمام العديد من النصوص التي استخدمت هذه الكلمة بشكل مباشر، أو استعملتها ضمنًا، ومن الممكن أن نتخذ من هذه الوثائق مرتكزًا ومحورًا، تدور من حوله تأكيدًا لهذا الحق، وممارسته له، بشكل عملي وواضح. وقد تنبه لذلك في وقت مبكر «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» - عامة - الصادر عام 1948م، كما نصت عليه «اتفاقية حقوق الطفل» التي وافقت عليها غالبية الدول في أواخر الثمانينيات، وأشارت إليه وثيقة الإعلان العالمي لبقاء الطفل وحمايته ونمائه، كما أقرها المجتمعون في مؤتمر القمة العالمي من أجل الطفل الذي عُقدَ في إطار الأمم المتحدة في 30 سبتمبر/أيلولَ عام 1990م.

أولاً: تنص المادة 31 من اتفاقية حقوق الطفل التي اعتمدت في 30 نوفمبر/تشرين الثاني 1989م على ما يلي:

1- تعترف الدول الأطراف بحق الطفل في الراحة ووقت الفراغ ومزاولة الألعاب وأنشطة الاستجمام المناسبة لسنّه والمشاركة بحرية في الحياة الثقافية وفي الفنون.

2- تحترم الدول الأطراف وتعزز حق الطفل في المشاركة الكاملة في الحياة الثقافية والفنية، وتشجع على توفير فرص ملائمة ومتساوية للنشاط الثقافي والفني والاستجمامي وأنشطة أوقات الفراغ.

ثانيًا: ينص الإعلان العالمي لبقاء الطفل وحمايته ونمائه على.. مادة 15: ويجب توفير الفرصة لجميع الأطفال لاكتشاف ذواتهم وإدراك أهميتهم في ظل بيئة آمنة مكفولة، من خلال الأسر والجهات الأخرى المعنية برعايتهم ورفاههم، كما يجب إعدادهم لتولي المسؤولية في ظل مجتمع حر، وتشجيعهم منذ سنواتهم الأولى على المشاركة في الحياة الثقافية لمجتمعهم.

ثالثًا: ومما جاء في المادة (7) من الإعلان العالمي لحقوق الطفل الصادر في 20 نوفمبر/ تشرين الثاني 1959م:

«ومن الواجب أن تتاح للطفل فرصة للترفيه عن نفسه باللعب والرياضة اللذين يجب أن يستهدفا نفس الغاية التي يرمي التعليم والتربية إلى بلوغها، وعلى المجتمع والذين يتولون السلطات العامة أن يعملوا على إتاحة الاستمتاع الكامل بهذا الحق للطفل».

رابعًا: وجاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في العاشر من ديسمبر/كانون الأول عام 1948م:

المادة العشرون: لكل شخص الحق في الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية.

المادة الحادية والعشرون: لكل فرد الحق في الاشتراك بإدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة، أو بوساطة ممثلين يُختارون اختيارًا حرًا.

المادة الرابعة والعشرون: لكل شخص الحق في الراحة، وفي أوقات الفراغ.

المادة السابعة والعشرون: لكل فرد الحق في أن يشترك اشتراكًا حرًا في المجتمع الثقافي، والاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه.

خامسًا: تنص وثيقة عقد حماية الطفل المصري في الفقرة السابعة على إعطاء الطفل المصري نصيبًا عادلاً من الثقافة بكل فروعها من: آداب، وفنون، ومعرفة، وإعلام.

كما تنص المادة 8 على ما يلي:

توفير المساحات الرياضية وأماكن ممارسة الهوايات التي تنمّي الإبداع في المدارس والأحياء التي لا تتوافر فيها هذه الأماكن في موعد أقصاه 1999م.

سادسًا: وورد في «المنهج الإسلامي في رعاية الطفولة» الصادر عن لجنة من الأزهر الشريف واليونسيف ما نصه:

«ومشاركة الطفل في إبداء الرأي مهما كان رأيه سخيفًا، أو بسيطًا، أو بعيدًا عن تصور المشكلة، أو أخذ رأيه في المشاكل وعدم الاستخفاف به، وتوضيح ما في رأيه أو ما شاب رأيه من خطأ، وإبداء الرأي الصحيح أمامه سواء كان رأيَ والد أم والدة، مشاركة الطفل على هذه الصورة شيء يستحق الاهتمام والعناية، إنه يصوغ الصبيَ صياغة جديدة ويوجهه التوجيه السليم، وبهذا نكون قد استفدنا في تربيته من عدة جهات:

أ ـ تعويده إبداء الرأي في المشاكل وإحساسه بها وتفاعله معها.

ب ـ بيان ما في رأيه من خطأ يجعله يفكر في صياغة الرأي واتخاذ القرار.

ج ـ إبداء الرأي من الكبار وتوضيح ما فيه من صواب يجعله يفكر أيضًا، كيف يصدر القرار.

د ـ يتعود المناقشة الحرة الهادئة فيما يتصل بالمشكلات حتى لا يقف أمام حلها عاجزًا، وجرأته في حلها وبيان أوجه الصواب والخطأ.

هـ ـ إننا بذلك نعده للغد ولمستقبله ومواجهة المشكلات التي تعترضه.

و ـ نباعد بينه وبين أن يكون إمَّعَةً، تافهًا لا رأي له، ونعوده على المشاكل حتى لا تفاجئه، فتدهمه فيسقط ويضل ويضيع وتأتي عليه إتيانًا فظيعًا.

توحيد المصطلح فيما يتعلق بالمشاركة

ولكي لا «يشترك» الأمر (أي حتى لا يختلط ويلتبس كما يقول المعجم الوسيط) نود أن نوضح أن كلمة «المشاركة» في المادة (31) من اتفاقية حقوق الطفل هي ترجمة لكلمة Participate وتعني لغويًا: إدخاله في الأمر، وهي تستخدم كثيرًا في الحياة اليومية بمعنى كلمة Share التي تميل أكثر إلى «اقتسام» الشيء أو الأمر، وصولاً إلى كلمة Cooperate أي تعاون.

والمشاركة فيها واضحة: *وتعاوَنُوا على البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدْوان*. **المائدة:** 2. في مقابل التمركز حول الذات والأنانية والفردية، التي يمكن أن تصلَ بنا إلى التسلّط (الدكتاتورية)؛ بينما تسعى المشاركة إلى تأكيد معنى الجماعة (الديمقراطية).

ونجد أنفسنا هنا أمام كلمة تتسع لأكثر من معنى، ولها العديد من التفسيرات، الأمر الذي يصعب معه تعريفها تعريفًا جامعًا مانعًا محددًا، لكنها تمتد فيما نتصور على جبهة طويلة وعريضة، تبدأ من نبذ محاولة الطفل التمركز حول ذاته، والعزلة، مما قد يقوده إلى «الفردية» و«الأنانية» مرورًا على الانفتاح على الآخرين، ومشاركتهم في الحياة الاجتماعية، بدءًا من اللعب، والتعبير عن الفكر والرأي، إلى أن نخلق منه شخصية متعاونة متوازنة.

وإذا كانت المواثيق التي أشرنا إليها تركز على المشاركة في الأمور الثقافية والترويحية، وفي المجتمعات والجماعات السلمية، إلا أنها تتجاوز ذلك إلى الاهتمام بالقضايا العامة لبلاده، وصولاً إلى الأمور الإنسانية عامة والعالمية، مع الاستفادة من التقدم العلمي على المستوى الدولي.

لذلك تقودنا كلمة «المشاركة» إلى مساحة عريضة تتحتم فيها مشاركة من الصغار فيما بينهم وبين الكبار، ومشاركة فيما بينهم ، بعضهم مع بعض، من أجل أن تستقيم أمور الحياة عامة، وحياتهم خاصة. وإذا كانت «المشاركة» حقًا من حقوق الطفل في العديد من جوانبها، إلا أنها في جوانب أخرى واجبة، ملزمة، ولابد من تربيته وتدريبه عليها في نواحيها كافة: لعبًا، ورأيًا، وممارسة لخيره، وصالح مجتمعه والإنسان عامة.

و«المشاركة» بوصفها قيمة، تضعها سلسلة (كتب جيدة للأطفال) عنوانًا أساسيًا لمجموعات قصصية تستهدف غرس المشاركة في نفوسهم، وهذه السلسلة يصدر منها كتاب كل خمس سنوات يتضمن مسارد (بيليوجرافيا) شارحة لقرابة 1400 كتاب نشرت خلال هذه المدة، ويشير الفهرس ـ مثلاً ـ إلى أن ثمانية كتب صدرت للسن الصغيرة عن «المشاركة» وستةٌ للسن المتوسطة وكتابين للأعمار الكبيرة:

Primary grades, 44, 183, 412, 804, 927, 1269, 1389, 1390.

Intermediate grades, 35, 121, 401, 464, 1033, 1169.

Junior high school, 511, 689.

ونحن نعرف أنه ما من حق إلا ويقابله واجب، ونعلم عن يقين أن الحياة لا تعطي شيئًا من دون مقابل، وإذا كانت كل هذه المواثيق تمنح الطفل الحق في المشاركة، فمما لا شك فيه أن هذا الحق يفرض عليه واجبات عدة، ومن بين ذلك أن تكون المشاركة: إيجابية وعادلة، ولصالح الأطراف كافة، وألا يستأثر طرف منها بثمارها: *تلك إذًا قسمةٌ ضيزَى*. **النجم:** 22.

وفي تراثنا العربي، والشعبي، ما يسترعي أبصارنا إلى هذه المشاركة، من بينها المثل الشعبي: «الإيد وحدها ما تصفقش». وكم كان ممتعًا أن أراقب صغيرًا سمع هذه العبارة فراح يحاول ويجرب أن يصفق بيد واحدة!. وهناك أيضًا «القفة أم ودنين، يشيلوها اثنين». ونستطيع أن نورد الكثير في هذا المجال من خلال التعاليم الدينية، أو القيم والأخلاق ذمًا للأنانية والفردية، وامتداحًا للمشاركة، والتآزر، والتكاتف والتعاون. وهذه المشاركات لها عدة صور:

فهي قد تكون في اللعب والرياضة، وقد تكون في الممارسات اليومية، وربما تتجلى بوضوح في إبداء الرأي، وتتأكد بتحمل جانب من مسؤوليات العمل والحياة. وإن كانت الكلمة قد وردت مرتبطة بالثقافة والترويح ووقت الفراغ.

حق المشاركة في مجال اللعب والرياضة

لا أظن أن هناك كلمة تتردد على ألسنة الآباء والأمهات في المجتمعات الغربية مثل كلمة: Share، وتشاركها في الترديد عبارتان: my turn, your turn. وتعني الأولى شارك أو اقتسم اللعب، أو الطعام أو ...

وترمي الثانية إلى أن لكل فرد الحق في أن يأخذ دوره، مشاركًا زميله في «اللعب» كما يحدث إذا لم توجد غير أرجوحة واحدة أو دراجة، يتبادلان استخدامها. ومنذ سن ما قبل المدرسة تحاول الأسرة، ودور الحضانة والرياض غرس مفهوم «المشاركة» لدى الأطفال، وتحفل أدبياتهم بالكثير في هذا الصدد، وتحت أيدينا نموذج واضح وجيد. إنه كتاب صغير للفنان الهولندي ديك برونا، بعنوان «كتاب من دون كلام»، نستطيع أن نقدم منه صورًا لبعض صفحاته، من دون كلام أيضًا، لندلل على تلك الرغبة العارمة من جانب الكبار لغرس مفهوم «المشاركة» في اللعب بالذات، فيما بين الأطفال، ومحاولة إشعارهم بأن متعة اللعب لا يمكن أن تتأتى بغير ذلك، بل متعة الحياة أيضًا. وليس هناك أطرف للتدليل على ذلك من قول الأم لطفليها أمام قطعة من الكعكة:

ـ واحد منكما يقسمها، والثاني يختار.

ذروة من ذرى العدالة والمشاركة نود لها

أن تدوم وتتأصل.

والمعروف أن الرياضة والألعاب الرياضية بشكل عام، لا تستقيم بغير «شريك» حتى ولو كان هذا الشريك منافسًا. ويتبدى ذلك بوضوح في الرياضات الفردية، مثل تنس الطاولة، والتنس الأرضي، فما من سبيل لأن يلعبها فرد بذاته، إذًا لابد من «شريك». كما أنه قد أصبح في هذه اللعبة ما هو مزدوج، حين يشارك اثنان في مباراة ضد اثنين آخرين.

والأمر أوضح من أن يشار إليه، وذلك في اللعبات الرياضية الجماعية مثل كرة القدم وكرة السلة، وكرة اليد، والهوكي، إذ إن جماعية اللعبة شرطها الأساسي مشاركة الفرد مع فريقه، ومشاركة فريقين في المنافسة على الفوز.

وأول شروط اللعبات الجماعية ما نسميه التمتع بالروح الرياضية، وفي مقدمة ما تعنيه «إنكار الذات» الذي لا يعني المشاركة فحسب، بل الذهاب فيها إلى أبعد مدى، ونقصد بذلك أن ينكر «الفرد» ذاته، من أجل الجماعة، وهذا في تقديرنا «ذروة» تستهدفها المشاركة.

ولا نظن أننا بحاجة إلى تفاصيل كثيرة حول قدرة الرياضة على جعل الطفل يستمتع بحقه في المشاركة، بجانب غرسها في نفسه ليتمسك بحقه هذا، في مقابل أداء واجبه خلال المشاركة بالتفاني وإنكار ذاته؛ لأن الجميع يلعب فريقًا متجانسًا.

المشاركة المتبادلة ما بين الآباء والأطفال

ونحن - معشر الآباء - مطالبون بمشاركة أطفالنا في حياتهم اليومية، ومما لا شك فيه أن الاستماع إليهم من الأمور البالغة الأهمية، كما أن رواية الحكايات والقصص فيها لون من المشاركة، تقول عنه آن بلوسكي: لن نستطيع أن نحصل على موعد مع أم ألمانية في ساعة ما قبل نوم طفلها، فهي مشغولة بهذا الأمر الذي يجدر بنا ألا نستهين به مطلقًا، هي تحكي أو تقرأ له، لحظة حميمة، تنسى فيها ما أرهقها به طول النهار من أفعال صبيانية عابثة، وينسى هو أيضًا أوامرها ونواهيها على مدى اليوم، ومع رواية القصة والمشاركة فيها يغسل كل منهما ما في نفسه تجاه الآخر، وينام سعيدًا، وتغادره راضية.

ويسعى الأطفال إلى أن يشاركهم الكبار في كثير من أمورهم.. يريدونهم أن يسمعوا أحداث مدرستهم، وما يفعله زملاؤهم، ومعلماتهم ومعلموهم، وقد يجأر الصغار بالشكوى، وساعتها من المهم أن نعطيهم آذانًا صاغية. والقطيعة التي تحدث في بعض البيوت ما بين الكبار والصغار، خطيئة ضخمة. نحن مطالبون بأن نشاركهم في لعبهم وألعابهم، ذلك يزيدنا معرفة بهم وقربًا منهم.

وقد روي البخاري في كتاب الأدب أن أبا هريرة - رضي الله عنه - قال: قَبَّلَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قَبَّلْتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: «من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ».

وما من شكوى للأطفال من الكبار قدر تلك التي يعلن فيها الصغار أن أحدًا لا يسمعهم ولا يبالي بهم، ولا يحس بوجودهم، وأنه لا يؤبه لهم، أو لأفكارهم ومقترحاتهم.

ومن حق الطفل على أسرته أن توليه اهتمامها، وأن تمنحه كيانًا خاصًا، وأن تشاركه في مشاعره إزاء ما يجرى في حياته عامة، وحياته المدرسية خاصة، وأن تتابع ذلك في اهتمام.

وهناك خطأ نقع فيه نحن الكبار حين نحاول أن نحول أطفالنا إلى مجرد متلقين فيتربوا على السلبية، (وخير نموذج لذلك ما يحذرنا منه أساتذة التربية في الغرب من أن كثيرين من الآباء يعدّون أبناءهم أكوابًا صغيرة للشاي، وأنهم - أي الكبار - أباريق، تسكب ما فيها في هذه الأكواب. وقد عبر عنها الصينيون بأننا نقوم مع الأطفال بما يقومون به مع البط البكيني حين يقومون بعملية «التزغيط» له كي يسمن).

من حق الطفل على أسرته أن توليه اهتمامها، وأن تمنحه كيانا خاصا، وأن تشاركه مشاعره إزاء ما يجري في حياته، وأن تتابع ذلك في اهتمام

إن المشاركة خير رد على التلقين معرفة ووعظًا.. فنحن لن نستطيع أن نقدم لهم ما يكفي من المعرفة، ولابد لهم من أن يتعلموا كيف يجدوها بأنفسهم، إذا نحن ساعدناهم بتعريفهم مصادرهَا. كما أنهم سيكونون بالتجريب أكثر إدراكًا للخطأ والصواب من تلك النصائح الفجّة التي نوجهها لهم ليل نهار.. المشاركة وحدها هي السبيل الأمثل للتعلم والتثقيف، واختيار الخير والفضيلة سبيلاً في الحياة.

المشاركة بالرأي حق طبيعي للطفل

روت لي مقدمة برامج الأطفال في الإذاعة المصرية السيدة فضيلة توفيق «أبلة فضيلة» موقفًا ما نسيته هي، منذ حدث، ولا نسيتُه أنا، منذ سمعته، كانت تسأل زوجها سؤالاً تقليديًا:

- عاوز تاكل إيه النهارده؟! (ماذا تريد أن تأكل اليوم؟).

وكانت ابنتها - الطفلة يومئذ - معهما في هذه اللحظة، فقالت عبارة مدوية، مفاجئة لسيدة عملت للأطفال عمرها كله:

- أنا طول حياتي ما اتسألت السؤال ده.. هوه أنا ماليش وجود خالص معاكم؟! (لم يسألني أحد يومًا ما هذا السؤال ألست موجودة معكم؟).

وأضافت أبلة فضيلة: لقد نكست رأسي خجلاً من نفسي، فقد لقنتني طفلتي، درسًا تعلمت منه أن أشركها بالرأي فيما يدور من أمورنا في الحياة.

ونحن كثيرًا ما نغفل عن حقوق للأطفال تبدو واضحة، لكننا في زحمة الحياة نتجاهلها وذلك يحدث تأثيرًا سلبيًا وعميقًا في نفوسهم، يسكتون عنه غالبًا، ويعبرون عنه أحيانًا.

فهو شريك لنا في الحقوق، وتدريبه على التمسك بها واجب ملزم، وخاصة فيما يتعلق بإبداء الرأي، ويجدر بنا ألاّ ندفعه إلى كتمانه وإخفائه وعدم الجهر به، فذلك يصيبه بالإحباط. وقد سرَّني أن أرى ابني يضع أمام حفيدي - حين كان عمره سنتين - مجموعة من القمصان، ويخيره فيما بينها. إنه يدربه على الاختيار وعلى أن يحسنه، ويحاول أن يرقى بذوقه وهو يشاركه بالرأي، في هذه السن المبكرة.

ولست أدري لماذا لا نفعل ذلك، بإصرار واستمرار، ونحن أصحاب مقولة قد تنطبق على مثل هذه المواقف، وأعني بها العبارة الشعبية «خدوا فالكم من عيالكم»، فلماذا لا نحاول أن نأخذ منهم رأيهم التلقائي البريء، والذي قد لا يخطر لنا على بال.

تحكي أم - في واحد من كتب اليونيسكو صدر في العام الدولي للطفل - أنها كانت تصحب طفلها في سيارتها لأول مرة إلى الحضانة، ووجدته صامتًا، فسألته: فيمَ يفكر؟!. أجاب: كنت أفكر في الطريقة التي أستطيع بها أن أصادق زملائي في الحضانة. سألته: هل وجدتها؟! أجاب: نعم. سألتفت حولي باحثًا عن زميل في مشكلة وأحاول مساعدته، وبذلك نصبح أصدقاء.

لقد واجه الصغير مشكلة، هي البحث عن صديق. واستطاع أن يجد لمشكلته حلاً مُرضيًا، بل

رائعًا. وتدريب الأطفال على التفكير، وعلى التعبير، وعلى اتخاذ القرار من حقوقهم التي يجب أن تُحترم، ولسوف يتعود الصغير التفكير البناء إذا نحن أشركناه معنا، واستطلعنا رأيه، فإذا ما أخذنا به وثق في نفسه وقدرته على المشاركة. وإذا لم نعمل به، تعلم أن هناك الرأي الآخر، الذي له احترامه.

مشاركة الطفل بحرية في الحياة الثقافية لمجتمعه

وردت هذه العبارة في أكثر من وثيقة من وثائق حقوق الطفل، مرتبطة بأوقات الفراغ التي هي حق له، ليخفف عن نفسه عبء ساعات الدراسة الطويلة. والحقيقة أن الواجبات المدرسية ـ والدروس الخصوصية ـ تسلبه أغلب هذه الأوقات. ومن ثم حقه في الراحة والترويح. والطفولة العاملة، التي استفحلت مشكلتها مؤخرًا، يجب أن تكون لها هذه الحقوق ذاتها.

وقد دأبنا على تلخيص مجالات الثقافة والتركيز فيها على ممارسة الفنون. ومن بينها فنون الأدب، قراءةً للكتب والقصص والأشعار، ومحاولة ممارسة التعبير من خلالها، واكتشاف مواهبهم في سن مبكرة، يمكن معها تنمية هذه المواهب وذلك بجانب الفنون التشكيلية استمتاعًا بمشاهدة المعارض والمتاحف وممارسة للرسم والحفر والزخرفة، وقد يكون من بينهم فنان كبير في المستقبل.

كما أن هناك حرصًا على ممارسة الفنون الموسيقية استماعًا لها، ومحاولة للتدرب على العزف. وهناك الفنون الشعبية بحكاياتها وأغانيها، وحركاتها الإيقاعية، وممارساتها الحرفية واليدوية.

إن الفنون تغطي مساحة واسعة من أوقات الفراغ، كما أن الوسائل الثقافية وأجهزة الإعلام تسهم بشكل واضح في المحاولة الدؤوب لمشاركة الأطفال في الحياة الثقافية. قراءة للكتب والمجلات والصحف، وسماعًا للإذاعة، ومشاهدة للتلفاز، ومتابعة لمسارح الأطفال (خيال ظل وعرائس وبشري) وحضوراً لفيلم سينمائي أُنتج من أجلهم.

ومن الظلم البيّن في هذا العصر أن يعبر طفل مرحلة طفولة من دون أن يتاح له ذلك كله، وخاصة في المجتمعات الريفية التي لا يجد الطفل فيها فرصة مشاهدة مسرحية أو فيلم. إننا بذلك نفقده حقًا من حقوقه الأساسية ولاسيما ونحن نعد هذا الطفل لمنافسة أطفال يلقون من هذه الوسائل وتلك الأجهزة رعاية كبيرة، وخاصةفي اليابان وألمانيا وأمريكا. والمنافسة بين الطفل العربي والإسرائيلي يجب أن تُحسم لصالح أطفالنا،وبذا فإنه بات من الضروري والمحتم أن يستمتع أبناؤنا بحق المشاركة على أوسع نطاق في الحياة الثقافية من خلال الأجهزة الأخرى، التي تيسر لهم الاستمتاع بهذه الفنون مشاهدةً، وممارسة لها. وحرمانه منها، إضافة إلى قصور المدرسة في أداء دورها في هذا المجال، أمر لا يمكن السكوت عنه، ومن الضروري أن يتكاتف الجميع ويتعاونوا في هذا الصدد بكل السبل، حتى لا تتسرب منا جماهير الأطفال دون أن نزودها بالثقافة ونسلحها بالإعلام، من أجل «التعلم المستمر» و«التثقيف الذاتي» مستقبلاً، اعتماداً على أنفسهم بعد أن نهيئ لهم في طفولتهم ما يساعدهم على ذلك.

التدريب على ممارسة المشاركة في الأمور السياسية الوطنية والقومية

تبدو هذه المشاركة من خلال متابعة ما يجري على الساحة السياسية في البلاد، وذلك من خلال الصحف والمجلات، والإذاعة المسموعة والمرئية، وخاصة في الأوقات التي تحتدم فيها معارك الانتخابات أو الاستفتاءات. على أن المشاركة بالمعرفة فحسب تُعدّ ـ فيما نرى ـ موقفًا سلبيًا. ويتلافى ذلك بالتجربة العملية والممارسة من خلال تدريب الطلاب داخل مدارسهم على (الديمقراطية) وعلى انتخاب اتحاد للطلاب، ويبدأ ذلك من انتخاب ممثل لكل فصل دراسي، ويختار هؤلاء ممثلين للصف، ثم اختيار ممثل عن الصفوف والمدرسة كافة. ونتجاوز ذلك إلى اختيار ممثل عن مدارس الحي، وهكذا.. ويجتمع اتحاد طلبة المدرسة لكي يقرر (بالديمقراطية) بعض الأمور المتعلقة بما يدور في المدرسة، فقد يرى إقامة مقصف تعاوني ـ يقوم على المشاركة الاقتصادية في رأس المال، وفي توزيع السلع والأرباح ـ وغالبًا ما يكون بوساطة أسهم يشارك بها من يريد ويرغب.. ويقوم الطلاب بأنفسهم على العمل في هذا المقصف تأكيداً للمشاركة. وربما ينظر مجلس الاتحاد الطلابي في أمور رحلات مشتركة يجمعون اشتراكاتها وينظمون أمورها. ولا شك أن ذلك كله يتم من خلال مدير المدرسة ومعلميها بالإشراف من بعيد، ومن دون فرض لرأيهم، بل عليهم أن يتركوا الفرصة للطلاب لممارسة (الديمقراطية)، وإبداء الرأي، وتقرير الأمور بالأغلبية، وما إلى ذلك؛ مما يوضح لهم أن من حقهم أن ينتخبوا ويختاروا ممثليهم، وأن يرشح كل منهم نفسه، إذا تصور أنه قادر على تمثيل زملائه، وله أن يقترح، وأن يدلي بصوته تأييداً لمشروع ورفضًا لآخر. وقد نقلت إلينا وكالات الأنباء مؤخراً أن الأطفال في أحد الانتخابات، وبلا خبرة مسبقة، استخدموا أساليب الكبار في محاولة الحصول على الأصوات وذلك بتقديم الحلوى والشكولاتة للمرشَّحين، وما إلى ذلك.

وللأطفال أيضًا الحق في تكوين الجمعيات والانضمام إلى الجماعات السلمية، ويكفي أن نشير هنا إلى خطورة عدم الالتفاف إلى هذه الأمور، فقد استخدمتهم بعض الجماعات الإرهابية، وتجار السموم، في أعمالهم الخارجة على القانون.

وأولى بنا أن نكون يقظين إلى هذه الأمور، وأن تكون تحت أعيننا وأبصارنا، حتى لا ينحرفوا بهم عن سواء السبيل. وإذاعة المدرسة، وصحف الحائط والمحاضرات والندوات كلها سبل لتأكيد حقوق الطفل في الإعلان عن مشاركته في الأمور الوطنية، ومواكبة الاحتفال بمناسباتها، بجانب الأمور ذات الطابع القومي، ويمتد ذلك إلى الشؤون العالمية والإنسانية عامة.

وبعد؛

نحن لا نظن أننا قد وفينا هذا الموضوع حقّه، إذ إن «المشاركة» من قبل الأطفال أمر يبلغ من الاتساع ما لا يمكن أن نحيط به من كل جوانبه، رغبة من جانبنا في الإجهاز على سلبية الصغار، ومحاولة حشد أذهانهم بالتلقين عوضًا عن تدريبهم على الحصول بأنفسهم على المعلومات، وبذلك الجهد في وعظهم وإرشادهم ونصحهم بدلاً من أن يدركوا «الخير» من الحياة ذاتها، ومن القدوة، ومن التجريب والخبرة. إنهم بالمشاركة يعيدون صياغة أنفسهم، وصناعة مستقبل أفضل، يكونون فيه إيجابيين ومبادرين ومحققين لما نرجو من آمال كبار. لذلك فإن هذه المحاولة التمهيدية، في تقديرنا، لها أهميتها، وهي ضوء في طريق طويل، لابد من أن يمضي آخرون عليه، لنصل إلى عمل علمي متكامل حول قضية لم نولها ما هي جديرة به من عناية واهتمام، ونتطلع مستقبلاً إلى المزيد من الدراسات العلمية والميدانية بغية الوصول إلى تحقيق هذه المشاركة على الشكل الذي نرتضيه، واستهدفته وثائق حقوق الطفل.

المراجع:

1ـ المواثيق الخاصة بحقوق الطفل: اتفاقية حقوق الطفل. الإعلان العالمي لحماية الطفل وبقائه ونمائه. الإعلان العالمي لحقوق الطفل. الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وثيقة عقد حماية الطفل المصري. المنهج الإسلامي في رعاية الطفولة.
2ـ ديك برونا، كتاب: من دون كلام.
3ـ عبدالتواب يوسف، الكلمات السحرية، دار الفلاح بالكويت.
4ـ عبدالتواب يوسف، حول حقوق الطفل، دار الفكر العربي، القاهرة 1995م. (الحومة. تسقط الطاعة العمياء. إني أعترض. أحمد شايل سيفه. أبي: قل نعم!).
5ـ حق الطفل في اللعب ندوة علمية أقامتها إدارة الأسرة والطفولة، وزارة الشؤون الاجتماعية 1990م.
6ـ أين تستمتع بوقت الفراغ، وليم منجز، د. غنام، د. القوصي، سلسلة دراسات سيكولوجية.
7ـ أوقات الفراغ والترويح، د. عطيات محمد خطاب، دار المعارف، 1978م.
8ـ وقت الفراغ وتطوره، فوانك جوبو، السيد حامد زغلول، نهضة مصر 1966م.
9ـ برامج الترفيه، إيلا جاردنير، د. عبدالمنعم شوقي، دار المعارف.
10ـ كتب جيدة للأطفال، جامعة شيكاغو (بالإنجليزية): 1950-1966/65-1972م، 1972-1978/78-1994م.

بين الإعلام والثقافة علاقة ودٍّ أم خصام؟

د. عبدالقادر طاش

تعدّ كلمة الثقافة من الكلمات الفضفاضة التي يصعب تعريفها بدقة وترسيم الحدود الفاصلة لها. ولكنها كلمة رنّانة ومحبّبة وذائعة الصيت. ولذلك لا أرى بأسًا في استخدامها بمدلولاتها الفضفاضة عندما نحاول بحث علاقتها بالإعلام. ولكيلا يغضب مني أنصار الثقافة أبادر إلى الاعتراف بأن الإعلام كلمة فضفاضة أيضًا وتغطي جوانب متعددة ولكنها ـ كالثقافة أيضًا ـ كلمة رنانة ومحبّبة وذائعة الصيت.

وإذا كانت كلمتا الثقافة والإعلام متشابهتين في صعوبة تحديد مفهومهما ورسم حدودهما، فإن هناك بعدًا آخر يجمع بينهما يتمثل في وجود علاقة وثيقة بين المفهومين تجعلهما يتداخلان في جوانب كثيرة حتى يصعب في بعض الأحيان التفريق بينهما. وهذا ما يجعل بين طرفي هذه المعادلة تجاورًا طبيعيًا، تفرضه خصائص كل منهما ومجالات اهتماماتهما وميادين عملهما. ولكنّ هذا التجاور ـ كما هو واقع في دنيا الناس ـ قد يكون تجاورًا إيجابيًا فيه تفاهم وتعاون، وقد يكون تجاورًا سلبيًا فيه الخصام والتنافر. وربما يكون، في بعض الأحوال، مجرد تجاور مكاني لا تفاعل فيه لا سلبًا ولا إيجابًا.

كيف نستثمر العلاقة بين الإعلام والثقافة؟

ومن العقل أن نقول إنّ التفاعل الإيجابي بين الثقافة والإعلام هو الوضع الأمثل الذي ينبغي أن تنشده الأمم الحيّة التي تطمح إلى المعالي. فالثقافة هي مناط الشخصية السويّة ومستودع قيمها ووعاء حكمتها وحقيقة هويتها الحضارية. وبغير الثقافة يفقد الإنسان تميّزه، ويضمحل وجوده، وتتمسخ شخصيته. أما الإعلام فهو وعاء الثقافة ووسيلة بنائها، وهو القناة الأكثر تأثيرًا في صياغة الرأي العام وفقًا لمتطلبات الثقافة وضروراتها. ولذلك لا نأتي بجديد إذا أكّدنا أن الإعلام لا يستغنى عن الثقافة؛ لأنها هي مضمونه ومحتواه، كما أن الثقافة لا تستغنى عن الإعلام؛ لأنه هو وسيلة نشرها وترسيخ ثمراتها في الوجدان الاجتماعي، وهي أيضًا وسيلة جذب الفرد والجماعة للنهل من مناهلها والارتواء من منابعها.

والمتأمل في الواقع المعاصر للإعلام المتمثل في التقدم التقني الهائل في وسائل صناعة المعلومات وبثها من جهة، وفي مزاحمة وسائل الإعلام للوسائل التقليدية في الترويج للأفكار ومنافستها للمؤسسات الاجتماعية في تقمص شيء من أدوارها وانتزاع بعض وظائفها من جهة أخرى، المتأمل في هذا الواقع سيدرك من دون عناء أن الإعلام بإمكاناته البالغة التأثير، وقدراته الخارقة على اقتحام العديد من الحواجز لم يعد مجرد وسيلة لنقل الثقافة وبث معطياتها وتوسيع دائرة انتشارها. بل إنه يقوم ـ بالإضافة إلى ذلك ـ بوظيفة أخرى ذات أهمية كبيرة هي الإسهام في تحديث الثقافة وتجديد معطياتها وتطوير أدواتها وأساليب صياغتها، لتلبي حاجات الفرد والجماعات، وتتواءم مع الظروف المتغيرة للمجتمعات، وتتجاوب مع إيقاع العصر بكل ما يتسم به من حيوية وجاذبية وسرعة حركة.

ولا ينازع أحد في أن المؤسسة الإعلامية اكتسبت لها مكانة متقدمة ضمن منظومة المؤسسات الاجتماعية التي تسهم في صياغة ثقافة الفرد والمجتمع سواء أكان تأثيرها سلبًا أم إيجابًا. ومن هنا لابدّ من أن يتداعى المثقفون والإعلاميون إلى بحث موضوع العلاقة بين الإعلام والثقافة، وكيفية استثمار تلك المجاورة التي أشرنا إليها استثمارًا صحيحًا، وتوظيفها لخدمة الغاية الأولى للمجتمع في ربط أفراده بالهوية الثقافية المتميزة للأمة، وتحقيق أهداف التنمية الثقافية الوطنية، وبلورة صيغة ملائمة لتفعيل حركة المثاقفة الحضارية من دون تحجّر وجمود ومن دون تفلّت وذوبان في ثقافات الأمم الأخرى. وبذلك يمكننا الجمع بين تحقيق الأمن الثقافي الذي يحمي مكونات هويتنا الذاتية من جهة، والانطلاق نحو التفاعل مع ثقافات العصر وتياراته ومنجزاته بما يغني ثقافتنا الأصيلة، ويجدّد من رُوائها وتوهجها من جهة أخرى.

ومن المؤكد أن الثقافة التي ننشدها هي تلك الثقافة العربية الإسلامية النابعة من أصالتنا الدينية المتميزة، والمتشبّعة برحيق قيمنا الفكرية والأخلاقية، والمنطلقة وفق منهجيتنا المعرفية المستقاة من الكتاب والسنّة والتراث القويم لسلفنا الصالح، وهي ثقافة ربانية في أصولها وغاياتها، وإنسانية في توجهاتها وتطبيقاتها. ولذلك فهي - كما أراد الله تعالى لها تقيم توازنًا فريدًا وواقعيًا بين متطلبات السمو الروحي والأخلاقي وحاجات المكابدة الإنسانية والمعيشية بوصف الإنسان المسلم خليفة الله في الأرض، يستعمرها في الخير ويوجّه معطياتها إلى ما يعود على الناس جميعًا بالنفع والفائدة.

الوظيفة التثقيفية للإعلام

وإذا كان الإعلام يقوم في المجتمع المعاصر بوظائف متعددة ومتنوعة، فإن وظيفته التثقيفية هي من صميم تلك الوظائف من جانبين اثنين، أولهما أنّ هذه الوظيفة كانت - ولا تزال - واحدة من أهم وظائف الإعلام منذ أن بدأ علماء الاتصال والإعلام تحديد تلك الوظائف وتقنينها في بحوثهم ودراساتهم. ولعلّ أول من قام بذلك عالم الاتصال الأمريكي هارولد لاسويل في عام 1948م، إذ جعل «نقل التراث الاجتماعي من جيل إلى آخر» وظيفة رئيسة من وظائف وسائل الإعلام الثلاث.

أما الجانب الآخر فيتمثل في حقيقة أن كل وظيفة من الوظائف الأخرى لوسائل الإعلام، التي أشار إليها لاسويل أو أضافها فيما بعد باحثون آخرون، تتضمن بعدًا ثقافيًا. فوظيفة الإخبار التي سماها لاسويل «مراقبة البيئة» تغطي جوانب ثقافية عديدة. كما أن وظيفة التفسير والتوجيه التي سماها «ربط أجزاء المجتمع علائقيًا بالبيئة» لا يمكن أن تتم بمعزل عن القيم الثقافية السائدة في المجتمع. أمّا الوظيفتان الأخريان اللتان أضافهما من جاؤوا بعد لاسويل، وهما وظيفتا الإمتاع والترفيه، والإعلان والترويج، فإن لهما صلة عضوية بالثقافة من حيث صدورهما من خلفية ثقافية معينة بالضرورة، واستهدافهما تحقيق أغراض ثقافية في المحصلة النهائية، بصرف النظر عن تقويمنا لتلك الأغراض وفق معايير التحسين والتقبيح.

والآن دعونا نلقي نظرة سريعة على واقع المشهد الثقافي كما تعكسه وسائل الإعلام العربية على وجه الإجمال لا التفصيل. ولا أعتقد أننا نحتاج إلى جهد مضنٍ لنكتشف أن العلاقة بين الإعلام والثقافة في واقعنا العربي الراهن تتصف بالكثير من الاختلال. ويمكننا تشخيص هذا الاختلال في عدد من الملاحظات الرئيسة:

أولها: ضمور الاهتمام بالثقافة الجادّة النافعة في وسائل الإعلام العربية، إذ تشير كثير من الدراسات الميدانية إلى أن نسبة البرامج الثقافية في قنوات البث التلفازي - وهي أكثر وسائل الإعلام انتشارًا وتأثيرًا في مجتمعاتنا المعاصرة - تعدّ ضئيلة قياسًا بنسب المواد الترفيهية والبرامج الرياضية وغيرها.

وعلى الرغم من أن الإذاعة المسموعة والصحافة المطبوعة تمتازان بوضع أفضل من التلفاز في الاهتمام بالجانب الثقافي؛ إلا أنهما تفتقران - في الغالب - إلى الرؤية الشاملة والمتكاملة للإنتاج الثقافي، ممّا يجعلهما تقدمان للجمهور - مستمعًا كان أو قارئًا - نتفًا وأشتاتًا متفرقة من الثقافة العامة التي لا يجمعها إطار فكري محدّد، أو توجهها غايات (استراتيجية) ووطنية واضحة.

وثانيها: غلبة التغريب في نسبة عالية من البرامج والمواد الثقافية والترفيهية التي تقدمها وسائل الإعلام العربية، سواء في التوجهات الفكرية التي تنطلق منها أو في مضمونها، أو في أساليب عرضها. ولعل أبرز الشواهد في هذا الميدان ما يقدمه الإعلام العربي للأطفال أو الناشئة من برامج ومسلسلات وأفلام وإعلانات، إذ تمتلئ هذه المواد بمشاهد العنف والجريمة والسلوكيات المنحرفة والإيحاءات الجنسية، فضلاً عما تنقله لجمهورها من أوضاع وظروف غريبة عن مجتمعاتهم، وبعضها غارق في الخيالات، ولا صلة له بالواقع.

كما أن كثيرًا مما يقدمه الإعلام العربي للمرأة من برامج ومواد صحفية وتلفازية لا يعكس قيم المجتمع العربي المسلم، بل يروّج - على نحو أو آخر - لأسلوب الحياة الغربية، ويصوّر المرأة - في الغالب - بوصفها سلعة للمتاجرة، أو مجرد أداة للجنس والإغراء الرخيص.

وثالثها: هزال المضمون الثقافي الذي تقدمه وسائل الإعلام العربية، وافتقاره إلى الشمول والتنوع. ولذلك يندر أن نرى في وسائل إعلامنا - وخاصة التلفاز - برامج تستهدف تبسيط الثقافة العلمية ونشرها مثلاً. ويقلّ اهتمام هذه الوسائل بالبرامج التي تُعنى بالثقافة السياسية والاقتصادية عرضًا وتحليلاً. كما يشتكي رجال الأدب والإبداع من محدودية البرامج التي تهتم بالتيارات الأدبية ونتاجات المبدعين في الحقول المختلفة.

ورابعها: الإسفاف في الخطاب واللجوء إلى الإثارة الصحفية والتلفازية في الأسلوب الذي تُقَدَّم به المادة الثقافية، سواء أكانت مقروءة أم مرئية. ويتم هذا بدعوى جعل هذه المادة أكثر جماهيرية مما ينتج منه تسطيح ممجوج للثقافة؛ لتكون أقرب إلى المواد الاستهلاكية الرخيصة التي تقتات منها وسائل الإعلام لزيادة حجم جمهورها وتحقيق أرباح أكثر.

وخامسها: غياب الحوار الثقافي في البرامج والمواد المصنّفة في وسائل الإعلام في باب البرامج والمواد الثقافية. إن معظم ما يقدمه الإعلام المقروء منه والمسموع والمرئي، يعتمد كثيرًا على أساليب التلقين والتعليم المباشر، ويبتعد كثيرًا من روح الحوار والنقاش. وقلّما تقع على برامج ومواد ثقافية في وسائل إعلامنا العربية تتجه إلى إيقاظ ملكات العقل ومخاطبة القدرات المنطقية للإنسان. كما يندر أن يجد المرء برامج ومواد ثقافية في وسائل إعلامنا العربية تحترم التعددية في طرح الآراء، وتسعى إلى إفساح المجال لاختلاف الاجتهادات وتنوع الرؤى. ويعاني السلوك الثقافي في وسائل إعلامنا العربية من أمراض مزمنة كالميل إلى التغريب وأحادية التفكير و«شللية» التناول والتعامل بروح الحزبية والانغلاق الفكري.

نحو رؤية للعلاج

ولعلاج هذا الاختلال فيما تقدمه وسائل الإعلام العربية من زاد ثقافي هزيل في مساحته، وتغريبي في مضمونه، ومسطح في معالجته، وتلقيني في أسلوبه لابدّ من الإشارة

بين الإعلام والثقافة

علاقة ودّ أم خصام؟

إلى الحاجة الماسّة أولاً إلى بلورة رؤية ثقافية شاملة ومتكاملة، ينطلق منها العمل الثقافي المنشود عبر وسائل الإعلام المختلفة. إنّ المعضلة التي نعاني منها لا تتجسد في اختلال العلاقة بين الإعلام والثقافة فحسب، فهذه المعضلة هي جزء من الأزمة الكبرى للأمة المتمثلة في اهتزاز الرؤية نحو هويتنا الذاتية ومكوناتها وكيفية تحقيقها في واقع حياتنا المعاصرة، ولذلك لا ينبغي أن نحمّل الإعلام وحده المسؤولية كلها في علاج المشكلة. إنّ العلاج الناجع يحتاج إلى جهود العلماء والمفكرين والساسة والمخططين والإعلاميين والمثقفين والموجهين والمربين، وكل هذه الجهود لا يمكن أن تثمر إلاّ إذا انطلقت من رؤية حضارية استراتيجية، على المستوى العام للأمة كلها، وعلى المستوى الوطني الخاص لكل بلد أو مجتمع. ومن هذه الرؤية الكبرى يمكن أن نصوغ رؤية خاصة تعالج إشكالية العلاقة بين الإعلام والثقافة وكيفية التعاون والتكامل فيما بينهما.

وما ننشده في هذه الرؤية الثقافية الخاصة هو أن تكون رؤية أصيلة تنطلق من ثوابت الأمة وفكرها المميز من جهة، وتكون رؤية تجديدية تنفتح بوعي واقتدار على معطيات الثقافات الأخرى ومنتجاتها العصرية في مختلف الميادين من جهة أخرى. وبذلك يمكن لوسائل الإعلام أن تقدم لجمهورها الواسع ثقافة نافعة ومبدعة تسهم في تأسيس وترسيخ الوعي بالهوية الإسلامية للأمة، وتسهم أيضًا في تحقيق غايات التنمية الثقافية للوطن والمجتمع.

وإذا كان وجود الرؤية الثقافية الشاملة هو أساس العلاج للخلل الواقع في علاقة الإعلام بالثقافة في مجتمعاتنا العربية، فإنّنا لا ينبغي أن نغفل أيضًا عن عنصرين أساسيين آخرين من عناصر العلاج هما: الكفايات البشرية التي يقع على عاتقها همّ صناعة تلك الثقافة التي نريد من وسائل الإعلام تقديمها للناس، والدعم المادي المطلوب لتمويل إنتاج البرامج والمواد الإعلامية التي تجسّد تلك الثقافة المنشودة وتقدّمها للجمهور في إطار رفيع من الحرفية والإتقان المهني والإبهار الإعلامي.

ولا ينبغي الاستهانة بهذين العنصرين ودورهما الكبير في تحقيق الغاية المرجوة. فليس المطلوب أن تُملأ وسائل الإعلام بالبرامج والمواد الثقافية كيفما اتفق. إنّ صناعة المادة الثقافية إعلاميًا فن له أصوله وقواعده ومتطلباته، ولا يصلح كل مثقف أو متخصص ليقدم برنامجًا ثقافيًا، أو متخصصًا. كما لا يصلح أيّ مذيع أو محرر صحفي أو معدّ أو كاتب نصوص تلفازية للقيام بمهمة إعداد أو تقديم برنامج ثقافي أو علمي أو ديني أو اقتصادي. إننا بحاجة إلى طبقة خاصة من الإعلاميين والمثقفين والعلماء والمتخصصين ممّن تمكنوا في مجالات تخصّصهم العلمي أو إبداعهم الثقافي أو علمهم الشرعي من جهة، واكتسبوا الدربة والمران الاحترافي والرؤية الإعلامية من جهة أخرى. وهذه الطبقة من الكفايات البشرية تحتاج إلى إعداد وتأهيل، كما تحتاج إلى تدريب وصقل عملي، ولا ينبغي أن يستنكف العلماء والمثقون والمتخصصون عن مثل هذا الإعداد والتدريب، إذ بغيرهما لن تتحقق الثمرة المنتظرة.

عندما تصبح رؤيتنا الثقافية أصيلة تنطلق من ثوابت الأمة وفكرها المميز، يمكن لوسائل الإعلام أن تقدم ثقافة نافعة تسهم في ترسيخ الوعي بالهوية الإسلامية للأمة

أمّا مشكلة التمويل فلا مناص أيضًا من الاهتمام بها؛ إذ بغير المال الكافي والدعم المادي السخي لا يمكن للثقافة أن تنافس بالإنتاج المتألق الجاذب للجمهور. ولم تعد وسائل الإعلام العربية اليوم حكرًا على الحكومات وتمويلها المباشر، بل توسعت دائرة الوسائل الخاصة التي تعتمد على التمويل التجاري إمّا بالكامل كما في الصحف والمجلات المستقلة والقنوات الفضائية المملوكة للقطاع الخاص، وإمّا جزئيًا كما هو حاصل في الوسائل الإعلامية الحكومية التي فتحت أبوابها للتمويل التجاري وفق قواعد وشروط معينة.

ومن أسف أن المؤسسات والشركات التابعة للقطاع الخاص في العالم العربي لم تدرك حتى الآن مسؤولياتها الإسلامية والوطنية في ضرورة مساهمتها في دعم وتمويل البرامج والمواد الثقافية الجادة في وسائل الإعلام. وجلّ اهتمامها ينحصر في تمويل ما يحقّق لها الترويج السريع والدعاية المباشرة، بينما نجد في الدول الغربية، على نحو خاص، اهتمامًا متناميًا من الشركات والمؤسسات الخاصة للمساهمة السخية في تمويل هذا اللون من البرامج ورعايتها، يحفزها في ذلك شعورها بالواجب الوطني من جهة، وتقديرها للأثر الإيجابي بعيد المدى لمثل هذه النشاطات في صورتها وسمعتها ومكانتها بين أفراد المجتمع من جهة أخرى. كما أن الجمعيات والمؤسسات الخيرية في الغرب تشارك أيضًا في دعم المشاريع الثقافية ورعايتها، بما فيها البرامج الإعلامية ذات الطابع الثقافي والإبداعي، وتعدّ هذه المشاركة عملاً استثماريًا حتى وإن لم يحقق لها عوائد مباشرة.

إن إعادة النظر في العلاقة المختلة بين الإعلام والثقافة في مجتمعاتنا العربية غدت ضرورة حضارية ملحة في عصر تطورت فيه وسائل الاتصال والإعلام بصورة مذهلة، وأصبحت تغزو ليس بمنتجاتها وموادها الباهرة فحسب، بل وتصوراتها الفكرية ومناهجها الثقافية وإفرازات قيمها الاجتماعية وسلوكياتها الحياتية. ومن المؤكد أنّنا إذا لم ننجح في إصلاح الخلل وتوفير الأسباب الكفيلة بتطوير إسهام وسائل إعلامنا في تقديم زاد ثقافي متين، يستند إلى أصالتنا الحضارية، ويستوعب منجزات العصر ومعطياته، فإنّنا لن نتمكن من إيقاف موجة الاستلاب الثقافي التي تجتاح مجتمعاتنا، في ظل غياب الأبدال الإعلامية القادرة على استقطاب انتباه الجمهور وتقديم ما يدعوه إلى التفكير الواعي والحوار البناء.

ردّ الكلمات إلى الأصول

بين القوانين والمحاذير

د. البدراوي زهران

القضية التي نعرض لها في هذه الصفحات قضية خطيرة مترامية الأطراف متعددة الجوانب، ويكفي أن نشير هنا إلى أن اللغويين المحدثين يتخذون منها المنطلق للوصول إلى الصورة الأولى للغة التي نطق بها الإنسان أول ما نطق على ظهر الأرض، وذلك من خلال التوصل إلى قوانين تأثير الحروف بعضها في بعض، واختلاف الصيغ وتعددها، وما يتبع ذلك من اختلاف في الأصوات والنطق ينتهي بالكلمات إلى صور بعيدة من الأصل إلى حد لا يخطر على بال، وذلك لأن اللغات واللهجات لها في ذلك مسالك شتى، وأن الاهتداء إلى القوانين التي سلكتها أمرٌ جدّ عسير، ومن هنا تأتي خطورة القضية وأهميتها.

هذا بالإضافة إلى نوع آخر من الصعوبة، هو اختلاف الأبجديات التي تسجل هذه اللغات، واختلاف الرموز في كل أبجدية يباعد بين الصيغ والأصول التي كانت عليها، مع ملاحظة أن رموز أية أبجدية لا تمثل الواقع الصوتي المنطوق للغة المسجلة. وإنما هو تسجيل تقريبي يتفاوت نصيبه من الدقة في التعبير عن الواقع الصوتي وفقًا للظروف(1).

إن اختلاف رموز الكتابة وحروف الهجاء بين اللغات يتبعه اختلاف في نطق المكتوب، وإن ذلك ينتهي بالكلمات إلى صور قد تبدو غريبة عن أصلها إلى حد بعيد، ولاسيما إذا ما امتد الزمن في لغة متصلة الحلقات كالعربية، وخاصة عندما نضع في الاعتبار ماتصنعه اللغات الدخيلة واللهجات المتعددة من تحريفات، بالإضافة إلى مايتسبب فيه النساخ من تصحيفات(2).

كما أن لأخطاء الإملاء وتحريف الرسم الكتابي آثارًا خطيرة في هذا حيث تتحول الرموز الصوتية في كثير من الحالات إلى صور تقريبية تباعد بين الأصل والواقع الصوتي. وكذلك لمفارقات التعريب أثر كبير.

ولا يغيب عن البال أن الأخطاء السمعية التي تنشأ عن ضعف بعض الأصوات قد تؤدي إلى سقوطها مما يوقع المحلّل في حيرة كبيرة.

والخطأ في السماع في حد ذاته يؤدي أحيانًا كثيرة إلى تشويه الصيغ وإحداث صور بعيدة كل البعد من الأصل، وغريبة عما تجيزه قاعدة الإبدال اللغوي، والقوانين التي يحاول اللغويون تطبيقها أوّلاً اهتداءً إليها بذلك.

ومعلوم أن الأمية من أسباب تشويه النطق الناشئ عن الخطأ في السماع، والأمية ظاهرة منتشرة في معظم شعوب الناطقين بالعربية في العصور السابقة.

كما أن الميل إلى التقريب على نحو ما أُلف في استخدام الكتل الصوتية وبين الكلمات أمر غالب ومتوافر في معظم الشعوب الناطقة بالعربية في العصور السابقة كذلك، والمحتكة بها، وأن ذلك قد يكون مبعثه الميل إلى الانسجام الصوتي داخل اللغة المنقول إليها أو داخل اللهجة المتحدثة(3).

وقد تكون هناك بعض الملاحظات التي قد ترتقي إلى مرتبة القوانين الخاصة بتأثير الأصوات بعضها ببعض والتي قد تفيد في ذلك(4).

ومن الثابت أن للعادات النطقية، وللخصائص الصوتية في كل جماعة لغوية دورها الشديد الأثر في ذلك حيث إن لكل لغة بل لكل لهجة مايميزها(5).

وإن انتقال الكلمات من لغة إلى أخرى يجعل الكلمات الدخيلة تخضع للنظام المقطعيّ ولطريقة نطق اللغة المنقول إليها(6). وإنْ كان للعربية أنظمتها المقطعية المخالفة لغيرها من اللغات المتعاملة معها.

فالمقطع العربي لا يبدأ بصامت ولا يثني إلا بحركة على حين بعض اللغات تبدأ بصامتين، وهي بداية لا تتفق مع نظام المقطع العربي، ومن هنا تحدث المخالفات في المنطوق والمكتوب مما يصعب معه رد الكلمات إلى الأصول في سهولة ويسر.

ومما هو معلوم أن النطق العربي يمتنع فيه أن تتجاور ثلاثة صوامت سواء في وسط الكلمة أو

في أولها، ولا يجيز النطق العربي أن يتجاور في وسط الكلمة أكثر من صامتين لا يفصل بينهما حركة، ولذلك نجد إقحام حركة وسط الصوامت الثلاثة(7).

وهذا كله وغيره يخضع الكلمات المقتبسة لأساليب صوتية مخالفة لأصلها، ومباعدة بين الأصل وبين ما صارت إليه في اللغة المقتبسة، فينالها كثير من التغيرات في أصواتها وطريقة نطقها مما يصعب معه على المحلل اللغوي الاهتداء إلى الأصل.

ومن قديم يطالعنا لغوي العربية الفذ أبو منصور الجواليقي بعبارته التي نسجلها هنا تقديراً لأصالة فكره وعمق نظره حيث يقول عن العرب إنهم: «يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجًا وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضًا.

والإبدال لازم لئلا يُدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم، وربما غيروا البناء من الكلام الفارسي إلى أبنية العرب، وهذا التغيير يكون بإبدال حرف من حرف أو زيادة حرف أو نقصان حرف أو بإبدال الحركة بحركة أو إسكان متحرك أو تحريك ساكن وربما تركوا الحرف على حاله لم يغيروه»(8).

كما أنه يجدر بنا هنا أن نسجل ملاحظة للجوهري العالم اللغوي صاحب المكانة المعروفة في العربية حيث يقول: «العرب تخلط فيما ليس من كلامها - أقول أعني بذلك أنها تخلط الكلمات الأعجمية في نطق حروفها وتحرّفها في أبنيتها بما يوافق ألسنتها وأبنية كلامها، ولا تأتي به على وجهه عند أهله حفظًا لألسنتها من لكنة العجم»(9).

فالكلمات المقتبسة تخضع في الغالب لمقومات اللغة التي اقتبستها، ولأساليبها الصوتية، وبذلك ينالها الكثير من التحريف في طريقة نطقها وفي أصواتها(10).

فالكلمة الواحدة قد تُنقل من لغة إلى عدة لغات فتتشكل في كل لغة بالشكل الذي يتفق ومناهج نطقها وأساليب أصواتها مما يجعلها تبدو غريبة في كل لغة عن نظائرها في اللغات الأخرى التي اقتبستها(11).

أقول ذلك كله لأنبه على خطورة قضية عرض لها الرواد من علمائنا المحدثين في بداية عصر نهضتنا هذه وهي خاصة بما نحن بصدده.

حيث إن العقاد عرض لهذه القضية من خلال محاولة رد كلمة إلى أصلها واحتدم الخلاف بينه وبين غيره من الباحثين(12).

وقد رأيت أن أشير إلى تلك القضية في ضوء الدراسات اللغوية المحدثة لأنبه على أن جهود الباحثين لا تضيع، وأن السابق يبذر ليحصد اللاحق، وأن اللاحقين يجب أن يكونوا على صلة بجهود السابقين. وأن التواصل بين أفكار الدارسين يجب أن يظل وأن يكون هناك اتصال مستمر لا يتوقف، فما التطور الحقيقي إلا إفادات من أعمال السابقين.

وإن لغتنا العربية في حاجة إلى كل جهود أبنائها من الباحثين في السابق والحاضر والمستقبل.

والقضية أن العقاد عرض لمبحث خاص بالأستاذ محمد فريد أبو حديد تحت عنوان «القواص المذهبة».

وذكر العقاد مايتراءى له من أصل صحيح لهذه الكلمة مخالفًا في ذلك ما ذهب إليه أبو حديد.

وحاول أن يعالج قضية خلافية يناقش من خلالها آراء الأب أنستاس ماري الكرملي وغيره من الباحثين في أصول الكلمات التي رأى أن تأصيلهم لها يسيء إلى عبقرية العربية وعبقرية الناطقين بها على نحو ما نرى.

وقد ذكر أن الذي أثار القضية عنده ما قرأه في مجلة الثقافة للأستاذ محمد فريد أبو حديد تحت عنوان «القواص المذهبة»(13).

وتبين من خلال ما قدمه أن تحريف نطق الكلمة يباعد بينها وبين أصلها.

ومثل هذا كثيرًا ما يحدث بين الكلمات وأصولها، وأن هذا الأمر قد يعمى على الباحثين في هذا الصدد حتى على المتخصصين منهم.

ونعود إلى الكلمة المختلف من حولها:

«القواص المذهبة»: الأستاذ أبو حديد يرجع بالتحليل إلى ماهو معروف، فقد كانت وظيفة القوّاص تتلخص في أن يقف ذلك الموظف على باب سيده الباشا الكبير(14)، أو الحاكم الجليل «لابسًا ملابسه الزاهية الموشاة بالقصب الذهبي اللامع، يحرص على أن يربي شواربه حتى تصير مثل الحبال الطويلة، ثم يبرمها برمًا شديداً ويشدها بالأدهان حتى تصير مجدولة ترفع طرفيها كالحراب، فيصبح منظره بهذا مهيبًا يقع في النفوس موقع الرهبة، وصارت هذه الشوارب موضع تفاخر القوّاصين».

ويشير العقاد إلى أن الأستاذ أبو حديد قد التزم كتابة الكلمة في الإفراد والجمع بالصاد، ولعله لاحظ في ذلك لهجتها التي كانت تُلفظ بها وحروفها التي كانت تُكتب بها في عهد الدواوين التركية، لأن وظيفة «القواص» كما وصفها الأستاذ محمد فريد أبو حديد هي الوظيفة التي عُرفت بين المصريين وغيرهم من الأمم التي شملتها دولة الخلافة العثمانية في أواخر أيامها، فلم يكن للقوّاص عمل غير الوقوف على الأبواب، ولم تزل الكلمة تقترن بأصحاب هذا العمل من الترك والأرنؤوط والشراكسة، حتى حُسبت من كلمات اللغة التركية، وكتبها بعضهم في أوروبا كما كان ينطقها الترك (كفاس)، والكلمة في نطق المصريين وغيرهم ممن اتصلوا بالحكم العثماني والأتراك: قواص. وهي عند الأوربيين كما جاءت في النطق التركي: كفاس.

وهكذا نلاحظ أن صور نطقها تعددت على حين أن أصلها واحد.

والكلمات تعيش وتبقى على مر الزمن.

وقد تفنى الظروف التي نشأت فيها،

البحث عن أصول الكلمات له منهج علمي ينبغي أن يُتّبع، وليس مجرد تخمينات أو أوهام وافتراضات وفق ما يتراءى لكل باحث أو مجتهد

رد الكلمات إلى الأصول

بين القوانين والمحاذير

والدول والإمارات التي أوجدتها وما اقترن بها من المعالم والأشياء.

ومن هنا تأتي الصعوبة ويعسر الأمر على المحلل اللغوي المتخصص إن لم يسعفه في ذلك المنهج التاريخي والمادة المستفادة عبر البيئات والعصور(15).

فالكلمة على التحقيق عربية من بقايا الدولة العباسية، لأن القواصين كانوا طائفة من طوائف الجند يحملون الأقواس(16) كما كان السيافون يحملون الأسياف والنبالون يحملون النبال والرماحون يحملون الرماح.

ولم يكن عمل القواص في أول عهده مقصوراً على الوقوف بالأبواب والإذن لطلاب المثول بين أيدى الأمراء والرؤساء، ولكنه كان يتقدم الأمير في موكبه أو يخرج بين يديه كلما خرج للصيد أو في محافل العرض العسكري ليحمل له القوس التي يصيد بها أو يستخدمها في الرماية، لأن الأمير كان يتقلد سيفه ولا يعهد



العقاد



محمد فريد أبو حديد

في حمله إلى غيره كما يفعل بالأقواس والرماح.

ومن هنا فإن البحث والتحليل اللغوي قد ينتهى بها إلى أنها من القوس، ولذا وجب أن تكون القواس وتجمع على القواسين(17).

ويضيف الأستاذ العقاد: ولما كان قادة الجند في أواخر عهد الدولة العباسية من الترك والديلم بمراسم الإمارة حتى قامت الدولة العثمانية ونقلت عن خلفاء المسلمين وأمرائهم من قبلها بعض مراسم الإمارة والحجابة، ومنها مشية القواس بين يدي الأمير ووقفته على بابه وقيامه قواساً بغير قوس بعد أن أغنى عنه حامل البندقية والطبنجة، بل بعد أن أصبح القواس نفسه يحمل الطبنجة في حزامه ولا يعرف ما القوس وما الرماية بالسهام فقد بقيت الكلمة أثراً.

ربما يعرفها الدارس على حين تعمى ويخفى أمرها على من تُطلق عليه وعلى من ينطق بها.

فالكلمات على نحو ماهو واضح من هذا المثل وعلى نحو ما ذكرنا من أمثلة كثيرة من قبل(18) تتغير مع الزمن من حيث أشكالها وصورها الصوتية على حين تفنى الظروف التي نشأت فيها أو تتغير وتتبدل، ولكن تبقى هناك دائماً أمارات تدل الباحث في أصول الكلمات على أصل الكلمة فيعود بالبحث التاريخي والدراسات الصوتية إلى الأصل الحقيقي.

وهذا ماتضطلع به الدراسات اللغوية اليوم، بل إن طموحها يذهب إلى ماهو أبعد، إلى الوصول إلى اللغة الأم التي تفرعت عنها بقية اللغات التي ينطقها البشر.

فالكلمات تعيش أحياناً شاهدة على التاريخ، تهدي الباحث فيها إلى ظواهر اجتماعية أو سياسية أو عادات وقيم أخلاقية تكون قد اندثرت وبقيت هي شاهداً عليها، على حين تفنى الدول والإمارات وما اقترن بها من المعالم والأشياء.

ويذكر العقاد هنا رأياً نسجله له، مفاده أن رد الكلمات إلى أصولها لا يضير لغة العرب في شيء إن وجد بها بعض كلمات دخيلة استعارها العرب من غيرهم ممن خالطوهم من الأمم الأخرى.

حيث إن الرجوع بالكلمات إلى أصولها يمضي بنا بعيداً في مجال النقل.

ونعود إلى قضية الكلمة التي نحن بصددها والتي دار من حولها خلاف المجتهدين من رواد الباحثين من علمائنا. ويسعدنا أن نسجل لهم جهدهم في هذا تحية منا وتقديراً لهم. يقول العقاد: فإننا نذكر القوّاس والرمّاح والسيّاف، ونعلم أن السيّاف حامل السيف، وأن السيف كلمة عربية قديمة من ساف ماله أي هلك كما قال ابن دريد. ولكن بعض الباحثين ينكرون على ابن دريد هذا الاعتساف في رد الكلمة إلى ساف يسيف ويقولون إنها يونانية الأصل من سيفوس، التي حذف منها العرب آخرها كما يفعلون بكثير من أواخر الكلمات.

وأن العرب أخذوا كلمة الحربة من العبرانيين وهي عندهم من حرب بمعنى الخرب أو الخراب(19).

وهنا يضيف العقاد تعليقاً منه وتعقيباً على أصحاب هذا الرأي وذاك حيث يقول:

قلت: لا ضير على العرب أن تنقص من لغتهم كلمة بمعنى السيف فقد تغنيهم عنها مئات الكلمات، ولا ضير أن يفقدوا(خربة) واحدة فعندهم الصحراء بل الصحارى التي لا يقدر عليها أحد غير أبناء يعرب وقحطان(20).

إلا أن الكلمة التي لا يفرط فيها العرب ولو كان لهم في أصل معناها ألوف الكلمات هي كلمة «العقل» التي ظن الأب أنستاس الكرملي أنها متحولة من اللاتينية فقال في مجلته: لغة العرب: .. ذكر صاحب تاج العروس سبب تسمية العقل بهذا الاسم وسر اشتقاقه أو أصل اشتقاقه من مادة عقل فقال: ماهذا حرفه: واشتقاقه من العقل وهو المنع لمنعه صاحبه مما لا يليق.

أو من المعقل وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه، كذا في التحرير لابن الهمام.

وقال بعض أهل الاشتقاق: العقل أصل معناه المنع، ومنه العقال للبعير سُمِّيَ به لأنه يمنع عما لا يليق. قال شاعرهم:

قد عقلنا والعقل أيّ وثاق

وصبرنا والصبر مُرّ المذاق

وهنا يصلب العقاد ويخالف الأب أنستاس الكرملي وغيره ممن يذهبون هذا المذهب ويقول:

وقد راجعنا كتباً كثيرة في هذا المعنى فرأينا أصحابها لا يخرجون عن القول بأحد هذه الآراء، ونحن لا نرى هذا الرأي، والذي عندنا أن أصل معنى العقل هو العين لأنه عين النفس وباصرتها، ثم مات المعنى المادي وبقي المعنى المجازي. ويشهد على ذلك أن اللاتين يسمون العيون والعقل باسم واحد وهو «عقل».

كذلك قال الأب أنستاس.

ويضيف العقاد، وقد عقب عليه الأستاذ روكس بن زائد العزيزي معلم العربية بكلية تراسانته بالقدس في مجلة الأديب البيروتية، فقال: «فلو قلنا إن العرب قالوا: عين القلب. ثم نحتوا من الكلمتين كلمة واحدة ـ عقل ـ لما ابتعدنا عن الصواب. ولو سايرنا ما ذهبتم إليه وقلنا إن العقل من عق لكان مقبولاً، لأن العقة

رد الكلمات إلى الأصول

بين القوانين والمحاذير

هي البرقة المستطيلة في السماء وهل العقل إلا وميض النفس وعين العقل؟ ثم راح يقول: «ويقال عق بالسهم إذا رمى به نحو السماء وذلك السهم العقيقة.. قال الجوهري:

عقوا بسهم ثم قالوا صالحوا
ياليتني في القومِ إذ مسحوا اللحى

وذلك السهم يسمى العقيقة وهو سهم الاعتذار، وكانوا يفعلونه في الجاهلية، فإن رجع السهم ملطخًا بالدم لم يرضوا إلا بالقَوَد، وإن رجع نقيًا مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية.

والحقيقة أن كل هذه فروض وتخمينات وأنا أحيي أصحابها الذين عمقوا الفكر حولها، فما أجدر لغتنا أن تنال منا الجهد الجاد، وما أحرانا أن نعطيها المزيد من البحث، وإن علم اللغة الحديث ليولي المباحث اللغوية أهمية فائقة للغات البشر أجمعين فما أجدر لغتنا وما أحقها منا بذلك.

ويذهب العقاد بعد ذلك مذهبًا آخر حيث يقول:(21) قلنا: والعقل براء من كل هذه الفروض والتخمينات في حروفه ومعناه، إذ ينبغي قبل أن نفترض النقل من اللاتينية أن نفترض استخدام الكلمة في لغتها الأصلية بهذا المعنى، ولا نفترض خلو اللغة العربية مما يقابلها ونفترض الوسيلة التي تم بها النقل من طريق السماع أو الكتابة.

ونستبعد ـ عقلاً ـ أن ينشأ معنى العقل من معنى العقال، وهو غير بعيد بل هو أقرب شيء إلى ذهن العربي، والذي يوازن أبدًا بين حالتي الانطلاق وحالة الاعتقال، ويتحدث عن كبح الشهوات وكظم الغيظ، ويستعير الحِجْر في مادة أخرى من الحَجْر وهو المنع والتقييد وصدق المتنبي حيث قال:

وبعض العقل عقال.

والحِجْر كما لا يخفى هو العقل، والحَجْر كذلكَ هو المنع، كما في عَقلَ وعقّل بلا اختلاف.

فلماذا نرجع إلى العقل المنحوت من عين القلب أو نرجع إلى العقل المأخوذ من الكلمة اللاتينية وهي لم تطلق على هذا المعنى قط في أصلها الأصيل؟ ولماذا نأبى أن يكون الرجل العاقل هو الرجل الذي يملك زمام نفسه، فلا يندفع مع الأهواء والشهوات، وأي شيء أقرب شبهًا للعقل الزاجر عن الأهواء والشهوات من عقال البعير ولجام الفرس وكل كابح عن كل اندفاع(22).

غير أننا يجب أن نعلم أن البحث عن أصول الكلمات له منهج علمي ينبغي أن يتبع، وليست المسألة مجرد تخمينات أو أوهام وافتراضات على نحو ما يجتهد في ذلك المجتهدون وفق مايتراءى لكل واحد منهم. ومن الجدير بالذكر هنا أن العقاد ومعاصريه لجؤوا إلى ضرورة البحث عن منهج له أصالته ودقته وإن لم يصرحوا بذلك، ولكن يتبين لنا هذا من خلال هذا التعليق الوجيز الذي نذكره لهم كيفما تراءى لهم حيث يقول العقاد: وإلا لانتهينا إلى ما لا يُرضى عنه، يقول: عرضنا لهذا التخريج في بعض المجالس فقال أديب: إذن هذا الكرسي مأخوذ من شير الإنجليزية.

وقال آخر: لا بل هو مأخوذ من كَرّ ومن رسَا، لأن الإنسان يرسى على الكرسي بعد الكرِّ والتعب.

وقال آخر: بل هو مأخوذ من جلس، ثم صُحِّفت الجيم كافًا واللام راء، وهو قريب في مذهب التصحيف.

وقال غيرهم: بل هو مأخوذ من الكراسة، لأن الإنسان يجلس إذا أراد الكتابة فيها.

وطال التصحيف والجناس على هذا القياس فلم يبلغ أحد منهم في هزله مبلغ الجادين في رد العقل إلى عين القلب أو إلى كلمة قديمة في لغة اللاتين(23).

وهكذا ينتهي هؤلاء إلى ضرورة اصطناع منهج دقيق، وهذا ماحاوله علماء اللغة المحدثون، وقد تمخضت دراستهم في ذلك عن مناهج غاية في الدقة والأهمية وما زال الطريق طويلاً. ونختم هذا البحث بعبارة للعقاد أراها جديرة بأن تُسَجَّل وتُحسب له، ففيها كثير من النفع للمتخصصين يقول:

فحذار حذار من مراجعة الأصول بغير أصول، وخير لنا أن نقنع بالفروع إذا كان الرجوع إلى الأصل ينقطع بنا في هذه المتاهة بغير دليل.

ونحن في أمان حين نقنع الآن من الصاد إلى السين في اسم القواس، فلم يبق لهذه الوظيفة مايُخاف في اسم ولا في مسمى بحمد الله.

الهوامش:

1- مما يضطر كثيراً من الدارسين إلى إضافة بعض الرموز عند تحليل كلمات غير عربية أو عربية مكتوبة بحروف غير عربية حيث إن بعضهم يجعل رمز kh للخاء و gh للغين th للثاء و dh للذال. ومن المعلوم أن كثيراً من أصوات الحلق لا ينطقها الأوربي فلا رموز لها في كتابته.
وكذلك نجد اللغة الفارسية تضيف إلى أبجدية العربية أربعة أحرف تمثيلاً لأصواتها لاختلاف النطق فيها عن العربية p = ب، ك = j، g = ج، th=ز.

2- انظر الأمثلة المتعددة في هذه القضية في كتابنا «في علم اللغة التاريخي دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى» من ص52 ومابعدها، واقرأ من أول الباب من ص51 ومابعدها.

3- اقرأ الأمثلة على ذلك في الكتاب السابق من ص54 ومابعدها.

4- على نحو ماهو خاص بالألفاظ اليونانية عند تعريبها، من السابق ص54. ومثاله بعض الحالات في اللغة الفارسية انظر الأمثلة من السابق ص55 .

5- اقرأ الأمثلة والنماذج في السابق ص57/56.

6- دراسات لغوية، د. عبد الصبور شاهين ص404، 403. وانظر المرجع السابق ص58.

7- المرجع السابق.

8- أبو منصور الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، باب معرفة مذاهب العرب في استعمال الأعجمي ص6. والسابق ص59.

9- انظر الصحاح للجوهري، وانظر ما كتبه أحمد محمد شاكر في تحقيقه وشرحه للمعرب للجواليقي ص6. حاشية رقم (ج).

10- السابق 59.

11- علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع ص6. وانظر الأمثلة على ذلك في كتابنا «في علم اللغة التاريخي» من ص59 ومابعدها.

12- على نحو ماسيأتي ذلك موضحًا في الصفحات القادمة.

13- انظر الرسالة العدد 677، 1946/6/24. وانظر أيضًا بحوث في اللغة والأدب ص247.

14- التحليل على هذا يكتفي بما انتهى إليه أمر صاحب هذه الوظيفة ويغفل تاريخها، على حين أن الكشف عنه له دخل كبير في رد الكلمة إلى أصلها على نحو ما سيأتي مفصلاً.

15- ولنتأمل كيف حدث التباعد بسبب اختلاف نطق حرف.

16- جاء تحليل الأستاذ محمد فريد أبو حديد من آخر ما انتهى إليه أمر هذه الكلمة حيث ارتبطت بوظيفة عرف صاحبها بها على حين أن للكلمة تاريخًا على نحو ما يفصله الأستاذ العقاد.

17- هذا هو رأي الأستاذ العقاد ويؤيده بحقائق تاريخية.

18- ارجع إلى المراجع التي ذكرت في أول المقال.

19- تلك وقفة العقاد وهذه اجتهاداته. انظر نص ماقاله في المرجع السابق الخاص به الذي أشرنا إليه في مطلع المقال.

20- نلاحظ أن العقاد أخذته هنا الحمية وهي حمية محمودة، وكان ينبغي عليه، وقد عرض لهذه القضية، أن يتتبعها في دراسة استقصائية ويخرج بنتيجة علمية بعد بحث تاريخي مقارن، ولا ضرر، كما قال، أن تخسر العربية مفردة بل مئات المفردات، واللغات تأخذ بعضها عن بعض ولكن ينتهي إلى ذلك نتيجة بحث فقد تنصفه الدراسة ولكنه سلَّمَ سريعًا وهذا على غير المعهود فيه.

21- انظر مقالة في المراجع التي أشرنا إليها سابقًا.

22- بنى العقاد رأيه في هذا على القياس والاستنتاج وهذا قد يصلح واحدًا من مناهج البحث في اللغة، غير أن منهج البحث هنا يختلف عما ذهب إليه هؤلاء الباحثون السابقون، وإن الرجوع إلى اشتقاقات المادة واستعمالاتها المتعددة في دراسة إحصائية مع الاستفادة من المنهج التاريخي هو مايلجأ إليه المحدثون من علماء اللغة، وإن دراسة تاريخ الكلمات ورحلاتها يقطع كثيرًا من الخلاف بين الباحثين في هذا ويوقف الدارسين على الصواب.

23- انظر المقال السابق في المراجع السابقة.

أبعاد العطش
في شعر السياب



د. غازي مختار طليمات

يُعَدُّ الجفاف أشرسَ القسمات التي رسمتها الأنواء على وجه الوطن العربي، من صحرائه الكبرى في أقصى المغرب إلى الربع الخالي في أقصى المشرق، حتى تغضّن جبينه مُذْ كان فتًى غضّ الإهاب، فهو أخاديد وكثبان، وتيبّست وجنتاه وشفتاه، فهي أرض قفر كالحة الأنحاء، وأودية سُمر فاغرة الأشداق، لا يرطبها ودْق من سحاب، ولا يقيها أشعةَ الشمس إلا قنازعُ من نخيل، إذا انعقد عليها الغيم ساعة انقشع ساعات، ثم تناثر قبل أن يمتدّ ظلاً وينهلّ ريًّا.

ولما كان العطش سمة البداوة فقد غدا سمة الشعر العربي على اختلاف أغراضه، وعلى امتداد عصوره، إن نَسَب عاشقٌ أفرغ في فمه زقًّا من رضاب صاحبته:

ولثمت فاها آخذًا بقرونها
شُربَ النزيف ببرد ماء الحشرجِ

وإن رثى مفجوعٌ استمطر الغيث على القبر: قبرِه أو قبر غيره:

فمُرّا على قبري، فقوما، فسلّما
وقولا: سقاكَ الغيثُ والقَطْرُ يا قبرُ

وإن استبسل بطلٌ أنهلَ الرماح من دمه:

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهلٌ
مني وبِيضُ الهند تقطر من دمي

ثم خرج العرب من الصحراء، ولم يخرج شعرهم من العطش، بلغوا الأندلس، وظل ابن زيدون يمتح من كوثر ولأدة:

يا جنّةَ الخلد أبدلْنا بسدْرَتها
والكوثَرِ العذب زَقُّومًا وغسلْينا

وعاشوا على الفراتين والنيل، وبقي المتنبي ظامئًا، يرى الأمراء جداول وأنهارًا:

قواصد كافور توارك غيره
ومن قَصَد البحر استقلّ السواقيا

ونحر فُسّاقهم دنان الخمر، وغرقوا في أقداح الراح، ومع ذلك ظل أبو نواس أظمأ من قمع، تشكو لهاته الأوام بقدر ما تجرع من المدام، حتى يخيل إلى الدارس أن الحسّ بالظمأ لم يفارق الشعر العربي قط، ولن يفارقه أبدًا ما بقيت في الحياة رغيبة يهفو إليها الشاعر، ولهذا ظلّ الظمأ يتسعّر في الحلوق، ويتميز في العروق لدى شعرائنا كافة، ولدى السيّاب على نحو خاص.

ليس عجيبًا إذن أن يكون السيّاب - وهو وريثُ عطش عمرُه بضعة عشر قرنًا - جافَّ اللعاب، حارَّ الشكاة، يُفصح شعره الحديث عن تجارب قديمة مرّت بها الأمة العربية، وأن يتخذ الظمأ في شعره صورًا تنمّ على أفكار جديدة، ومقاصد بعيدة لم تتخلج في صدور الأقدمين، أو تخلجت في صدورهم، وضاق بها تعبيرهم، فلما ظهر السيّاب حوّل هذه التجارب إلى صور تترجم أفكاره أولاً، وأفكار من أورثوه هذا العطش الأزلي بعد ذلك.

ولك أن تعترض على ما أزعم، فتقول: لماذا تردُّ ظمأ السياب الخاص، إلى الظمأ التاريخي العام، ولا ترده إلى بيئة الشاعر؟ ألا ترى كيف يفيد النقاد من دراسة البيئة في نقد الشعر وفهمه وإفهامه؟

لا أشكُّ، ولا يشكُّ أحدٌ في أن للبيئة تأثيرها في البشر وفي الأدب، غير أن السيّاب نَبَتَ في جيكور إحدى قرى البصرة أغزر البقاع في العراق ماء، وأشدها رطوبة، وخاض في طفولته نهر بويب، وراح يعابث عرمضه ومحاره، ويلاحق أمواجه وأسماكه. ثم كبر الغلام، وانتهى به الطواف إلى بلاد الإنجليز، فوجد فيها أكثر ممّا ترك، فخاض وسبح، وغاصَ وعامَ حتى أوشك أن يغرق في مائها النابع عيونًا من الأرض، المنعقد ضبابًا في الشوارع والمزارع، المنصبّ

أمطارًا وثلوجًا من السماء، فلماذا ظل يشكو العطش، ويتوق إلى الريّ، فلا يجده؟ ولماذا ظل السياب الطفل يهتف في فم السيّاب الشاب، ويحمله على التغني بنهر بويب شجره وقمره، عصافيره وأزاهيره، حصاه وصداه؟

أودُّ لو أخوض فيك أتبع القمرْ
وأسمع الحصى يصلُّ منك في القرارْ
صليل آلاف العصافير على الشجرْ

هنا يتجلّى البعد الأول من أبعاد العطش في شعر السيّاب، وهو بعد ذاتي، قصير المدى مرتد الصدى، لا يكاد يبارح ذاته المتعلّقة بذاته. إنه شوق الشاعر المثقل بأوضار الشباب إلى الفطرة النقيّة، وتوق الإنسان المحاصر بهموم الحياة إلى الطفولة المتخففة من التبعات. لقد طوّف ما طوّف في أطراف الأرض، لكن ما رآه من حضارة شامخة في الغرب وتعقيد في علاقاته ونظمه واقتصاده وبنائه ردّه على عقبيه، يلتمس الخلاص من حياة الحواجز الكبرى، ويلقي نفسه في نهر بويب لعله يغتسل فيه، ويخرج نقيًا كما ولدته أمه.

وهذا البعد الذاتي من عطشه أفضى إلى بعد أوسع مدى، وحرقه أشد تضرّمًا، وتناقض بين الأمل الذي كان يرنو إليه والواقع الصعب الذي اكتنفه، بين أحلام وأوهام صوّرت له خلاصه وخلاص المجتمع العراقي من الفقر والضرّ والاستعباد، وظلم أحاط به من كل جانب، وأجبره على مفارقة الأهل والولد والوطن واللجوء إلى الكويت مريضًا تصطلح عليه الأدواء، مرغمًا على غربة لا يحتملها. فمضى يحمل روحه المشتعلة بين جنبيه الظامئة إلى جيكور، وراح يغمسها في ماء الخليج فلا تنطفئ، ويتفيّأ بها ظلال النخيل فلا تبترد. وأنّى لروحه أن تهمد أو تخمد بعد أن أشعلتها فلسفة الشرق المثالية، وحضارة الغرب المادية، ولهذا ركب جواده الأبيض وضرب في الأقطار يسأل عن سعادة البشر، وهمّه الأكبر سعادة قومه، وخلاص العراق، فلم يظفر بطائل، وانتهت رحلته بأشدّ مما بدأت، انتهت بعطش حوّل لسانه الجاف إلى فلذة من حطب، وهو يقول:

أسريت أطوي دربي النائي
بين الندى والزهر والماء
أبحث في الآفاق عن كوكب
عن مولد للروح تحت السماء
عن منبع يروي لهيب الظماء

وكان الطريد الوديع في معاناته التمزق بين المتناقضات يزداد تعلّقًا بماضيه، وهربًا من واقعه، وربما ألجأه سوط الواقع الذي يسوط ظهره إلى أن يهرب من كل ما يحيط به، فيلوذ بالأساطير، يفيء إلى عالمها المسحور واهمًا أنه سيجد فيه الظلّ الممدود، والرذاذ المنعش. وفي هذا الانفلات من الواقع يبلغ العطش بالسيّاب بعدًا إنسانيًا أوسع انداحًا، ويحمّله تبعات أثقل وأفدح مما حمّله مجتمع العراق. ويُخيل إليه أن العالم كلّه قد اتحدت قاراته وشعوبُه، وأنه يطالبه بكشف الضر والفقر عنه. وإذا كان الشاعر عاجزًا عن إنقاذ نفسه فكيف ينقذ الإنسانية كلها؟

حينما عجز الواقع عن تقديم الحلّ إلى الشاعر تقدّمت الأسطورة، فأوهمته أنه إذا افتدى بنفسه البشر فلسوف يمنحهم الخلاص. وما عليه إلا أن يغرق نفسه في بويب، فيتحلل في مائه جسدًا وروحًا، ثم يسقي الناس ذوب روحه. إن غاية الغايات عنده أن يشربه الظماء، ويأكله الجياع على نحو أسطوري وثني، أساسُه التضحية غير المأجورة، والتفاني غير المشكور في سبيل أن يفرح المحزون، ويشبع المحروم، ويسعد الشقي، أي في سبيل أن يحيا بموته الآخرون:

أنا في قرار بويب أرقد في فراش من رماله
أنا (بعل) أخطر في الجليل
على المياه أنثّ في الورقات روحي والثمار
والماء يهمس بالخرير يصلّ حولي بالمحار
وأنا بويب أذوب وحدي في فرحي وأرقد في قراري

ومن الحيف أن نذهب إلى أن السيّاب مثاليّ التصوّر، خياليّ العطش في شعره كله، ففي إهابه طفلٌ شاعرٌ، ورجلٌ ثائرٌ يصطرعان على الفوز بقلبه وتحريك لسانه، فإن كانت الغلبة للرجل هبط السيّاب من سبحاته، وحطّ على الواقع يحلله، ويصوّر تناقضه، ويرى حول فمه الناشف وقلبه اللاهف ثلاث دوائر من أشداق فاغرة جافة: صغراها أفواه العراقيين، ووسطاها حلوق العرب والمسلمين، وكبراها أشداق البشر أجمعين، تتراصف من حوله في قوس واسعة أوسع من خط الاستواء. ومن هذا العطش انطلق الشاعر يثور ويُثير، ويدعو إلى إنصاف المظلوم، غير أنه لم يكن يثبت عند دائرة، بل كانت الأُطُر تتداخل تحت عينيه تداخلاً مستمرًا.

فعطشه أذكره عطش قومه، فدعا ربه أن يسقي عمال العراق وفلاحيه:

سيقان كل الشجرْ
ضارعة والنفوس
عطشى، تريد المطر
شدّوا على كل ساق
يا ربّ تُبنا لَكَ
فَلْتَسْقِ فلاحيك عُمَّالَك

وكثيراً ما كان السيّاب يحسّ أن نطاق العطش أوسع من رقعة العراق، فيمد بصره إلى أصقاع العرب والمسلمين، ويبحث فيها عن الريّ، فلا يجده، وعن السقاة فلا يظفر إلاّ بثلة من أمثاله، ارتضوا أن يتحولوا إلى شراب سائغ في لهوات العطاش، فيرتضي بذلهم السخيّ. ويُكْبِرُ إيثارهم على أنفسهم أيَّ إكبار. وربما كانت جميلة بوحيرد المجاهدة الجزائرية أكرم أبطاله، حتى إن عشتار أم الخصب لتغار من جميلة بنت الشعب الجزائري الظامئ إلى الحرية والعدل:

عشتار أمّ الخصب والإحسان
والحب تلك الربة الوالهة
لم تعط ما أعطيت
لم ترو بالأمطار ما رويتِ
قلب الفقير
ولترفعي أوراس حتى السماء
حتى تروي من مسيل الدماء
أعراق كل الناس كل الصخور

وربما تمثّل السيّاب - وهو يلعق بلسانه حلقه الجاف - أن الأمل الذي يراوده تحوّل إلى سيل عرم يغمر الأرض كلها ليطهرها من الآثام، تمثّله وإحدى عينيه تنظر إلى قول أبي العلاء:

الأرض للطوفان محتاجة
لعلها من دَرَنٍ تُغْسَل

والثانية تنظر إلى طوفان نوح، حينئذ يستعير من فوران التنور وانهمار المطر صورًا متفجرة يجندها في خدمة المرمى الذي يرمى إليه، فيقول:

الماء من جحيمه يفور
طوفانه يطهر الأرض من الشرور

أو يقول:

على رعشات ماء قطرة همسة بها نسمه
لنعلم أن بابل سوف تغسل من خطاياها

إن عطش السيّاب في مثل هذه المقطعات يتجاوز (بابل) وأرض الطوفان لينساح ويشمل أطراف الأرض باحثًا عن الريّ، حاملاً التبعة الثقيلة التي ارتضى حملها، وهي السعي إلى الخلاص من

الحرمان، وبين ما ضفيه العطش الأعظم. وهو في أثناء ذلك يتوهّم أنه بالغ ما يريد، وأنه سيقهر اليأس، ويستنبط من النقائض المصطرعة في الواقع تصورًا كريمًا لمدينة فاضلة أعيا تحقيقُها كبار الفلاسفة من قبله من أفلاطون إلى الفارابي، وعذره في كل ما يهرف إلى أنه من الشعراء الذين: *في كل واد يَهيمُونَ. وأنّهم يقولونَ ما لا يَفْعَلُونَ.* الشعراء: 225، 226، وأنه ـ على رؤيته أمثاله من الحالمين الواهمين يخفقون فيما ينشدون ـ لا يريد أن يرى الواقع كما يبدو لكل العيون، بل يريد أن يراه كما يجب أن يكون. فيخيل إليه أن العيون الباكية من الألم قد أصبحت ثغورًا ترف عليها الضحكات، وأن النفوس المذعورة المقهورة تحولت إلى جيل من بُناة أشداء يرفعون صروح المصانع، ويشقّون صدور المزارع، ويُلبسون أرضهم الموات حلل الزهر والثمر، ويبعثون في أعراق الأرض الجافة نُسغَ النماء، فَتَنضُر بعد يُبْس:

في كل قطرة من المطر
حمراءُ أو صفراءُ من أجنة الزهر
وكل دمعة تُراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مَبسم جديد
أو حَلْمَة تورّدتْ على فمِ الوليد
مطرْ
مطرْ
مطرْ

وبهذا الدعاء الذي يذكرنا بصلاة الاستسقاء يبلغ العطش في شعر السيّاب مداه الإنساني، وقمته الفنية، وتتحول كلمة (المطر) في شعره من كلمته محددة الدلالة إلى عالم من الرغاب العذاب، والآمال العراض، والمعاني العديدة، والآفاق المديدة، والدلالات الرمزية. إنها تلخص فلسفة العطش بكلمة واحدة تفوق ـ على ما فيها من أوهام ـ كثيرًا من أساطير يونان.

وعلى هذا النحو انتهى المطاف بالعطش العربي من فم الصحراء إلى فم السيّاب، فتحول بين شفتيه من حرقة تحلم بالماء إلى صلاة تستسقي السماء، ومن سراب ينساح على الرمل ثم يزول إلى فلسفة تغوص في العقل لتبعثه على التفكير في حلّ، يلتمس الارتواء لكل الظماء، ولا يحط من قدرها أنها أخفقت كما أخفق غيرها من الفلسفات الوضعية.

قصيدة:

مَعَ جامِعَتنا العَرَبيّة

شعر: محمد التهامي

وقفتُ بها من بعد عشرين حجّةً ... أقلّبُ في أسرارها وأُسائلُ
لماذا على أيّامها قلَّ وزنُها ... فإن كَبُرت أيّامُها تتضاءلُ؟
فيُلْجِمُها صمتٌ كأنَّ لسانها ... قصيرٌ، وقد شُدَّتْ عليه الحبائلُ
كأنّي بها خَجْلى تقول لنا: اصْمُتوا ... فليس وراء القول يا قوم طائلُ
رأينا من الأهوال ما حيَّرَ اللُّغى ... فلا يعرف الإنسانُ ما هو قائلُ
بنينا لنا دارًا يَضمُّ أساسُها ... تراثًا تَبنَّاهُ الكرامُ الأوائلُ
فما وَفَّرَتْ أمْنًا ولا عَزَّ ركنُها ... ولا خيَّمتْ فيها وقرَّتْ قبائلُ
كغرسٍ يَغُرُّ الناسَ حينًا وينتهي ... وتَغْتالُه عند الحصاد الغوائلُ
جذورٌ لها في باطن الأرض صَوْلةٌ ... وفرعٌ هزيلٌ في العواصف مائلُ
تكاد لعين الوَهْم تدنو ثمارُه ... فإن مُدَّت الأيدي تَحُولُ الحوائلُ
ففي حُلْمنا قد صَوَّرَ الوهمُ جنَّةً ... تتيه لديها بالجمال الخمائلُ
وفي صَحْونا يبدو لنا الروضُ ذابلاً ... وكلُّ بهيجِ اللَّوْنِ في النور حائلُ
وقفنا حيالَ الحلم والصحْوِ وقفةً ... تصيحُ لدى مأساتنا.. تتساءلُ
أكلُّ حصادِ الحُلْمِ وهمٌ؟ وإنَّه ... لكلِّ الذي أغرى به الناسَ زائلُ؟
أم الحُلْم فيه بعضُ صِدْقٍ؟ وإنّهُ ... لكل أخي حُلْمٍ من الحُلم نائلُ؟
فلم تَكُ أضْغاثًا، ولكن حقيقةً ... عليها من الماضي العريق دلائلُ
ولكنها عَزَّتْ علينا لأننا ... على عَزْمِنا قد أخطأتْنا الوسائلُ
فهل يا تُرى تدنو وتصدق مرَّةً ... على حين تبدو في حِمانا البدائلُ؟
وهل يا تُرى يَصحو لنا الوعيُ نافذًا ... قديرًا وقد هانت لديه المسائلُ؟
فإنّا لدينا الوعيُ في عمق ذاتنا ... يضيءُ وإن غَطَّتْ عليه الحوائلُ
يجلجلُ مكتومًا وفي عمق عمقنا ... مشى صَائلٌ منه لدينا وجائلُ
ولا بُدَّ يومًا أن يجاوزَ عيبَنا ... ويَصْحُو وتَصْحُو في يديه الفضائلُ
ويعرف كلَّ الحقِّ إن بان أمرُه ... ويكشف ما تُطْوَى عليه الدَّخائلُ
إذا الأصلُ منّا قد تَفادى عيوبَنا ... تطيب على الأصل الكريم الشمائلُ
فيا جيلَنَا الآتي ترفَّقْ بعُمْرِنا ... ففي دَمنا منا إليك رسائلُ
ويا يومَنا النّائي ويا غَدَنا معًا ... تقدمْ إلينا لم يَعُدْ عنك حائلُ
وأسْرِعْ إلينا اليومَ تُدْرِكْ حياتنا ... فلم يَبْقَ في الأيامِ إلاّ القلائلُ
وَضَعْنا بقاموس الحياةِ معانيًا ... عِجَابًا، ومنها «اليائسُ المتفائلُ»

قصة قصيدة

دعوة مبكرة لوحدة الصف العربي

د. محمود جبر الربداوي

تتراوح علاقة الجوار بين البلدان، كما هي علاقة الجوار بين الأفراد، بين النفور تارة والانسجام تارة أخرى، وهذا ما عبّر عنه قاموس العصر الحديث بمصطلح (المشاكل الحدودية)، وإن تكن الحدود في عالم دول القرون الوسطى غير متعارف عليها بالمعنى المتعارف عليه في عصرنا هذا. وتتبدل طبيعة هذه العلاقات بتبدل الظروف المحيطة، وإذا كانت هذه المقولة تنطبق على أي بلدين متجاورين، فإنما تنطبق بوضوح على جوار الجزيرة العربية لبلدان كل من الإمبراطوريتين القديمتين: إمبراطورية الروم وإمبراطورية الفرس. فالجزيرة العربية، وما عليها من شعوب، تمتد في اتساعها البري الوحيد من جهة الشمال حتى تلامس تخوم دولة الفرس، كما تلامس دولة الروم في الشمال والشمال الغربي، وليس ثمة مناص من احتكاك شعب الجزيرة العربية، بشعوب هاتين الأمتين. ولما كانت الأمة العربية في جاهليتها أمة قبائل متفرقة متناحرة في أغلب حقبها التاريخية القديمة، تغزو فيها القبيلة القوية القبيلة الضعيفة، فلذا من الطبيعي ألا تتكوّن فيها وحدة سياسية توحّد قبائلها وتلم شتات شعبها المتناحر على وسائل العيش وأسباب الحياة، ومن هنا طمعت في الجزيرة العربية، دول الجوار، وخاصة عندما تأنس هذه الدول القوة في أنفسها، كما حصل لدولة الفرس التي أخضعت لنفوذها قبائل المناذرة، وامتد نفوذها في عمق الجزيرة العربية، وكما حصل لدولة الروم التي أخضعت لنفوذها قبائل الغساسنة وتعمّق نفوذها في بلاد الشام والجولان. وكما حصل للأحباش عندما غزا أبرهة بفيله مكة والحجاز طمعًا في هدم كعبة مكة وتحويل العرب إلى عبادة كعبة صنعاء، ولكن الله خذله فحمى بيته وأخزى عدوه. وحبًا في اختصار هذا الموضوع التاريخي المتشعب الأطراف الضارب في عمق تاريخ الجزيرة العربية نقصر حديثنا على علاقة الفرس، بحكم الجوار، ببعض القبائل العربية، هذه القبائل التي كانت تبحث عن وسائل العيش في شمال الجزيرة العربية، فأضحت على تَحَاكٍّ مستمر مع دولة الفرس التي اصطنعت بعض شيوخ العرب وبسطت عليهم نفوذها، غير أن بعض القبائل الأخرى رفضت مثل هذا النفوذ وتمردت على دولة الفرس وهيمنتها، وقامتْ - في فترة ما قبل الإسلام بقليل - عدة انتفاضات عربية أدت إلى معارك طاحنة استفاضت في الحديث عنها كتب التاريخ، منها

قال لقيط بن يَعْمَر الإيادي من قصيدة طويلة مطلعها:

يا دار عمرة(1) من محتلّها الجَرَعا — هاجتْ لي الهمّ والأحزان والوَجَعا

* * *

يا أيها الراكب المُزجي(2) على عَجَلٍ — نحو الجزيرة مرتادًا ومُنتَجِعا(3)
أبلغْ إيادًا، وخلّل في سَراتِهمُ(4) — إني أرى الرأي إنْ لم أُعصَ قد نَصَعا
يا لَهف نفسيَ أنْ كانت أموركمُ — شتّى، وأُحكمَ أمرُ الناس فاجتمعا
ألا تخافون قومًا، لا أبا لكمُ — أمْسَوا إليكم كأمثال الدَّبا(5) سُرُعا
أبناءُ قومٍ تأوّوكم(6) على حَنَقٍ — لا يشعرون أضرّ الله أم نَفَعا
فهم سِراعٌ إليكم، بين مُلتقطٍ — شوكًا(7)، وآخر يجنى الصابَ والسَّلَعا(8)
لو أن جمعهمُ راموا بهدّتهِ — شُمَّ الشماريخ(9) من ثهلان لانْصَدَعا
في كل يوم يسُنّون الحرابَ لكم — لا يهجعون إذا ما غافلٌ هَجَعا
لا الحرثُ يشغلهم، بل لا يرون لهمْ — من دون بيضتكم(10) ريًا ولا شِبَعا

* * *

وأنتمُ تحرثون الأرض عن سَفَهٍ — في كل معتَمَلٍ تبغون مُزدَرَعا(11)
أنتم فريقان: هذا لا يقوم لهُ — هصرُ الليوث، وهذا هالكٌ صَقَعا(12)
مالي أراكم نيامًا في بُلَهْنِيَةٍ(13) — وقد تَرَوْنَ شهابَ الحرب قد سطعا
فاشفوا غليلي برأيٍ منكمُ حَسَنٍ — يُضحي فؤادي له ريّان قد نَقَعا
ولا تكونوا كمن قد باتَ مُكتنِعًا(14) — إذا يقال له: افرجْ غُمّةً كَنَعا(15)
صونوا جيادكمُ، واجلُوا سيوفكمُ — وجدّدوا للقِسيّ النبل والشُّرَعا
ولا يَدَعْ بعضُكم بعضًا لنائبةٍ — كما تركتم بأعلى بيشةَ النَّخَعا(16)
اذكوا العيون وراء السرج، واحترسوا — حتى تُرى الخيلُ من تعدائها رُجُعا
فلا تغرنّكم دنيا ولا طمعٌ — لن تَنعَشوا بزماعٍ ذلك الطمعا
يا قومِ! لا تأمنوا، إن كنتمُ غُيُرًا — على نسائكم كسرى وما جَمَعا

* * *

فقلّدوا أمركمْ لله دَرُّكمُ — رحب الذراع بأمر الحرب مضطلِعا
لا مُترفًا إن رخاء العيش ساعده — ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعا
ما انفكّ يحلب در الدهر أشْطُرَه(17) — يكون متّبِعًا طورًا ومتَّبَعا
وليس يشغله مالٌ يثمّرُهُ — عنكم ولا ولدٌ يبغي له الرِّفَعا
مستنجدًا يتحدى الناس كلّهم — لو قارع الناس عن أحسابهم قَرَعا

* * *

لقد بذلتُ لكم نُصحي بلا دَخَلٍ — فاستيقظوا، إن خير العلم ما نفعا
هذا كتابي إليكم، والنذير لكم — لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

معركة ذي قار، ومعركة الفرس مع قبيلة إياد. ونمسك القلم عن الحديث عن معركة ذي قار لشهرتها واستفاضة الكتب في الحديث عنها، ونلتفتُ للحديث عن قبيلة إياد التي هي إحدى القبائل الأربع التي تفرعت عن نزار بن معد بن عدنان، وكانوا يسكنون تهامة، ولكنهم اضطروا لمغادرة مستوطنهم الأصلي والمهاجرة إلى مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، لأسباب متعددة، ونزل بعضهم في نواحي العراق، في منطقة بين البحرين وسنداد والخورنق والكوفة، وانتشروا على ضفاف الفرات، ثم أخذوا يهاجمون سكان العراق، وبلغت هجماتهم ذروتها حين سبى رجال من قبيلة إياد عروساً فارسيه نبيلة، فأثار ذلك غضب الملك الفارسي ودفعه إلى إرسال جيش كبير لمهاجمة إياد، فهجمت إياد على جيش ملك الفرس وقضت عليه، وتكدست جماجم القتلى في أرض المعركة بالقرب من دير هناك سُمِّي فيما بعد «دير الجماجم»، ثم عاود جيش الفرس مهاجمتهم حتى أخرجهم من أرض العراق (1) فهاجروا إلى بلاد الشام. وعلى الرغم من أننا نتحدث عن تاريخ إياد الجاهلية التي كانت في تلك الحقبة - كأكثر العرب - وثنية المعتقد، ثم جاورت النصارى، فَتَنَصَّر بعضها، ثم أدركها الإسلام فيما بعد فدخلت في الدين الجديد(2). وما دمنا نتحدث عن المظاهر السلبية والإيجابية لهذه القبيلة؛ فمن الإنصاف أن نقول إنه برز من إياد شخصيات مفكِّرة، لها صيت وشهرة في الحضارة والعلم والفروسية، والكتابة عند الملوك(3)، فقد ذكر الجاحظ عدداً من خطباء إياد واستشهد بالبيت:

كقسِّ إياد، أو لقيط بن معبد

وعذرة والمنطيق زيد بن جندب

كذلك أنجبت إياد شعراء مشهورين مثل أبي دُؤاد الإيادي الذي كان على خيل المنذر الثالث، ولقيط بن يَعْمَر (أو معبد على حد استشهاد الجاحظ)،و لقيط هذا كان كاتباً عند ملوك الفرس في الديوان، وذكر البكري مجموعة من الرماة البارعين من قبيلة إياد، وكان منهم كُتَّاب تعلم العرب الكتابة منهم.

ونكتفي اليوم بالوقوف عند شخصية الشاعر الخطيب الكاتب لقيط بن يعمر(5) الذي يقال إنه كان من خيرة خطباء إياد وشعرائها، وكذلك كان يقال إنه كان مترجماً وكاتباً للمراسلات، وقد ذكر الأصفهاني أن أول كاتب عربي في ديوان كسرى هو عدي بن زيد العبادي، ثم خلفه ابنه زيد بن عدي، وفي هذه الأثناء أو بعدها بقليل تسلَّم لقيط زمام ديوان الكتابة في ديوان كسرى(6). ومعنى هذا أن لقيطاً كان يتقن اللغة الفارسية؛ لأن إتقانه لها شرط لتسنّم هذا المنصب. وتجمع الروايات على أن لقيطاً ساءه جداً أن يرى ملك الفرس يجيّش الجيوش ويجهز الكتائب ليرسلها لمقاتلة قبيلة إياد، وخاصة أنه انتهى إليه أن قبيلته كانت مشغولة آنذاك بالتجارة والزراعة والاستسلام لنعيم الحياة الحضرية التي أحرزتها على ضفاف الفرات، فلهذا ما إن شاهد هذا الاستنفار العسكري الفارسي حتى استثيرت مشاعره، وعَلِم أنه مقدم على ركوب المركب الخشن، فلم يخاطر بمنصبه فقط وإنما خاطر بحياته أيضاً، فسرَّب إلى قومه قصيدة هي رسالة مفتوحة يحذرهم فيها من الاسترسال في حياة النعيم في حين يُعدّ عدوهم العُدّة للقضاء عليهم، وهذه القصيدة هي القصيدة الوحيدة التي نعرفها من شعر لقيط، إذ لا يوجد في ديوانه إلا هذه القصيدة العينية وقوامها 55 بيتاً، وأربعة أبيات داليّة هي بمثابة المقدمة التحذيرية لهذه القصيدة الطويلة، يقول في المقطوعة:

سلامٌ في الصحيفة من لقيط

إلى مَن بالجزيرة من إياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم

فلا يشغلكمُ سوق النّقاد

أتاكم منهم ستون ألفاً

يُزَجّون الكتائب كالجراد

على حنق أتينكم، فهذا

أوان هلاككم كهلاك عاد

وهذه المقطوعة وتلك القصيدة تشهدان بشاعرية لقيط، وتنمّان على أن الشاعر ذو باعٍ طويل في قول الشعر، بمقاييس الشعر في ذلك الزمان، ولكن شعره، على ما يبدو، ضاع ولم يبق منه إلا هذه القصيدة التحذيرية المشبعة بالمشاعر؛ ولقيمة هذه القصيدة نقلها ياقوت المستعصمي الخطاط الشهير بخطه الأنيق وجعل منها ديوان الشاعر الذي حققه وقدم له بمقدمة ممتازة الدكتور عبدالمعيد خان. وليس لدى الباحثين الذين بحثوا في شخصية لقيط وشعره - على كثرتهم - من عرب ومستشرقين ما يضع أيدينا على التاريخ الدقيق الذي قيلت فيه هذه القصيدة، ولكن أبحاثهم تقارب بين القصيدة، ومعركة ذي قار، قبلها أو بعدها بزمن يسير. واهتمامنا بها يعود إلى أن القصيدة تتمتع بمشاعر قومية عربية مبكرة، وإلى رغبة الشاعر الجموح في وحدة الصف العربي، أمام الخطر الذي يهدد قومه وأبناء قبيلته وإن كلَّفتْه الدعوة إلى وحدة الصف العربي حياته وكيانه؛ ولذلك يقال إن كسرى حين بلغه أن لقيطاً أبلغ قبيلته عن توجه الجيوش الفارسية لغزوهم قطع لسانه ثم قتله. وقد كان حديث الشاعر موجهاً إلى رؤساء القبائل الذين كانوا منقسمين في الرأي قبل حدوث المعركة، ولهذا يقول الشاعر: إن فريقاً يَعُدّ نفسه ضعيفاً عاجزاً عن القتال، وفريقاً يخاف سطوة الفرس، وهذا القول الثاني يتفق مع ما قاله هانئ بن قبيصة حينما زعم أنه وقومه يجب أن يذهبوا في الصحراء لأنه ليست لديهم قوة يواجهون بها الجيوش الفارسية، كذلك فإن بني حنيفة لم يحضروا الاجتماع، ولم يكن في المجتمعين من يؤيد الحرب إلا سيار العجلي(7)، وفي هذه اللحظة الحرجة أرسل الشاعر إليهم فحذرهم غزو الجيش الفارسي الكبير، وأقنعهم بالاتحاد والتكاتف وأن يستعدوا للحرب(8).

وعلى شُح المعلومات عن حياة الشاعر، وغموض الحقبة الزمنية التي دارت فيها الأحداث، وعلى اضطراب المرجعيات التي استقينا منها مادة هذه الحلقة، تظل هناك حقيقة واحدة ماثلة رصدناها من خلال هذه القصيدة - وهي من الآثار النصيّة القليلة التي انحدرت إلينا عبر العصور - هي هذا الشعور المبكر بالمناداة بوحدة الصف العربي في الظروف المصيرية الحرجة، ذلك الشعور الطامح إلى نبذ التفرقة والتشرذم الذي لا يعقبه إلا التخاذل والخسران. وهذا هو منطق التاريخ وناموس الحياة في كل زمان ومكان.

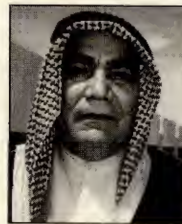
غريب الألفاظ:

1- عمرة: اسم حبيبته المتخيَّلة.
2- المزجي: الذي يسوق.
3- المرتاد: طالب الحاجة والمنتجع: طالب الكلأ.
4- خلّ في سراتهم: خص بإبلاغ الرسالة نخبتهم.
5- الدبا: صغار الجراد.
6- تأووكم: أووا إليكم حاقدين.
7- شوكاً: سلاحاً حديداً.
8- الصاب والسلعا: نباتان خبيثان سامان.
9- الشماريخ: رؤوس الجبال، وثهلان جبل مشهور.
10- يضنكم: أصلكم.
11- المزدرع: الازدراع من الزراعة.
12- صقعاً: فزعاً.
13- بُلَهْنِيَة: رخاء العيش ورفاهيته.
14- مكتنع: ذليل خاشع.
15- كنع: خشع وذل.
16- أعلى بيشة: اسم موضع.
17- حلب الدهر أشطره: أي جرَّب أموره خيرها وشرها.

المصادر والمراجع:

1- معجم ما استعجم للبكري 67/1، والأغاني 23/20، والشعر والشعراء لابن قتيبة 97/1.
2- معجم قبائل العرب 52/1، والمصادر السابقة.
3- مختارات شعر العرب 1، معجم ما استعجم 72/1.
4- البيان والتبين 57/1.
5- البيان والتبين 57/1.
6- الأغاني 18/2.
7- العقد الفريد 97/3.
8- ديوان لقيط تحقيق وتقديم الدكتور عبدالمعيد خان.

الدعوة الإسلامية ومُثُلها
في رسائل النبي ﷺ وكتبه وعهوده



د. يوسف عزالدين

جاء في المعجم الوسيط، مادة: دعو: «دعاه إلى الشيء حَثَّه على قصده، ودعاه إلى الدين وإلى المذهب: حثه على اعتقاده، والداعية: الذي يدعو إلى دين أو فكرة»، ومن معانيها الدعوة، وهي ما يُدعى إليه من الطعام أو الشراب، ولعلها أصل الكلمة..

ولازمت كلمة «الدعوة» نشر الدين الإسلامي وإيصاله إلى البشر، وتوضيح أسسه وتعاليمه وما فيه من فضائل عالية وأخلاق سامية، للإيمان به وليكون عقيدة الإنسان على أن تكون بالحسنى والكلمة الطيبة. فقال تعالى: *ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن*. **النحل**: 125. وفي التوجيه الإلهي دقة القصد ورقة الحوار حتى يقرِّب النفوس ولا يستفزّها ليقتنع العقل وترسخ العقيدة في اللاشعور وتصبح جزءاً من الإنسان.

العرب قبل الإسلام

كان كيان العرب قائماً على العادات القبلية الموروثة وما فيها من محاسن ومساوئ، وكان العربي شديد الترحال وراء الكلأ، وكان ينتقل مع خيمته من مكان إلى آخر، لم يكن مستقراً كاستقرار مكة والمدينة(1)؛ أمة بدوية، الخيمة، بيتها والإبل ثروتها ومعاشها.. واعتمد العربي على ذاكرته في تسجيل أمجاده وحفظ غزواته، وحكايات الكرم والنخوة والإباء يرددها متى استقر في خيمته، وكان الشعر مهوى الأفئدة، لذلك بقي حيّاً، ونُسي النثر في الخطب التي كانت منتشرة، وبرز من العرب خطباء لُسْن؛ إلا أن الذوق الموسيقي المرهف غلب على الرواة فحفظ أكثر الشعر وضاع جل النثر. كان العربي شديد الحفظ قوي الذاكرة، فبرزت الرواية وارتفعت مكانة الرواة في حياته لحفظ الأنساب والمفاخر.. وكانت الأمية هي الغالبة لأنه يحتاج إلى الكتابة أو التدوين بعد الاعتماد على الذاكرة.

الرسائل قبل الإسلام

إن انقطاع العربي في الصحراء وكثرة الترحال وتبديل الأماكن التي ينتجع فيها الكلأ، أبعدته من الاتصال بالحضارات المجاورة إلا من سكن العراق والشام؛ لذلك كانت الصِّلات مع الملوك والحكام المجاورين قليلة. وتتمثل هذه الصلات في الرسائل المحدودة التي أرسلها العرب إلى الحكام المجاورين. وقد جمع أحمد صفوت (جمهرة رسائل العرب) بعد بذل جهد وبعد استقراء لجمعها من مظان الكتب، لكنه لم يتوصل إلا إلى عدد قليل من تلك الرسائل التي أرسلت إلى الملوك من الولاة العرب الذين استقروا في السواد، منها: رسالة المنذر الأكبر إلى أنو شروان، وهي رسالة ليست ذات أهمية كبيرة، فيها وصف لجارية.. ويظهر على الرسالة طابع الافتعال والمبالغة اللفظية والحسية.. فالفتاة «وطفاء كحلاء دعجاء حوراء.. أسيلة الخد شهية المقبَّل جثلة الشعر.. كاعب الثدي حسنة المعصم لطيفة الكف.. لفاء الفخذين ريّا الروادف مكسال الضحى بضة المتجرد»(2)، ولعلها من افتعال الرواة.. ولم يذكر لنا أية رسالة عن القضايا السياسية والعلاقات التي تربط العرب بكسرى.. وعندما يذكر الرسالة نجد الطابع الشعري يغلب عليها.. فالمرسل ينظم المضمون شعراً. ومن تلك الرسائل رسالة عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، وقد ذكرها تاريخ الأدب العربي لعلاقتها بالشاعر طرفة بن العبد وخاله المتلمِّس، وفيها النهاية المؤلمة لشاعر من شعراء العصر الجاهلي فقد قتل شاباً نضر العود(3).

ومن الرسائل القليلة التي وردت في العصر الجاهلي رسالة النعمان بن المنذر إلى كسرى.. ورسالة عبدالمطلب بن هاشم إلى أخواله بيثرب، والتحالف بين عبدالمطلب وخزاعة، ورسالة عديّ بن زيد

العِبَاديّ (ت. نحو 35 ق. هـ) إلى أخيه الجارود(4).

وهي رسائل غلب عليها طابع الضعف أو الصنعة ولا يمكن أن توضع في مصاف النثر الفني.. ولم يبق من النثر الفني غير العظات والوصايا، مثل وصايا أكثم بن صيفي إلى طيء، وكتابه إلى خميصة البارقي..(5)، وبذلك لن نجد أثرًا كبيرًا للرسائل في حياة العرب.. ولعلها ضاعت عبر السنين وعوامل الطبيعة. وكان عند عمر بن الخطاب منها ملء صندوق ضاعت يوم الجماجم(6).

قريش والدعوة

جاء الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا إلى التوحيد وإلى المساواة بين البشر ورفض عبادة الأوثان، وكانت قريش مركز الثقل التجاري في الجزيرة، وكانت الكعبة في مكة المكرمة المكان الذي تتمتع فيه قريش بالمكانة العالية.. لذلك حاربت الرسول خوفًا على سيطرتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية. وخوفًا على مالها ومكانتها ودينها.

ثلاثة عوامل دعت قريشًا للخوف من الدعوة الإسلامية فحاربت الرسول بعنف، لأنه هدم قواعد المجتمع الجاهلي التي تسند مكانة قريش.

بدأت الدعوة بالرسول وحده، ثم التف حوله السابقون من المسلمين في مكة المكرمة، وبقيت الدعوة تنشر سرًا. كان الرسول شديد الصبر قويّ الحجة مؤثر الشخصية؛ وكان يعرض نفسه على القبائل ويحاول إقناعها ويتلو عليها القرآن الكريم. ففي العقبة الأولى أسلم ستة نفر من الخزرج وذهبوا إلى المدينة وبدأ نشر الدين الإسلامي(7). وفي السنة الثانية وافى من الأنصار اثنا عشر رجلاً وبايعوا الرسولَ على عدم الشرك والسرقة والزنا وقتل الأولاد...(8)، وفي بيعة العَقبة الثانية ـ وكان عدد الأنصار ثلاثة وسبعين رجلاً ومعهم من نسائهم امرأتان(9) ـ بايعه الأنصار على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم، وأن يحاربوا معه الأسود والأحمر، وأن ينصروه على القريب والبعيد(10) ولم يدون الرسول في ذلك شيئًا. وامتازت هذه البيعة بالتنظيم والتنسيق؛ ولما كان عدد الأنصار ثلاثة وسبعين رتب لهم نقباء وجعل أبا أمامة (أسعد بن زَرارة) رئيسًا لهم، فظهر التنظيم الأول في الدين الإسلامي، وتجلى فيه دقة العمل وسهولة الضبط وإيصال الدعوة بيسر وسهولة إلى أبناء المدينة، واتفق الرسول مع الأنصار اتفاقًا واضحًا في الدفاع عنه ونصرته وعدم تركه لهم بعد الانتصار على الكفار، وشرط لهم عند الوفاء الجنة(11).

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصْعَب بن عُمَير (ت: 3هـ) إلى المدينة فأخذ يُفَقِّه المسلمين ويعلمهم القرآن الكريم؛ فبعد ما كان يدعو إلى التوحيد ورفض عبادة الأوثان، بدأ في وضع أسس الدين الإسلامي، ولما آمن المسلمون بدأت في المدينة المنورة صلاة الجمعة بالتقرب إلى الله تعالى بركعتين(12).

ولبعد المسافات وضرورة إيصال الدعوة للبعيد من الناس بدأت كتابة العهود والرسائل. ويمكن أن نضع كتب البيعة والعقود والعهود الأولى ضمن الرسائل النبوية، إذ بدأ بها الدعوة الأولى، ووضع الأسس المتينة والقواعد الجديدة والمصطلحات الإسلامية لإرساء العقيدة الجديدة. وهي بداية النثر الفني في الأدب العربي. وكانت هذه الرسائل مختلفة عن الخطابة والأمثال والحكم؛ لسلاسة عبارتها وجزالة أسلوبها وتركيز معانيها ووضوح مقاصدها الإسلامية وبعدها من الصنعة اللفظية.

وضع أسس البناء للمجتمع الجديد

ولما استقر الرسول الكريم في المدينة المنورة بعد الهجرة بدأ في تنظيم الحياة الاجتماعية، فقد جاء المهاجرون، وكان في المدينة الأوس والخزرج واليهود، وظهرت الاختلافات الفكرية، وبرزت الجذور النفسية المتطاحنة، لكن الإسلام وطّد الأمور وقضى على الحقد والكراهية والكبرياء القبلي، فشمل المسلمين الحب والألفة والتضحية والمساواة وكرامة الإنسان وحريته.

إن تعاليم الدين الإسلامي كانت صريحة في رفع الظلم ونشر المساواة ورفع الجور عن المسلم ورفع مكانته: «لا يقتَلُ مؤمن بكافر» ولا يُنصر كافر على مؤمن، وإن ذمة المسلمين واحدة يجير عليهم أدناهم(13)، وحددت الصِّلات باليهود والمشركين وعرفت حقوقهم، ومنع نصرة الجاني (صفوة 3)، وحرم جوف المدينة المنورة (صفوة 4)، وأوصى الرسول بالجار وبالفضائل العالية.

الرسول صلى الله عليه وسلم والدعوة

امتاز الرسول الكريم بفكر واسع وتنظيم عقلي كبير وتخطيط ذهني متكامل، ظهر ذلك كله في رسائله وكتبه وعهوده. كان يحسب لكل كلمة حسابها، ولكل لفظ من ألفاظه موقعه وأثره في النفوس. إن قوة شخصيته هي التي أخافت قريشًا، وعذوبة حواره وسهولة إقناعه للناس، دعت قريشًا إلى إبعاد الناس عنه وصم الآذان عن كلامه، ولَهُمُ الحق. فإن الطُّفَيل بن عمرو الدوسي (ت: 11هـ)(14) الذي ملأ أذنه بالقطن آمن به بعد أن سمع كلامه فقد قال: ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمرًا أعدل منه؛ وأسلم هو وقومه بعد أن قابل الرسول(15) وكان يرهبهم بالنار ويرغبهم بالجنة.

قامت الدعوة في مكة على الخير والسماحة والمساواة والتوحيد، وهي أمور أخافت قريشًا وخاصة دعوته إلى المساواة ورفع مكانة البشر عن الوثنية، لأنه أعاد للإنسان كرامته ورفع مكانته الاجتماعية بالمساواة وبالتوحيد والقضاء على الظلم والطبقية والامتيازات التي تتمتع بها قريش. وفي المدينة المنورة بدأ بوضوح التشريع وأسس الدعوة وقواعدها العامة.

رسائله داخل الجزيرة

بعد أن وطد الرسول الكريم دعائم الدين الإسلامي وبدأ الإسلام ينتشر في المدينة المنورة، خطا الخطوة الأولى في تعليم الأنصار فقه الدين. واحتاج الأنصار إلى أسس محددة لفهم قواعد النظام الأساسي الجديد. ومن مكة المكرمة أرسل الرسول الكريم عدة أنظمة منها أنه حدد الفداء وضرورة مساعدة المحتاج من المسلمين، وافتداء أسراهم وألا تكون منزلة المسلم مساوية لمنزلة الكافر(16).

كان الرسول الكريم يواجه الشرك في مكة ويدعو إلى التوحيد وينظم المسلمين في المدينة، وأول مادة وضعها للمؤمنين من قريش وأهل يثرب ومن لحق بهم وتبعهم وجاهد معهم «إنهم أمة واحدة من دون الناس»(17)، ثم جاءت مواد الدستور الأخرى تنص على أن يتكافلوا فيما بينهم ويتعاقلوا فيما بينهم، ويفدوا عانيَهم؛ وأن يكونوا كتلة واحدة ضد من تُسَوِّلُ له نفسه إلحاق الأذى بأي مسلم منهم؛ لأن المسلمين يوالي بعضهم بعضًا، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وهم أمة واحدة كالجسم الواحد فلا يجوز مصادقة الكافر، وحدد للمسلمين صلاتهم باليهود بوضوح وصراحة. كما حدد هذه الصِّلات بقريش ومواليها وأكد نصرة المظلوم ومصالحة المسلمين، وإبداء النصح لمن خالف المسلمين، وحرَّم جوف المدينة المنورة، وكانت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار نقلة من الدعوة الشفهية إلى الكتابة لبعد المسافة، وبقي في مكة يعتمد على الإقناع المباشر الذي كان يخاف منه الكفار لمعرفتهم بقدرة الرسول الفذة في الإقناع وقرع الحجة بالحجة، حتى إنهم كانوا يسدون آذانهم خوفًا من سماعه حتى لا

يتأثروا بحديثه، ويبعدون الناس من الاقتراب والحديث معه.

صلح الحديبية

كان هذا الصلح نقطة تحول كبيرة في تاريخ الدعوة الإسلامية. فهي حملة قوة أراد بها الرسول دخول مكة معتمرًا، فاضطربت قريش وخرجت إليه لأنه شن فيها حربًا نفسية عميقة الأثر، ولأنها جاءت بعد المواقع الحربية الكبيرة: بدر الكبرى وأحد والخندق وغزواته لليهود. ودخل إلى عقر الديار في الحديبية وأذاع قوله: «لا تَدْعُوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»(18)، واتفق مع قريش على أن ينصرف وأن تكون هدنة مدتها عشر سنين. وقد تألم المسلمون من الاتفاق لأن فيه أن من جاء من قريش إلى المسلمين دون إذن وليه رُدّ إلى قريش، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه(19) حتى إن الرسول رد أبا جندل (ابن سهيل بن عمرو) وهو يرسف في قيوده.

وعاد الرسول إلى المدينة بعد أن عرفت العرب مقدار قوة المسلمين، وكان الرسول رفيقًا بقريش وأعطى حرية كاملة للناس للدخول معه أو مع قريش.

وبعد أن صُدّ الرسول عن عمرته يوم الحديبية قال: «أيها الناس إن الله بعثني رحمة وكافة.. فأدُّوا عني يرحمكم الله ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم»(20)، وقد كثرت بعوث الرسول وغزواته ووصلت سبعًا وعشرين غزوة، أما بعوثه فكانت ثمانيًا وثلاثين(21) كذا.

ونقضت القبائل الهدنة فكان ما أراده الله من نصر المسلمين وتم الفتح المبين الذي أكد صدق الدين ونصر المسلمين.

نشر الدعوة خارج الجزيرة

وبعد هدنة الحديبية وقبل الفتح قال الرسول: «إن الله بعثني رحمة وكافة» ومعناه أن تُنشر الدعوة إلى العالم كله، وبالفعل أرسل رسالتين إلى صاحب دمشق وأخرى إلى ملك البحرين.. كما أرسل عدة رسائل إلى سادة العرب وقادتهم داخل الجزيرة وخارجها.

كانت فكرة رائعة أسمع فيها صوت الدعوة في أرجاء الجزيرة العربية وردد صداها العالم. وقد دلت الرسائل على سعة فكر الرسول ونظرته السليمة في بث الدعوة.

وأخذت بعض القبائل تؤمن بما تناقلته قريش عن ظهور النبي وهي بعيدة منه بعد أن آثرت التريث؛ لأن قريشًا في سفراتها كانت تشكك في نبوته صلى الله عليه وسلم.

كانت رسائله مركزة عميقة الأثر في النفوس، ومن نصوص هذه الرسائل: «أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»(22)، و«أدعو الله عز وجل»(23) وهي الدعوة النفسية عندما يلقي تبعة الرعية على مسؤولية الملك(24)، ويتخذ من القرآن الكريم سبيلاً لتوضيح فكره وجلب القلوب باللين والموعظة الحسنة مثل: *قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبُدَ إلا اللهَ ولا نشركَ به شيئًا ولا يتّخذَ بعضُنَا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا* مسلمون(25). كان رسول الله يدعو إلى الإسلام وينتظر رد الفعل عند هؤلاء الملوك، ويعرف أثر الدعوة النفسي عند الشعوب، ولم يدخل في رسائله إلى تفاصيل تعاليم الدين؛ وكان أمله في إسلام أهل الكتاب أكبر من أمله بإسلام كسرى والمجوس. واكتفى بالدعوة إلى الإسلام «أدعوك بدعاية الإسلام»؛ لأن أهل الكتاب لهم قاعدة فكرية في الكتب المقدسة والأنبياء مما لا يملكه المجوس والفرس الذين يرون أنهم أعلى طبقة من العرب، لذلك شرح في رسالته قصده وطالب كسرى بالإيمان بالله ورسوله، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه رسول الله الذي أُرسل إلى الناس كافة لينذر من كان حيًا. ولصلات النجاشي بالعرب ومعرفته بهم وببعض تعاليم الدين من هجرة الصحابة أكد في رسالته له على التوحيد. وتأكيده على التوحيد لانتشار الوثنية بين البشر على أشكال مختلفة وأساليب متباينة؛ فمنهم من يعبد الأوثان والأصنام ومنهم من يعبد الملوك والرؤساء(26).

بدأت كتابة العهود والرسائل في العهد النبوي لبعد المسافات وضرورة إيصال الدعوة إلى البعيد من الناس، وهي تعد بداية النثر الفني في الأدب العربي

رسائله إلى العرب

كتب الرسول إلى الحارث صاحب دمشق، والمنذر بن ساوى ملك البحرين، وهوذة صاحب اليمامة، وإلى ملكي عمان، وإلى الأكيدر الكندي ملك دومة الجندل، ووائل بن حجر، وأهل حضرموت، وغيرهم(27).

وقد اختلفت هذه الرسائل باختلاف المرسل إليه، فقد دعا الحارث بن أبي شَمِر الغساني إلى الإيمان «بالله وحده لا شريك له»، وكان أكثر صراحة وحرية مع ملك البحرين فقد قال: «فإن من صَلَّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة رسوله»، وأعطى المجوس خيارًا بدفع الجزية لمن لم يؤمن. وكان من جراء ذلك أن أسلم جماعة من أهل البحرين، ودفع الجزية المجوس واليهود.. إذ فرضت الشروط المالية على العرب(28).

وفود القبائل العربية

ولما انتشرت الدعوة بدأت وفود العرب تصل إلى المدينة، وكان الرسول يشرح لهم تعاليم الدين الإسلامي بنفسه.. ويرسل مع الوفود رسائل مكتوبة تثبت هذه التعاليم..

فقد جاءه في تبوك صاحب أيلة وأهل جرباء وأهل أذرح وأهل ميناء.. فأمَّنهم الرسول على أموالهم ومن كان معهم من أهل الشام واليمن والبحرين على أن يدفعوا الجزية، وفرض على أهل أذرح وجرباء مئة دينار تدفع كل رجب.. وفصل لهم القضايا المالية(29). وعندما جاءه وفد بني كلب أكد في مقابلته لهم على «إقامة الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة بحقّها»(30)، وعلّمهم أصول إخراج الزكاة في الشياه والنخل والزرع. كما فرض عقوبة الجلد على المخالفين من أهل ثقيف بعد عودته من تبوك لمن يصيد الصيد ويعضد الشجر، ورأى ضرورة إخباره عن الذين يكررون مخالفتهم أوامره(31).

وكان يُشهد على كتابة الكتب الصحابة الذين يحضرون الكتابة(32).

ملوك حمْيَر

ولما عاد الرسول من تبوك إلى المدينة أرسل ملوك حمير رسلهم معلنين الإسلام ومحاربة المشركين.. فكان وصول وفد اليمن حدثًا كبيرًا من الأحداث الإسلامية، فقد كان صلى الله عليه وسلم يتمنى أن يهدي الله أهل اليمن وهو يحفر الخندق، وأسعده إسلام هذا القطر العربي الكبير للصلات الوثقى بين

أهل الحجاز وأهل اليمن، والرحم والقربى مع هذه القبائل العربية.

لذلك أفاض الرسول الكريم في شرح تعاليم الإسلام لأهل اليمن وأكد الناحية المالية وشرحها لهم. وقد عزز الوفد بخمسة من الصحابة الذين تفقهوا بالدين الإسلامي ومن «صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم» كما قال، وهم: معاذ بن جبل وعبدالله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة، لنشر تعاليم الدين وتعليمهم فرائض الإسلام مع أنه أفاض في رسالته.

وقد شرح لهم كيف يدفع المسلم الزكاة، وكيف يدفع أهل الكتاب الجزية وتكون لهم ذمة الله ورسوله، وقال بعبارة صريحة بضرورة جمع الصدقة التي «لا تحل لمحمد ولا لأهله، وإنما زكاة يُتزكَّى بها على الفقراء»(33).

إن فرض الزكاة كان ضرورة لرفع مستوى الفقراء من المسلمين والضمان الاجتماعي والمالي الذي أكده لكل وفود العرب؛ فقد كتب إلى بني نهد: «لكم يا بني نهد من الوظيفة الفريضة»(34) وحدد قواعد الزكاة بدقة، فقال: «لكم العارض، والفريش، وذو العنان الركوب والفلو الضبيس(35) لا يُمنع سرحكم ولا يُعضد طلحكم ولا يُحبس دركم ولا يؤكل أكلكم ما لم تضمروا الإماق وتأكلوا الرباق(36).

وفي رسالة أخرى أرسلها الرسول نجد أن اهتمامه الكبير بإسلامهم دعاه إلى التقيد بقواعد الدين الإسلامي، فعلّمهم الوضوء وضرورة إتمامه وأمرهم بالصلاة وضرورة الخشوع، وإتمام الركوع، وحدد لهم أوقاتها، وحث على حضور صلاة الجمعة، والغسل عند الذهاب إليها، وأكد فكرة التوحيد ونشره بين القبائل وإلا كان جزاؤهم القطع بالسيف.. وأكد أن التوحيد من أهم صفات المسلم.. كما علمهم فرائض الحج والعمرة وضرورة دراسة القرآن الكريم، ومعرفة الشريعة وجزاء المسلم الجنة والكافر النار.

وعاد في شرح القواعد التي تُفرض فيها الزكاة على المسلم(37).

كانت تعاليم الدين الإسلامي لأهل اليمن صريحة وواضحة؛ ففي رسالة أرسلها إلى شرحبيل بن عبد كُلال وأخويه نُعيم والحارث.. مع عامله في اليمن عمرو بن حزم الأنصاري، وقد تليت الرسالة على أهل اليمن، ذكر السُّنَن والفرائض والديات والعقول، فقد جعل دية المؤمن مئة من الإبل إذا قتل عمداً، وعن قطع الأنف كله واللسان والشفتين، وفي البيضتين والذكر، وفي الصلب وفي العينين الدية. وفي الرجل الواحدة نصف الدية، وفي المأمومة ثلث الدية، وفي الجائفة ثلث الدية، وفي المنقلة خمس عشرة من الإبل، وفي كل إصبع اليد والرجل عشر من الإبل، وفي السن خمس من الإبل، وفي الموضحة خمس من الإبل، وإن الرجل يُقتل بالمرأة، وعلى أهل الذهب ألف دينار(38).

خاتمة

كانت رسائل النبي صلى الله عليه وسلم اللبنة القوية التي قام عليها الصرح الإسلامي الشامخ؛ فقد بدأت بمعاهدة المشركين ثم قبول دعوته.. وفي رسائله كان يأخذ الأمور بالتدريج فالدين يسر وسهولة، ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والرقة واللين.

بدأ بالتوحيد والدعوة إلى الواحد القهار ومحاربة الأوثان؛ لأن الوثنية أسوأ أنواع الذل والطغيان.. وأراد أن يرفع من فكر البشر ويسمو بهم عن عبادة الشرك المادية سواء كانت وثنًا، أو أميرًا، أو ملكًا إلى عبادة الديَّان. ثم أتبعها بالصلاة، ثم بالزكاة وبعدها الحج. ومن الملاحظ أن هذه الرسائل تمتاز بأمور منها:

1 - لطف العبارة ورقتها وسهولة ألفاظها وسلاسة عبارتها.

2 - البعد من التصنع اللفظي لتكون مفهومة لكل طبقات المجتمع الإسلامي.

3 - دخول المصطلحات الإسلامية الجديدة كالصلاة والزكاة والحج والجهاد والصدقة والمشرك والكافر والفريضة والسنّة والنافلة والحسنة والسيئة والنفاق.. وغيرها من الألفاظ الإسلامية والمصطلحات التي لا يعرفها العرب بمثل ما اصطلح عليه الإسلام وإن كانت عربية.

وقد اتخذ الخلفاء من بعد هذه الرسائل، وخاصة تلك التي فرض فيها التعاليم الإسلامية نموذجًا يسيرون في هدية.. ويقتبسون من فكره الواسع وعقليته الكبيرة صلى الله عليه وسلم.

الهوامش:

1 - كانت في الطائف بعض الصناعات والزراعة بأنواعها.
2-5- جمهرة رسائل العرب، ص2، 4، 12، 13، 14، 16، 19-20.
6 - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص 24.
7 - مجموعة الوثائق السياسي ص 24، وقد ذكر ابن حزم أسماء المسلمين الأوائل ص 45.
8،9- المصدر السابق، ص 46، 47.
10 - المصدر نفسه، ص 49، ويراجع جوامع السيرة لابن حزم ص 69 وما بعدها ففيها ذكر أسماء الأنصار، والسيرة لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وجماعته، ص 420 القسم الأول.
11 - محمد حميد الله ص 49 عن اليعقوبي جـ 2، ص 38، 39.
12 - محمد حميدالله: الرسالة المرسلة إلى مصعب، ص 53.
13 - 2، 3، 4 صفوة، ص 27 - 29.
14،15- ابن حزم ص 167.
16 - جمهرة رسائل العرب، ص 25 - 27.
17 - ابن حزم، ص 208 و209.
18 - ابن حزم، ص 208 و210 بصدد تسليم عتبة بن أسيد بن جارية لقريش، وحميدالله ، ص 77.
19،20- السيرة، ص 606، 607، 608، 609 القسم الثاني، تحقيق مصطفى السقا وجماعته.
20 - المصدر السابق، ص 608 و609.
21 - جمهرة رسائل العرب: رسالة النبي إلى هرقل، ص 32 وإلى المقوقس ص 38، وحميدالله ص 107 وص 135، وصحيح البخاري 6/78، وصحيح مسلم ص/393. كما يراجع ابن سيد الناس في: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ص 265 جـ 4.
22 - صفوت: رسالة كسرى ص 35، وحميدالله ص 139.
23 - في رسالة هرقل: «فإذا توليت فعليك إثم الأريسيين - وهم الفلاحون -»، وفي رسالة كسرى: «فإن أبيت فعليك إثم المجوس»، وفي رسالة المقوقس: «فإن توليت فعليك إثم القبط».
24 - لاحظ رسالة هرقل والمقوقس ص 110 و135، ومحمد حميدالله، وسورة آل عمران الآية 64.
25 - جوامع السيرة لابن حزم، تحقيق إحسان عباس وناصر الأسد، ص 29، وذكر الكتاب عددًا من المصادر في الحاشية، ومحمد حميد الله ص 140، 106.
26 - جمهرة رسائل العرب ص 40، 41، 46، 49.
27 - جرت رسائل متعددة مع الرسول موجودة في كتب التاريخ والسيرة الحلبية والخراج لأبي يوسف وأسد الغابة والإصابة، وقد جمعها الباحثان صفوة ومحمد حميد الله بعناية وتحقيق علمي.
28 - رسالة الأكيدر في جمهرة أنساب العرب ص 48، 49، ومجموعة الوثائق السياسية ص 293.
29 - رسالة بني كلب في جمهرة رسائل العرب ص 51.
30 - جمهرة أنساب العرب ص 51، 52، وكتاب ثقيف ص 52، 53.
31 - شهد على كتاب بني كلب جماعة من الصحابة منهم سعد بن عبادة ص 51، ويلاحظ ص 73 من المصدر السابق، فقد شهد على كتاب الداريين أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.
32 - رسالة النبي إلى ملوك حمير، صفوت 53.
33 - رسالته إلى بني نهد، ص 57 المصدر السابق.
34- الوظيفة: النصاب من الزكاة، الفريضة المسنة لا تؤخذ في الزكاة.
35 - الضبيس: الصعب الذي لم يُركب، والفريش التي وضعت حديثًا كالنفساء من النساء أي لا تؤخذ إلا الجيدة من الحيوانات وتبعد ذات العيوب.
36 - الإماق: نكث العهد من الأنفة. الرباق: الحبل، أي نقض رباق العهد الذي في أعناقكم. صفوت: ص 63، 64، وكتابه إلى معاذ بن جبل ص 65.
37 - جمهرة رسائل العرب، ص 90، ومحمد حميد الله ص 206 - 211.
38- المأمومة: التي فيها شج واضح. الجائفة: طعنة خالطت الجوف. المنقلة: الشجة التي تكسر العظم. الموضحة: الشجة التي بلغت العظم، فأوضحت عنه؛ أي إن الزكاة يجب أن تأتي من خيرة الأنعام.

الخيال الأدبي



الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

من استقراء معاني المادة وُجد أنها تدل على صفة فيها تصوُّر، وظن وتحرك بحضور صورة وغياب أخرى، فَدَلَّ ذلك على أن هذا هو المعنى الوضعي الأولي الحقيقي للمادة.

وكل هذه المعاني متوافرة في إحدى ملكات العقل، ولهذا سُمِّيت خيالاً على المبالغة، فكأنها محل كل خيال، لأن التخيل عن طريقها.

والتخيل والخيال في النص الأدبي اختلاق صور لم يشهدها الحس بذلك التركيب، وإنما كانت صور أجزائها مما جرده العقل، واحتفظت به الذاكرة.

ثم إن تلك الصورة قد تكون معقولة؛ بمعنى أن العقل لا يحيل وقوعها في الخارج، وقد تكون غير معقولة.

ويعدّ كل من كولردج ووردزورث وغيرهما الفنَّ أثرًا من آثار الخيال.. ومن الفن الشعر.. ومعيار صحة هذا الرأي أو بطلانه أن يوجد نص شعري معتبر فنيًا وهو مجرد من عناصر الخيال أو غير مجرد.

وجمهور النقاد يقيدون مفهوم الخيال بأنه ما صدر عن وعي عقلي، فليس هو كخيالات النائم، وأن تكون تأليفة الخيال وتركيبيَّته معقولة، وأن تكون دالة.

وهذا التقييد يدفع جماح قوم ثقلت أرواحهم، وتخثَّرت شفافيتهم، فألغوا أهم أمجاد الفن وهو الخيال، من أمثال جونسون وديكارت وهوبز ودريدن حيث عدّوا الخيال مملكة فوضوية، وجعلوه أم الجنون والأحلام والأوهام والحمى(1).

وكاد مجال الخيال لدى الكلاسيكيين ينحصر في التعبير المجازي، والصور الحسية الجزئية.

قال أبو عبدالرحمن: التعبير المجازي إذا كان مأثورًا من المسكوكات أصبح نقلاً لا فضل فيه لخيال الشاعر.

وكون التركيبة الخيالية دالة شرطٌ يباركه أمثال وليم بليك الذي يعدّ الخيال رؤية مقدسة، والفيلسوف فشته الذي قيد الخيال بوصف المنتج، والفيلسوف شيلنج الذي رأى الخيال فنيًا الوسيلة الأولى لإدراك أية حقيقة، وكيتس الذي يرى الخيال قوة قادرة على بلوغ الحقيقة القصوى، وشللي الذي مايز بين الخيال والعقل ممايزة توحي بأن الخيال هو مصدر المعرفة في الفن.. قال: إن العقل يحترم الفروق بين الأشياء بينما يحترم الخيال مواضع الشبه فيها(2).

قال أبو عبدالرحمن: العقل يريد الحقيقة كما هي في الواقع فيحدد هويتها بالفوارق.

والخيال يجنح إلى المضاهاة الفنية بإحداث عوالم فنية لها دلالتها على الحقائق العقلية، فيقيم عوالمه الخيالية بأوجه الشبه بين الأعيان الواقعية.

قال أبو عبدالرحمن: ولي تحفظ في دعوى أن الخيال مصدر للمعرفة إذا فُسِّرت هذه المعرفة على مذهب كولردج الذي يرى أن الإنسان بالخيال يتجاوز عالم الظواهر فيدرك كنه حقائق مغيبة.. ومن تلك المغيبات كنه حقيقة ربنا سبحانه وتعالى.

قال أبو عبدالرحمن: المغيب عن حس الأديب قد يكون من جنس عالم الظواهر، وقد يكون من غير جنسه.

فلبن الجنة وزقوم النار ليس من جنس عالم الظواهر، وربنا سبحانه لا مثل له ولا شبيه ولا ندّ.

إذن كيف يدرك الخيال حقيقة ما وراء عالم الظواهر من غير جنسها ومادته من عالم الظواهر ذاته؟!.

ولكننا قد نعلم وجود ما وراء عالم الظواهر من غير جنسها، ونعلم وصفه بإجمال من آثاره كعلمنا أن عظمة الكون صادرة عن خالق أعظم.

ونعلم حقيقته بوصف من يوجب البرهان صدقه.. والله سبحانه نعلم حقيقته بالوصف من الخبر الشرعي الصحيح، وهو وصف لم يعتمد التشبيه والتكييف، وإنما أحال إلى الغاية في الوصف كالعلم بأن لله مطلق الحكمة، فيظل العقل بكل حيله الفكرية والخيالية قاصرًا عن إدراك كنه الغاية في الحكمة.

أما ما غاب عن حس الأديب وهو من جنس عالم الظواهر إذا لم يحل العقل وقوعه فهو من المحتمل، فقد يقع كما تخيله الأديب، وقد يكون مما وقع ولم يعلم به الأديب وإنما تخيله.

وسواء وقع في الماضي أو في المستقبل فلا يكون تخيل الأديب معرفة، بل مصادفة، وإنما مجال المصادفة في المحتمل.

والمتخيَّل المحتمل إذا تحقق شرطه يقع مثل قصة سلمون التي سيأتي الحديث عنها إذا حققت أحداثها التاريخية مع شخص معين (ذي عاطفة أبوية راغم أهله) وقعت كما تخيلها القاص.. وهذه هي صفة الأدب الواقعي.

والخيال ليس قاصرًا على التأليفية التركيبية من عناصر واقعية، بل قد يكون جزئيًا بأن تتخيل عينّة واقعية، أو تتخيل صفاتها أو آثارها

بغير ما هي معهودة عليه في الواقع، والعقل لا يحيل تصورها كما تخيلها الأديب كما في مسرحية الملك لير لشكسبير.

ففي هذه المسرحية نجد أن الألم العميق الذي يحس به الأب جعله ينشر الإحساس بالعقوق ونكران الجميل حتى شمل العناصر الطبيعية ذاتها.

وقد ضرب كولردج المثال بهذه المسرحية في تعريفه الخيال.

وخلع الانفعالات على الجوامد كثير في مجازات الأدباء.

وفي مذهب الجمال الواقعي ضرب الأستاذ مجاهد المثال بقصة واقعية شاهداً للجدلية في التنظير الأدبي للأديب الماركسي لوكاتش.. قال: إن قصة بدر نشأت «سلمون» في مجموعته القصصية «حلم ليلة تعب» يمكن أن تصور ما يقصده لوكاتش.. إن بطل القصة قد أغضب زوجته فتركت له البيت إلى أهلها، وفي اليوم الثاني حمل معه علبة سلمون وخبزاً وزيتونًا لكي يتناول طعام غدائه، وأثناء الأكل أخذ يقرأ في الصحيفة.. يقرأ عن اكتشاف إشعاع ذري في بحر اليابان، وأن الأسماك تلوثت بالإشعاع، فتوقف عن الأكل، وقرأ على علبة السلمون أنها صنعت في اليابان، فشعر بانقباض، ولم يواصل، وشعر بوحدة شديدة وخوف خشية أن يأكل أولاده السلمون ذا الإشعاع الذري، فيقرر أن يصالح زوجته.. إن المشكلة الخاصة عنده أوصلته إلى المشكلة العامة، وهذه المشكلة العامة أرجعته إلى مشكلته الخاصة ولكن في ضوء جديد.. إن الإنسان لا يستطيع أن يكون وحيداً ويتكشف جوهره (التضامن البشري).. وعلى هذا نجد لوكاتش يقول في كتابه دراسات في الواقعية: إن أساس الأدب العظيم هو العالم المشترك للناس الأيقاظ الذي تحدث عنه هيرقليطس.. فمن دون وعي يقظ للواقع لا يمكن أن تصاغ أية سيماء فكرية.. ومن دون سيماء فكرية لا تنهض أية شخصية أدبية إلى المستوى الذي به تسمو في حيوية تامة للفردية على الصدفة(3) البليدة للواقع اليومي وترتقي إلى الرتبة الأنموذجية فعلاً.

قال أبو عبدالرحمن: هي واقعية؛ لأن عناصرها من الواقع، ولهذا فالعقل لا يحيل وقوعها ويجوزه.. وإنما يطلب تعيُّنها (على أنها حادثة لناس من البشر) بالتوثيق التاريخي.

وهي متخيلة؛ لأن تركيب الحادثة من تلك العناصر الواقعية تركيب من صنع الخيال.. لأن صاحب الحادثة لم ينقل من الطبيعة حدثًا وقع بهذا التعيين.. وهذا هو فرق ما بين واقعية الحدث، وواقعية الأدب.

والعنصر الجمالي فيها على أنها قصة - بغض النظر عن العناصر الجمالية في الصياغة - الندرة؛ لأنها لو وقعت لكانت مثيرة لندرتها، مبهجة لمفاجآتها.. أما وهي خيال أدبي فقد تحقق فيها أهم عنصر جمالي، وهو المضاهاة الفنية.

وقد يسأل سائل فيقول: التعبير بالمضاهاة الذي اخترته هو البديل عن قولهم: الخلق الفني.. فأي خلق ها هنا يتسم بالمضاهاة؟.. إن العناصر نقل طبيعي لما حدث ويحدث، والحادثة المتخيلة لا معهود لها بذا التعيين في معارف القاص؟!.

قال أبو عبدالرحمن: المضاهاة تكون مشابهة، وتكون مماثلة.. ويحدث كثيراً في الوجود وقائع يتنازل فيها الإنسان لأجل غيره بدوافع منها العاطفة الأبوية كما في قصة سلمون المتخيلة، فهي محاكاة لتلك الوقائع.

إذن كيف يكون الخيال مصدر معرفة؟!.

الجواب أن الخيال وسيلة تعبير عن المعرفة الواقعية، وليس مصدراً لها، وهو مصدر ثراء للرصيد الأدبي والفني بما يوجده من صور وأنماط شبيهة بالواقع.

وقال الأستاذ مجاهد: «التخيل القدرة على إدراك العلاقات مما يساعد على إبراز الأفكار الجديدة، كما أن له القدرة على إيجاد تناغم بين جميع عناصر العمل الفني من ناحية المضمون، وناحية الشكل، وهو عنصر شغل دارسي الجمال كثيرًا رغم أنه هو القدرة نفسها على التشكيل»(4).

قال أبو عبدالرحمن: الخيال تحوير في الواقع كالجمع بين الأضداد، أو محاكاة له من خلال أوجه الشبه.

أما القدرة على إدراك العلاقات فتلك لماحية حسية فكرية من كبد الواقع وليست من الخيال في شيء.

وقال الأستاذ مجدي وهبة وزميله: «ومن التعريفات المختلفة التي أُعطيت لهذا المصطلح عبور العصور:

1 - القدرة المسؤولة عن استحضار الصور المرئية مفردة أو مجتمعة في الذهن.

2 - القدرة على توليف هذه الصور توليفًا جذابًا.

3 - القدرة على توليفها توليفًا خادعًا للعقل.

4 - قدرة الفنان على إسقاط مشاعره فوق موقف أو شخصية إسقاطًا ينتج عن التفاعل المتعاطف معهما.

5 - الملكة التي تمكن الذهن من إبداع رموز للمفهومات المجردة.

6 - المرادف الشعري أو الفني للحدس التصوفي.

7 - قدرة الإنسان على تشكيل ما لا شكل له من غير تدخل من ناحيته»(5).

قال أبو عبدالرحمن: تصور الواقع بخلاف تخيل غير الواقع - مما يحتمل وقوعه، وما لا يحتمل - .. وبما أن من أعمال العقل التصور لما وقع والتخيل لما لم يقع، وبما أن هذين العنصرين من أعمال الخيال جُعِلَ التصور تخيلاً.

والتعريف الثاني أهم أعمال الخيال الأدبي، وهو مادة الأدب الواقعي.

والتعريف الرابع من سمة الرومانتيكيين في خلع مشاعرهم على مجالي الكون.

والتعريف الخامس ليس من الخيال في شيء، بل هو عمل فكري، ومواضعة لغوية وأدبية.

والتعريف السادس مشروط بصحة المعرفة، فيكون وصولاً إلى الحقيقة مباشرة بلا وسائط، ولا دخل للخيال في ذلك.

والتعريف السابع يدخل مثالاً للتعريف الرابع في عنصر خيالي واحد.

الهوامش:

1- انظر مثلاً: كولردج لمحمد مصطفى بدوي ص48- 49، طبع بالقاهرة سنة 1958م.

2 - فلسفة الجمال في الفكر المعاصر ص77، ومن مصادره دفاع عن الشعر مقالة لشيللي.

3 - الصواب: مصادفة.

4 - دراسات في علم الجمال ص40.

5 - معجم المصطلحات ص91.

هجرة الأدمغة العربيّة إلى متى؟

د. خلف محمّد الجراد



يُقدِّر الخبراء أنَّ جامعات البلدان النامية خرّجت بين سنتي 1980 و1987م زهاء 23 مليون شخص؛ منهم ثمانية ملايين وثلاثمئة ألف في ميادين العلم والتقانة. هؤلاء هم المُعرَّضون الرئيسيّون للهجرة. وهكذا، فإنّ التدفّق إلى الخارج (زهاء 100 ألف كل سنة) هو تقريبًا 10 بالمئة من نتاج جامعات العالم الثالث في حقلي العلوم والتقانة(1).

أمّا بالنسبة لعدد العرب الذين هاجروا إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، فلا يمكن تقديره تقديرًا صحيحًا، وإن كانت بعض الإحصاءات تفيد أن الأعداد المهاجرة منهم إلى تلك القارات والبلدان بعد سنة 1950م تتراوح أرقامها ما بين 6 و10 ملايين(2).

حجم الظاهرة وخصائصها

تتصدّر الولايات المتحدة الأمريكية قائمة البلدان الصناعية الجاذبة للأدمغة والكفاءات العربية ذات التخصصات العلمية الدقيقة في فروع العلوم التطبيقية والأساسية. ففي الحقبة ما بين 1962 - 1976م هاجر إلى الولايات المتحدة أكثر من (23) ألفًا من الاختصاصيّين الفنيّين والمهندسين وعلماء الطبيعة والأطباء العرب، منهم: 31,4٪ من مصر، و24,4٪ من لبنان، و11,8٪ من الأردن وفلسطين، و9,3٪ من سورية، و8,2٪ من العراق، و14,9٪ من المغرب وليبيا وبلدان عربية أخرى. وكان 71,2٪ من مجموع هؤلاء المهاجرين من الاختصاصيّين والفنيّين، و14,1٪ من الأطباء، و10٪ من المهندسين، و4,7٪ من علماء الطبيعة. وفي عام 1989م وحده - على سبيل المثال - سُمِحَ بدخول 18094 مهاجرًا عربيًا إلى الولايات المتحدة، منهم 9,6٪ من التقنيين والمتخصصين(3).

وتجتذب الولايات المتحدة كفاءات عربية من تخصصات أخرى، وخاصة من علماء الاجتماع وأساتذة الجامعات. ففي الحقبة ما بين 1966 و1977م هاجر إلى الولايات المتحدة 347 من علماء الاجتماع العرب، منهم 158 من مصر، و51 من لبنان، و38 من الأردن وفلسطين، و36 من سورية، و33 من العراق، و13 من تونس، و7 من المغرب، و6 من الجزائر، و3 من السودان، و2 من كل من اليمن والمملكة العربية السعودية(4).

وفي عام 1976 هاجر إلى الولايات المتحدة 44 من أساتذة ومدرّسي الجامعات العربية، منهم 15 من مصر، ومثلهم من لبنان، و3 من العراق، ومثلهم من الأردن وفلسطين، و2 من المغرب، و6 من كلٍ من سورية والجزائر والسودان وليبيا والكويت والإمارات العربية(5).

وتجتذب أيضًا كندا والبلدان الأوروبية، ولاسيّما فرنسا وبريطانيا، أعدادًا كبيرة من الكفاءات العربية المتخصصة. ففي الحقبة ما بين 1959 - 1973م بلغ نصيب كندا من هذه الكفاءات 33789، منهم: 16146 من مصر، و11730 من لبنان، و1913 من سورية، و4 آلاف من العراق والأردن وفلسطين. وكان من بين المهاجرين من مصر وسورية ولبنان 824 من المهندسين، و806 من الأساتذة والمبعوثين الجامعيين، و763 من الأطباء، و3024 من الفنيين(6). وفي عام 1976م هاجر إلى كندا 8860 من أصحاب الكفاءات العربية منهم 81٪ من اللبنانيين. وخلال المدة من 1962 - 1966 هاجر إلى فرنسا 2860 من الفنيين والمهندسين وعلماء الطبيعة العرب من سورية ولبنان والعراق ومصر وفلسطين، وخلال عقد السبعينيات كان عدد من اجتذبتهم فرنسا من أصحاب الكفاءات العربية يتراوح ما بين 25 و30 ألفًا(7).

ومن القنوات الرئيسية لهجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية، الطلاب العرب المسجّلون في الجامعات الغربية، ولاسيما من المبعوثين الذين ترسلهم الجامعات العربية لاستكمال دراساتهم العليا بالولايات المتحدة والبلدان الغربية الأخرى؛ ولا يعود قسمٌ كبير من هؤلاء إلى بلدانهم الأصلية لأسباب شتّى، من أبرزها حصولهم على فرص عمل متميزة في البلدان المضيفة يندر توافرها في البلدان العربية عامة، والكثيفة السكّان أو الفقيرة منها خاصة. ومن أكثر البلدان العربية معاناة من هذه المشكلة مصر، التي قُدّر عدد من تخلّف من مبعوثيها في العودة إليها منذ بداية الستينيات وحتى يناير/كانون الثاني 1975 بـ: (940) مبعوثًا، أي بنسبة 12٪ من مجموع المبعوثين خلال تلك المدة، البالغ 7760 مبعوثًا. وتركّز معظم هؤلاء في الولايات المتحدة وكندا وفرنسا وبريطانيا. كانوا في معظمهم من المتخصصين في الهندسة والطب والأبحاث الزراعية. وخلال المدة من 1970 - 1980م لم يعد إلى مصر نحو 70٪ من مبعوثيها في الولايات المتحدة الأمريكية(8).

لقد أقامت الجاليات العربية الكبيرة في أوروبا، وكندا، والولايات المتحدة الأمريكية (التي يبلغ تعدادها زهاء 10 ملايين نسمة)، بُنى تحتية ثقافية واقتصادية، واجتماعية ملموسة. وبما أنّ هذه الجاليات تعيش في مناخ ثقافي مُحفِّز، فإن ذلك دفع بعض الخبراء إلى توقّع أن يتجاوز إنتاجها الفكري والثقافي في سنة 2000 إنتاج البلدان العربية(9).

العوامل الدافعة للهجرة

لا تُعزى هجرة الأدمغة العربية إلى عامل واحد، أو سبب وحيد بذاته، بحسبان أنّ المهاجرين ينتمون إلى مجتمعات، تخضع بدورها إلى شبكة متداخلة من المؤثرات والاتجاهات. ومن ثم فإنّ المهاجرين تدفعهم وتجذبهم قوًى وعوامل كثيرة ومتنوعة، اتّفق الدارسون على تصنيفها في زمرتين: زمرة القوى «الدافعة» التي تنشأ في البلد الأم، أي قوى الدفع الداخلية (المحلية)؛ وزمرة القوى «الجاذبة» الموجودة أو المعروضة في البلدان المضيفة (القوى الخارجية). أما الحجم النسبي والنوعي للعوامل «الدافعة» و«الجاذبة»، فإنه يختلف من بلد إلى آخر، ومن ظرف إلى آخر، ومن شخص إلى آخر. بيد أنّ العوامل «الدافعة» للهجرة تدور حول ما يلي:

1 - التعليم والبحث العلمي: تعد إشكاليات التعليم والبحث العلمي من العوامل الطاردة للكفاءات العربية باتجاه البلدان الغربية، إذ يلاحظ أن مناهج التعليم في العديد من البلدان العربية ولاسيما على الصعيد الجامعي، بما تتضمنه من معارف واتجاهات غربية، تُعدّ الفرد ليصير أكثر انبهارًا ودراية بالغرب وإنجازاته الحضارية. ومن هنا قد يتطلع حال تخرجه إلى البحث عن فرصة للهجرة إلى بلد غربي، حيث يجد مجالات خصبة لتطبيق ما تعلّمه في ميادين الطبيعة والذرّة والإلكترونيات، والطب، والتقنيات وغيرها. ويساعد على ذلك تراكم معوقات البحث العلمي في البلدان العربية عمومًا، مما يفسّر - ضمن عوامل أخرى - ارتفاع نسبة المهاجرين العرب من العلماء المتخصّصين والفنيّين. ومن هذه المعوقات(10):

- ضعف فاعلية المراكز العلمية والبحثية العربية، على ضخامتها العددية (نحو خمسمئة مركز)، واقتصار دورها فعليًا على كونها مجرد «مظهر من مظاهر التقدم»، ولاسيما في ظل عدم تنظيم البحوث العلمية بصورة منسّقة ومرتبطة بالتنمية والاحتياجات الحيوية للمجتمع.

- ضعف - إنْ لم يكن غياب - حرية العلماء والباحثين في البلدان العربية في اختيار موضوعات بحوثهم والتعبير عن أفكارهم ومناقشتها بحريّة، مع ما تمثله هذه الحرية من أهمية حيوية في تقدم البحث العلمي وازدهاره.

- تنفق الدول العربية مبالغ قليلة على البحث العلمي، وهو لا يتجاوز 0,5 بالمئة من دخلها القومي، في حين أن الدول المتقدمة تنفق أكثر من 2 بالمئة من دخلها القومي على البحوث المدنية وحدها. أما الإنفاق على البحث العلمي لكل فرد من السكان فهو لا يزيد على 2,4 دولار، في حين أنّه يتراوح ما بين 50 و100 دولار للدول المتقدمة(11).

- مع أنّ بعض الدول العربية حققت معدلات عالية للنمو في الإنتاج العلمي بلغت 11 بالمئة، إلا أن نمو الإنتاج العلمي العربي منخفض بشكل عام(12).

2 - فرص وظروف العمل والأوضاع الاجتماعية: حيث يعاني عدد لا بأس به من أصحاب الكفاءات العلمية والاختصاصات الدقيقة في البلدان العربية، ولاسيما في بداية حياتهم العملية، من انخفاض دخولهم ومستوياتهم المعيشية مقارنة بفئات اجتماعية أُخرى أقلّ علمًا وثقافة، مما لا يوفر لهم ما يلزم للتفرغ للبحث العلمي من شعور بالرضا والاستقرار النفسي والاجتماعي. ويضاعف من خطورة ذلك أن معظم هؤلاء عادة ما يتم إلحاقهم بأعمال ووظائف لا تتفق مع خبراتهم وتخصصاتهم العلمية. وحتى إذا ما عُيّنوا في وظائف ملائمة، فإن قدراتهم على الإنتاج والعمل المبدع عادة ما تتأثر سلبًا بالتعقيدات الإدارية (البيروقراطية) والعلاقات التقليدية في الأجهزة التي يعملون بها(13).

وفي كثير من الحالات لا تعبّر هجرة الفنيّين المتخصصين العرب إلى البلدان الغربية عن ضآلة فرص العمل الفعلية التي كان يمكن توفيرها لهذه الكفاءات العربية بقدر ما تعبّر عن سياسات رسميّة أو (بيروقراطية) في الاعتماد بصفة رئيسة على الخبرات الفنية والتقنية الغربية. وهو ما يعني، بعبارة أخرى، أن هذه السياسات توفر فرص عمل للأجانب على حساب أصحاب الكفاءات العرب، لأنّ «زامر الحيّ لا يطرب»، كما يقول المثل. وفي هذا السياق تؤكد دراسة عربية حديثة أن غالبية البلدان العربية تفضّل، عقود «تسليم المفتاح». فهذه

الطريقة توفّر عمولات ممتازة وصُنع قرار مركزي رفيع (معزّزة بذلك نفوذ بضعة أشخاص). وهي لا تتطلب أيضًا تطوير قدرات تقانية وطنية.. فالتأثير الرئيس للفساد هو في اختيار المشروعات والطريقة التي تُنفَّذ بها. وهذا الشكل للسلوك التقاني يفضّل استيراد المنتوجات والخدمات؛ وهكذا تُصدَّر الوظائف، وتُعرقل تنمية الهيئات العلمية - الإنتاجية الوطنية. لقد اشترك محيط غير ملائم للعمل وتسهيلات أدنى من المستوى المعياري، مع تشديد كبير على استيراد الخدمات الأجنبية - كلها معًا - في تخفيض سوق العمالة بالنسبة إلى الطاقة البشرية الرفيعة المستوى(14).

3 - البيئة السياسية: تشكّل الظروف والمؤثرات السياسية وإشكالياتها ومنعكساتها قوة طاردة للكفاءات العربية باتجاه البلدان الغربية الأكثر استقرارًا وانفتاحًا ومراعاة لحقوق الإنسان السياسية والفكرية. وتتزايد بواعث الهجرة قوّة وضغطًا في حالات الطوارئ والحروب الأهلية. وفي بعض الحالات تكون القوى الطاردة من القوة، بحيث يغدو المهاجرون «لاجئين»، أو «مُهَجّرين» بدلاً من أن يكونوا مجرّد كفاءات مهاجرة، وهو ما ينطبق بوجه خاص على الفلسطينيين والعراقيّين.

ولإدراك أثر هذه العوامل السياسية في هجرة الكفاءات العربية، قد يكون من المفيد الإشارة إلى نتائج دراسة أجرتها في عام 1973م «المؤسسة الوطنية للعلم» الأمريكية على عيّنة من 8 آلاف من أصحاب الكفاءات العربية ممّن هاجروا إلى الولايات المتحدة في المدة ما بين 1964-1969م، مع التركيز على المقيمين منهم في ولاية «كاليفورنيا»، فقد كانت إجابات هؤلاء العرب على الأسئلة الواردة في استمارة البحث على النحو التالي(15):

- ردّ 37,5٪ من أفراد العيّنة بالإيجاب و16,8٪ بالنفي، و45,7٪ بعدم العلم، على سؤال يتعلق بكراهية البيئة والأوضاع السياسية في البلدان العربية بوصفها حافزًا للهجرة.

- ردّ 25,5٪ بالإيجاب، و20,2٪ بالنفي، و45,3٪ بعدم العلم، على سؤال عن أثر غياب الحريات الفكرية والسياسية في هذه البلدان في الدفع للهجرة.

- ردّ 20,1٪ بالإيجاب، و17,1٪ بالنفي، و62,8٪ بعدم العلم، على سؤال يتعلق بعدم الرضا عن النظام الاجتماعي في البلدان العربية بوصفه سببًا للهجرة.

العوامل الجاذبة إلى البلدان الأجنبية

لا يمكن أن تحدث الهجرة ما لم تكن بلادٌ ما قادرة وراغبة في استقبال الشخص الذي يُدفع أو يضطر للاتجاه بصفة مؤقتة أو دائمة إلى خارج بلده. وفي الأحوال كلها فإنّ عدد العلماء والباحثين من العالم الثالث الذين يحاولون الهرب إلى الدول الغربية يتجاوز كثيرًا حاجات تلك الدول.

إن الوفرة الصرف من مهاجرين محتملين من الكبر، بحيث إن البلدان المضيفة أخذت تعيد النظر باستمرار في قوانينها المتعلقة بالهجرة لإدارة التدفق تبعًا لاحتياجاتها. وقد كان العدد الشرعي للمهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثابتًا تقريبًا منذ منتصف السبعينيات.

من عوامل جذب الأدمغة العربية إلى بلاد الغرب وجود المحيط العلمي الأكثر تقدمًا والذي يشجع على مواصلة البحث والتجريب وازدياد الخبرة

أما بالنسبة للمزايا والمشجّعات التي تتوافر في البلدان الغربية، بحيث تشكّل عوامل «جذب» للأدمغة والكفاءات العربية، فيمكن إيجازها كما يلي:

1 - المحيط العلمي الأكثر تقدمًا الذي يحفّز على مواصلة البحث والتجريب وزيادة الخبرة، حيث إن ظروف العمل في البلدان المتقدمة تُعَدّ بحق وسيلة لتحقيق الطموحات العلمية، بما توفره من فرص البحث العلمي والاشتغال في ميدان التخصّص. فمثلاً تشجّع الولايات المتحدة الأمريكية، بصفتها مجتمع مهاجرين، امتصاص الوافدين الأجانب ودمجهم. وبفضل حجمها، وغناها، وحيوية اقتصادها، وتنوّع قوانين الولايات، والفرص المتاحة، فإن لها تأثيرًا في أنماط الهجرة العلمية تحديدًا. وخلال الأربعين عامًا المنصرمة فضّلت قوانين الهجرة الأمريكية خرّيجي الجامعات والطاقات البشرية المتخصصة. حيث تستقبل الولايات المتحدة سنويًا زهاء 45 ألفًا من العلماء والفنيين والعمّال المتخصّصين. وتُبيّن الدراسات والإحصاءات المتوافرة أنّ تركيبة المهاجرين من أصحاب الكفاءات إلى الولايات المتحدة الأمريكية تتّجه بصورة كبيرة نحو العلوم التطبيقية والأساسية: نحو 15 بالمئة هم علماء ومهندسو كمبيوتر؛ و35 بالمئة هم في مجال العلوم الطبية (أطباء صحة، أطباء أسنان، ممرّضون، خبراء في المداواة)؛ و4 بالمئة هم علماء طبيعيات، و15 بالمئة هم مدرّسون (مدارس، كليات، جامعات).

ويبلغ عدد علماء الاجتماع نحو 1,5 بالمئة، والكتّاب والفنّانون ومقدمو البرامج يبلغ عددهم 10 بالمئة؛ والعمال الدينيون(؟) عددهم 3,5 بالمئة؛ وعدد التقنيين 9 بالمئة؛ والمحامون والقضاة نحو واحد بالمئة؛ والمحاسبون عددهم 6 بالمئة.

هذه السياسة التي تتبعها الولايات المتحدة الأمريكية لتفضيل المهاجرين المتخصصين قد اعتُمدت في معظم البلدان الأوروبية وكذلك في كندا، واستراليا، وسواها من البلدان. وتشير إحصاءات الهجرة الفرنسية إلى أن نسبة ما يُسمّى «الكوادر والتقنيون» ازدادت في السنوات العشرين الأخيرة إلى نحو 20 بالمئة من مجموع المهاجرين إلى فرنسا(16).

2 - اعتماد الترقية والترفيع في البلدان الغربية على جديّة البحث المنتج وجدواه الاقتصادية والتطبيقية ومردوده الماديّ بالدرجة الأولى. وللمقارنة فقد أظهرت دراسة لليونسكو بأن الإنتاجية العلمية في الوطن العربي متدنّية جدًا. فقد كان هنالك على سبيل المثال سبعة آلاف باحث، وكان من المتوقّع أن ينتج هؤلاء ما بين 8000 و14000 بحث سنويًا ، غير أن المنشور فعلاً بلغ 847 بحثًا، أي في حدود 10 بالمئة من المتوقع(17).

3 - توافر الحرية السياسية والفكرية والاجتماعية، واحترام حقوق الإنسان في البلدان الغربية، بصورة تحفّز على اجتذاب المثقفين والأطر العلمية والفنية والاختصاصية من بلدان العالم الثالث، التي تشكو نُخبها الفكرية من ممارسات سلبية كثيرة بحقّها في هذا المجال (في بلدانها الأصليّة).

4 - المستوى المعيشي الجيد الذي يحققه الفرد

والضمانات الاجتماعية، والخدمات اليومية، ووسائل الاستهلاك والرفاه المادي وتسهيلاته.

وهكذا، فإن عوامل «الجذب» في البلدان الغربية مختلفة ومتنوعة، منها العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية وغيرها. لكن العوامل والمحفّزات الاقتصادية تحتل مكانة مؤثرة في الكفاءات العلمية والفنية والاختصاصية في الدول الأكثر فقراً، والأشخاص الأكثر تأثراً بهذه العوامل هم الأفضل إعداداً وتأهيلاً، والأكثر خبرة في تسيير أجهزة الإنتاج والتعليم والتدريب في بلدانهم الأصليّة(18).

تكاليف هجرة الأدمغة

يرى أغلب الدارسين لهذه المشكلة أنّ الآثار المترتبة على «نزيف الأدمغة»، أو «هجرة العقول» كبيرة، وباهظة التكاليف بالنسبة لدول العالم الثالث عموماً، وللدول العربية خصوصاً، ومنها:

1 - إن خسارة الطاقة البشرية المتخصّصة تخفّض القدرات الفكرية في البلاد المعنية، وتشلّ الجهود الوطنية لحل المشكلات المحلّية.

2 - تُفقد البلاد قدرتها على تحليل مشكلاتها والقدرة على التخطيط بفاعلية.

3 - تُفقد البلاد مورداً خلاّقاً وحيوياً وأساسياً بالنسبة إلى تطورها.

4 - إنّ تزايد البطالة في أوساط المواطنين ذوي الطاقة العلمية الرفيعة، والمتزايدة بسرعة في الوطن العربي، مع فرص الهجرة التي تنخفض باتجاه الغرب (بالنسبة للفلسطينيين، والسوريّين، واللبنانيّين)، ستضاعف ولا ريب التوترات السوسيو - سياسية (الاجتماعية السياسية) في البلدان العربية في المستقبل المنظور. وفي عدة بلدان عربية، بلغت البطالة في أوساط الطاقة البشرية من ذوي الكفاءات والاختصاصات المهمة وحَمَلَة الإجازات الجامعية 35 بالمئة أو أكثر(19).

ولا تقتصر آثار «نزيف الأدمغة العربية» باتجاه البلدان الغربية على واقع التنمية الاقتصادية والاجتماعية العربية ومستقبلها فحسب، ولكنها تمتد أيضاً إلى التعليم في الوطن العربي، وإمكانات توظيف مخرجاته في بناء قاعدة تقنية عربية وتطويرها. ومن هذه الآثار(20):

1- ضياع الجهود والطاقات الإنتاجية والعلمية لهذه الكفاءات العربيّة التي تغذّي شرايين البلدان الغربية، بينما تحتاج التنمية العربية إلى مثل هذه الكفاءات في مجالات الاقتصاد والتعليم، والصحة، والتخطيط الحضري، والبحث العلمي، والتقانة.

2- تبديد الموارد الإنسانية والمالية العربية التي أُنفقت في تعليم هذه الكفاءات وتدريبها، والتي تحصل عليها البلدان الغربية من دون مقابل تقريباً. ففي نهاية عام 1980م قدّرت دراسة عربية هذه التكاليف بنحو 227 ألف دولار للمهندس، و198 ألف دولار لعالم الطبيعة، و535 ألف دولار للطبيب. وقدّرت ما مُنيت به البلدان العربية من خسائر خلال عقد السبعينيات بسبب هذه الهجرة بأكثر من 11 مليار دولار(21).

تقديم الامتيازات المالية والاجتماعية والمراكز المرموقة في مؤسسات البحث العلمي يساعد على استعادة الكفاءات المهاجرة، وهو ما حققته بنجاح المملكة العربية السعودية ودول أخرى غيرها

3- من اللافت للانتباه أنه في مواكبة ازدياد معدلات هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية يزداد اعتماد غالبية البلدان العربية على الكفاءات الغربية في ميادين شتّى، بتكاليف اقتصادية مرتفعة ومُبالَغ فيها في كثير من الأحيان. وتشير إحدى الدراسات العربية في هذا السياق إلى أن مبالغة الشركات الغربية في أسعار بيع السلع الرأسمالية والهندسية والخدمات الاستشارية والتقنية للبلدان العربية تؤدي إلى ارتفاع حاد في تكاليف إنشاء المشروعات الصناعية العربية بنسبة تتراوح بين 200 - 300٪ مقارنة بالأسعار الدولية، وأن قيمة الارتفاع في هذه التكاليف خلال المدة ما بين 1975 - 1980م بلغت 25 مليار دولار، أي أكثر من إجمالي الإنفاق العربي في مجالات التعليم والبحوث والتقانة في المدة من 1960 - 1984م(22). وبعبارة موجزة، فإن البلدان العربية تتحمّل بسبب هذه الهجرة خسائر مزدوجة، أي ضياع ما أنفقته من أموال وجهود في تعليم الكفاءات العربية المهاجرة وإعدادها وتدريبها، ومواجهة نقص الكفاءات - أو بالأحرى سوء استغلالها والإفادة منها - من طريق استيراد الكفاءات الغربية بتكلفة كبيرة.

جهود ومحاولات.. ولكن!

في مواجهة سلبيات هجرة الأدمغة والكفاءات العربية إلى البلدان الصناعية، بُذلت جهود من جانب بعض الدول العربية وحكوماتها لاستعادة بعض العناصر المتميزة من هذه الكفاءات، أو للانتفاع منها بصورة واقعية خلال وجودها في البلدان المضيفة، وذلك عبر مسالك متنوّعة منها(23)ك

1- تقديم الامتيازات المالية والاجتماعية والمراكز المرموقة في أجهزة البحث العلمي ومؤسساته، وهو اتجاه لجأت إليه بنجاح ملحوظ المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، ودولة الكويت، وليبيا (إلى حدٍّ ما).

2- الاستفادة النسبية من الكفاءات والأطر البشرية العلمية المهاجرة، من خلال تنظيم مؤتمرات للمغتربين في الوطن الأم (وهو ما تقوم به سورية في العقد الأخير بصورة دورية وفعّالة)، وطلب مساعدتهم وخبراتهم، وتبادل المشورة معهم، سواء بصدد الاطلاع على أحدث وسائل المعالجات الطبية والدوائية، أو بصدد نقل التقانة (التكنولوجيا) العلمية، أو حتى بغرض المشاركة المالية والاقتصادية في تنفيذ واستثمار بعض المشاريع الحيوية.

3- التعاون سواء على صعيد قطري أو عربي إقليمي مع منظمة «اليونسكو» لإقامة مشروعات ومراكز علمية بغرض تكوين كفاءات عربية خبيرة للتخفيف من حدّة سلبيات هجرة الأدمغة والكفاءات العربية إلى البلدان الغربية، وكذلك لاجتذاب بعض الكفاءات المهاجرة للإشراف على البحوث والمشاركة في الندوات والمؤتمرات التي تتطلبها هذه المراكز. ومن نشاطات «اليونسكو» في هذا الصدد: إنشاء مركز الإسكندرية للدراسات العلمية عام 1972م، ومركز الدراسات العليا

الهندسية المتقدمة بجامعة القاهرة، ومشروع التبادل الإقليمي لأساتذة كليات الهندسة في العام 1979 - 1980م، ومعهد الجيولوجيا التطبيقية في جدّة بالمملكة العربية السعودية، والمدرسة الوطنية للأشغال العامة في الدار البيضاء بالمغرب، ومحطة البحوث المائية في وادي مدني بالسودان، والمشروع العربي للبحوث الكيمياوية في عام 1978م، فضلاً عن جهود «اليونسكو» في تنظيم مؤتمر وزراء الدول العربية المسؤولين عن تطبيق العلم والتقانة لأغراض التنمية، الذي عُقد في الرباط في آب/أغسطس 1976م، والذي أقرّ خطة عمل علمية عربية، وأوصى بإنشاء الصندوق العربي للعلم والتكنولوجيا.

ولكن يُلاحظ بصفة عامّة أنّ الجهود الرسمية العربية، عبر المسالك الثلاثة السابقة وغيرها، سواء للإفادة من الكفاءات العربية أو تشجيعها على العودة، لم تحقق كثيرًا من النتائج المرجُوّة منها، أو بالأحرى شابها قصور من الممكن إعادته إلى الأسباب التالية:

1 - خشية فريق من المهاجرين العرب من العودة النهائية إلى بلدانهم العربية - بالرغم من الحنين والارتباط العاطفي - والرغبة في المشاركة في تطور الوطن الأم وتنميته، خوفًا من عواقب التقلبات السياسية.

2 - عمق اندماج أعداد كبيرة من هؤلاء المهاجرين العرب في المجتمعات الغربية، وتجنّسهم في كثير من الحالات بجنسياتها وزواجهم من نسائها وتشبّعهم وتشبّع ذريتهم بثقافتها وقيمها ومفاهيمها. ناهيك عن الانفصام بين الأجيال (ذات الأصول العربية) المولودة في الغرب وقضايا البلدان العربية وهمومها، ومتطلبات تنميتها وتقدّمها.

3 - عدم تحرّك حكومات البلدان العربية في إطار جماعي شامل (جامعة الدول العربية) لدعم المهاجرين العرب، الذين مازالت علاقاتهم الوجدانية والعاطفية قوية بالوطن العربي وقضاياه المصيرية، لتمكينهم من تشكيل قوة ضاغطة على صانعي السياسة في البلدان الغربية في مواجهة القوى المعادية، مثل: الصهيونية والنازية الجديدة والمنظمات والجماعات العنصرية المعادية للأجانب، والتي تتزايد عددًا وقوّة وشراسة وعنفًا. ومن الجدير بالذكر أنّ الجاليات العربية في دول أمريكا اللاتينية بصورة خاصة، وفي أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية طوّرت في أماكن تجمّعاتها، وبصورة ذاتية، ثقافة واسعة موجّهة بكثافة شطر الوطن العربي. ولقد أنشأت معظم الجاليات العربية في الخارج جمعيات ومنظمات متخصّصة لدعم علاقاتها بالوطن العربي. وترفد هذه الأنشطة محاضرات، ورحلات جماعية، ومسارح، وجمعيات خيرية، وصحف، ومساجد، ومراكز أخرى للنشاط الديني، وجمعيات ثقافية، وأندية، ومعارض فنية... إلخ.

ومن هنا فإنّ استراتيجية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» (ALESCO) في خطتها الشاملة من «أجل تنمية ثقافة عربية»، طالبت وأوصت «الحكومات العربية بتزويد هذه المجتمعات بخدمات تربوية وثقافية»(24).

4 - إنّ تدفّق الطاقة البشرية المتخصصة من الوطن العربي هو من أعراض الأزمة التنموية. وهجرة الكفاءات إشارة تحذير للجمود الاقتصادي، أو لمزيد من التخلّف. ومن المؤسف أنّه ليس ثمة دليل على أنه تجري تغيرات في السياسات والإجراءات الخاصة بمعالجة مسألة هجرة الكفاءات العربية. «وهكذا يستطيع المرء أن يعتبر بلا خطأ أنّ هجرة الكفاءات العربية ستستمر في النمو: فتوسُّع التعليم العالي العربي يضمن توسعًا في الطاقة البشرية للتصدير»(25).

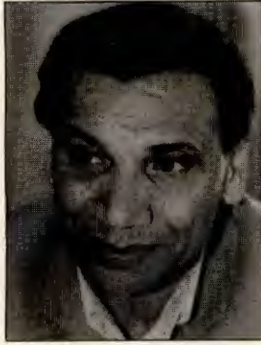
إنّ الأجدى في هذا السياق المهم أن يتم التركيز على توفير المتطلبات والظروف الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والسياسية اللازمة لخلق بيئة ملاءمة لربط العلم وكوادره بسياسات تنموية شاملة، تقوم أساسًا على الإفادة القصوى من الطاقات والكفاءات العربية، التي ما تزال موجودة بالوطن العربي، ومنحها الفرصة الكاملة للمشاركة الحقيقية في جهود التنمية كي لا تلحق بالكفاءات والقدرات العربية التي هاجرت إلى البلدان الغربية. وبما أنه لا يمكن لأي بلد عربي أن يكون مكتفيًا اكتفاءً ذاتيًا كاملاً فيما يتعلق بمتطلبات طاقته العلمية والاختصاصية والتقنية، فإن ذلك من شأنه أنْ يلزم البلدان العربية بالتنسيق والتعاون فيما بينها، على الأقل في ميدان الكفاءات والقدرات العلمية والأكاديمية والبحثيّة.

الحواشي:

1- د. أنطوان زحلان، «هجرة الكفاءات العربية: السياق القومي والدولي»، المستقبل العربي، السنة الخامسة عشرة، العدد 159، أيار/ مايو 1992م، ص 6.
2- المصدر نفسه.
3- د. جلال عبدالله معوّض، «هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية»، شؤون عربية، العدد 74، يونيه/ حزيران 1993م، ص 116- 117.
4- آلان فيشر، «الكفاءات العلمية العربية في الولايات المتحدة»، في: أنطوان زحلان (مشرف)، هجرة الكفاءات العربية، بحوث ومناقشات الندوة التي نظمتها اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا (أكوا)، الأمم المتحدة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، 1982م)، ص 216.
5-7- د. جلال عبدالله معوّض، «هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية»، مصدر سابق، ص 118.
8- د. ضياء زاهر، «سياسة البعثات في مصر: دراسة تحليلية نقدية» في: د. أماني قنديل (محرر)، سياسة التعليم الجامعي في مصر: الأبعاد السياسية والاقتصادية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة، 1991م)، ص 356، هامش (53)، ص 371.
9- د. أنطوان زحلان، «هجرة الكفاءات العربية: السياق القومي والدولي»، مصدر سابق، ص 6.
10- د. إدريس سالم الحسن، «ملاحظات حول مفهوم البحث العلمي ووضعيّته في العالم العربي»، شؤون عربية، العدد 36، فبراير/ شباط 1984م، ص 182 - 184.
11، 12- د. سلمان رشيد سلمان، «أزمة البحث العلمي في الوطن العربي»، شؤون عربية، العدد 75، سبتمبر/ أيلول 1993م، ص 14.
13- د. جلال عبدالله معوّض، «هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية»، مصدر سابق، ص 122.
14- د. أنطوان زحلان، «هجرة الكفاءات العربية: السياق القومي والدولي»، مصدر سابق، ص 10.
15- نقلاً عن د. جلال عبدالله معوّض، «هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية»، مصدر سابق، ص 124.
16- د. أنطوان زحلان، «هجرة الكفاءات العربية: السياق القومي والدولي»، مصدر سابق، ص 12.
17- د. أنطوان زحلان، العلم والسياسة العلميّة، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية 1981)، ص 33.
18- علي العيد، «هجرة الكفاءات العربية»، المعرفة (دمشق: وزارة الثقافة)، السنة 21، العدد 243 - 244، أيار/ مايو - حزيران/ يونيو 1982م، ص 119 - 120.
19- د. أنطوان زحلان، «هجرة الكفاءات العربية: السياق القومي والدولي»، مصدر سابق، ص 16 - 17.
20- د. جلال عبدالله معوّض، «هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية»، مصدر سابق، ص 124 - 126.
21- د. محمد هشام خواجكية، «استنزاف العقول العربية: نتائج الظاهرة وأسبابها السياسية والاجتماعية»، المستقبل العربي، السنة الثانية، العدد 22، كانون الأول/ ديسمبر 1980م، ص 43.
22- د. محمد رضا محرم، «تعريب التكنولوجيا»، المستقبل العربي، السنة السادسة، العدد 61، آذار/ مارس 1984م، ص 77.
23- د. جلال عبدالله معوّض، «هجرة الكفاءات العربية إلى البلدان الغربية»، مصدر سابق، ص 126 - 128.
24، 25- نقلاً عن د. أنطوان زحلان، «هجرة الكفاءات العربية: السياق القومي والدولي»، مصدر سابق، ص 15، 18.

حوار مع

الناقد د. محمد حافظ دياب



الحداثة ليست مفهومًا آنيًا يرتبط بالتجديد!

أجراه: طارق عبد الفتاح شديد

الحديث مع واحد من النقاد الذين يرصدون ضوضاءنا الأدبية والنقدية، ويتعاملون مع وجوهنا الثقافية ويحاولون رصد الأصيل فيها، ولاسيما في زمننا هذا الذي بلغت فيه حياتنا الأدبية والثقافية حدًا كبيرًا من التعقيد والتباين وخلط الأوراق، حديث فيه كثير من العلم والفائدة والمتعة.

ففي هذه المحاورة، وبلغة شديدة التكثيف، يلقي الناقد المعروف د. محمد حافظ دياب ـ أستاذ علم الإنسان، والأدب والمجتمع (الأنثروبولوجيا وسوسيولوجيا الأدب) بجامعة بنها ـ الضوء على قضايانا النقدية والأدبية ويحدد مفهوماتها.

في البدء سألناه عن رؤيته لوظيفة الناقد، فقلنا:

ـ بدهي أن النقد الأدبي من أهم مقتضيات التطور الفكري والأدبي، وأن الاتجاهات الفلسفية والمضامين الفكرية المعاصرة لم تتسع رؤاها الإبداعية وتستشرف آفاقًا أكثر شمولاً ورحابة، إلا بعد أن واكبتها حركة نقدية واعية.. لذا فإن وظيفة الناقد تشكل ضرورة لازمة لتقويم مسار الحركة الأدبية وتقدمها، فهو الموجه الواعي والمدرك لحقيقة العمل الأدبي.. من وجهة نظركم، ما مهمة الناقد بوجه عام؟

* حديثك عن مهمة الناقد ينطوي على قدر من التساؤل عن جدوى هذه المهمة، مع أنها مهمة «إبداعية» في الأساس، خلافًا لظن سائد وخاطئ حول أنها فعالية ثانوية تابعة.. ثم عن أي ناقد تتحدث؟

إن هناك، في وطننا العربي، من النقاد من (يمضغ) المصطلح، ليصبّه وقت الحاجة عبر فتحة ضيقة، وهناك الانطباعيون، وكتّاب الأعمدة الصحفية، وهناك، كذلك، من أغوته الاجتهادات التخريجية البالغة التبسيط والشطط في آن، فاختلطت لديه مستخلصات العلوم الإنسانية، أو التعقيبات المرشوشة ببهار سياسي واجتماعي، أو المجاملات المتهافتة في إطار العلاقات الشخصية.

إن النقد الأدبي هو وجود فاعل وقائم في الأدب.. إنه أن تشهق في بهاء نص مُبْدَع.. في منظومته الإشارية، وشفراته الجمالية، ورؤيته للعالم. والحق أن ما تسميه اتجاهات فلسفية، ومضامين فكرية تعمل كلها سويًا في رفد الحركة النقدية الإبداعية.

غير أن اعتماد ممارسات نقدية بعينها على هذه الاتجاهات والمضامين، قد يؤدى إلى (تخفيض) العمل الأدبي نحو معرفيته المحضة، وإهمال أدبيته. وهو ما قد يوحي بنماذج نقدية متهافتة.

إن هذا لا يقلل بحال من دور هذه الاتجاهات والمضامين في فهم العمل وتذوقه، إلا أنها يجب أن تظل مجرد حوامل تعزز القدرة النقدية على الإحاطة بهذا العمل.

تعدد المناهج النقدية

ـ تعددت مناهج النقد واتجاهاته: فهناك الاتجاه الاجتماعي، النفسي، والعلمي أو الطبيعي، والجمالي أو الفني، والأسلوبي...إلخ. من وجهة نظركم، ما موقف الناقد تجاه هذه التعددية؟ وما المنهج الأمثل ـ في رأيكم ـ لدراسة النصوص الأدبية وتناولها؟

* كل تعرف إلى مناهج جديدة يطرح بالطبع إشكاليات جديدة. وعندما نتعامل مع هذه المناهج، لا نفعل ذلك لتبنيها في ذاتها، إذ إن قيمتها تكمن فيما تتيحه للناقد من إمكانات لإضاءة النص. المسألة، إذن، تعود إلى طبيعة التعامل مع هذه المناهج فإن كان تعاملاً وثوقيًا، فلن يؤدى إلى تجلية النص، بل سيضحي مجرد تكرار واستنساخ، أقرب إلى التمرينات المدرسية.

من هنا، كان ضرورياً الاطلاع على هذه المناهج، لما يمكن أن تتيحه من قراءة كاشفة للنص وبحث عن فائض الدلالة فيه، من دون اعتماد على ماتسميه المنهج الأمثل، والذي قد يعني قسر القراءة الواحدية.

- ما رأيكم في المدارس النقدية الجديدة مثل البنيوية التي غزت ميادين الدراسات الأدبية منذ أواخر الستينيات، وما يسمى بالتفكيكية، وغيرها من الاتجاهات المعاصرة؟ وكيف يكون موقفنا منها؟

* في إحدى معضلاته، يواجه النقد الأدبي في وطننا العربي لبس تعامل هذه المدارس بإزاء نص بياني، تغتسل عبره حمولات الذاكرة والوعي واللاوعي واللغة، بنسب وطرائق بالغة الشفافية والتعقيد.

ولعلّي أذكر، في هذا الصدد، كثيراً من الدراسات تلقت البنيوية في أكثر جوانبها شكلية وجموداً، أي جانب (البنية) السابقة على الوجود، المغلقة بعلاقاتها ذات الدلالات الداخلية، وليس جانب البنية بما هي تكوّن متواصل بعلاقاتها الداخلية والخارجية، ذات الدلالات النصيّة والاجتماعية.

ووفق هذا الجانب الشكلي، خضعت النصوص الشعرية في هذه الدراسات للتفتيت وإعادة البناء في شبه لعبة مجانية، يخرج منها الباحث بحصيلة هزيلة على مستوى رموز الشاعر أو أدواته التي (تُبني) النص.

أما التفكيكية، فإن ما يحفزها هو روح الاختلاف؛ فهي تبتعد من منطق التناقض ومنطق النفي. إنها لا تنفي لتؤكد أو تناقض لتثبت، بل تلجأ إلى هدم النص، لأن صلابته تحول، من وجهة نظرها، دون قراءته، فيما تفكيكه يمكن أن يصلها بدلالاته المتعددة، ومعانيه الكامنة.

والتفكيكية بهذا تذهب ضحية هذه الغواية التي تمارسها على النص، مهما كان حظها من الانتشار والاستهواء.

لهذا، يجوز القول: إن تفتحنا على الغرب، كحوار مع حاضرنا، لازم مرغوب فيه، شرط ألا نسقط في لعبة الطمس والاتّباع.

النقد العلمي (الأكاديمي)

- يأخذ بعض الباحثين على النقد العلمي (الأكاديمي) تَجَمّده في إطار البحث والتنسيق والتحقيق، دونما حسبان لشخصية الناقد الانطباعية التذوقية، التي تعدّ - أحياناً - مقياساً أدبياً. ما تعليقكم على ذلك؟

* على أهمية النقد (الأكاديمي) في إغناء ورفد تجارب الإبداع والنقد والتاريخ الأدبي، إلا أنه ظل، خلا استثناءات قليلة، بعيداً من المساهمة في رصد هذه التجارب وفحصها وتقويمها، والإسهام بشكل فاعل في مسيرة الحركة الأدبية المعاصرة حين اختار لنفسه ألا يقترب من هموم وإشكالات الراهن، وهو ماجعله يقع، في الغالب، أسير البحث التقليدي والنظرة المدرسية، ومن ثم ضاعت عليه إمكانية التواصل مع الثقافة العربية المعاصرة بقضاياها وهمومها.

على أن هذا لا يمنع من القول إن عدداً من باحثيه، حاولوا الفكاك من هذا الطوق، فاختاروا موضوعات وطرائق تمتلك حيويتها وأهميتها بالنسبة للحياة الثقافية والفكرية والأدبية المعيشة.

والواقع أن النقد (الأكاديمي)، بما يميزه من سمات علمية؛ كالأمانة والدقة والتتبع والموضوعية، والقدرة على التحليل والتركيب والموازنة والمقارنة، مؤهل لإبعاد النقد الأدبي عن التخبط في التعميم والانطباع وإصدار الأحكام المجانية التي لا ترتكز على أساس موضوعي؛ كما يمكنه أن يتيح فرصة بلورة رؤية نقدية، ووضع حد لظاهرة غياب النظر المنهجي المنظم في الكثير مما يكتب الآن تحت بند (النقد الأدبي).

إلا أننا لا نبرىء هذا النقد (الأكاديمي) من مزالق سيق إليها، منها ولع التقسيم الآلي للعمل الأدبي إلى عناصر ومكونات، ومعالجة كليته معالجة تجزيئية، حين يضعه ببرود على طاولة التشريح، أو يسرف في النزعة الموضوعية على حساب الحسّ الجمالي.

تفتحنا على الغرب لازم شرط عدم السقوط في لعبة الطمس والاتباع. وما تقدمه الأصوات الجديدة نوع من استعادة الذاكرة وليس تحقيقاً لماهية

استعادة الذاكرة

- ترتفع أصوات جيل الأدباء الجديد في أنحاء عالمنا العربي متسائلة عن دور النقاد، إذ هم يفتقدون هذه الفعالية في تقويم خطاهم الأدبية، وتصويب مسيرتهم نحو المزيد من الإبداع والأصالة. فهل توافق على أن هناك أزمة نقدية في ساحتنا الثقافية العربية، وما أسبابها إن كنت تُقرّ بوجودها؟

* مشكلة هذه الأصوات أن أغلب ماتقدمه نوع من استعادة الذاكرة، أكثر منه تحقيقاً لماهية؛ ذلك أن جلّ ممثليها يبدؤون بعد ضباب المراهقة، باكتشاف حدوسهم من ركام التلقين والتهميش، ثم فجأة، تجتذبها حماسة النشر وهاجس الظهور، من خلال سطوة تجربة إبداعية. وبذا تضحي متلقية سالبة ومنفصلة عن ذاتها. إنها تكتب القصيدة أو القصة من دون حسّ بالقلق والمفارقة بين خصوصية الصوت وثبات النمط المعاد، وهو مايجعل من نتاجها نسخة مزيدة، ولا أقول منقحة.

تراني أقسو على هذه الأصوات، لكن، في الآن نفسه، لا أعدم بينها مساهمات جادة تعلن بشراها وانتسابها.

إن الإبداع مساءلة دائمة وجديدة للواقع، والمرور إلى وعي الجديد؛ هو تأسيس في المحل الأول، والجديد دعوة حارة للسفر، عودة إلى الذات، حوار مع الآخر، إنه تجرد ورسالة.

الواقع الإبداعي

- كيف ترى حركة الإبداع الأدبي الآن في عالمنا العربي؟

* أريد أن أصوّب أكثر، فأوصل سؤالك إلى حدّه الأقصى، ليكون: هل هناك مأزق تمرّ به الحركة راهناً؟

ومع أن محاولة استجلاء واستقراء نتاج هذا الإبداع، محفوفة بالمحاذير، لسعة المدار وتمفصله، أزمنةً وأجناساً ونصوصاً، ناهيك من تنوع وتشعب الأسئلة والإشكالات التي تطوّق المحاولة.. على الرغم من ذلك، تمكن الإشارة إلى تصوّرين أو فرضيتين: أولاهما: أننا بصدد الخروج من مرحلة، أكثر مما نحن بإزاء تأسيس مرحلة جديدة. أقول هذا، وفي الذاكرة أصداء ماثلة تتحسس فرص مواصلة هذه الحركة عبر تعدد أدواتها وأجناسها واتجاهاتها، وكذلك عبر إحباطاتها، مابين تغامض أقرب إلى الافتعال، وغياب للإحساس باللغة والتعامل الاعتباطي معها، ومناخ تتزايد فيه حمّى التجريب. والتصور الثاني، أن هذه الحركة لا تتسم بالتواصل بين حلقاتها. إنها تتقدم عبر إشراقات فردية، لتتكفئ في سلسلة من الممارسات العفوية التي تفتقد حسّ الاتجاه، أكثر مما تنتظم أو تتطور في سيرها ونهجها.

الحداثة ليست مفهومًا آنيًا يرتبط بالتجديد

إنهـــا، على أية حـــال، تحـاول أن تمـلك توق الاكتشاف، وألا تكف عن المواجـهة والتساؤل وقلق الوعي به.

- مازالت إشكالية التراث، ومنذ حقبة تربو على القرن، مطروحة على ساحتنا الثقافية العربية، ما موقفكم الخاص من تلك القضية؟

* أسائل نفسي، ابتداء: ما التراث؟

إن بعـضنا يتـعامـل معـه تعـامـلاً مموّهًا بصـمتـه وغموضـه وخيلاء مادته التي خفّت نحـوها العقول. ثم لماذا التراث، وكيف التعامل معه؟

ليس التـراث هو مـايـوجـد وراءنا، بل مـايجيء صوبنـا. هو ما يمتلك فـاعلية أن يعيـش معنا مشـاغلنا الراهنة، وأن يغني القـادم في حضارتنا وشـخصـيتنا. على أن التـوق إلى التـعـامل مـعـه قـد أعطاه أبعـادًا مهيمنة، وطوّعه تطويعًا ليتحمل أدوارًا، لم يتهيأ لها، ولا نحن تهيأنا، بعد، لها.

ذلك أن التراث مرتبط أسـاسًا بإطار مرجعي، لا يمكن إغفاله، ومن ثم فهـو لا يكتسب أهمية، إلا من خـلال ربط منظومة مـفاهيـمه وفـرضيـاته وقضـاياه بعصرها، أو بفضائها الثقافي.

تلك أسئلة صعبة لا بد من المضي في البحث لها عن أجـوبة، لا لأن التـراث ينطوي على أهمـيـة وحـسب، بل لأننا لا نريده أن يـرتكز على الثـابت لمرحلة لم تبلور، بعد، متحولها. لا نريد أن نبدع ثابتًا جديدًا يحل محل ثابت تقليدي.

مفهوم الحداثة

- مفـهومك للحداثة، كـيف يتحـدد؟ هل من داخل العـمل أم من خـارجـه؟ من التـراث الذي يجب الاتكاء عليه وتمثله، أم من الغرب الذي تنبثق منه الآن الحداثة ويؤسس لها؟

* ليست الحداثة مـفهومًا آنيًا يرتـبط بالتجديد أو المعـاصرة علـى نحو مـا يتـوجه الفـهم الشـائع. هذه واحـدة، والأخـرى، أنه ليس لهـذا المفـهوم صـفـات محددة يمكن النسج على منوالها.

إن الحداثة ممـارسة إبداعيـة واعيـة تسعى لإقـامة جـســـر واصـل بين المأثور والمطروح، بين المـاضي والحاضـر، الزماني والوقـتي، الثابت والمتـحول، وبين الأنا والآخـر، وهي بهـذا تتـميـز من المعـاصـرة ومن التـجـديد، لأن معاصر أو جـديد الآن هو قديم الآتي، لكن الحـداثة لا تقـدم ولأنهـا، بهـذا المعنى، رهان مفتوح بين المبدعين.

قصيدة

عالم الشعر

شعر: أحمد صدّوق عبدالعليم صافي

وتســـحـبُني من واقــعي المُرِّ وَمــضَـــةٌ   من الشّــعـرِ تسـري في الدُجى المُتـثـاقِلِ
فــأنسى عــذاباتِ الهــمــومِ تَنوشُني   وأبْعُــــدُ طَورًا عن ظُنونِ الجـــاهــلِ
كــأنَّ الطيــوفَ السُـمْــرَ حين تزورُني   وفـكريَ مَــغْلولٌ بشــتـى المســائلِ
نُســيــمـاتُ صُــبحٍ داعَــبَتْ وَجْنَةَ اللّظى   فــردَّت جَــهـيـمَ الوجْـهِ حُلوَ الشمــائِلِ
ســيــحـملني الشـعــرُ المجنَّحُ عــاليًــا   عن الأرض.. لا زادَ المســافــرِ ســائلي
وهذي الرؤى سَــيْفٌ بحَــدَّين مُــذْهَبٌ   فَــحَــدٌ انتـشــائي.. أو فَــحَــدٌ تَشــاغُلي
ومــا ينفَعُ التَــهْــويمُ في لُجِّ غَــيْــمَــةٍ   إذا لـم تَسُـحَّ الخَـــيْــــرَ من كُلِّ وابِلِ
تُسيءُ لِيَ الأحــلامُ مِنْ حَــيْثُ أحْــسَنتْ   فــتــمــلأُ دربي مِنْ أريجِ المشـــاتِلِ
ومــا عَلِمَتْ أنَّ الســرابَ يَحــوطُني   وأنَّ هَشــيــمًــا في اخْــضـرارِ السنابِلِ
تَمُــرُّ بناتُ الشّــعــرِ نَشوى كــأنَّهــا   عَـــرائِسُ يُغْــــرينَ المُعَنّى بِنائِلِ
فــأدْنو لَهــيــفًــا عَلَّ في غَــمْــرَةِ الرؤى   أرى قَــبَسًــا مِــمّــا يُريحُ كــواهلي
يُلِحُّ عليَّ الشّــعـــرُ إظهـــار أمْـــرِهِ   كَــأنَّ بُحــورَ الشــعــرِ أكــبَــرُ شــاغِلي
فــأذْعِنُ، عن مُــرِّ الحــقــيــقــةِ هاربًا،   وأنْفُضُ في عَــذْبِ البــيــانِ تخــاذُلي!
هو الشــعـــرُ واحــاتٌ تَرِفُّ لِقـــائِظٍ   يُكابِدُ في الصــحــراءِ حَــرَّ النوازِلِ
فَطِرْ بيَ في (جَــوِّ) القــصــيــدةِ ســاعَــةً   لِتَظهَــرَ لي الدُنيــا كَــأحلى الخــمــائِلِ

إنزال النورماندي

د. خالص جلبي

مع ساعات الفجر الأولى من يوم السادس من شهر حزيران/ يونيو من عام 1944م، أي قبل اثنين وخمسين عامًا، قام الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، بإنزال ناجح لأكبر قوة عسكرية عرفها التاريخ، على الشاطئ الفرنسي في منطقة النورماندي، محمولة على ظهر6800 سفينة حربية، ومساندة بـ 6500 طائرة مقاتلة، في محاولة لاختراق ما عرف بجدار الأطلنطي الذي بناه النازيون(1)، وبناء رأس جسر اندفعت منه 37 فرقة عسكرية، وفي المؤخرة قبع مليون جندي أمريكي ونصف المليون، و1,7 مليون جندي بريطاني و175000 جندي كندي، بالإضافة إلى عشرات الآلاف من الجنود المتطوعة من كل صقع، يحدو الجميع هدف هو: القضاء على النازية واستئصالها من الوجود!(2).

والآن ماذا تعني النورماندي [عملية السيد الأعلى OVER LORD] لبانوراما الحرب العالمية الثانية؟ وما مدلول هزيمة النازية في التاريخ الإنساني؟

على خوان (طاولة) الغداء ونحن نتناول الحساء الساخنة، وبعد نهار متعب من العمليات الجراحية، بدأت أنا ورئيس الأطباء (الأوبرأرتس OBER ARTZ)(3)، نتبادل الحديث، ومما تعرضنا له في ذلك اليوم ومازالت ذاكرتي تحفظه جيدًا، حديثنا عن الحزب الاشتراكي الوطني الألماني الذي اشتهر لاحقًا باسم الحزب النازي، فقال إنه بغض النظر عن الأيديولوجية النازية، فإن ألمانيا استفادت الكثير من إنجازات هتلر(4)، قلت له: يا سيد مونز إن الأيديولوجية النازية كانت للرايخ الثالث بمثابة الروح من الجسد، أو النواة من الخلية، فهل يبقى جسد بعد سحب الروح، أو تبقى خلية بعد عزل النواة منها؟!

كان هذا النقاش الذي حُفر في ذاكرتي، من خلال رحلتي الطويلة والمكتشفة في ألمانيا التي كانت تسمى وقتها بالغربية. وأهمية النقاش الذي دار بيننا، أنه مرض إنساني خطير، يجب أن نسلط عليه الضوء، فهو مرض غير خاص بالألمان، بل هو مرض قابل أن تسقط فيه أية أمة، أو يهوي إليه أي شعب؛ تحت قيادة تجمع بين الفعالية والتعصب والعمى التاريخي.

عندما كنت شابًا يافعًا وقع تحت يدي كتاب «كفاحي» لهتلر، ولم أقدر شحنة السم الرهيبة التي يحتويها هذا الكتاب آنذاك، فقرأته بشغف وحملت إعجابًا داخليًا لهتلر والشعب الألماني، حتى وعيت واستوعبت ـ من خلال رحلة مفعمة بالألم ـ ما النازية؟ ومن هو هتلر؟؛ لأن هتلر ليس بدنًا طبيعيًا (فيزيولوجيًا)، بل هو فكر ينتشر وروح تتفشى، واتجاه يغذي، وميول عدوانية رهيبة تحمل كل بذور الشر والفناء في طياتها.

عندما دخلتُ ألمانيا مطلع عام 1975م، جلستُ في أحد مطاعم مدينة نورمبرغ أتأمل وجوه الناس وأقول: أهي هي المدينة نفسها التي ولد فيها الحزب النازي وترعرع، وفيها جرت محاكمات مجرمي الحرب عام 1945م؟(5).

في مدينة نورمبرغ هذه كانت طوابير الفرق النازية تمشي بصفوف لا تنتهي عبر الظلام، تضيء بهيم الليل بالمشاعل، وهي التي سوف تضيء

وعظة التاريخ

بقنابلها لاحقًا كل عواصم العالم المهمة، وهي تنشد: ألمانيا فوق الجميع.

حتى يمكن إذن فهم السرطان النازي، وحتى ندخل إلى فهم تركيب نواته، بل حتى تشريح التركيب الكروموزومي عنده، من أجل إثراء التجربة التاريخية، لابد من تسجيل النقاط التالية:

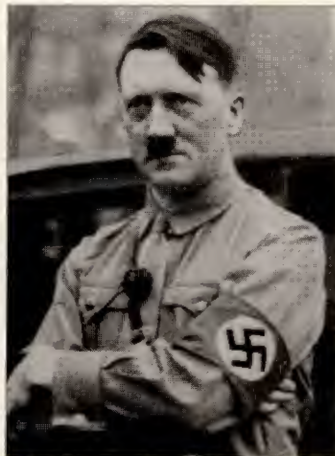
أولاً: تقوم الفكرة النازية، وكل فكرة عنصرية مشابهة، على أن البشر لم يُخلقوا من نفس واحدة، بل خُلق قسم منهم وضيعًا، والآخر متفوقًا بطبيعته البيولوجية، ويعدّ العرق الآري من أرفع الأجناس التي أنجبتها الطبيعة. هذه الحقيقة وُجه بها مارشال الجو غورينغ في محاكمات نورمبرغ فأراد التخلص منها، بأن النظرية النازية تقول بـ اختلاف الأجناس وليس بـ تفوق عرق على آخر.

ثانيًا: هذا التفوق العرقي ولحساب العرق الآري الجرماني يقود إلى خصوصية في التعامل مع الشعوب الأخرى بإلغائها، وبذا تولدت الفكرة السرطانية الثانية عن النازية المعروفة بالمجال الحيوي، وهذا يُترجم على أرض الواقع عمليًا، بتفريغ شعوب بأكملها من أراضيها، ودفع الملايين من الأوروبيين وتحويلهم إلى عبيد إنتاج في معامل الأسلحة التي لا تنتهي مقابل طعام (فقط) يبقيهم على قيد الحياة، هكذا كانت تنص تعليمات القائد = الفوهرر، أو بناء مصانع رهيبة للموت الجماعي، كان أشهرها آوسشفيتز في مكان ناء تم اختياره بعناية في جنوب بولندا بعيدًا عن النظر العالمي، غرب مدينة كراكاو البولندية بـ 60 كم. حيث كان يتم إدخال المعتقلين السياسيين أو من تقع عليه قرعة نظرية المجال الحيوي فيتم التخلص منه حسب انتمائه الطائفي أو العرقي(6). ويدخل تحت قائمة هذه الشعوب الوضيعة أسماء كثيرة من الغجر واليهود والشعوب السلافية، والسود، ولا تستثنينا ـ نحن العرب ـ من هذه القائمة؟!

ثالثًا: إذا علمنا الجو الاستعماري الذي ولدت فيه الفكرة النازية أمكن لنا أن نستوعب ظروف الصراع هذه بشكل أفضل. حيث بلجيكيا تبتلع وسط إفريقيا، وإيطاليا تزدرد الحبشة، وفرنسا تقضم الشمال الإفريقي، وبريطانيا تتسلل بكل خفة ودبلوماسية، لتضع يدها على مضايق العالم كلها تقريبًا: السويس وعدن وجبل طارق فضلاً عن المستعمرات الشاسعة. وأما هولندا البلد الذي لا يكاد يُرى في الخارطة، فإنها تَرْكب على رقبة البلد ذي الخمسة آلاف جزيرة أندونيسيا! في مثل هذا الجو من التنافس والتهارش الاستعماري لصيد الفرائس والطرائد، يبقى لألمانيا فقط دفع تعويضات الحرب وخسارة الأراضي، وهي من فصيلة الجنس الأبيض الراقي صاحب الامتيازات! في جو الإحباط وهزيمة الحرب العامة الأولى والتضخم النقدي والبطالة المتفشية والانهيار المالي والفوضى السياسية وذل معاهدة فرساي وخسارة الأراضي، يأتي هتلر على موعد مع القدر!

كان هتلر واعيًا ذكيًا نشطًا (ديناميكيًا) ومتعصبًا لأبعد الحدود، وأدرك بشفافية ذهنية أنه قاب قوسين أو أدنى من الحرب الضروس، فبدأ يستعد لها تحت شعاره المعروف: الهجوم خير وسيلة للدفاع، وما دامت القاعدة الصناعية موجودة فقد حُلَّ نصف المشكلة، ويبقى النصف الثاني، فيضرب عصفورين بحجر واحد: التسلح والقضاء على البطالة!. الشيء الوحيد الذي فات هتلر، ونجّى منه العالم: التركيز على إنتاج السلاح النووي، ولو امتلك هتلر السلاح النووي لامتلك العالم، وخاصة أن أقدار ما يزيد على 500 مليون من البشر أصبحت تحت رحمته؛ حيث امتدت الحدود الألمانية من القوقاز حتى جبال البيرينية في إسبانيا، وحوّل شعوب تلك المناطق إلى عبيد سخرة، وذَهَبها إلى مال للإنتاج، وعقولها إلى طاقة شغل؟!.

أرجع في الذاكرة إلى الجراح الطرابيشي الذي كنت أساعده في إحدى العمليات وهو يدمدم، كعادته، بكلمات غير مفهومة، يلوكها بين أسنانه؛ عن مصير الحرب العالمية الثانية: إن الذي هزم هتلر في الحرب كان في الواقع «الجنرال شتاء»، يعني بذلك هزيمته على الجبهة الروسية التي غيرت مجرى الحرب. فبسبب أخطاء موسوليني وإخفاقه في حرب اليونان، قفز هتلر لمساعدة حليفه، وبذلك تأخر في دخول عملية بارباروسا الرهيبة المقررة في الصيف، والتي حشد لها قرابة خمسة ملايين جندي لاجتياح الاتحاد السوفيتي، فدخلها متأخرًا والشتاء يقترب!


أدولف هتلر

هل كان ما دفع هتلر للانهيار هي عملية النورماندي فعلاً؟(7)، هل كان تعدد الجبهات أم الاستنزاف في معركة ستالينغراد؟ هل كان انهيار جبهة الشمال الإفريقي بعد إخفاق رومل في العلمين أم عدم التقدم في جبهة القوقاز؟ هل كانت حرب الدبابات الرهيبة في منسك أم دخول أمريكا الحرب والتحالف الأمريكي السوفيتي ضمن قانون الإعارة والتأجير؟ أم إن الحرب ذات طبيعة تقنية (تكنولوجية) ومن يملكها يملك مصيرها كما ذهب إلى ذلك فيرنر هايزنبرغ الفيزيائي الألماني المرموق صاحب مبدأ الارتياب في الفيزياء النووية(8).

إن عظة التاريخ في النورماندي تذكرنا نحن أهل محور الجنوب بالأفكار التالية:

أولاً: كما كانت مناقشاتي مع الطبيب الألماني مونز وكذلك العربي الطرابيشي أن الذي هزم النازية لم يكن أحد العناصر المذكورة ولا حتى مجموعها، وإن كانت كلها عناصر في اللعبة التاريخية، الشيء الذي يكسر كفة الميزان من وجهة نظري هو «الفكر النازي» فهو مثل السرطان الذي يحمل بذور فنائه في نفسه فيقتل صاحبه ولكن يذهب معه في النعش نفسه إلى المقبرة.

ثانيًا: كانت الشعوب التي استقبلت طلائع الفتح الألماني مستبشرة مهللة تمامًا كما روى لي المفكر الجزائري مالك بن نبي شخصيًا عندما كان في زيارتنا في دمشق عام 1971م، فهو كان يأمل في تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي من خلال التعاون مع الاستعمار الألماني(9)، كذلك فعل الناس في أوربا الشرقية وأوكرانيا وروسيا البيضاء والقوقاز، وظن الناس الطيبون، أن هؤلاء النازيون هم المخلصون الجدد من الشيوعيين الحمر، وخاصة أن البلاشفة كانوا ضد كل ما يمت للدين بصلة؛ إلا أنهم اكتشفوا أمرين أحلاهما مر:

الأمر الأول: أن النازيين الجدد وطلائع الفتح والتحرير ليسوا كذلك، بل هم نسخ جديدة لقبائل التيوتون (الهون والبرابرة) القديمة، التي لا تختلف عن قبائل الشيوعيين في شيء، سوى أنها تدين بعبادة الرب الجديد (الزعيم= الفوهرر DER FUEHRER) فهم جميعا من جحر شيطان واحد.

الشعوب التي استقبلت طلائع الفتح الألماني، ظنت ـ لفرط سذاجتها ـ أن مجيء الألمان سوف يخلصها من الاستعمار الفرنسي والبريطاني، وغاب عنها أن المستعمرين جميعا من طينة واحدة

الأمر الثاني: أن الشيوعيين الحمر قد يُبقون على حياة هذه الشعوب الوضيعة، ليمارسوا عليها (الأدلجة) والتربية الجديدة للدين الأحمر الجديد بالفتنة والإكراه، إلا أن سادة قبائل التيوتون الجدد لن يُبقوا حتى على حياة هذه الشعوب، وفقًا لمفهوم المجال الحيوي الذي ذكرناه سابقًا (ليبنس راوم = LEBENS RAUM)، فالأرض يجب أن تفرغ من سكانها للعرق المتفوق الأشقر الجرماني الجديد. ومن تناقضات التاريخ الرهيبة التي تدعو حقًا للتأمل، هو أن مَنْ عانى الهول الأكبر من هذه الثقافة، وجرع الكأس للثمالة، نقل الثقافة نفسها إلى تكوينه الخاص، أعني: الصهيونية. ويبدو أن هذا مرتبط أيضًا بالإحباط النفسي، فعدم تخليص النفس من أثر الأذية والعدوان ـ لا بِرَدّ العدوان والانتقام المباشر من المعتدي، وبالتصفية النفسية من خلال تصعيد قوى النفس، بتخليصها من مرض العنف ـ قاد إلى نقل المرض النازي إلى الضحية، فَتَشَرَّب الثاني من الأول وحمل مرضه نفسه، مع أن الثاني، أي الصهيوني، هو غريم الأول وخصمه اللدود.

ثالثًا: ظن بعض البسطاء والسذج أن مجيء الألمان سوف يخلصهم من الاستعمار الفرنسي والبريطاني وسواه على ما رويناه عن مالك بن نبي، لذا هلل المصريون بمقدم رومل إلى العلمين، إلا أننا ننسى بسرعة أن المستعمرين من فصيلة واحدة، وأن قلوبهم متشابهة، وتشرح لنا عملية دنكرك في مجريات الحرب سرًا عن هذه الفكرة، حيث ترك هتلر بعد اختراق خط ماجينو وسقوط الجبهة الفرنسية وتطويق القوات البريطانية قرابة 400000 جندي بريطانيا يفرون من قبضته وهو يتأملهم تحت مرمى مدفعيته، على الرغم من مناشدة جنرالاته بالتصرف حيال كارثة الجيش البريطاني للاستفادة منها، وبقي هذا سرًا من أسرار الحرب! إلا أن بعض التحليلات(10) تميل، ومن خلال مغزى رحلة أبي الهول الصامت الألماني «رودولف هيس» الذي ألقى بنفسه في الجزيرة البريطانية بطيارته الخاصة، وهو السكرتير الخاص لهتلر، والذي بقي على ولائه للنازية حتى وفاته، وقد ناهز التسعين من العمر في سجن برلين، ذهب ليفاوض البريطانيين في ما يشبه يالطا ألمانية ـ بريطانية لاقتسام العالم، حيث كان الألمان حريصين على تسلم المستعمرات من بريطانيا بالبريد المضمون!، والتي كانوا يريدون منها أن تُسلِّم دون أن تركع على ركبتيها، لأن سقوط بريطانيا المفاجئ قد يحمل على انتفاضة المستعمرات التي لا نهاية لها من العالم الثالث تجاه الحكم البريطاني، كان هتلر يريد المحافظة على بريطانيا بكرامتها مع هزيمتها في الوقت نفسه؛ ويشهد لهذا أيضًا التأجيل المستمر لعملية «أسد البحر» لغزو بريطانيا.

هذه المعلومات التي أوردها قد يكون فيها الكثير من الثغرات، إلا أن قناعتي الأكيدة هي أن هتلر لم يكن ليختلف في عقليته الاستعمارية عن تشرشل أو ستالين وأضرابهما من سادة الحرب يومها.

رابعًا: أن العالم ولد ولادة مشوهة بعد الحرب العالمية الثانية، من خلال حق الفيتو، حيث تحول العالم إلى شريحتين: أقلية تملك القرار وأكثرية لا تملك شيئًا، حتى إن التعديل الذي يريدون إدخاله اليوم، يرسخ مرة أخرى ـ وبعد مرور نصف قرن على تأسيس مجلس الأمن ـ مفاهيم الحفاظ على هذه المزايا نفسها، باقتراح ضم المهزومين وأعداء الأمس أصدقاء اليوم أعني ألمانيا واليابان. مع أن دولة مثل الهند تبلغ في تعدادها مجموع كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا واليابان، بل حتى الاتحاد السوفييتي معهم، وليس لها أي دور في اتخاذ قرارات العالم المصيرية فضلاً عن دول إسلامية ذات كثافة عالية مثل أندونيسيا.

هذا التصدع في الوضع العالمي يشكل خطرًا ماحقًا، نبه على خطره المفكر الفرنسي جاك أتالييه في كتابه آفاق المستقبل بقوله: إن علاقة الشمال بالجنوب ستكون أخطر من التهديد بالسلاح النووي أو القنبلة

وعظة التاريخ

البيولوجية. وهكذا فإن العالم الذي نعيش فيه يعيش حالة «كاريكاتور» ذلك أن الكاريكاتور هو أن الصورة هي هي وليست هي هي! بسبب تنافر النسب، من مثل أنف كبير أو فم واسع؟!

نعم إن العالم الذي نعيش فيه اليوم هو من هذه الشاكلة، حيث يتمتع 10٪ من سكان العالم بخيرات 90٪ من منتجات العالم، إلى درجة أن المؤرخ الأمريكي باول كنيدي، في كتابه الجديد: التحضير للقرن الحادي والعشرين، يقف أمام ظاهرة أن الولايات المتحدة تشكل 4٪ من سكان العالم، لكنها تستهلك 25٪ من طاقة العالم، وأن أمريكا استهلكت عام 1989م 6,3 مليار برميل نفط، يقول: «إن أي إنسان ذي ضمير حي، لا يمكن أن يشعر بالارتياح لهذه المعلومات» ص 50. في حين أن 90٪ من سكان العالم تصل إليهم حصة 10٪ من خيرات العالم! ويقع العالم الإسلامي في هذا الحزام العجائبي المقلوب في خانته السلبية، بل إن دولاً إسلامية يتم الالتفاف عليها بطريقة أو أخرى لحرمانها من ثرواتها، بدعوى أنها لا تستحق ذلك. هذا هو منطق عقلية ما بعد النورماندي!

خامسًا: أن الصراع الذي نشب في النورماندي، قبل توجيه الضربة النهائية للنظام النازي، هو صراع الديناصورات الاستعمارية، التي تفضل الله علينا بأننا لم نكن ممن دشنها أو حركها أو دفع إليها، وبالطبع لم يكن من منطلق قوة، بل من منطلق غياب عن الشهود العالمي، وفقدان القدرة على تقرير المصير؛ لأن العالم الإسلامي حتى اليوم يُفعل به، ولا يفعل هو الأحداث، بل حتى لا يعرف ماذا يحدث له. وتفسير ذلك بسيط هو أنه لم يشترك في صنع العالم المعاصر الجديد. لذا فالأحداث بالنسبة له كمن يستقبل نور السوبرنوفا بعد ملايين السنين! مع هذا فيجب أن نعلّم أولادنا على وجه الدقة ماذا حدث في العالم حتى يستطيعوا الدخول فيه من جهة، وعدم دفع الثمن مرة أخرى، لأن قانون الله جرى، وإن من لا يستفيد من تجربة التاريخ يدفع الثمن مرة أخرى مع فوائده المركبة أيضًا.

إن ما حدث كان أعظم من الخيال، وأفظع من كل تصور، فالأموات كانوا بالملايين، وماتوا من خلال معاناة ترتجف لها المفاصل، ألق نظرة على أجساد أموات المعتقلات لتسمع مع كل جسد قصة بكاملها(11).


مالك بن نبي

سادسًا: أن صراع الديناصورات الاستعماري ختم الحرب ببزوغ الفطر النووي فوق هيروشيما(*)، وبذلك دخلت البشرية ـ لأول مرة في تاريخها ـ انعطافًا نوعيًا لم تشهده من قبل في امتلاك قوة التدمير، هذه المرة لم يعد بالإمكان تسمية الحرب حربًا، ولم يعد هناك مستفيدون من الحرب، وبات الجنس البشري هذه المرة، بما فيهم الفرقاء خارج النزاع، مهددين بالفناء الشامل والمطبق للحياة الإنسانية باستثناء الصراصير والأعشاب والعقارب(12)! هذا الواقع الجديد أدركه قائد عملية النورماندي، أعني آيزنهاور نفسه الذي أصبح فيما بعد رئيسًا للولايات المتحدة، فسجل في مذكراته هذه الفقرة المهمة: «يجب على الطرفين المهتمين بالحرب أن يجلسا في يوم ما على طاولة المفاوضات، وهما مقتنعان أن عصر التسلح قد انتهى، وبأنه يتوجب على البشر الخضوع لهذه الحقيقة أو اختيار الموت»(13)، أو على حد تعبير روبرت أوبنهايمر العقل العلمي وقائد عملية تصنيع القنبلة الذرية الأولى: «كعقربين محبوسين تحت ناقوس زجاجي متحفزين يتربصان الواحد بالآخر، كل منهما يمكن أن يلدغ الآخر، ولكن لن ينجو من الموت الذي سَبَّبَهُ للآخر»(14). وهذا يعني بكلمة أخرى أن طريق القوة أصبح مسدودًا، ولا يعني هذا أن الصراع البشري سيتوقف، ولكن أداته سوف تتغير من إلغاء الآخر، إلى التفاعل معه، بل حمايته، بل إيجاده إن لم يكن موجودًا، لأن نمو الذات سيتم من خلال اكتشاف المزيد من الذات عند الآخر.

يجب أن نعلم أولادنا ما حدث في العالم حتى لا يدفعوا الثمن كما دفعناه؛ لأن من لا يستفيد من تجربة التاريخ يدفع الثمن مرة أخرى مع الفوائد المركبة أيضا!

سابعًا: هذا التطور الخطير في مفهوم القوة يعرفه حق المعرفة من يملك الفهم التاريخي والقاعدة العلمية، والتي من ذيولها وتحصيل الحاصل القوة التكنولوجية، فاليابان لا تملك السلاح النووي وليست حريصة على ذلك، خلافًا لكوريا الشمالية الغارقة في العجز، فإنها تسعى لامتلاك هذه الأصنام الجديدة.

إن اليابان لو أرادت أن تُصنّع السلاح النووي فإن بمقدورها أن تفعل ذلك في غضون شهر واحد لا يزيد، بل إن شينتارو إيشيهارا عضو البرلمان الياباني «الدايت» أثار ضجة عالمية حول كتابه «اليابان البلد الذي يستطيع أن يقول لأمريكا: لا»، كشف السر في كتابه عن أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كليهما أوقفا تسابق التسلح النووي، بسبب توقف دقة الإصابة في صواريخهم النووية على الرقائق الإلكترونية التي تُصنّع في اليابان، وبذلك فإن سر قوتهم أصبح بيد غيرهم!

إن الذي لا يفهم هذا التطور الجديد عن خرافة السلاح النووي، سيقول كما قال أصحاب موسى عندما جاوز بهم البحر، وأتوا على قوم

إنزال النورماندي

وعظة التاريخ

يعكفون على أصنام لهم: *اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهة*. الأعراف: 138. فالكثيرون يريدون بناء هذه الأصنام الجديدة وعبادتها: أصنام الرؤوس النووية.

ثامنًا: أن من أعجب الأمور التي رأتها أعيننا، أنه في الوقت الذي تركض بعض الدول خلف امتلاك هذه الأسلحة، تصاب الدول العظمى بالهمّ، وهي تبحث عن أفضل طريقة لفك هذا السلاح والتخلص منه وإيداع نفاياته، بعد أن وصلت في الشوط إلى نهايته، كما ذكرنا في مقالتنا عن القنبلة عيار 85 ميجاطن = بقوة 3866 مرة أقوى من قنبلة هيروشيما(*) وشدّت وتر القوس إلى أقصى غايته، ولمست جدار الصعق النووي إلا قليلاً، ورأت جهنم الحمراء - التي لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر - من قريب.

ألا يتعجب المرء من هذا الجنون المطبق لأناس يسلكون الطريق نفسه ومن بدايته، وقد رأوا بأم أعينهم المنقلب والمصير؟!.

تاسعًا: تحت هذا الضوء يمكن رؤية الحروب الأخرى سواء في بلد عربي مثل اليمن، أو بلد إسلامي مثل أفغانستان، أو غير عربي إسلامي مثل رواندا حاليًا. حيث، في معسكرات الهرب الجماعي في بيناكو BENAKO في تانزانيا، يجتمع القاتل والمقتول من قبيلتي التوتسي والهوتو معًا، بعد أن فروا من الجحيم الذي صنعته أيديهم بالذات!

وهكذا تروي لنا عظة التاريخ أن الكل يقتل الكل في انتحار داخلي أحمق، ليصلوا في نهاية المطاف، كما وصلت الديناصورات، إلى أن وقت القوة ولّى، وديوان الحماسة لم يعد يطرب، وأن الحرب هي كما وصفها الشاعر:

الحرب أول ما تكون فتية
تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشُب ضرامها
عادت عجوزًا غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت
مكروهة للشم والتقبيل

في علم النفس: كل عاطفة تولد نظيرها، وتستحث مثيلتها، فالحقد يورث الحقد، والكراهية تولد الكراهية، والدم يستحث الدم. والحب ينبت الحب و: *ادفع بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينَه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميمٌ*. **فصلت**: 34.

عاشرًا: أدرك أبناء وأحفاد النورماندي هذه الحقيقة، وها هم أولاء الآن يقتربون من تشكيل البرلمان الأوروبي، والإيكو النقدي، وفتح قناة تحت المانش لربط بريطانيا بالقارة العجوز، لقد تعلموا من دروس التاريخ، لذا يصرخ الألمان كل يوم، وحفظتها منهم: لن تنطلق حرب بعد اليوم من الأرض الألمانية. ومن العجيب أننا نرى هذه الآيات فنمر عليها كالعميان الذين لا يبصرون.

ما الفرق يا ترى بين الأعمى والبصير؟

الأعمى هو الذي يصطدم بالمشكلات، فيدركها، فيحاول حلها بعد وقوعها!

البصير هو الذي يرى الجدار فلا يرتطم به، والأعمى هو الذي يرتطم بالجدار فيبصره؛ لأنه: *لا تعمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصدور*. **الحج**: 46، *وما يستوي الأعمى والبصيرُ. ولا الظُّلماتُ ولا النورُ. ولا الظلُّ ولا الحَرُور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يُسمعُ من يشاء وما أنت بُمسمعٍ مَن في القبور*. **فاطر**: 19 - 22.

المراجع والهوامش:

1- بني الجدار الأطلنطي بجهد 260000 من البشر التي حُملت من أوربا كلها للسخرة، في مدى سنتين، تم فيها إزاحة ما مقداره 28 مليون متر مكعب من الرمل، وصُبَّ ما مقداره 13,3 مليون متر مكعب من الإسمنت الذي سُلّح بـ 1,2 مليون طن من الحديد، وخُصص فيه 15000 مخبأ للمقاومة، على طول 2100 كم! الشبيجل، عدد 22، 1994م، ص 116.

2- كلف الإنزال والدفاع عن الجدار الأطلنطي من جانب الحلفاء 116148 ضحية، ومن جانب الألمان 116863 إصابة، وهكذا دفن في تلك الرمال الحزينة ما يزيد على ربع مليون شاب.

3- الأوبرآرتس باللغة الألمانية تعني رئيس الأطباء، والهر تعني السيد.

4- كانوا يذكرون نصف الحقيقة، فعلى سبيل المثال اجتهد هتلر في بناء ما عرف بـ (الأوتوبانات) أي الطريق العريضة السريعة التي هي بمنزلة الشريانات الكبيرة للوصل، إلا أن الهدف الكبير لهتلر كان هو إمكان تحريك وقذف كميات كبيرة من الجنود والعتاد والأسلحة وتحريكها من أقصى ألمانيا إلى أقصاها وبسرعة كبيرة، فدماغه كان عسكريًا استراتيجيًا من الطراز الأول.

5- مدينة نورمبرغ هي التي جرت فيها محاكمات مجرمي الحرب عام 1945م، وجرى اختيار المدينة عن قصد، لأن الحزب النازي ولد فيها، لذا تم إعلان استئصال السرطان النازي فيها أيضًا، إنما بكلفة وصلت إلى 50 مليونًا من البشر فنس الجراحون والعملية!.

6- كانت العملية تتم تحت تعرية المعتقلين بدعوى تنظيفهم من القمل، ثم إدخالهم إلى حمامات محكمة الإغلاق، ليصب عليهم سم (السيكلون ب) ليموتوا بأعنف صورة ممكنة، ثم ليرسلوا بعدها إلى المحارق والأفران التي صممت بعناية، وبأيد خبيرة متخصصة، وبمعدل 4500 جثة يوميًا.

7- عملية الإنزال في النورماندي كان يقودها آيزنهاور، وأخذت اسم Over lord وربما يمكن ترجمتها بالسيد الأعلى أو حتى الله الأكبر باعتبار أن كلمة اللورد تأتي أحيانًا بمعنى الله!!.

8- يراجع في هذا كتابه «الجزء والكل محاورات في مضمار الفيزياء الذرية»، ترجمة محمد أسعد عبدالرؤوف، الألف كتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص: 207: سئل فيرمي هايزنبرغ وذلك في فترة زيارته الولايات المتحدة قبل الحرب بشهور: ألا تعتبر أنه من المحتمل أن يكسب هتلر الحرب؟ فرد هايزنبرغ بقوله: «لا. إن الحروب الحديثة تقاد بالتكنولوجيا. ولأن سياسة هتلر قد عزلت ألمانيا عن كل الدول العظمى الأخرى، فإن الجهد التكنولوجي على الجانب الألماني أقل بكثير منه على جانب الأعداء المحتملين. إن هذا الموقف واضح لدرجة أنني أحيانًا أميل إلى الأمل أن هتلر - من خلال معرفته للحقيقة - سوف يمتنع عن المخاطرة في دخول الحرب، ولكن ذلك كله يعتبر حلمًا محضًا، وذلك لأن ردة فعل هتلر ليست عقلية، ولعله ببساطة لا يريد رؤية الواقع».

9- سجل هذا في الجزء الثالث من مذكراته التي لم تنشر بعد «في العاصف»ة.

10- جاء في كتاب تاريخ ألمانيا الهتلرية، تأليف وليم شيرر، ترجمة خيري حماد، جزء 3 ص 206، عن أحد أبرز القادة الألمان رونشتدت كما يلي: «لو كنت حرًا فيما أعمل لما تمكن الإنجليز من الخلاص بمثل تلك السهولة من دنكرك، ولكن أوامر هتلر كانت تقيد يدي، فبينما كان الإنجليز يصعدون إلى البواخر من الشطآن الرملية، كنت مجبرًا على الوقوف في خارج الميناء دون أن أقوم بأي عمل وغير قادر على الحركة، وظللت خارج المدينة أرقب الإنجليز وهم يفرون». ويمضي المؤلف بعد ذلك لينقل هذا التفسير ص211 «كان هتلر في حالة مزاجية رائعة.. وأذهلنا بعد ذلك إذ راح يتحدث بإعجاب عن الإمبراطورية البريطانية وعن ضرورة وجودها... وأعرب شيانو عن دهشته بعد شهر عندما وجد الديكتاتور النازي يعزف على وتر أهمية الحفاظ على الإمبراطورية البريطانية «كعامل أساسي في التوازن العالمي»!!.

11- كلفت الحرب العالمية الثانية 50 مليون قتيل، وأكثر من 80 مليون جريح ومفقود، وفي ألمانيا وحدها بقي مليون طفل يتيم، ودفع العالم 1384000 مليون دولار ثمنًا لنفقات الحرب، ناهيك عن 260000 مليون دولار لما خربته الحرب، التي امتدت آثارها إلى 59 دولة كانت طرفًا فيها، وأكثر من مات هم من الروس، حيث وصل رقم الذين فارقوا الحياة إلى ما يزيد على 20 مليون إنسان بين عسكري ومدني.

12- أرجو ألا يُحمل هذا الكلام على سبيل النكتة، فمع أول تجربة انفجار نووي فرنسي في الصحراء الجزائرية لم تتأثر عقارب المنطقة، مما دفع فريقًا من العلماء الفرنسيين لدراسة عقارب المنطقة والخروج بنتيجة بعد دراسة عشرين سنة بكتاب كامل عن قدرة تحمل العقرب 300 مرة من الجرعة المميتة من الأشعة النووية للإنسان!

13- الشبيجل، عدد 17، 1994م، ص 233.

(*) انظر: خالص جلبي، عندما بزغت الشمس مرتين، الفيصل، العدد 238، ربيع الآخر 1417هـ، أغسطس/ سبتمبر 1996م، ص93.

قراءة في تائية الشنفرى

د. فاطمة عبدالفتاح

طالما أثار الشعراء الصعاليك جدلاً، فوُضعت في أدبهم الدراسات، وأُلِّفت الكتب، فأبرزتهم فئة من اللصوص وقطاع الطرق تارة، ومقدمة لإرهاصات العدالة الاجتماعية وبذور الفكر الاشتراكي عند العرب تارة أخرى، وفي جميع الأحوال كانوا أولئك الرجال الذين اتسموا بالخشونة وتعودوا شظف العيش وقسوته، ولكن برزت في أشعارهم معان أخلاقية رفيعة. والشَّنْفَرى هو أحد هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين رسخ شعرهم قيمًا عليا. واسم الشنفرى: عامر بن عمرو الأزدي(*)، ضُرِبَ به المثل في العدو، فقيل: أعدى من الشنفرى(1).

قال أبو العلاء: «تكلم بعض الناس في اشتقاق هذا الاسم، فزعم قوم أنه يُراد به الأسد، وقيل الجمل الكثير الشعر ويجب أن يكون من قولهم: في رأسه شنفارة، إذا كان حادًا، ويجوز أن يكون من قولهم: أذن شفارية، إذا كانت كثيرة الشعر والوبر، وقالوا: شَفَرَ الرجل إذا أقلَّ العطية، وشَفَرَ المال إذا قلّ(2)، وفي سمط اللالي: «الشنفرى شاعر جاهلي أحد بني الحُجْر ابن الهنء (الهِنْو) من الأزد، وهو من صعاليك العرب وفُتَّاكهم»(3).

والقصيدة التي نحن بصدد دراستها، هي التائية التي أوردها المفضَّل الضبي في المفضليات والأصفهاني في الأغاني(**).

لقد كان التركيز دائمًا على لامية الشنفرى(4)، وهذه القصيدة لا تقل أهمية عنها، وإذا كان هناك شك في صحة نسبة اللامية للشنفرى، فإن هذه القصيدة فيها إثبات لأصل الشنفرى اليمني، أي إن القصيدة تعكس حقيقته، ومن ثم لا شك في نسبتها إليه، وإذا عدَّ بروكلمان(5) عروة بن الورد - على كثرة رواية الشعر له - دون الشنفرى وتأبط شرًا تصويرًا للحياة الجاهلية؛ فهذا يعني أن الشنفرى كان ممن أحسنوا تصوير الحياة الجاهلية، ومن ثم فإن في هذه القصيدة تمثيلاً لبعض جوانب هذه الحياة، وخاصة ما يتعلق منها بالمرأة.

القصيدة ستة وثلاثون بيتًا، يمكن أن تقسم ثلاثة أقسام: أولها من البيت الأول وحتى الرابع عشر، وفيه وصف للمرأة وموقف الشاعر منها، وثانيهما من البيت الخامس عشر حتى البيت السابع والعشرين، ويتناول حياة الصعاليك وغزواتهم. والقسم الثالث يلخص موقف الشاعر من الموت والأقرباء. يقول الشنفرى:

أرى أمّ عمرٍو أجْمَعَتْ فاستَقَلَّت
وما ودَّعَتْ جيرانَها إذْ تولَّتِ(6)
وَقَدْ سَبَقَتْنا أمُّ عَمْرٍو بأمْرِها
وكانت بأعْناقِ المَطِيِّ أظَلَّتِ(7)
بعَيْنَيَّ ما أمْسَتْ فباتَتْ فأصْبَحَتْ
فَقَضَّتْ أمُورًا فاستَقَلَّتْ فوَلَّتِ
فيا جارتي وأنْتِ غَيْرُ مُليمَة
إذا ذُكِرَتْ ولا بذات تَقَلَّتِ(8)
فواكَبِدا على أُمَيْمَةَ بَعْدَما
طَمِعْتُ فَهَبْهَا نعْمَةَ العيش زَلَّتِ(9)
لقد أعْجَبَتْني لا سقُوطًا قناعُها
إذا ما مَشَتْ ولا بذات تَلَفُّتِ
تَبيتُ بُعَيْدَ النَّوْم تُهْدي غَبُوقَها
لجارَتِها إذا الهديَّةُ قَلَّتِ(10)
تَحِلُّ بمَنْجاة مِنَ اللَّوْمِ بَيْتَها
إذا ما بُيُوتٌ بالمَذَمَّة حُلَّتِ(11)
كَأنَّ لها في الأرضِ نسيًا تَقُصُّهُ
على أمِّها وإنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلَتِ(12)
أُمَيْمَةُ لا يُخزي نَثَاهَا حَليلَهَا
إذا ذُكِرَ النِّسوانُ عفَّتْ وَجَلَّتِ(13)
إذا هُوَ أمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِه
مآبَ السَّعيد لَمْ يَسَلْ أينَ ظلَّتِ(14)
فَدَقَّتْ وَجَلَّتْ واسْبَكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ
فلَوْ جُنَّ إنْسانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنَّتِ(15)
فَبِتْنا كأنَّ البَيْتَ حُجِّرَ فوْقَنا
برَيْحانَة رِيْحَتْ عِشاءً وطُلَّتِ(16)
بريحانَة مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَوَّرَتْ
لها أرَجٌ ما حوْلَها غَيْرُ مُسْنِتِ(17)

يبدأ الشاعر بوصف الرحيل المفاجئ لامرأته، والذي لم يسبقه وداع أو إخبار، هذا الرحيل المفاجئ يشكِّل فاجعة بالنسبة للشاعر، وهنا نلاحظ عمق العاطفة التي يختزنها تجاه هذه المرأة حتى كان رحيلها المفاجئ فاجعة كبيرة، بعد أن كان يأمل بوصالها الذي يعده نعمة طمع بها، ولكنه لم يستطع نوالها وزالت قبل الأوان. ثم ينتقل الشاعر إلى وصف هذه المرأة، وهنا نلاحظ عبارة «لقد أعجبتني» والتي تحمل معنى دقيقًا، إذ إن إعجاب الرجل بالمرأة انطلق من صفات معنوية بداية، ثم انتقل بعد استكمال الحديث عن صفاتها المعنوية إلى الصفات الجسدية، وهذا ترسيخ لقيمة أخلاقية في علاقة الرجل بالمرأة، قيمة العمق بالعلاقة، الذي تجاوز الصفات الجسدية إلى الصفات الأخلاقية، والبعد من السطحية بالإعجاب. ومثل هذه المرأة هي التي تُكوِّن الركن الآخر في الأسرة، وعلى مثلها يُعتمد في تحقيق حياة أسرية مستقرة. إن القيم المعنوية في هذه الأبيات قد استمرت حتى العصر الحاضر في صفات المرأة العربية، وهذا يعني ثبات هذه القيم وخلودها واستمرارها من جيل إلى آخر. فالمرأة هنا هي الرزينة غير المبتذلة التي لا تلتفت في سيرها وتحرص على عدم سقوط قناعها إن مشت كي لا تكون مريبة. ثم وصفها بالحياء والكرم وكيف أنها تهدي الطعام والشراب

لجاراتها في أوقات الشدة، وأي كرم، إنه العطاء المستور في الأيام القفر عندما يجدب الناس وتقل العطايا، تسعى هذه المرأة إلى جاراتها ليلاً لتهدي إليهم شراب المساء فتأبى أن تبيت شبعانة وجارتها جائعة، وهنا يبرز الجانب الإنساني والأخلاقي في هذا العطاء الذي يتم ليلاً، فلا يعلم أحد لمن وماذا أعطت، وفي ذلك حفظ لكرامة الجارات المحتاجات، ويعكس هذا العطاء دلالة أخرى إذ إن المرأة هنا سيدة في بيتها تستطيع التصرف بمالها في أوجه الخير، ولا لوم عليها في ذلك تخشاه من زوج أو إنسان آخر.

ومن صفات هذه المرأة أنها تصون سمعة بيتها، فلا تدع اللوم يلحق بكرامة أسرتها. فهي تنأى ببيتها أن يُذَمّ ويُلام. وذلك لإيثارها الناس على نفسها، فالنجاة من الذم تكون بالإيثار، ويقابل ذلك الهلاك نتيجة الأنانية، وهنا نرى وعي المرأة بأنها جزء من الأسرة وما يلحق بها من أذى وإهانة يلحق ببيتها، فهي أدركت أهمية الكرم في مجتمعها بوصفه قيمة أخلاقية واجتماعية فحرصت عليها، وهذا يعكس الوعي الاجتماعي لدى المرأة التي تمثلت قيم مجتمعها فتحلت بها. ويتابع الشاعر وصف المرأة، فيبين لنا أنها تتمتع بصفة أخرى محببة ألا وهي الحياء، فهي تُطرق عندما تمشي وتقتصد في الكلام، وهذا يعكس العقل والحكمة لديها، كما أنها عفيفة تصون نفسها فتكون موضع فخر لزوجها، وهنا نلاحظ كلمة «حليلها» وهو المعاشر لها بالحلال وهذا دليل عفتها. وقد ربط الشاعر كرامة المرأة بكرامة زوجها فهي تحرص على طيب ذكرها في المحافل فتكون موضع اعتزاز لزوجها إذا ذكرت النساء، كما أنها تهيئ لزوجها الاستقرار والطمأنينة، فلا تثير ريبته بالسؤال والبحث عنها لعدم وجودها، وهنا نرى التركيز على دور المرأة في تهيئة الاستقرار الأسري.

إن أهم ما يميز هذه الأبيات أمران، الأول: خلوها من المقدمة الطللية، وهي الصفة التي اشترك فيها الشعراء الجاهليون، والدخول مباشرة في صلب الموضوع الذي أراده الشاعر. والثاني: التركيز على الجانب الخلقي للمرأة، وخلو الأبيات من الإشارات الحسيّة التي شاهدناها لدى معظم الشعراء الجاهليين، فلم يعرّض الشاعر المرأة للابتذال الجسدي والوصف الحسي؛ فصان جسدها بمجمل وصفه لأخلاقها، وعرض لوصف الجسد عرضاً فاختزله ببيت واحد كثّف فيه مواصفاتها الجسدية عندما قال:

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت
فلو جن إنسان من الحسن جنّت

إن هذا التركيز على المواصفات المعنوية، يعكس لنا الاحترام للمرأة بوصفها إنسانًا ذا قيمة اجتماعية وأخلاقية في المجتمع.

ينتقل الشاعر في القسم الثاني من القصيدة إلى وصف حياة الصعاليك فيقول:

وباضعة حُمْرِ القِسيِّ بَعَثْتُها
وَمَنْ يَغْزُ يغنم مرةً وَيُشْمَتِ(18)
خَرَجْنَا من الوادي الذي بَيْنَ مِشْعَلٍ
وَبَيْنَ الجَبَا هَيْهَاتَ أَنْشأْتُ سُرْبَتِي(19)
أُمَشِّي على الأرضِ التي لَنْ تَضُرَّنِي
لأُنكي قومًا أو أُصادِفَ حُمَّتِي(20)
أُمَشِّي على أيْنِ الغُزاةِ وَبُعْدِها
يُقَرِّبُني منها رواحي وَغَدْوَتِي(21)
وأُمِّ عِيالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقُوتُهم
إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْ تَحَت وأَقَلَّتِ(22)
وَمَا إنْ بها ضَنٌّ بما في وِعائِها
ولَكِنها مِنْ خِيفَةِ الجُوعِ أبْقَتِ
تخافُ عَلَينا العَيلَ إنْ هي أَكْثَرَتْ
ونحن جِيَاعٌ أيَّ آلٍ تألَّتِ(23)
مُصَعْلَكَةٌ لا يُقْصِرُ السِتْرُ دُونَها
ولا تُرْتَجَى للبَيْتِ إنْ لَمْ تُبَيِّتِ(24)
لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفًا
إذا آنَسَتْ أُولى العَدِيِّ اقْشَعَرَّتِ(25)
وتأتي العديَّ بارزًا نصفُ ساقِها
تَجُولُ كَعَيْرِ العَانَةِ المُتَفَلِّتِ(26)
إذا فزعوا طارتْ بأبْيَضَ صارمٍ
ورامتْ بما في جَفْرِها ثُمَّ سَلَّتِ(27)
حُسامٍ كَلَوْنِ المِلْحِ صافٍ حديدُهُ
جُرَازٍ كأَقْطَاعِ الغَدِيرِ المُنَعَّتِ(28)
تراها كأذنابِ الحَسِيلِ صَوَادِرًا
وَقَدْ نَهِلَتْ مِنَ الدِّمَاءِ وَعَلَّتِ(29)

في الأبيات يصف الشاعر عملية الغزو التي تقوم بها هذه الجماعة من الصعاليك، وهي إلى الأماكن البعيدة واضعًا نصب عينيه احتمالات الربح والخسارة على التعب والإرهاق الذي يتجشمه في غزواته ومواصلته السير ليلاً ونهارًا ليختصر الوقت، فلا مجال عنده للراحة إذ إنّ هدفه هو الوصول إلى مكان غزوته بأقصر وقت، ولذلك يصل الليل بالنهار راجلاً؛ وهنا نلاحظ غياب وصف الفرس أو الناقة كما درجت العادة في الشعر الجاهلي، إذ إن أحدهما هو رفيق الرجل في سفره أو غزوته، وهذا يتناسب مع الوضع البائس الذي عاشه الصعاليك، ذلك أن امتلاك الفرس أو الناقة يستلزم مالاً، وهذا لا يتوافر بسبب الفقر الذي عاشته هذه الفئة من الناس، فالرجل هنا لا يملك إلا قوّته الجسدية وسلاحه يعتمد عليهما في غزوه، والقوة الجسدية إضافة للقدرة الهائلة على العدو من الصفات التي امتاز بها الصعاليك حتى ضُرب المثل في العدو بالشنفرى، وهذه القدرة الجسدية أملتها ضرورة الحياة التي يعيشها الصعاليك، فاستعاضوا عن الفرس والناقة بالقوة البدنية، كما نرى أن عدة الصعلوك في غزوه تختلف عن عدة الفارس المحارب في القبيلة، إذ إن معركته تقتضي الإغارة السريعة، وهذا يتطلب الخفة والتخلص من كل ما هو غير ضروري ومُلِحّ للغزو السريع. فبدلاً من الدروع والخيول والرماح حمل معه الجعبة التي تحوي ثلاثين سهمًا إضافة إلى تقلده سيفه، واعتمد على قوة وسرعة ساقيه في الكر والفر. ونلاحظ هنا عبارة «اقشعرت» التي وصف بها الشاعر تأبط شرًا؛ إذ إنه عندما رأى طلائع الأعداء تهيأ للقتال وشمّر عن ساقيه علامة الجد، واقشعر جسده لصعوبة الموقف. وهنا نرى إنسانية التعبير، فالقتال لم يكن مهمة سهلة وممتعة، وإنما هو للحصول على الحاجة لديمومة الحياة. إنه ضرورة أملتها طبيعة وقسوة الحياة والفقر. لذلك فالقتل ليس طبعًا في هؤلاء الرجال، وشأنهم شأن كل إنسان يتحلى بالمشاعر والعواطف انتابته مشاعر الخوف والرهبة لدى مواجهته فاقشعر بدنه. وصور لنا الشاعر طبيعة الحياة في هذه الغزوات وما بها من شح وتقتير، فها هو تأبط شرًا وهو المقصود بعبارة «أم عيال» القائم على أمر طعامهم، يقتر عليهم مخافة نفاد الزاد قبل انتهاء الغزو، ومن ثم هلاكهم جوعًا إن لم يقتصد. ونلاحظ هنا أمرين: الأول تكنية تأبط شرًا بـ «أم عيال»، وسواء كان ذلك مما درج عليه العرب بقولهم للرجل الذي يلي طعام القوم وخدمتهم بأنه أمهم، أو ما درج عليه الأزد في لغتهم من تسمية رئيس القوم ووالي أمرهم بـ «أم القوم»، ففي كلا الحالين تعظيم لدور الأم والمرأة ثم.


مارسيل بروست

والأمر الثاني هو حسن التنظيم الذي كان يسود علاقة هذه الجماعة؛ إذ تقاسموا الأدوار في الغزو، وكان من ذلك تسليم أمر إطعامهم لرجل واحد وهو دور عظيم الأهمية، إذا أدركنا خطر الغزو في صحراء مقفرة

وإمكان نفاد الزاد في هذا الغزو إن لم تنظم عملية توزيع الطعام وبشكل مسؤول، فرأينا كيف قام تأبط شراً بتقنين الطعام والحرص عليه، حرصه على جماعته من الهلاك والموت.

وينتقل الشاعر لوصف عدتهم في غاراتهم فنرى أن سلاحهم كان من السهام، وهي للقتال البعيد والسيف القاطع للقتال القريب. وهنا تبرز روعة التشابيه الحسية التي استمدها الشاعر من الطبيعة وقربت لنا الصفات المعنوية للرجال والأشياء. فقد شبه شدة تأبط شراً وتفلته في القتال والإغارة «بعير العانة» ذلك أن الحمار أغير ما يكون فتراه يتفلت إلى الحمير يطردها عن أتنه. وشبه لون الحسام بالملح، ولمعانه بمياه الغدير عندما تهب عليها الريح فتقطعها ويبدو بريقها كأجمل ما يكون. ثم شبه السيوف بأذناب أولاد البقر التي إذا رأت أمهاتها جعلت تحركها وتضرب بها.

وإذا كانت التشابيه الحسية ميزت عبقرية مارسيل بروست في «البحث عن الزمن المفقود» والتي يكشفها أندريه موروا في مقدمة الكتاب(30)، فيرى أن هذه العبقرية تجلت من خلال اعتماد التشابيه بالمحسوسات الأولية أو صور الحيوانات والنباتات لديمومتها؛ فإن هذه التشابيه المستمدة من الطبيعة في هذه الأبيات التي نقلت لنا الصفات المعنوية عبر الصور الرائعة، هي جزء من الأمور التي ضمنت خلود الشعر الجاهلي وأعطته قوته وجماله وتميزه قبل ما يزيد على 1500 عام.

ننتقل الآن إلى القسم الثالث والأخير من القصيدة، يقول الشنفرى:

قَتَلْنا قَتِيلاً مُحْرِمًا بِمُلَبِّدٍ
جِمَارَ مِنًى وَسْطَ الحَجِيجِ المُصَوِّتِ(31)
جَزَيْنا سَلامَانَ بْنَ مُفْرِجِ قَرْضَها
بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمُ وأَزَلَّتِ(32)
وَهُنِّئَ بي قَوْمٌ وما إنْ هَنَأْتُهُمْ
وَأَصْبَحْتُ في قَوْمٍ ولَيْسُوا بِمَنْبِتي(33)
شَفَيْنا بِعَبْدِالله بَعْضَ غَلِيلِنا
وَعَوْفٍ لَدَى المَعْدَى أوَانَ اسْتَهَلَّتِ(34)
إذا ما أَتَتْني مَنِيَّتي لَمْ أُبالِهَا
وَلَمْ تَذْرِ خالاتي الدُّمُوعَ وَعَمَّتي
ألا لا تَعُدْني إنْ تَشَكَّيْتُ خُلَّتي
شَفاني بِأَعْلَى ذِي البُرَيْقَيْنِ عَدْوَتي(35)
وإنِّي لَحُلْوٌ إنْ أُرِيدَتْ حَلاوَتي
وَمُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ اسْتَمَرَّتِ(36)
أَبِيٌّ لِمَا يَأْبَى سَرِيعٌ مَباءَتي
إلى كُلِّ نَفْسٍ تَنْتَحي في مَسَرَّتي(37)
ولو لَمْ أَرِمْ في أَهْلِ بَيْتِيَ قاعِدًا
أَتَتْني إذًا بَيْنَ العَمُودَيْنِ حُمَّتي(38)

يصف الشاعر عملية أخذه الثأر لوالده من قبيلة سلامان بن مفرج ومنهم قاتل أبيه. وأن هذا الثأر جاء علانية وفي مناسبة عامة هي الحج. ثم يعترف الشاعر أنه الآن يعيش في منبت غير منبته إذ إنه كان طريد جنايات يجرها على عشيرته حتى ضاق به من كان ينصره. فعاد خليعًا فتوحش وشارك عوافي السباع والطير في مشاربها ومساربها. ونلاحظ شدة الجفوة والقطيعة التامة بين الشاعر ومنبته الحقيقي. إذ هو على يقين أن أحدًا من خالاته أو عماته لن يبكيه عند موته. نرى هنا موقف عدم المبالاة من الموت، ولعل ذلك بسبب جرأته وعدم خوفه أو بسبب عدم الارتباط والانتماء للأهل أو لإنسان ما يعيش من أجله. فهو يعيش حالة النبذ والرفض من مجتمعه، ولكن على الرغم من فقد التوافق مع المجتمع، فقد كشف عن الجوانب الإنسانية في نفسه، فهو حلو سهل لمن سامحه ومُرٌّ إن أريدت عداوته. فالقسوة إذن ليست طبعًا في نفس الشاعر، وإنما حالة أملتها طبيعة الحياة التي يعيشها. كما لاحظنا تمثل الشاعر قيم المجتمع فيما يتعلق بأخذ الثأر لوالده، وكيف أن هذه العملية تمت علانية وحصراً من قاتل أبيه، وهو ما درج عليه العرب في عاداتهم، وإعلان مسؤوليته عن عملية الثأر.

وختامًا نرى أن أبرز ما يميز هذه القصيدة أمورًا أربعة هي: انتفاء المقدمة الطللية والدخول إلى لب الموضوع مباشرة، وهذه الصفة كانت قاسمًا مشتركًا بين قصائد الصعاليك. ولعل مرد ذلك إلى عدم الانتماء والثبات في المكان بالنسبة للصعلوك وعدم الارتباط النفسي مع الأهل والأصدقاء من خلال القطيعة التي عاشها مع المجتمع.

والأمر الثاني الذي ميز الأبيات هو هذا الاحترام للمرأة التي تجلى بنأيه عن الوصف الحسي لامرأته والتركيز على الصفات الخلقية، وهذا يبرز جانبًا أخلاقيًا مهمًا في نظرة الشعراء الصعاليك للمرأة واحترامهم لها عقلاً وأخلاقًا قبل أن تكون جسدًا ومتعة حسية. والأمر الثالث: انتفاء وصف الراحلة (الفرس، الناقة) أثناء عملية الغزو، وهذا يعكس جانب الفقر من جهة والقوة الجسدية التي يتمتع بها أولئك الصعاليك، والأسلوب الخطر للحياة التي عاشوها. وأخيرًا: على الرغم من أن الصعلوك كان طريد المجتمع، إلا أنه تمثل قيَم المجتمع، فلاحظنا أخذه بالثأر والطريقة السائدة نفسها.

وتبقى هذه القصيدة من عيون القصائد التي عكست لنا بصدق حياة الصعاليك ونظرتهم إلى الحياة.

الهوامش:

(1) شرح المفضليات، القسم الأول، ص379.
(2) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام. الجزء الثاني، ص23.
(3) سمط اللآلي، الجزء الأول، ص414.
(4) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ص105.
(5) المرجع السابق، ص: 109.
(*) في اسمه ونسبه خلاف، وقد ذكر صاحب الأعلام أنه: عمرو بن مالك الأزدي. وأنه توفي نحو عام 100 ق.هـ.
(**) وبين الروايتين اختلاف في رواية بعض الكلمات، وفي ترتيب الأبيات. ورواية الأغاني ثلاثون بيتا.
(6) أجمعت: عزمت. استقلت: ارتحلت.
(7) سبقتنا بأمرها: استبدت برأيها، وقوله: وكانت بأعناق المطي أظلت: أي فجأتنا بالإبل حتى أظلتنا.
(8) تقلت: تفعلت من القلا وهو البغض.
(9) فهبها: أحسبها. زلت: ذهبت.
(10) الغبوق: ما يشرب بالعشي. وقوله: إذا الهدية قلت: أي في الجدب وبرد الشتاء وصعوبته، حيث تذهب الإبل وينفد الزاد.
(11) المنجاة: من النجوة، وهي الارتفاع.
(12) النسي: الشيء المفقود والمنسي، تقصه: تتبعه. أمها: قصدها. تبلت: تنقطع في كلامها لا تطيله.
(13) النثا: إخبارك الشيء بالحسن أو القبيح.
(14) آب: رجع.
(15) اسبكرت: اعتدلت.
(16) قوله: حجر فوقنا بريحانة: يريد طيب ريحها، ريحت: أصابها الريح فجاءت بنسيمها، حجر: أحيط. طلت: أصابها الطل وهو الندى.
(17) حلية: موضع. نورت: خرج نَوْرُها. الأرج: توهج الريح وتفرقها في كل جانب. غير مسنت: غير مجدب.
(18) الباضعة: القطعة من الخيل. حمر القسي: الرماح، وجعلها حمراً لأن الشمس والأنواء غيرت لونها. بعثتها: هيجتها للغزو.
(19) السربة: الجماعة. أنشأت سربتي: أطلعت أصحابي. هيهات: بَعُدَ. مشعل والجبا: موضعان.
(20) حممته: منيته. ومعنى لن تضرني: لا أخاف بها أحداً.
(21) الأين: التعب.
(22) أو تحت: أعطت قليلاً.
(23) العيل والعيلة: الفقر. قوله: أي آل تألت: أي أي سياسة ساست.
(24) مصعلكة: صاحبة صعاليك. الصعلوك: الفقير، وتصعلكت الإبل: ذهبت أوبارها.
(25) الوفضة: الجعبة. السيحف: السهم العريض النصل. آنست: أحست وأبصرت. العدى: الذين يعدون قدام الخيل.
(26) بارزا نصف ساقها: يعني أنه مشمّر جاد. عير العانة: الحمار، وإنما شبهه به لأن الحمار أغير ما يكون فهو يتفلت إلى الحمير يطردها عن أتنه.
(27) الأبيض: السيف. الجفر: الكنانة.
(28) جراز: سيف قاطع. أقطاع: جمع قطع والمراد بأقطاع الغدير أجزاء الماء يضربها الهواء فتتقطع ويبدو بريقها. المنعت: الموصوف بأوصاف حسنة.
(29) الحسيل: ولد البقرة. النهل والعلل: ها هنا للسيوف.
(30) مقدمة البحث عن الزمن المفقود، ص 16.
(31) المُلبِّد: المحرم الذي يأخذ صمغًا فيلبد به شعره لئلا يشعث. المصوت: الملبي.
(32) سلامان بن مفرج: من الأزد ومنهم قاتل أبيه. أزلت: كأن الشنفرى حمدهم في نعمة وأزلوها أي: قدموها، وقصد بقوله قرضها: من قولهم: العوارف عند الناس قروض.
(33) قوله ليسوا بمنبتي: أي أنه كان طريد جنايات فعاش مع الصعاليك وشارك عوافي السباع والطير في مشاربها ومساربها.
(34) الغليل: حرارة العطش وهنا العطش للقتل والثأر. المعدى: موضع القتال. الأوان: الوقت. استهلت: تكون هنا للحرب.
(35) ذو البريقين: موضع.
(36) العزوف: الراجع عن الشيء. استمرَّت: استفعلت من المرارة.
(37) المباءَة: الرجوع. تعتمد: تقصد.
(38) لم أرم: لم أبرح. حمتي: منيتي.

وِفاقُ الاستعمالِ

د. غنيم غانم الينبعاوي

الورقة الأولى من المخطوطة

هذا الكتاب لجمال الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجيّاني اللغويّ النحويّ المشهور(672هـ/ 1274م)(1)، ولد بجيّان في الأندلس، وهاجر إلى بلاد الشام، واستقرّ بدمشق وبها توفي. ألّف كتبًا كثيرة(2)، منها: «وِفَاقُ الاستعمالِ في الإعجام والإهمالِ». في حَوْزتي نسخة منه مصوّرة عن الأصل المحفوظ في مكتبة شهيد علي باشا باستانبول بتركيا برقم 2677 مع مجموع، وتشغل ثماني ورقات من القطع المتوسط ابتداء من ورقة (30) إلى نهاية ورقة (37)، وهي نسخة مملوءة بالأخطاء، والتحريفات، خطها تصعب قراءته أحيانًا. ولا أعرف نسخة أخرى لهذا الكتاب.

تبدأ المخطوطة بالبسملة وبالصلاة على الرسول الكريم، ودعاء المؤلف أن ييسر الله له بفضله وبعدها مباشرة: قال الشيخ الإمام حجة العرب، مالك أزِمَّة الأدب جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجيّاني ـ رحمه الله ـ هذا كتاب سمّيته: «وِفَاق الاستعمال في الإعجام والإهمال».

وقد خلت النسخة من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

ونسبة هذا الكتاب إلى ابن مالك صحيحة، فقد ذكره بعض العلماء ونقلوا منه، من أولئك العلماء: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي الفتح البَعْلِي (ت: 709هـ)(3)، وجلال الدين السّيوطي (ت: 911هـ)(4)، وطاش كبري زاده (ت: 968هـ)(5)؛ كما ذكره المستشرق الألماني بروكلمان(6)، وأشار



الورقة الأخيرة من المخطوطة

إلى نسخته الوحيدة المخطوطة. أمّا موضوع الكتاب فقد أشار إليه ابن مالك في مقدمته بقوله: «هذا كتاب سمّيته: «وِفَاق الاستعمال في الإعجام والإهمال» يتضمن المقول بباء وتاء، أو بتاء وثاء، أو بدال وذال، أو بسين وشين وشبه ذلك...».

قسم ابن مالك كتابه إلى اثنين وثلاثين بابًا على إيجازه وصغر حجمه، بدأه بباب المقول بباء وتاء، والمعنى واحد، وباب المقول بباء وثاء، وباب المقول بباء ونون، وهكذا، وختمه بباب المقول بنون وياء كقوله: يقال لِلظُّلْمة دُجْنَة ودُجْية.

ففي باب المقول بباء وتاء يقول: «بَلَدَ وتَلَدَ: أقام، ونبَأ ونتأ فلان: طَلَعَ»(7).

وفي باب المقول بباء وثاء يقول: «المُغْبُور والمُغْثُور: صَمْغ حُلْو، وألَبَّ وألَثَّ: أقام»(8).

وفي باب المقول بالباء والنون يقول المؤلف: «الابْتِقَاع والانْتِقَاعْ: مصدر: انْتَقَعَ لونه: إذا تغيّر»(9).

ويتضح من مقدمة المؤلف ومن هذه الأمثلة أن الكتاب يعالج الإعجام والإهمال، ويتضمن المقول بالكلمات ذات الحروف المشْتَبِهة في الرَّسم، وهذا الموضوع له صلة بالتَّصحيف.

وقد تنبّه القدماء من علماء العربية إلى هذا الموضوع، فقد كان هؤلاء العلماء حكماء في رسم الحرف العربي، وضبطه، والتنبيه عليه قبل أن يشيع الإعْجام، فكانوا يقولون مثلاً: بالباء المعجمة الموحّدة من أسفل، ليفرّقوا بين حرف الباء والتاء، والثاء والنون، فالحروف الأربعة معجمة، إلاّ أن الياء موحّدة، ونقطتها من أسفل، أما النون فنقطتها من أعلى، وكانوا يقولون: بالياء المثنّاة التحتية، فلفظة (المثنّاة) تعني أن الإعجام بنقطتين، والتحتية معروفة، وبذلك لا مجال لالتباس الباء مع غيرها من أشباهها، ومع هذه الضوابط والاحترازات حدث الاشتباه، واختلط الرسم، فشاع التصحيف.

ويعلل أحد الباحثين سبب ذلك فيقول: «ولعل السبب الأول في حدوث التصحيف رسم الحرف العربي بشكله وإعجامه وهيأته، فاختلط الحرف المعجم بالمهمل، وذو النقطة بذي النقطتين أو الثلاث، وما كانت نقطته تحتية بما كانت نقطته فوقية»(10).

فابن مالك يعالج الكلمات ذات الحروف المتشابهة في الرسم، مقتصرًا غالبًا على ذكر الكلمة مرة واحدة مثل المقول بباء وتاء والمعنى واحد: زَكَبَ الإناء وزَكَتَهُ: ملأه.

وقد خصص السيوطي لهذا الموضوع بابًا في كتابه المزهر(11)، قال فيه: «معرفة ما ورد بوجهين، بحيث يؤمن فيه التصحيف: كالذي ورد بالباء والتاء، أو بالباء والثاء، أو بالتاء والثاء، أو بالباء والنون، أو بالجيم والحاء، أو بالدال والذال، أو بالراء والزاي، أو بالسين والشين».

وقد سار ابن مالك في منهج هذا الكتاب على منهجه في القسم الأول من كتابه الآخر: «وِفَاقُ المفهُوم في اختلاف المقول والمرسوم»(12)، من حيث تقسيم الأبواب وضرب الأمثلة، واختلف عنه في إيجاز شرح المفردات، وباختصار العبارات الطويلة التي تقابلنا في «وِفَاق المفهُوم»، فكان يحذف أقوال العلماء وآراءهم، وكان في هذا الكتاب يفسر اللفظة بأوجز قول على حين يأتي بشرحها في وِفاق المفهوم طويلاً، فيه نُقُول عن بعض المصادر وآراء لبعض اللغويين، والله أعلم.

الهوامش:

1- انظر في ترجمته: الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، طبعة القاهرة 1952م، جـ359/3، ومقدمة تحقيق: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك، للدكتور محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي بالقاهرة 1967م ص 1 - 16.

2- حصرت مؤلفات ابن مالك ودرستها في كتابي: الدراسات اللغوية عند ابن مالك بين فقه اللغة وعلم اللغة، وهو تحت الطبع.

3- انظر كتاب البَعْليّ: المطلع على أبواب المقنع في فروع الحنابلة، المكتب الإسلامي بدمشق 1965م، صفحة 243.

4- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة 1965م، ط1، جـ132/1.

5- مفتاح السعادة ومصباح السيادة، تحقيق كامل البكري ورفيقه، مطبعة الاستقلال بالقاهرة (د. ت) جـ136/1.

6- تاريخ الأدب العربي (الطبعة العربية)، طبع ونشر دار المعارف بمصر سنة 1974-1977م، جـ295/5.

7-9- وفاق الاستعمال، ورقة 31.

10- انظر: مباحث لغوية للدكتور إبراهيم السامرائي، مطبعة الآداب بالنجف، العراق 1971م، ص 185- 186.

11- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ورفاقه، عيسى البابي الحلبي بمصر (د.ت) جـ537/1.

12- من آثاره المطبوعة، حققه الأستاذ بدر الزمان محمد شفيع البنغالي، ونشرته مكتبة الإيمان بالمدينة المنورة سنة 1409هـ.

إلياس كرم

كلمة التوحيد واكتشاف الحقيقة

وُلد إلياس كرم في نهايات القرن الميلادي الماضي لأسرة نصرانية تكره الإسلام وتمقت أهله، وتتعصب - من دون وعي - لأوهامها التي بثها في داخلها الكهنة والقساوسة.

وفي مدينة الإسكندرية شب إلياس، وعمل في محل لبيع الدخان ولفافات السجائر يملكه عمه جرجس كرم. وكأي شاب نصراني كان يتعصب لعقيدته ولا يقبل فيها نقاشا، بل إنه صار متطرفًا في كراهيته للإسلام والمسلمين، رغم كونه يعيش بين ظهرانيهم، بحسبان أن المسلمين يشكلون القاسم المشترك الأعظم في التركيبة السكانية لبلاده مصر. وظل على هذه الحال منذ أن بلغ العشرين، إلى أن نيف على الأربعين، حيث تداركته رحمة الله، وأنقذت روحه الحيرى من ظلمات عبادة غير الله إلى اعتناق الدين الحق.

من عجائب الأقدار

ومن عجائب الأقدار أن يكون من أسبق الأسباب التي هداه الله بسببها إلى الإسلام أولئك المنصِّرون، الذين يعيثون في الأرض فسادًا ويبشرون بعبادة غير الله، إذ كان إلياس يرى من خلال حواراتهم وكتاباتهم، ويلمح بين ظلمات شكوكهم وأوهامهم قبسًا من نور الهداية الربانية يفيض شعاعه على فؤاده، وينير جوانب نفسه، ويعطيه هدوءًا وسكينة لم يكن يدري - وقتها - من أين يجيء وكيف؟

يروي إلياس كرم في مقالة له نشرتها مجلة «الإسلام» المصرية بعنوان «الحمد لله الذي هداني للإسلام» كيف كانت الخطوة الأولى في اتجاهه نحو الإسلام، فيقول: «كنت ذات يوم أقرأ بعض النشرات التبشيرية، فإذ بمشترٍ يدعى محمد حسيب وقف ليشتري ما اعتاد شراءه كل يوم، وجعلت أردد عبارات النشرة، بصوت عال، فسمعني أقول: كيف أن الله ضحى بابنه الوحيد لأجل العالم!! فأجابني محمد حسيب بقوله: «ابن الله يعني إيه؟»، ونظر إليّ نظرة عميقة فيها كل معاني الدهشة والاستنكار، وتركني ومضى وأنا أنظر إليه، وقد أصبحت الدنيا في نظري أضيق من كفَّة الحابل، ودارت رأسي، ونفذت تلك الكلمة في أعماق صدري، ولم أزل أردد بيني وبين نفسي هذه الكلمة «ابن الله يعني إيه؟»، وشعرت حينئذ أن فيضًا من النور الإلهي نفذ إلى صدري، واخترق الحجب التي رانت على قلبي، فتجلت أمامي عظمة الخالق، وقلت لنفسي: ويحك يا نفس إلام تجهلين قدر ربك، وحتام تزعمين أن له ابنًا وشريكًا؟ أليس هو الذي خلق السماوات والأرض؟ أليس هو الذي أجرى الكواكب في أفلاكها؟ أليس هو كذا أليس هو كذا؟!».

استشراف الحقيقة

لقد وجد إلياس كرم في كلمة «ابن الله» من معاني السخرية والنقص، ما يتعالى عنه الله - عز وجل - بجلاله، ويتسامى عن نسبته إليه، وقضى إلياس يومه حائرًا واجمًا، يجول ببصره في خلق الله من عالم فسيح، وبشر ودواب ونجوم، فرأى كل ما حوله ينطق بوحدانية الخالق - عز وجل - وعظمته، وتفرده بالربوبية، وتعاليه عن أن يشبَّه به أحدٌ من خلقه أو يُنسَبَ إليه ابن أو شريك، تعالى الله عما يقولون.

أحس إلياس، وهذه الخواطر تدور في ذهنه، أنه وليد ساعته، وكأنه لم يُخلق إلا ساعتئذ، ساعة اكتشافه حقيقة الله، وتفرده - عز وجل - ووحدانيته، شعر أن النفس الإنسانية كالمرآة الصدئة، تصقلها المعارف الإلهية، وتزيل ما قد يعلق بها من شوائب، فما يراه الآن ليس هو ما كان يراه قبلاً، بل إن تفكيره وما يفهمه ليس هو نفسه ما كان قبل ذلك؛ إذ انتقل سريعًا من حال إلى حال، من ضلال الشرك إلى نور الإيمان.

مع الإمام الغزالي

ولفوره عمد إلياس إلى البحث عن كتاب إسلامي ليقرأه، علَّه بذلك يروي به ظمأه، وينفع نفسه، وخاصة أنه لم يسبق أن اطَّلع يومًا على أي كتاب إسلامي، وفيما كان مهمومًا بالبحث، إذ طلع عليه بائع كتب، وفي يده كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي في أربعة أجزاء، فأسرع إلى ابتياعه منه، وعدّ ظهور هذا البائع في لحظته هذه واحدة من آيات الله، ومظهرًا من مظاهر رحمته بعباده، وحرصه - عز وجل - على أن يتيح لكل إنسان فرصة اكتشاف الحقيقة الأزلية، حقيقة الله.

كان إلياس كرم كلما أمعن في مطالعة كتاب الغزالي يشعر بأن الحياة تدب إلى قلبه، وتنتعش بها روحه، ويجد في ذلك لذة دونها كل لذة، وشعر بنفسه تجافي متع الدنيا وزخارفها، وتزهد فيها، فأحس أن هذه علامة من علامات اقترابه من الله، ذلك أنه كان قد قرأ حديثًا شريفًا جاء فيه أن سائلاً سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن علامة مَنْ

شرح الله صدره إلى الإسلام، فأجاب عليه الصلاة والسلام: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة لدار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

لقد أدرك المهتدي الجديد بما حباه الله من فطرة سليمة، وعقل متفتح على الحق أن الدين عند الله الإسلام؛ إذ إن الإسلام تناول كل الشرائع الإلهية بما فيها النصرانية، موضحًا أصل تلك الشرائع، الذي نطقت به كتبها السماوية، وهو التوحيد، أول الوصايا العشر. وعندئذ كان قرار إلياس بترك النصرانية، والعودة إلى الحق باعتناق الإسلام، الدين السماوي الوحيد الذي لم يمسه تحريف أو تبديل، إذ تَكَفَّل الخالق - عز وجل - بحفظه إلى يوم القيامة.

مناظرة

لكن، هل انتهت قصة إلياس كرم عند هذا الحد؟ وهل قبل النصارى إسلامه وهو الذي كان واحدًا من متعصبي عقيدتهم الباطلة؟! بالطبع لا، لقد حاولوا رده عن دين الحق خشية أن يقتدي به آخرون، وبذلوا في ذلك محاولات ومحاولات، لم تزده إلا ثباتًا. ولم تزدهم إلا حقدًا عليه، ويروي المهتدي واحدة من هذه المحاولات، فيقول: «جاءني مرة راهب ماروني ممن رضعوا أفاويق الرهبنة في المهد، فقال وهو يحاورني: ألست تعلم أن الله هو المسيح بعينه، جاء العالم متنكرًا لحكمة اقتضت ذلك؟ فألهمني الله أن أقول له على الفور: إذا كان المسيح في زعمك إلها جاء إلى هذا العالم متنكرًا لحكمة، فلم لم تعملوا بمقتضى هذه الحكمة وتتركوه على تنكره، إنكم فضحتموه بإظهار ألوهيته، ومثلكم في ذلك مثل رجل رأى ملكه متنكرًا يستر نفسه عن الرعية، فصاح به في ملأ من الناس، ونادى في العامة والسوقة قائلاً: هلموا أيها الناس هذا ملككم في زي العامة يمشي في الأسواق متنكرًا».

لقد استوعب إلياس تعاليم الإسلام وروحه، وتَطَبَّع بهما، وعاش زمنًا وقد حسن إسلامه، يكتب الشعر في حب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، حتى لقد تجمّع لديه من تلك القصائد ما يملأ أربعة دواوين كاملة، أراد بها أن تكون تجارة رابحة، وصدق الله تعالى إذ يقول في محكم تنزيله: *إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة*. **التوبة**:111.

كلمات مضيئة

الطاعة

وحيدالدين خان

وقعت غزوة مؤتة سنة 8 هجرية، وقد كان لأصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذ الغزوة - من بدء الإعداد لها وحتى نهايتها - مواقف رائعة تجلَّت من خلالها أبرز الخصائص النفسية والاجتماعية التي ميَّزت جيل الصحابة من كل جيل سابق، أو لاحق من أجيال البشرية. ومن تلك المواقف ما حكاه محمد بن جرير الطبري (224 - 310هـ) في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» على النحو التالي: «حدثنا أبو قتادة - فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جيش الأمراء فقال: «عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر، فعبدالله بن رواحة». فوثب جعفر فقال: يا رسول الله ما كنت أذهب، تستعمل زيدًا عليَّ. قال: «امض، فإنك لا تدري أي ذلك خير؛ فانطلقوا».

إن المؤمن لا يكون مَلَكًا، وإنما يكون بشرًا من البشر، ولكنه - مع ذلك - يوجد بينه وبين غيره فارق كبير، وهو أن غير المؤمن حين يمر بقلبه خاطر سوء، أو تعتمل في داخله دواعي الانحراف، فلا يلبث أن يندفع وراءها دون رويّة، ثم لا يرضى بالتراجع عما أقدم عليه مهما تضافرت الأدلة على خطئه، وتم تحذيره من عاقبته الوخيمة؛ فإنه لا يتبع الدليل وإنما يتبع هواه.

وأما المؤمن الصادق فهو - على العكس - لا يكاد يُنَبَّه على خطئه أو انحرافه الفكري حتى يقف من فوره، ويمحو من ذهنه فكرته الخاطئة من دون السعي إلى ترجمتها إلى الفعل، أو السلوك العملي، وهو لا يصر على رأيه، كما يظل دومًا على تمام الاستعداد لإصلاح نفسه ولو اضطر في سبيل ذلك إلى السير في الاتجاه المضاد لرغباته الذاتية.

إن المؤمن يلتزم الحق وحده، وأما غير المؤمن فلا يلتزم إلا ما يتفق مع هواه!!

فضيلة الشيخ
د. صالح بن سعد اللحيدان

رد الميراث

ورثت مالاً من قريب لي بالعصبة، ثم اكتشفت بعد ذلك بمدة وصية من المتوفى تقول بعدم توريثي من تركته، فهل أعيد المال؟

ت. ن. ن، حائل.

إذا كنت وارثًا للمتوفى بالعصبة، أي بالتعصب، وقد اكتملت الحقوق لأهلها من الورثة بالتمام، وتعلم من نفسك أنك تستحق الإرث شرعًا وليس هناك ما يمنع من ذلك كالكفر، فلا يُنظر إلى الوصية، فأنت تأخذ ما بقي من إرث أهل الفروض لصحة ما ورد: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت فالأولى رجل ذكر».

ولأن الميت لا يتصرف بماله بعد موته إلا ما كتبه مما وافق الشرع، كالوصية بالثلث والإقرار بالدَّين والوديعة والأمانة.

عقوق الوالدين

رجل عَقَّ أباه حال «المراهقة» بأن قال له: «بس اسكت»، أي قال لأبيه: «لا تتكلم»، على سبيل النهر، كيف يعمل ووالده يسكن معه الآن؟

جابر، ن.م، ج م ع.

إذا كنت كذلك فأبشر بالخير إن شاء الله تعالى؛ لأن لومك نفسك وتحرّجك مما مضى دليل على قوة الندم لديك، وهذه التوبة الصادقة.

إذا رأيت الوالد في حال منبسطة، فاذكر له ذلك وتحلَّل منه لعلّه بفضله ومنته يتجاوز عنك.

المرض النفسي

المرض النفسي هل له حقيقة مادية؟

بشير بن هادي محمود الدين، السودان.

المرض النفسي، والمرض العصبي، والمرض العقلي، هذه الأمراض كلها تشترك في أشياء وتفترق في أشياء، وقد يكون المرض النفسي بداية لمرض عقلي، إذا أهمل المريض نفسه، أو غلبه الخوف من الكشف الطبي حتى لا ينكشف شيء قبيح وسيء، وحتى لا يظن الناس جنونه، ونحو ذلك.

والمرض النفسي أنواع، وليس نوعًا واحدًا، وتعود كلها إلى نوعين: وراثي، واكتسابي.

وليس معنى المرض الوراثي أن الشخص يولد مريضًا، لكنه يكون مستعدًا للإصابة به إذا حصل موجب له بإذن الله تعالى.

أما الاكتسابي فيكون بسبب بعض الصدمات الموجعة الظالمة؛ من قريب، أو قوي جبار، أو ظلم مفاجيء. لكن ضعف الإيمان والحساسية المفرطة، قد تكون سببًا قويًا في الإصابة.

أما حقيقته فهي بآثاره؛ كالشك والتهويل والكره وضعف الشهية. ومن طريق التحليل يتمكن المريض بإذن الله تعالى من معرفة نوع مرضه وسببه، ثم كيفية العلاج، خاصة إذا كان الطبيب مسلمًا أمينًا.

صحة حديث

هل صحَّ هذا الحديث: «اطلبوا العلم ولو في الصين»؟

سليم بن نهار زمام، الأردن.

لم يصح هذا الحديث، بل هو موضوع، وواضعه إما أن يكون جاهلاً أحمق أراد خيرًا، فأصاب خلافه، أو أنه ذو ميول سيئة، حين انتشرت الآراء والمذاهب الباطلة، ما بين سنة 190هـ حتى وقتنا الحاضر. وقد أبطله كثير من علماء الحديث بدراسات علمية سندية قائمة على أسس متكئة على نور مبين.

ومثل هذا الكلام يقوله عادة العامة وجهال الكتاب للحث على طلب العلم، لكنهم يخطؤون، ولو استقاموا على الطريقة، وسألوا أهل العلم عند ذكر آية أو حديث لسلم العلم من الدخن، وكُتُبُ بيان الأحاديث الضعيفة، وكتب الأحاديث الموضوعة منتشرة بكثرة، ويمكن لأهل الصحافة والمدرسين والوعاظ اقتناؤها، مثل: كشف الخفا ومزيل الإلباس، والموضوعات للشوكاني، والموضوعات لابن الجوزي، ونحوها.

ردود خاصة

الأستاذ باسل العبسي، حلب، الشيخ مقصود، سورية:

بارك الله فيك على هذا البيان العلمي تجاه نقد النص، وخاصة: الحديث الضعيف، والموضوع، وضرورة بيان أصلهما ومن رواهما.

الأخ أحمد بن موسى، شارع المأمون، جامع مزواق، المغرب:

لا تصح الاستعانة بالبنوك الربوية لبناء مسكن، ويمكنك الاستدانة، أو البيع والشراء شيئًا فشيئًا، حتى تستطيع تحقيق المراد، وإن كنت في حال ضرورة قصوى ومسكنة، فقد جعل الله لك سبيلاً، فتأخذ من الزكاة.

الأخ أبو عبدالرحمن، الزهيرية المالكية، محافظة الحسكة، سورية:

بارك الله تعالى للأمة بفهمك لكثير من الحيل، فيما يتعلق بالبيع والشراء، وخاصة ما يدخله التحايل من قبل المالكين للأصول المعروضة. نفع الله بك.

الأخ أحمد بكور العبسي، حلب، سورية:

- الحديث الذي في الترمذي وابن ماجه عن أسماء الله تعالى لم يصح حسب علمي.
- معنى وِتر أي فرد، من الإفراد.
- هكذا ورد في الصحيحين أن أسماء الله تعالى محصورة من رواية أبي هريرة، لكنّ هناك خلافًا حول هذا.

السندباد في الأسطورة والقصيدة المعاصرة

محمد عبد الرحمن يونس

السندباد البحري ابن تاجر كبير من تجار بغداد كما تروي ليالي ألف ليلة وليلة، يموت والده، ويترك له أموالاً كثيرة، فيبدأ بإنفاقها على البذخ والمآكل والمشرب ولذائذه(1)، ومن هنا تبدو له مدينة بغداد فضاء جماليًا للمتعة، ومن يملك المال في بغداد الليالي فإنه يملك كل شيء: الأصدقاء والجواري والبساتين، لذا كانت بغداد قريبة النفس إليه، بخلاّنها وجمالها ومُتَعها. وسرعان ما ينتهي المال، فتبدو بغداد فضاءً قاتمًا ورتيبًا ومملاً، وتبدو حياة السندباد صفحات مكررة، في فضاء مكاني فقدَ أَلَقَهُ وإشراقه الجمالي، فكانت الرحلة السندبادية؛ إذ باع ما تبقى له من متاعٍ قليل، وأثاث بسيط، واشترى بثمنها بضاعةً، وتوجه من بغداد إلى البصرة(2)، حاملاً بضاعته، ميممًا صوبَ فضاءاتِ مدن سحرية وأسطورية، وعبر رحلات سبع، يصل فيها إلى أبعد الجزر والمدن المفعمة بعبق السحر والأسطورة، والعلاقات الإنسانية الغرائبية التي تفوق حدّ التخيّل. يعيش مغامرةً، وتوثبًا طامحًا لاكتشاف المجهول، وجمع الأصداف والجواهر العجيبة، ويصل به توثبه حدّ الموت، لكنه ينجو بطريقة هي الأخرى غرائبية: في السفرة الأولى يتعلق بقصعة في أعماق البحر وينجو(3)، وفي السفرة الثانية يربط نفسه برجل طائر الرخّ العملاق، لينقله إلى فضاء آمن(4)، ومرة يريد غولٌ كبير - في رحلته الثالثة - أن يأكله فيتحايل مع رفيقيه عليه، ويفقؤون عينيه، ويركبون قاربًا يحملهم بعيدًا إلى إحدى الجزر، حيث يصادفون ثعبانًا ضخمًا يأكل رفيقي السندباد، وينجو السندباد منه بأعجوبة أسطورية(5)، كل ذلك والرجلُ توّاق إلى الرحلة والكشف وجمع المال.

ويجمع أمتعته للسفرة الرابعة، ويسافر من بغداد إلى ميناء البصرة - طريق سفره الدائم - ويركب مع رفاقه التجّار سفينةً، وفي عرض البحر تتحطم السفينة، وكالعادة ينجو السندباد بتعلقه بلوح خشب سرعان ما ينقله إلى إحدى الجزر البعيدة، ويشاهد مذهولاً كيف أن ملك الجزيرة يأكل زملاءه واحدًا واحدًا، بعد أن يطعمهم أهل الجزيرة طعامًا يفقدهم عقولهم، وينسيهم أنفسهم، ويصبح الطعام بالنسبة لهم الغاية الأولى، فيسمنون، ويُقدَّمون وجبات دسمة لملك الجزيرة(6)، لكن السندباد يكتشف لعبة الملك، فيهرب ناجيًا من بطشه، ويعمل ويجمع الأصداف، ويعود إلى البصرة محمّلاً بالجواهر والدرر الثمينة.

هو الرحّالة المتوثب الذي لا تثنيه البحار ولا الأمواج، ولا الجزر الموحشة، ولا العفاريت، والناس المتوحشون - آكلو لحوم بني البشر -، وهذا ما جعل أحد الباحثين يقول عنه إنه «صورة رجلٍ بعيد الهمة، متوثب الروح، تواق إلى المعرفة، متوقد القريحة، واسع الحيلة، لا يستنيم إلى مصيبة، ولا يجثو لصروف الحدْثان، والسندباد بهذا علم على جميع الروّاد والمستكشفين»(7). وكعادته في كل مرة يعود إلى بغداد، ليعيد تشكيل الفضاء النفسي المثير والممتع، فيقامر على الحياة ويربحها، ويربح نساءها وجواريها الحسان، وينفق معظم أمواله في متعِ جمالية أسطورية.

ويعيدُ الزمان رتابته في بغداد، فتصبح بغداد منفى جديدًا للسندباد، فيعد الرحيل إلى منفى آخر، يرسم صورة قبليةً له، إنه منفى أكثر سحرًا وجاذبيةً من بغداد. وعلى مشارف الرحلة الخامسة يصبح السندباد أكثر ثراء، فيشتري هذه المرة سفينة(8)، فبعد أن كان في سفراته الأربع السابقة مجرد مسافر عادي، أصبح الآن تاجرًا مرموقًا ومعروفًا في بغداد كلها، إنه من كبار المُلاّك والتجار. ويُبحر ورفاقه من البصرة ويصلون إلى جزيرة بعيدة، ويُدهش رفاقه عندما يشاهدون بيضة الرخّ العجيبة، وبدهشة المكتشف يفكّون أسرار

البيضة ويكسرونها، ويطاردهم الرخّ وأنثاه، ويرميانهم بالحجارة التي تُغرق سفينة السندباد، فيتعلق بلوح خشبي أسطوري، وينجو(9).

وفي الرحلة السادسة تتجدد فضاءات السفر، لتفتح له آفاقًا رحبة من الثراء والنجاح، والاقتراب من السلطة بوزرائها وملوكها، إنها كشف للعالم الجديد بعلاقاته السحريّة؛ فبعد أن تتحطم سفينته، ووفق النسق السحري لبنية القص في ألف ليلة، ينجو ويصعد إلى جزيرة منسيّة مع بعض زملائه، وهناك يموت زملاؤه جوعًا(10)، فيصنع السندباد من خشب الجزيرة وحطام مراكبها قاربًا، يحمّلُهُ بأنفس جواهر الجزيرة، ويقوده عبر نهر هائج مصطخب، سرعان ما ينقله إلى إحدى الجزر، وهناك يقرّبه ملك الجزيرة، ويكرّمه، عندئذ يستقر قلقه، ويغرف من لذائذ الجزيرة ومالها(11)، ثم يعود إلى البصرة محمّلاً بأغلى الجواهر النفيسة، وبالأموال الكثيرة، ويصحبُ معه إلى الخليفة هارون الرشيد هدية ثمينة، كان قد أرسلها ملك الجزيرة إليه - لم تذكر شهرزاد اسمًا لهذا الملك -. وفي بغداد يتربع السندباد عرش فضاء المدينة السحري، ويكرمه الرشيد، ويقرّبه إليه، ويأمر أن تُكتب قصته وتُحفظ في خزائن الرشيد الخاصة. وكعادته ينسى الأهوال التي عايشها في رحلاته السابقة، ويشتري العبيد والجواري، ويشعل منزله رقصًا ونساء وفرحًا. وتجيش ذكرى الفضاءات البعيدة، فيحنّ إليها، وتحدّثه نفسه بالرحيل، هي النفس الخبيثة والأمّارة بالسوء - والعبارة لشهرزاد -. ومع عدم حاجته إلى المال في هذه السفرة، إلاّ أن نفسيته القلقة، المتوثبة الجامحة ستدفعه للرحيل ثانية، و «لم تكن رحلاته السبع ومغامراته من أجل المكسب والحصول على المال فحسب، وإنما كانت استجابة لنزعة فطرية في نفسه إلى المغامرة وركوب الأخطار ومحاولة إثبات ذاته وإضفاء معنى على وجوده من خلال ارتياد المجهول والمغامرة، ومن ثم فقد انطلق يجوب البحار والجزر والبلاد خلال رحلاته السبع، وكان يصادف في كل رحلة من الأخطار والأهوال ما كان حريًا أن يصرفه عن التفكير في تكرار مثل هذه المغامرة، ولكن نزعته المغامرة الغلاّبة كانت تنتصر دائمًا على عوامل التردد»(12).

ويعود يبهت فضاء بغداد الجمالي من جديد، ويتفجر القلق السندبادي مغامرةً، وتوقًا إلى فضاءات بعيدة حالمة أسطورية، ويشدّ الرحال وتقذفه الريح الهوجاء إلى آخر بلاد الدنيا، حيث الأهوال والحيتان والبحار الهائجة، ثم يستقر قلقه عند شيخ جليل في مدينة عظيمة، يحتضنه، ويرعاه ويزوّجه ابنته الجميلة(13). هي رحلته السابعة هذه أغزر رحلاته خبرةً ومعرفة بعادات الشعوب وأحوالها الغريبة الأسطورية، وأعمق كشفًا لاستبطانات النفس البشرية وتوثبها، ويمكن أن نصفها بحق، أنها رحلة غنية باكتساب من شرور المدينة وسوء أهلها، وتطلب منه أن يعود بها إلى مدينة بغداد، ويعود، ليشكّل فضاء سحريًا آخر في بغداد، بأن يجمع أصدقاءه، ويشتري الجواري والغلمان، ويشعل حفلات الرقص والشراب، ويسرد لبغداد وسكانها مغامراته الأسطورية، إلى أن يأتي هادم اللذات ومفرّق الجماعات، كما ترى شهرزاد.

هذه بعض أوجه الرحلة السندبادية، باختصار شديد جدًا، اضطررت أن أسردها بحسبانها مدخلاً أتكئ عليه، لفهم الخطابات الشعرية المعاصرة، التي استفادت من الرؤى العميقة التي جسّدتها مغامرات الكشف والتوق والحلم السندبادي، ولقد «وجدَ شعراؤنا المعاصرون في تعدد مغامرات السندباد في رحلاته السبع وتنوعها إمكانات فنية بالغة الغنى للتعبير عن جوانب تجاربهم

وجد شعراؤنا المعاصرون في تعدد مغامرات السندباد وتنوعها إمكانات فنية بالغة الغنى للتعبير عن جوانب من تجاربهم وأبعاد رؤاهم المعاصرة

الخبرة بعلم الإنسان السلالات(أنثروبولوجية)؛ إذ يسجّل فيها السندباد خلاصة خبرته ومشاهداته العجيبة بعد أن يكتشف الأحوال الغريبة لسكان هذه المدينة، فالناس تنبت لها أجنحة وتطير في كل شهر، والأفاعي تبتلع الرجال، ويتحول الناس فيها إلى مردة وسحرة وشياطين(14)، ويمتدّ فضاء هذه الرحلة زمانيًا ليصبح سبعة وعشرين عامًا(15)، وهي أطول رحلاته، وخلال هذه الأعوام الطويلة تغيب بغداد، وتصبح المدينة الجديدة معادلاً لها، إذ يجمع فيها السندباد أموالاً كثيرة، هي ثروة والد زوجته الذي مات، ويهدأ قلقه لسبع وعشرين سنة، ويصبح غنيًا جدًا، وتخاف زوجته عليه وأبعاد رؤاهم المعاصرة، التي هي بدورها مغامرة لا تنتهي في الكشف وارتياد المجهول، بحثًا عن كنوز الشعر»(16)، وهذه الإمكانات الفنيّة البالغة التي استفاد منها الخطاب الشعري العربي المعاصر لم تقتصر على شخصية السندباد فحسب، بل كانت ألف ليلة وليلة، هذا العمل الذي تجاوزت شهرته حدود البلدان والأزمنة، حقلاً مرجعيًا شُكِّلتْ منه عشرات القصائد المعاصرة سواء أكانت عربية أم عالمية، إنه وسط شعري ليس بعده من شفافية على حدّ تعبير هوجوفون هوفمنستال(17) حين يقول عنه:

«فكلما أطلنا القراءة كرّسنا أنفسنا لهذا العمل على نحوٍ أجمل وأروع، وضعنا وسط

السندباد
في الأسطورة والقصيدة المعاصرة

شعر ليس بعده من شفافية(...) وهنا يفضي بنا السبيل إلى أبعد أعماق طبيعة الشعر الشرقي، بل إلى نسيج اللغة الغامض الغريب، فإنّ هذا الغموض العجيب الذي يرفع عنّا كل ضعة وضيق، عندما تبلغ مظاهر الحياة ذروة التعقيد، هو أعمق عنصر في اللغة والشعر الشرقي على السواء: حتى إن كل ما فيها(لغة المشرق) مجاز مستمد من جذور سحيقة القدم، يمكن فهمه على أكثر من جانب ومحمل(...)، وإنّ أول جذورها حسي بدائي، وجيز رهيب، ثم لا يلبث أن يمتد عبر تفرعات خفيضة الصوت، نحو معان جديدة مشتقّة، يكاد ألاّ يربطها ـ بعد ـ أية صلة به، وإن كانت في أبعد أبعادها لا تزال تبعث ببعض من ذلك الرنين الأصلي للكلمة وتعكس ـ كما على سطح مرآة غائمة ـ ظلالاً من صورة الإحساس الأول».

وتأخذ شخصية السندباد في الخطاب الشعري العربي المعاصر مكانة متميّزة، لقد شكّل الشعراء منها تشكيلاً جديداً إذ عدّوها تجسيداً لرحلة الإنسان المعاصر وذلك لمعرفة العالم. إنها المغامرة الخلاّقة لتشوفه الدائم نحو اكتشاف المجهول؛ فالتوق الأصيل للمغامرة والكشف والخروج عن التقوقع يجسّده الفعل السندبادي، والرحلة السندبادية استنفار للطاقات الإنسانية الإبداعية ودفعها في طريق مواجهة الصعاب. إنها محاولة لاكتشاف حضارات العالم ونماذجه الإنسانية. وقد ركّز الشعراء المعاصرون على الجوهر الإنساني لهذه النماذج، بتأكيد الدلالات الجديدة التي توحي بها شخصية السندباد الثرّة في بعدها الإنساني والحضاري، وهذا التأكيد من مهمات الأديب أو الشاعر عندما يوظف النموذج الأسطوري أو الرمزي في عمله الإبداعي، أي إنه يستنفر بعده الإنساني وجوهر هذا البعد في عمله. إنّ تأكيد هذا «الجزء الجوهري للنموذج الإنساني يرجع أصلاً إلى عبقرية الكاتب، إمّا بابتكاره ومنحه السمات المراد اتخاذها مثالاً عاماً في ناحية من النواحي، وإمّا بالتأويل لجوانبها(...)، ويدعم هذا الابتكار أو التأويل الإقناع الفني للخلق الأدبي على تفاوت درجاته على حسب مقدرة الشاعر أو الكاتب الخالقة»(18).

إنّ التطوافَ السندبادي في القصيدة المعاصرة هو خروج عمّا هو مألوف من حياة الدعة والرفاهية والجواري، إنه تكسير لنمطية الحياة العربية الغارقة في استحضار الأحلام والأماني العذبة واستهجان كل فعل خلاّق من شأنه أن يدفع عجلة التطور الحضاري، هو نفخ في صور الذات العربية لإيقاظها من جديد، بعدَ أن عُطِّلت طاقاتها، هذه الذات الغارقة في «طلب الرفاهية من أجل الرفاهية؛ الرفاهية في الحياة الفردية، والحياة الزوجية، والحياة العائلية. إن فكرة السعادة في ألف ليلة وليلة تهيمن من جديد، على بيوتنا. تهيمن على مثقفينا وأدبائنا وشعرائنا»(19)، وبقدر ما يُعدّ هذا التطواف خروجاً وتجاوزاً للعادي النمطي المكرر، فإنه حنين وعودة في آن واحد، عودة إلى الأرض والجذور لتجديد الحياة في هذه الجذور، وإعطائها طاقة جديدة على النمو والإخصاب. ويُعدّ صلاح عبدالصبور وخليل حاوي وبدر شاكر السيّاب وعبدالعزيز المقالح ويوسف الخال من أبرز الشعراء العرب الذين استفادوا من أبعاد الرحلة السندبادية ووظفوها في أعمالهم الشعرية.

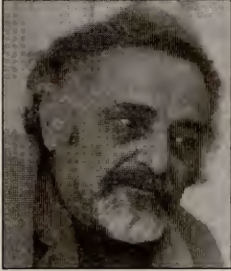
بعد هذه المقدمة أعرض لبعض النماذج الشعرية العربية المعاصرة، التي استفادت من طاقات الرمز السندبادي الإيحائية والجمالية.

يقول صلاح عبد الصبور في قصيدة بعنوان(الوافد الجديد):

«زورقي جانح كسير
وشراعي به خروق
وأنا جاهد لغوب
أتهادى إلى الأبد
نحو قصرٍ من الرمال
وقلاعٍ من الزَّبدْ
بينها يرقد الحبيبْ
في سرير من الدُّخَانْ
زورقي مالَ وانكسر
غائم في الماء نصفُه
ضاع كدي فلن أرى
من سبى النفسَ وصفُه»(20).

إذا كانت شخصية السندباد الأسطورية من بين ما ترمز إليه، تعني التخطي والتجاوز، وتأكيد الفعل الحضاري المكتشف وتأسيسه وذلك بالإصرار على دوام الرحلة، واكتشاف ما هو جديد وممتع، فإنّ هذه الرحلة عند صلاح عبد الصبور يائسة ومحبَطة، فالسندباد عنده يفقد قدرته على المغامرة والكشف، إذ يُحطَّم زورقه وتمزّق الريح أشرعته، وتضيع أحلامه في الرمال؛ وحتى هذه الأحلام في الرؤية الشعرية تصبح كابوساً وخوفاً، وعلى الرغم من أنّ


بلند الحيدري


يوسف الخال

الشاعر كان يحلم بالسندباد والعاصفة، السندباد المتخطي، والفعل المحرّض، إلاّ أن هذه الأحلام كانت مرعبة بفعل غول يفترس الحلم، ويقضّ المضجع، يقول الشاعر:

«وفي الليل كنت أنام على حجر أمي
وأحلم في غفوتي بالبشر
وعسف القدر
وبالموت حين يدكّ الحياة
وبالسندباد وبالعاصفة
وبالغول في قصره المارد
فأصرخ رعبًا..
وتهتف أمي باسم النبي»(21).

ويُعدّ خليل حاوي من أهم الشعراء العرب الذين اتخذوا من الرمز السندبادي شاهداً ومعريًا لقصور الذات العربية، الذات الغارقة في

أكداس من رواسب متخلفة وتقاليد تجاوزها الزمن، إنه «أفضل من تعامل معه لأنه أعاد خلقه من جديد بإضافة رحلة ثامنة إلى الرحلات السبع المعروفة. هذه الرحلة ليست إبحارًا عاديًا لاكتشاف بلاد جديدة. إنها إبحار داخلي إلى أعماق النفس»(22).

يقول في قصيدة بعنوان:(السندباد في رحلته الثامنة):

«والليل في المدينةْ
تمتصني صحراؤه الحزينةْ
وغرفتي ينمو على عتبتها الغبارْ
فأبتغي الفرارْ»(23).

فالسندباد عند الشاعر يفرّ من المدينة، لا ليتاجر، ويجمع الأصداف والأموال، بل ليرفض المفاهيم العتيقة البالية، وليتخلص من أخطائه السابقة، وهو في أعماقه القصيّة يلوم نفسه على رحلاته السابقة التي كانت ضربًا من ضروب التجارة، وربحًا للعالم، لكنها خسارة للذات، يقول في القصيدة نفسها:

«رحلاتي السبع وما كنزّته
من نعمة الرحمان والتجارة
يوم صرعت الغول والشيطان
يوم انشقّت الأكفان عن جسمي
ولاح الشقّ في المغاره»(24)

ويرفض أن تكون رحلته الثامنة هذه كرحلاته السابقة خلف المال والتجارة، الرحلات التي لم تكن سوى عري وخسارة، يقول:

«وكيف أنساق وأدري أنني
أنساق خلف العري والخساره»(25).

وهدف الرحلة السندبادية عنده هو تأكيد الانبعاث الحضاري الجديد للأمة العربية، والخروج من واقع الغبار والتخلف وصولاً إلى مستقبل مشرق، حيث المروج تمتلئ خضرة، والمصانع تبني الحضارة الجديدة، والزنود السمر تصنع ملحمة الإنسان العربي الجديد، إنها الصحوة الحضارية العربية بعد هذا الرقاد الطويل، فبعد أن يعود السندباد الجديد من رحلته الثامنة، والذي يشير رمزيًا إلى الإنسان الجديد في رحلته الحضارية يكون قد أدرك سرّ الصحوة الجديدة، يقول الشاعر في القصيدة نفسها:

«تحتلّ عينيّ مروج مدخنات
مليون دار مثل داري ودار
تزهو بأطفال غصون الكرم
والزيتون، جمر الربيع
غبّ ليالي الصقيع
يحتل عينيّ رواق شمخت
أضلاعه وانعقدت عَقْدَ
زنود تبتنيه، تبتني الملحمة»(26).

ويكتب بلند الحيدري قصيدة معاصرة بعنوان «السندباد في رحلته الثامنة»، وهو عنوان قصيدة خليل حاوي السابقة نفسه، تقول قصيدة بلند الحيدري:

«يا أنت المبحر
يا أنت المتسائل عن ظلّ لك
منسي في مدة شبر من أرض

رحلات السندباد مثلت عند بعض الشعراء اليأس والإحباط، وعند بعضهم الآخر وسيلة لكشف قصور الذات العربية؛ بينما حاول شعراء آخرون البحث - من خلالها- عن قيم أكثر جمالية وصدقا

لا تطبق جفنيك حياء من موتك
مرميًا في قارعة الدرب
كل دروب الأرض سواء للموتى
فافتح عينيك.. ومت
كُنْ في موتك أكبر من كفارة ذنب
أكبر من أن تولد ميتًا في جنة كلب
موعود بعرائس من ذهب
وجنان من كذب»(27).

يُلاحظ أن هذه القصيدة تُؤَسِّسُ على رؤية مأساوية وتشاؤمية، إذ يبدو السندباد المعاصر يائسًا من فضاءات الرحلة ودروبها «كل دروب الأرض سواء للموتى، فافتح عينيك ومت»، وتخيّم نزعة الموت على فضاء النص الشعري، فالذات الإنسانية الشاعرة زاهدة في الحياة وغير راغبة فيها، وما دامت هذه الحياة مرتعًا للكذب، فلماذا الخوف من الموت؟ إنه حلّ جمالي وإنساني في الرؤية الشعرية، وهو أفضل من العيش في جنان الحياة وكلابها الكاذبة، حتى ولو كانت هذه الجنان مملوءةً بالسعادة والذهب. وإلى آخر بلاد المعمورة يسافر السندباد المعاصر، لكنه لا يلقى إلاّ اليأس والأحزان والخيبة، وبحرًا أصغر من قطرة، فكيف لهذا البحر أن يحييَ الصحراء الشاسعة؟ يقول الحيدري في القصيدة نفسها:

«إلى آخر نقطة ضوء في عينيه
يمدّ يديه
يقول: انتظري
يا نجمة فجر مبلول بالدمع.. انتظري
ها أنا ذا آت
من أقصى ما تملك مرآتي من ذكرى
عن رجل أبحر في كل فجاج الأرض
في كل سموات الدنيا
وبحار الدنيا
في كل الحبّ وكل البغض
فما كانت إلا بحرًا أصغر من قطرة
أصغر من أن يوقظ صحراء»(28).

وتصبح الرحلة السندبادية عند بدر شاكر السيّاب رحلة من الإخفاق واليأس والمرض، إذ يكشف الخطاب الشعري عنده عن حالة ذاتية، تجسّد بنيته النفسية القلقة، البنية الرهيفة، المحكومة بالإخفاق على المستوى الإنساني والسياسي والصحي، فالسندباد المسافر عند السياب يفقد كل آماله بالعودة الظافرة، وينطفئ الشعاع الذي ينير له رحلة

الكشف والمغامرة، فبدلاً من أن يعود محمّلاً بالنفيس من الجزر البعيدة المملوءة بالأصداف الثمينة، فإنّ آلهة البحار تأسره في جزر موحشة، لا يوجد فيها إلاّ الدم والمحار. يقول السيّاب في قصيدة بعنوان «رحل النهار»:

«رحل النهار
ها إنّه انطفأت ذبالته على أفق توهّج دون نار
وجلست تنتظرين عودة سندباد من السفار
والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود
هو لن يعود
أوَ مَا علمتِ بأنه أسرته آلهة البحار
في قلعة سوداء في جزر من الدم والمحار
هو لن يعود
رحل النهار
فلترحلي، هو لن يعود»(29).

من هنا فإنّ بنية اليأس التي تسم فضاء النصّ الشعري ترتبط بحالة ذاتية خاصة عند السيّاب، لذا فقد قام بإسقاط هذه الحالة الخاصة على فضاء النص الشعري، فالمرض الصعب الذي أقعد بدر السيّاب طويلاً في مشافي البصرة وبغداد والجامعة الأميركية ببيروت وسانت ماري بلندن، ودي لاسالبتريير في باريس والمشفى الأميري بالكويت(30)، هذا المرض سيلغي فعل العودة المظفّرة عند السندباد في النص الشعري.

وتصبح الرحلة السندبادية عند عبد العزيز المقالح رحلة بحث عن قيم أكثر جمالية وصدقًا، وعن حقيقة تظلّ غائبة، بحيث تصبح هذه الحقيقة قضية فلسفية متشعبة ورؤية عميقة يصعب اكتشاف جوانبها، وتبقى مهمة الفعل السندبادي في الرؤية الشعرية تتبع هذه الحقيقة واكتشافها، يقول المقالح في قصيدة بعنوان «الحقيقة»:

«تتبعت آثار أقدامها في المغارات
فوق المحيطات، عبر جميع البلاد
سألت الطيور التي رافقت رحلة السندباد
(عروس البحر) التي عذّبت كل عصر
متى تمسح الرعب عن عصرنا والرماد؟»(31).

ولأجل هذه المهمة الإنسانية فإنّ مشروع الرحلة يطول، ويتشعب ليعبر جميع البلدان، ويسأل جميع الطيور عن هذه الحقيقة الحلم، علّ هذه الحقيقة تبعد عن العصر كابوس الظلمة وتجعله أكثر أمانًا وطمأنينة، فالحقيقة هنا مزيج من الرؤية الحلمية والتخيليّة، ويزداد بعدها التخيلي لتصبح عروس البحار، واللؤلؤة المستحيل التي يستحيل القبض عليها في لجة القاع، فهي العنقاء الأسطورة، التي يرى الفكر الإنساني أنها من المستحيلات الثلاث، والحقيقة هذه هي الصورة المقابلة للعنقاء الغائبة أبدًا، يقول الشاعر في القصيدة نفسها:

«وعنقاؤنا توءم المستحيل
أساطير جيل تولّى
وأحلام جيل
متى تمنح الحائرين على دربها موعدًا باللقاء»(32).

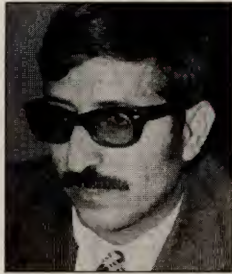
فمتى يتحقق الفعل السندبادي المعاصر للقبض على جوهر هذه الحقيقة التي تمثّل الشعلة المضيئة، والتي ستنير بؤر الظلام الحالكة؟

ويوظّف الشاعر المغربي بن سالم حميش الرمز الأسطوري السندبادي توظيفًا غير مباشر، إذ لا يظهر الاستخدام النصّي للفظ السندباد، بل تظهر إحدى خصائصه المعروفة وهي الترحال والتطواف، ويطلق الناقد نورثروب فراي على هذا الاستخدام الأسطوري غير المباشر اسم الاستبدال Displacement يقول الشاعر في قصيدة بعنوان «ميتًا في شواطئكم»:

حيث لا ينفع الغيث لا ينفع
لم يعد في وسعي سوى اجترار محراثي
في الطرق المعبدة والصحارى
وأصقاع هذا البلد الضنين
وبين الكبوة والكبوة
أحكي الجسم الجائع
أكتب الكوارث والكوارث وأحدّث
أحدّثكم عن مطافي في الأرض الجدباء
بعدما فُصلت عن التربة الخصبة والماء
وأحدّث عن نهاية مطافي»(34).

إنّ تطواف الشاعر في الأرض البعيدة الجدباء والصحارى الواسعة، والبلاد الضنينة، يشير على مستوى الدلالة إلى التطواف السندبادي إلى بلدان نائية، ورحلة الصوت الشعري السندبادي في القصيدة هي رحلة كشف إلى أعماق التاريخ الإنساني، ورصد للهزائم والكبوات والمآسي الفاجعة التي أصابت الإنسان في سيرورته التاريخية، ولا تزال تصيبه.

أمّا الشاعر سليمان العيسى فإنه ينظم


د. عبد العزيز المقالح


سليمان العيسى

قصيدة بعنوان(السندباد يروي حكايته الثامنة) ويشير السندباد فيها إلى ذات الشاعر التي تسافر إلى أعماق التراث الشعري العربي عبر رحلة مضنية، مستجلية جماليات هذا التراث، حافظة آلاف الأبيات الشعرية، مبدعة آلاف الأبيات الأخرى، ثم يؤكّد أنّ رحلة ذاته الشاعرة هي رحلة التخطي والسمو، والامتلاء بالمشاعر الوطنية تمهيدًا لبناء الوطن الكبير، يقول في القصيدة:

«سافرت تحت التين والرمان والزيتون
على جواد عنترهْ
والملك الظاهر والكتائب المظفّرهْ
مررت بالمعلقات العشر
بالنفائس المدّخرهْ

السندباد
في الأسطورة والقصيدة المعاصرة

حفظت من أبياتها الآلاف
أحسست أن رأسي الصغير
يخترق الغيوم
يدقّ بالنجوم
يبني بجذع التينة الصفراء
يبني الوطن الكبير»(35).

وفي نهاية هذه الدراسة القصيرة أورد نموذجًا آخر من التوظيف الأسطوري غير المباشر لشخصية السندباد الأسطورية، للشاعر اللبناني يوسف الخال، ففي قصيدة له بعنوان(العودة) يؤكّد ضرورة الانفتاح الحضاري على العالم، وتمثُّل ثقافاته وأفكاره، وتبادل التأثير والتأثر معه، ففي هذا الانفتاح، كما يرى الشاعر، ثراء للتفاعل الحضاري المثمر بين ثقافة العالم العربي وحضارته، وحضارة أوروبا ومعارفها، يقول:

«غدًا يعود سيدي
شراعه كغيمة بيضاء عند الشفق
أعرفه متى يلوح، كيف لا؟
يعود، يا هلا
من المجاهل الوراء قبرص الحبيبه،
الوراء قرطاجنة يعود لي:
جبينه العريق وجه جبل،
وزرقة الخضمّ، عمقه السحيق
في عيونه - يعود لي.
محمّلاً بالذهب،
محمّلاً يعود سيدي
بالعاج صولجان ملك، سريره
بالجوهر الغريب خاتمًا له،
فرائدًا لتاجه
محمّلاً يعود سيدي
بالشوق لي، والأمل»(36).

وعندما يطمح يوسف الخال إلى معارف أوروبا وحضارتها، فإنه لا يمثّل وجه المستهلك لهذه الحضارة، أو المُسْتَلَب أمامها، بل يقف في سلم الحضارة موقفًا نديًّا لها، إنها حضارته وإنه أسهم في بنائها عبر مرحلة تاريخية طويلة، يقول يوسف الخال: «إنّ هذه الحضارة هي نحن بقدر ما هي هم، فقد أسهمنا في بنائها في مرحلة من تاريخنا ولن يكون لنا مستقبل ما لم نعد إلى الإسهام فيها من جديد. فالحضارة الإنسانية واحدة، ونحن ننعتها بالغربية أو الأوروبية لأنّ الغرب أو أوروبا قد أعطاها في ألف السنة الأخيرة أكثر مما أعطتها أية منطقة جغرافية أخرى، ثم إنّ هذا النعت شكلي لا جوهري. إنه تعبيري فقط.. إنّ الحضارة الغربية هي حضارتنا»(37). وهذا التفاعل الحضاري الذي تؤكّده الرحلة السندبادية عند يوسف الخال، ليس استلابًا ولا هيمنة من أوروبا على العالم العربي، بل هو تكافؤ حضاري ومعرفيّ، فالحضارة العربية قدّمت إلى أوروبا مثلما قدّمته الحضارة الأوروبية إلى العربية.

يقول يوسف الخال في قصيدة بعنوان«السفر» مؤكّدًا هذا التكافؤ المعرفي والحضاري بين الحضارة الأوروبية والعربية:

«إذْ ذاك نصعد المراكب الحاملةَ
الزجاجَ والصنوبرَ، الحاملةَ الحريرْ
الحاملةَ الثمرْ
نصيح يا مراكبُ
يا سُلمًا يرقى بنا،
يصلنا بغيرنا،
يأتي لنا بما غلا،
يأخذ منا ما حلا.
يا أنت يا مراكبُ»(38).

هذه بعض حالات وملامح الرحلة السندبادية في القصيدة العربية المعاصرة، على أن هنالك ملامح كثيرة ومهمة عند شعراء عرب آخرين، لا تتسع هذه الدراسة القصيرة لدراسة أعمالهم المهمة، ومن هؤلاء الشعراء: عبدالمنعم عوّاد يوسف، ومؤيد العبدالواحد، وشوقي خميس، وعبدالوهاب البياتي، ونزار قبّاني، ومعين بسيسو وآخرون.

هذا وتبقى شخصية السندباد الأسطورية ذات طاقات إبداعية وفنيّة ثرّة لم تستنفد بعد في القصيدة العربية، ولا في بقية الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والمسرحية والرواية والدراما التلفازية، وكذلك في الأفلام السينمائية.

الهوامش:

1-6- مجهول المؤلف، ألف ليلة وليلة، دار مكتبة الحياة، المجلد الثالث، د.ت، ص399، 400، 401، 410، 419، 421، 427، 428.
7- حسين فوزي، حديث السندباد القديم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1943م، ص361. عن: د. علي عشري زايد، الرحلة الثامنة للسندباد، ص37.
8،9- ألف ليلة وليلة، م3، ص437، 439.
10،11- ألف ليلة وليلة، المجلد الرابع، ص8-9، 12.
12- علي عشري زايد، الرحلة الثامنة للسندباد، دار ثابت، القاهرة، الطبعة الأولى، 1984م، ص27.
13-15- ألف ليلة وليلة، م 4، ص20، 21، 23.
16- علي زايد عشري زايد، مرجع سابق، ص53.
17- ألف ليلة وليلة، ترجمة مجدي يوسف، مجلة فكر وفن، دار ميونخ، المانيا، العام السادس، العدد الحادي عشر 1968م، ص62.
18- محمد غنيمي هلال، النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة، منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1964م، ص7. عن: د. علي عشري زايد، الرحلة الثامنة للسندباد، ص49.
19- أدونيس، زمن الشعر، ص227- 228. دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى 1972م.
20،21- ديوان صلاح عبد الصبور، م1، ديوان الناس في بلادي، دار العودة، بيروت، طبعة 1988م، ص46، 59، 60.
22- ريتا عوض، أعلام الشعر العربي الحديث: خليل حاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1983م، ص55.
23-26- ديوان خليل حاوي، مجموعة الناي والريح، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1979م، ص227، 229، 230، 262، 263.
27،28- بلند الحيدري، مجلة النافذة، الوكالة العربية للأنباء، أثينا، العددان 14/13، عام 1993م، ص23، 24.
29- ديوان بدر شاكر السيّاب، مجموعة منزل الأقنان، م1، دار العودة، بيروت، طبعة 1989م، ص229.
30- د. عيسى بلاطة، بدر شاكر السيّاب، حياته وشعره، دار النهار، بيروت، الطبعة الثالثة 1981م، ص131،139،156،165.
31،32- ديوان عبد العزيز المقالح، مجموعة لا بدّ من صنعاء، دار العودة، بيروت، طبعة 1986م، ص80، 81.
33- هيرمان نورثروب فراي، في النقد والأدب (الأدب والأسطورة)، ترجمة: د. عبدالحميد إبراهيم شيحة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، طبعة 1989م، ص75.
34- بن سالم حميش، ديوان كناش إيش تقول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، يناير 1977م، ص23- 24.
35- سليمان العيسى، شعر سليمان العيسى، ديوان أغنية في جزيرة السندباد، م 3، دار الشورى، بيروت، الطبعة الثانية، صيف 1981م، ص110.
36- يوسف الخال، الأعمال الشعرية الكاملة، ديوان البئر المهجورة، الطبعة الثانية، دار العودة، بيروت، 1979/1/1م، ص236-237.
37- يوسف الخال، مجلة شعر، بيروت، العدد الخامس عشر، صيف 1960م، ص138.
38- يوسف الخال، الأعمال الشعرية الكاملة، ديوان البئر المهجورة، ص233.

محمد بهجة الأثري

الفقيه الأديب

غُيِّب العراقُ عنا وغُيِّبنا عن العراق منذ جريمة صدام حسين وغزوه الكويت عام 1990م، فلم نعد نرى أو نسمع عن العراق إلا ما يُدمي القلوب، ويكتم الأنفاس حزنًا على ما سببه له حاكمه الدموي من مآسٍ ونكبات، ومن فقر وجوع، ومن عزلة شبه كاملة عن أشقائه في العروبة والإسلام.

عبدالله بن إدريس

وكاتب هذه السطور من جملة الملايين الذين يأسون أشد الأسى لما حل بهذا الشعب الشقيق عامة، وما حل بأفذاذه من العلماء والشعراء والأدباء والمفكرين خاصة على يد جلاده الدموي: صدام.

لقد كان لعلماء العراق وفقهائه وشعرائه وأدبائه حضور متميز في هذه الميادين التي هي نبضات قلب هذا الشعب، وسمات حياته، وأقوى روابط صلاته بأشقائه في كل مكان.. فأين هي هذه الروابط الآن، وأين هي الصلات والاتصالات بينهم وبين مماثليهم في العالم العربي..؟!

لقد انقطعت عني - كما انقطعت عن الكثيرين غيري - أخبار هذه النخبة من الشعب العراقي، فلم نعد نعرف من منهم الذي مازال حيًا، ومن منهم الذي رحل عن الدنيا أو فارق دنيا صدام، بعد أن أشبعهم جوعًا حتى الموت، وأغناهم فقرًا ومسْغَبَةً حتى المَتْرَبَة، وأسعدهم تعذيبًا وتشريدًا حتى تساوى الموت عندهم بالحياة..؟!

لقد كانت توّاقًا متلهفًا لمعرفة أحوال أفذاذ ربطتني بهم علاقات مودة وصداقة وتراسل علمي وأدبي على مدى ثلث قرن تقريبًا.. أمثال العلامة الشيخ محمد بهجة الأثري، واللواء الركن محمود شيت خطاب، والدكتور صالح العلي رئيس المجمع العلمي العراقي، والدكتور علي جواد الطاهر، والأستاذ المحقق هلال ناجي، والشاعر ماهر كنعان.. وكثيرون غيرهم.

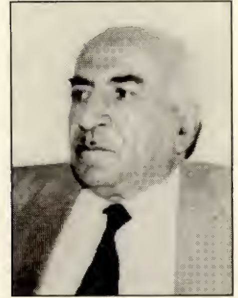
كنت أتحدث وعندي نفر من المحبين - عن هؤلاء وغيرهم من فضلاء العراق الذي أسدل دكتاتور العراق بيننا وبينهم ستارًا من حديد، أو جدارًا أشد فظاضة من جدار «برلين» - فما كان من أحد الحاضرين إلا أن فاجأني بالنبأ الأليم.. نبأ وفاة الشيخ العلامة محمد بهجة الأثري، فاسترجعتُ وترحمتُ عليه، وسألته: هل أنت متأكد من هذا الخبر..؟ قال: ألم تقرأ مقالاً للكاتب العراقي الأستاذ حسن العلوي، حيث ذكر أنه توفي في الشهر الذي توفي فيه الشيخان محمد الغزالي، وجاد الحق شيخ الأزهر؟ قلت: كلا.. إنني لم أطلع على مقال الأستاذ العلوي هذا، وحبذا لو أخبرتني في أي صحيفة نُشر، وتاريخ النشر لأبحث عنه. فوعدني بالبحث عنه، وقد وفَى بوعده - جزاه الله خيرًا - حيث أحضر لي قصاصة المقال الذي نُشر في جريدة «الرياض» ومنه تأكدت من صحة الخبر المحزن.. حرصت على التأكد من الخبر خشية أن يكون خبر وفاته كخبر وفاة الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي نُشر في مجلة المصور، خبر عن توقف مجلته «الرسالة»، وكنت أقرأ الخبر في المصور وبجانبي كان واقفًا الأديب السوداني عثمان شوقي - رحمه الله - فأخذ المجلة «المصور» مني، وقرأ الخبر، فترحم على الزيات، قلت: يا عثمان.. الزيات لم يمت. فما التفت إلى كلامي وخرج من المكتبة مسرعًا ليكتب خبرًا عن وفاة أحمد حسن الزيات! وشاع الخبر الكاذب في المملكة، ورثاه أحد الكاتبين بكلمة مؤثرة.. وبعد مدة تحقق الجميع أن الزيات مازال على قيد الحياة. وقد أخبرني الزيات - عندما زرته في مكتبه بمجلة «الأزهر» عام 1960م - أنه قرأ نعيه في بعض الجرائد السعودية، وفرح بأن يعرف نوعية ما سيقوله الناس عنه بعد وفاته «الحقيقية»!

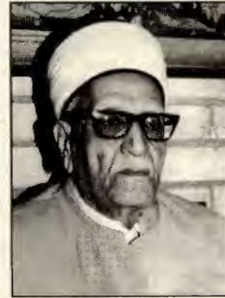
من مقال الأستاذ حسن العلوي الذي نُشر في الرياض في 12 ذي الحجة عام 1416هـ - أي بعد وفاة الشيخ الأثري بشهرين تقريبًا - أدركت صحة الخبر، بل أدركت وتحققت بقدر أكثر عن خصال كنتُ أعرفها عن الشيخ

بهجة الأثري، ربما قبل مواطنه العلوي، لكني كنت أتشكك في دوافع بعضها لأنها مثالية لا تتوافر إلا في النوادرمن الناس بمقياس عصرنا الحاضر.

لقد جاء في مقال الأستاذ العلوي ما عَضَدَ معرفتي بالشيخ الأثري في ناحيتين أكتفي بهما كمثال على خُلق الراحل: إحداهما تواضع الشيخ حتى إنه يرى أن كلمة الشيخ أكبر منه، وأنه لم يبلغ في علمه بعد مبلغ شيوخ الفقه، أو شيوخ اللغة، وأنه مازال في طريق العلم يواصل السير طالبًا وليس شيخًا.

الناحية الثانية: عفة الشيخ بهجة الأثري وعدم اهتمامه بالمال، وقد ذكر العلوي أن الشيخ رفض قبول منحة مالية من الرئيس العراقي أحمد حسن البكر ضمن عشرين من


محمود شيت خطاب


محمد بهجة الأثري

العلماء والأساتذة أراد القصر الجمهوري معونتهم وتسديد ديونهم في حدود مبلغ 12 ألف دولار لكل واحد منهم، فما كان من الشيخ بهجة الأثري إلا أن استشاط غضبًا، وَعَدَّ هذه الهدية إهانة لموقعه الاجتماعي والفكري، وقال: «إنني لن أقبل هدية من سلطان»!

لقد عرفت من عفة هذا الشيخ وعزته النفسية منذ ما قبل ثلاثين سنة نحوًا مما أشار إليه الأستاذ العلوي، فقد كان الشيخ بهجة من جملة العلماء والشعراء والأدباء والمؤرخين الذين استكتبتهم للإسهام معنا بنتاجهم العلمي والفكري في صحيفة «الدعوة» التي كنت رئيسًا لتحريرها ومديرًا عامًا لإدارتها... قرابة عقد من الزمان ابتداء من غرة محرم 1385هـ.

ومن أهم الذين كانوا يكتبون في الدعوة من العراق: الشيخ الأثري، واللواء الركن محمود شيت خطاب، والمؤرخ عباس فاضل العزاوي، وآخرون.

وقد أرسلتُ مكافأة لكل منهم أسوة بجميع المتعاونين مع «الدعوة» في جميع البلاد العربية بما فيها المملكة. فما كان من الشيخ بهجة الأثري، واللواء محمود شيت خطاب، إلاّ أن أعاد كل منهما مكافأته، شاكرين ومعتذرين عن استلامها بحجة أنهما لا يكتبان للدعوة من أجل المكافأة؛ وإنما هو احتساب لوجه الله، وقال أحدهما في خطابه: «إن من يكتب في المجال الإسلامي ويأخذ أجرًا على كتابته هو رجلٌ لا تتجاوز كلماته أبعد من حلقه في النفع والدعوة للحق والخير..». وطلب كل منهما أننا إذا كنا مصرين على صرف مكافأة للكاتب على ما يُنشر له في «الدعوة» فإنهما يرجوان أن نحوّل مكافأتهما لفقراء مكة والمدينة.

من هذا الموقف الكريم والعفيف وغيره من المواقف المعروفة عن هذا العالم السلفي الجليل محمد بهجة الأثري، يُدرك المرء قيمة هذا الرجل وأمثاله من الذين يتوجع المجتمع الإسلامي على فراقهم ويتألم على رحيلهم في صمت موجع لم يتح حتى الرثاء لهم وذكر بعض محاسنهم كما يجب. وها أنا من جملة الألوف الذين لم يعلموا بوفاة الشيخ بهجة الأثري إلا بعد شهور عديدة وبمحض المصادفة أيضا.. فـ«إنا لله وإنا إليه راجعون».. ورحم الله الشيخ بهجة الذي هو آخر مدرسة العلامة محمود شكري الألوسي السلفية في العراق.

توثقت علاقتي بالشيخ الأثري من خلال التراسل بيني وبينه وتعاونه الكتابي معنا في الدعوة ابتداء من بداية صدورها في غرة محرم 1385هـ.

ثم كانت زيارتي بغداد عام 1394هـ - 1974م، بدعوة من الحكومة العراقية للاشتراك في مهرجان المربد الشعري الذي عَقد أولى جلساته في البصرة ثم انتقلنا معه إلى بغداد..

وحين علم الشيخ بهجة بوجودي في بغداد رحب بي ودعاني إلى بيته الذي يقع في حي الكاظمية.

وبالمناسبة، أذكر أن مهرجان المربد توقف بعد قيامه في ذلك العام 1974م، إلى أن قامت الحرب بين العراق وإيران، فأعاد النظام العراقي إقامة هذا المهرجان سنويًا، من أجل أن يرفع الشعراء العرب من معنويات الجيش العراقي في معاركه الطاحنة مع الجيش الإيراني. وهكذا كان، فقد بالغ بعض الشعراء في مدح صدام حسين وجيشه مبالغة لا تُطاق.. حتى إن شويعرًا جعل صدامًا هذا هو حامي الحياة ومبدعها وصانعها ورافعها ولولاه ما كان للوجود قيمة..! ثم شتم جميع العرب زعماء وشعوبًا عدا صدام حسين - نعوذ بالله من الضلال -!

وبعد عودة هذا المهرجان المربدي، مع قيام الحرب العراقية الإيرانية، أصبحت الحكومة العراقية تدعو مجموعة من الشعراء العرب بما فيهم شعراء من المملكة. وكنتُ من جملة الذين يُدعون ويُطلب منهم الاشتراك بقصيدة.. وقد أتاح لي هذا الحضور السنوي فرصة اللقاء بالشيخ بهجة الأثري، وبرئيس المجمع العلمي العراقي الدكتور صالح العلي، واللواء الركن محمود شيت خطاب، وكوركيس عواد، وغيرهم من أعضاء هذا المجمع في مقر المجمع نفسه، وفتحت هذه الاجتماعات بابًا للتبادل في المطبوعات بين العراق ممثلاً في المجمع العلمي والمملكة العربية السعودية ممثلة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكنتُ - حينذاك - مديرًا عامًا للثقافة والنشر العلمي بالجامعة، وعضوًا في المجلس العلمي للجامعة، وقد أهدينا المجمع عددًا من مطبوعات الجامعة، كما أهدى المجمعُ الجامعةَ عددًا من مطبوعاته ومجلته الدورية، كما أصبح يُرسل إليَّ - شخصيًا - مطبوعاته ومجلته.. والفضل في هذا لله تعالى ثم للشيخ بهجت الأثري - رحمه الله -.

كان الشيخ الأثري عضوًا في رابطة العالم الإسلامي ممثلاً لعلماء العراق في هذه الرابطة.

وخاصة العلماء السلفيين المعروفين بصفاء العقيدة ونقائها.

وقد نال الشيخ الأثري جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب عام 1406هـ بترشيح من الرابطة.

وحين أُعلنت أسماء الفائزين بالجائزة، ومن ضمنهم الأثري، سارعتُ إلى كتابة خطاب مستعجل للشيخ «بهجة» أخبره وأهنئه بحصوله على هذه الجائزة الكبرى، وفي آخر الخطاب كتبت أبياتًا بصفة ارتجالية، وأرسلتُ الخطاب صبيحة ليلة إعلان اسمه مع الفائزين بالجائزة، معتقدًا أنني أول إنسان يبشره بذلك، إلا أنني علمت أن الصديق الدكتور عبدالله العثيمين، أمين عام الجائزة، قد سبقني إلى إخباره هاتفيًا.. إذ كان هاتفه موجودًا لدى أمانة الجائزة.

وقد جاءت أبياتي إليه هكذا:

يا طائر السعد هنئ «بهجة الأثري»
وانقل إليه تَحَايَا القلب والفكرِ
علاّمة من رعيل لن يُطاوله
إلا عباقرة من سالف العُصُرِ
يا كوكبا من عراق العرب مطلعه
غَنّت بسيرته صداحةُ القُمُرِ
ذرني أُهنيك في جهد حصلتَ به
أسمى الجوائزَ في الآداب والسيرِ
جوائز لم يكن ذنب تُكفّره
لكنها محض خير في دنا البشرِ
ليست جوائز من أهدى بمعمله
دنيا الوجود دمارًا حالك الصورِ(1)
فاهنأ بها رتبة عليا ومنقبة
كالوِتر للعمل المبرور في السَّحَرِ

فرد عليّ - يرحمه الله - بخطاب أورده - بعد الديباجة - كاملاً لتضمنه مشاعره وفرحته نحو فوزه بهذه الجائزة وأسباب ذلك:

«.. وبعد؛ فقد تلقيتُ تهنئتك الحارة بما أتاح الله لي من التقدير والتكريم بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي من حيث لم أحتسب، إذ لم أسعَ لها وإنما جاء ترشيحي لها من رابطة العالم الإسلامي ذات الصبغة الدولية عَفْوًا ورَهْوًا، تقديرًا منها لأدبي وإخلاصي للعروبة والإسلام، وخدمتي للثقافة العربية والفكر الإسلامي النقي، ثم كان التوثيق من لجنة الاختيار، ولا أعلم من هم فأذكرهم.. وكل ذلك أعلى وأشرف ما كسبته في حياتي من صيانتي لشرف العلم.

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظَّموه في النفوس لعُظِّما

وإني أحمد الله تعالى على ما غرس في نفسي من هذه المعاني التي لقيت من أهل الفضل والنبل هذا النظر السامي، وأثارت في نفوس الأكرمين مشاعر التقدير.

أما تهنئتك إياي بشيرك ونظيمك فقد أعربت عن نفس ما خامرها غير الصفاء والنقاء وكرم المودة في الله ولله، وإن بياني لقاصر عن بيانك بمراحل، ومخشلبي لا يُقابل دررك فاقبله مني على علاته، ولست أملك أعلى منه فأقدمه إليه شاكرًا نبلك وفضلك وصفاء مودتك:

يا نفحة من صبا «نجد» سرت سَحَرًا
واهًا لبردك، ما أنداه في سحري
وافيْتِني بشذا أنفاسَ ذي مقَة
يُصدِّق الخُبْرُ فيه صادقَ الخَبَرِ
زاكي الوفاء، سريّ النفس، مُشْتَمِلٍ
بالعُرف ينشره كالعَرف في الزهرِ
أصفى لي الودَّ «عبدالله» من كرمٍ
وسَرَّهُ أنني جوزيت عن سيري
فَزَفَّ لي راقصات الشعر تهنئة
مصحوبةً بزواهي النثر كالدررِ
أزجى كريمين مقرونين في قرن
في حلية من رواءِ الأنجم الزهرِ
حبًا وبرًا.. ومن طابت أرومته
يُعطي أقاصي ما يحويه من دررِ
إني أقارضه ودًّا بتكرمة
والحر يشكر ما يُعفَى مدى العُمُرِ».

والشيخ الأثري، إلى جانب تخصصه الفقهي والأصولي، هو عالم من كبار علماء اللغة العربية، وشاعر مجيد وأديب مثقف ثقافة عالية.

ولتَبَحُّره في الفقه واللغة أصبح أحد الأعضاء الدائمين في المجمع العلمي العراقي إلى جانب المجامع العلمية واللغوية القائمة في بعض الدول العربية.. وله من المؤلفات:

1- تحقيق «خريدة القصر وجريدة العصر» لعماد الدين الأصبهاني الكاتب.

ولم أطلع من هذا الكتاب إلا على الجزء الرابع/ المجلد الأول، والجزء الرابع/ المجلد الثاني، و«تكملة خريدة القصر وجريدة العصر» القسم الخاص بشعراء العراق، التي أهدانيها عام 1393هـ.

ولم يذكر الأستاذ حسن العلوي في كلمته عنه تحقيقه لهذا الكتاب، الذي نال به جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب، ولكن العلوي ذكر له كتابين لم أطلع عليهما، وهما:

2- الاتجاهات الحديثة في الإسلام.

3 - ذرائع العصبيات العنصرية.

وقد تكون له مؤلفات أخرى غير هذه.. فلعل أحدًا من مواطنيه أو غيرهم ينورنا بها(*).

عُمِّرَ هذا الشيخ حتى بلغ 95 سنة بالسنوات الهجرية، رحمه الله رحمة واسعة.

ملاحظة:

استرعى بصري أن مواطنه حسن العلوي كتب اسمه هكذا «بهجت» بالتاء المفتوحة خطًا الساكنة وضعًا. مما يشعر بأنه ينتمي إلى أصل تركي، وليس هذا صحيحًا بدليل أنه شخصيًا لَمّا نُشرَ اسمه بهذه الطريقة قال حرفيًا: «يا أخي أنا عربي قح، فلماذا فتحتم «تاء» اسمي؟».

إذن، فكتابة اسمه صحيحة هي «محمد بهجة الأثري».

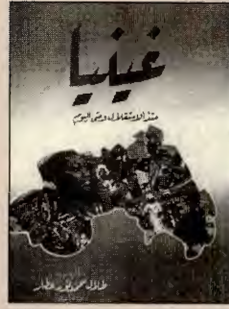
الهوامش:

1- إشارة إلى جائزة «ألفرد نوبل».

(*)- هو محمد بهجة بن محمود بن عبدالقادر بن أحمد بن محمود. وُلد في بغداد عام 1322هـ - 1904م، ونشأ في بيت علم وتقوى، وتدرب على الفروسية والتجارة.

من مؤلفاته - على سبيل المثال لا الحصر -: أعلام العراق، القاهرة 1344هـ. المجمل في تاريخ الأدب العربي، بغداد 1927م. المدخل في تاريخ الأدب العربي، بغداد 1931م. مأساة الشاعر وضاح اليمن، بغداد 1935م. محمود شكري الألوسي، حياته وآراؤه اللغوية، القاهرة 1958م. شيخ الإسلام عارف حكمت وخزانته في المدينة المنورة، مجلة الزهراء، القاهرة 1344هـ. ملاحم وأزهار، ديوان شعر في نحو 400 صفحة، القاهرة 1974م. الرد على الشعوبية (مخطوط). الظواهر الكونية في القرآن، بغداد 1938م. تاريخ نجد للألوسي (تحقيق)، نشر مرتين. الجغرافيا عند المسلمين والشريف الإدريسي. مناقب بغداد لابن الجوزي (تحقيق). وانظر ترجمة مفصلة عن حياته في العدد (165) ربيع الآخر 1411هـ/ أكتوبر 1990م من «الفيصل»، وكذلك خبر وفاته في العدد (235) محرم 1417هـ/ مايو/ يونيو 1996م (التحرير).

العنوان: غينيا.. منذ الاستقلال وحتى اليوم.
المؤلف: طلال محمد نور عطار.
الناشر: دار العلم. طبع بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة ـ جدة، ط1، 1416هـ ـ 1995م/144ص.



غلاف الكتاب

يبدو أن مؤلف كتاب «غينيا» الأستاذ طلال عطار ذو اهتمام بها، حتى من قبل تسلمه مهام العمل الدبلوماسي قائمًا بأعمال سفارة المملكة العربية السعودية لدى جمهورية غينيا.

ولهذا جاءت معلوماته تجمع واقعية الميدان اللصيق بدقة الوثائق، والرؤية المتأنية المنبثقة من التجربة الدبلوماسية. وإن كانت معظم المعلومات معهودة ومعروفة لذوي الاهتمامات الإفريقية السياسية والجغرافية والاقتصادية.

على أن القارئ، بشكل عام، سيجد غينيا أمامه ساخنة، سخونة شعبها، وأرضها وتاريخها، وأحداثها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما صاغها العطار بأسلوب سهل شائق؛ حين استدرجنا إلى مادة غنية بمعلوماتها منذ مدخله لمعنى غينيا اللغوي، ومساحتها، وماضيها مع المستعمر الفرنسي، واستقلالها في الثاني من أكتوبر/تشرين الأول عام 1958م، مما سيفيض عنه مفصلاً، فضلاً عن الدول الثلاث الأخرى التي تحمل اسم غينيا نفسه: غينيا الاستوائية وغينيا بيساو وبابوا غينيا الجديدة. ثم يبدأ المؤلف بمدخل آخر عنها ليوجز لنا جغرافيتها وقبائلها، وهي مجموعات عرقية، أكثرها قبيلة الفولا، وتشكل 40٪ من السكان.

أما محاور معلوماته التالية، فقد اندرجت تحت عناوين أربعة هي: النظام السياسي، السياسة الخارجية، التمثيل الدبلوماسي والقنصلي، الوضع الاقتصادي، وتشعب الأخير إلى كل من الأجزاء التالية: القطاع الزراعي، الثروة الحيوانية، قطاع المعادن، قطاع الصناعة، قطاع الطاقة، التجارة الخارجية، الديون الخارجية، المساعدات الخارجية، المواصلات، التعليم، الصحة، الإعلام، الثقافة، الفنون، المتاحف، السياحة والآثار.

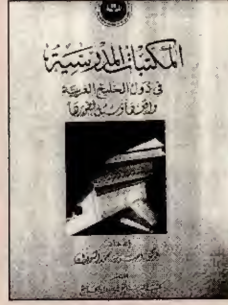
وقد أدرج المؤلف ملاحق استغرقت زهاء أربعين صفحة. كان الأول سيرة ذاتية لفخامة رئيس الجمهورية لانسانا كونتي، والثاني عن الدستور الغيني: القانون الأساسي، والثالث عن التشكيل الوزاري الجديد 18 أغسطس/ آب 1994م. والرابع عن الأعياد السنوية في جمهورية غينيا، والخامس والأخير كان مذكرة اتفاق حول التعاون في مجالات المعادن والطاقة والنقل، تم التوقيع عليها عام 1990م.

وإذا كان المحور الأول ـ النظام السياسي ـ أطول المحاور، وقد استغرق زهاء أربعين صفحة، فالوقوف عنده، واستقصاء أبرز رؤى المؤلف عنه، يغني عن الأخرى في مقامنا الضيق هذا.

مرت غينيا بثلاث مراحل: الأولى: ما قبل الاستعمار الفرنسي، منذ عام 1461م وخضوعها للبرتغال، والثانية مع الاستعمار الفرنسي عام 1838م، والثالثة مرحلة الاستقلال منذ عام 1958م، وفيها ظهرت جمهوريات ثلاث: الأولى جمهورية سيكوتوري ـ يروي المؤلف سيرته ـ الذي عارض الجنرال ديجول في 25 آب/أغسطس 1958م قائلاً: «إن فرنسا قهرت غينيا واستغلتها، ونحن نفضل الفقر مع الحرية على الثراء مع العبودية». وقد أكد ديغول: «إن فرنسا لن تعرقل قرار الشعب الغيني، ولكنها سوف تتخذ على أساسه النتائج التي تراها». وكانت حقبة انغلاق لغينيا؛ فاضطرابات داخلية، منها ـ في عام 1976م ـ محاولة اغتيال سيكوتوري «عن عدوان يهيئ له مرتزقة»، كما يقول المؤلف، وعلينا أن نقنع بتتمة قوله: «.. واعتقل ديالوتللي وزير العدل، وأمين عام منظمة الوحدة الإفريقية السابق، وشخصيات كبيرة أخرى أغلبها من قبائل الفولا». ثم تأتي مرحلة انفتاح، ويعاد انتخاب سيكوتوري عام 1982م رئيسًا للجمهورية للمرة الرابعة على التوالي «وأعلن أنه حاز على 100٪ من أصوات الناخبين». «واستمر نظام الحزب الواحد، واستمرت أيضًا سياسة القمع».

ويدفع الرئيس حياته ضريبة السياسة والكرسي، إذ يفقدها إثر عملية جراحية في أمريكا ـ 1984م ـ من جلطة قلبية. وإذا كنا نتساءل: أين الحرية التي كان يلهج بها هذا الرئيس أمام ديجول؟. فلربما كان الجواب في ظهور، أو بداية، الجمهورية الثانية، جمهورية كونتي. قال عنها المؤلف: «ولم تكد آخر الوفود الأجنبية تغادر مدينة كوناكري العاصمة حتى بدأت الهيئات الحزبية والحكومية الموالية لخط سيكوتوري تستعد لتعين خلف له، إلا أن الجيش فاجأ الجميع بانقلاب، كان قد حضر له منذ فترة ليست بالقصيرة بقيادة الجنرال لانسانا كونتي. وقد تسلمت الحكم نتيجة لذلك لجنة أطلقت على نفسها اسم: اللجنة العسكرية للإصلاح الوطني»، ومثل هذه الأوضاع تتطلب اتجاهًا جديدًا مغايرًا للسابق، وتصحيح الأخطاء، بقيام «وفد وزاري بزيارة لفرنسا لطلب المساعدة». والإفراج عن المعتقلين والتشهير بالرئيس السابق وأتباعه. لتأتي الجمهورية الثالثة، وهي امتداد للأولى؛ لأنه ما زال كونتي في الاثنتين، ونسمع تصريحاته وخطبه، ومنها: «إن الحكومة الجديدة تقوم بمراجعة للأوضاع الاقتصادية المتدهورة تمامًا، والعمل على إصلاح ما يمكن إصلاحه». وكذلك ما كان يوجهه من انتقادات للأحزاب والفئات المعارضة مما كانت تثيره عنه من أخطاء وتدهور في مختلف الأوضاع. وقد نقل المؤلف أحد هذه الخطب التي ألقاها في قصر الشعب، وكانت من صفحات، نقلها بكامل نصها. وما كان ذلك ليغني عن خلاصة آراء العطار الخاصة في تحليل الأحداث والتجارب تحليلاً سياسيًا وفكريًا، كان القارئ يتوق إلى سماعها، عسى أن يمنحه ذلك رؤى تستبطن واقع الأمور مع فلسفة الحكم وحقيقته في البلدان النامية.

العنوان: المكتبات المدرسية في دول الخليج العربية.. واقعها وسبل تطورها.
المؤلف: د. ناصر بن محمد السويدان.
الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض. ط1، 1416هـ - 1996م (249 ص).


غلاف الكتاب

إنّ نظرة متأنية لما ورد في مقدمة المدير العام لمكتب التربية العربي الدكتور علي التويجري، تبين أسباب اهتمام المكتب بالمكتبات المدرسية، ومن ثم تكليف الدكتور السويدان بإعداد هذه الدراسة المنهجية التي قامت على الاستبانات الإحصائية، الناطقة بمفرداتها ومعانيها ودلالاتها المعرفية والفكرية، وعلى نتائجها السلبية، وما انتهت إليه من توصيات لتجاوز المشكلات والصعوبات.

وإن المكتبة المدرسية، ومن توجه ورؤية مكتب التربية العربي، أساس مهم يُعتمد عليه في العملية التعليمية، لارتباطها بالمناهج وطرائق التدريس، مما يكسب الطالب العلم والخبرة والمهارة، ولاسيما فيما تتجه إليه المناهج وطرائق التدريس الحديثة من توافر مصادر التعلم المطبوعة وغير المطبوعة، وهي «المواد السمعية والبصرية والإلكترونية».

ومن هنا التزم مُعد هذه الدراسة توجهات المكتب ورؤاه عن واقع المكتبات في دول الخليج العربية وسبل تطويرها، ووفّر له - لتكون الدراسة شاملة لكل الجوانب المرتبطة بالمكتبة - من العاملين في المجال التربوي في الدول الأعضاء كل اهتمام وتجاوب، كتقديم البيانات والتسهيلات.

وقد احتوت الدراسة على سبعة فصول وخاتمة. في الأول وجدنا تعريفًا بالدراسة، وأهميتها ومنهجها، وذلك من خلال المدخل لهذا البحث، وما يتعلق بأهدافه وأسئلته وأهميته ومنهجه ومصطلحاته.

أما الثاني فكان عمّا أُلف من دراسات سابقة عن المكتبات والمعلومات بوصفها علمًا من العلوم. والثالث عن أوضاع المكتبات المدرسية، ويشمل: أمناءها، ولجانها، وموجهيها، ومبانيها، وأثاثها، (من خزائن ومناضد ومقاعد وغيرها)، ومقتنياتها (من اختيار وتزويد وأجهزة وفهرسة وتصنيف)، وخدماتها (من استخدام الطلاب والمدرسين لها، والإعارة، وأوقات فتحها، والتجليد والجرد السنوي).

بينما تضمن الفصل الرابع تحليل إجابات المديرين والطلاب والمدرسين وأمناء المكتبات وأساتذة التربية. فضلاً عن كلام خص كلاً من موضوع وظيفة المكتبة، والمكتبات في دول الخليج، وتحويل المكتبة إلى مركز لمصادر التعلم، وتأهيل المدرس في استخدام المكتبة، وتطوير المناهج.

أما الخامس فكان عن تحليل البيانات الواردة من الإدارات المركزية. وكان الفصل السادس عن نتائج الدراسة. والسابع والأخير عن التوصيات والخطط المقترحة لتطوير المكتبات المدرسية. وجاءت النتائج والتوصيات مرة أخرى ملخّصة في خاتمة هذه الدراسة. وقد أدرج بالكتاب في النهاية سبعة ملاحق بنصوصها الموجهة إلى ذوي الشأن.

ولقد اقتصرت نتائج الدراسة، على تأكيد الافتقار والنقص وعدم الاهتمام بكل شؤون المكتبات، من حيث البناء والموقع والأثاث ومعدات المكتبات والعاملين فيها، ومخصصاتها المالية، والإدارية، والفنية، ووسائلها السمعية والبصرية، ونوعية الكتب وشكلها، ثم أخيرًا، وهو المهم، وجاء في كلمات مقتضبة؛ عدم الإقبال على المكتبات المدرسية من الطلاب والمدرسين، وعُزي ذلك إلى ضيق الوقت، وانعكاس السلبيات السابقة على المطالعة. ولكن ثمة توجه لتحويل المكتبات المدرسية إلى مراكز مصادر للتعلم، وخاصة من أساتذة كليات التربية، وعدد من المدرسين ومديري المدارس. أما التوصيات فشخصت بتخطي السلبيات السابقة، وتجاوز صعوباتها ومشكلاتها كافة، وذلك باتخاذ الحلول الجذرية في كل جوانبها. أما ما اتخذ من توصيات لدفع الطالب وتشجيعه للمطالعة وحبّ الكتاب؛ فذلك من خلال زيادة درجاته في كل مادة دراسية.

على أننا نقول بعد ذلك كله: كثيرًا ما تكون نتائج الاستبانات من الإجابات غير دقيقة؛ لأن الكثير من العينات المعنية ضئيلة، ولا تمثل قطاعاتها كاملة. ولأن الكثير من أصحابها ينطلقون منطلقًا ذاتيًا ومزاجيًا يتفق مع رغباتهم وموقعهم من موضوع الاستبانة. ويأتي الجواب أحيانًا كيفما اتفق؟ من دون الأخذ بالموضوعية والدقة، حتى إننا لسنا بعض ما نحن بصدده في سياق معاني الدراسة. ولهذا فالدراسة عن موضوع من الموضوعات الفكرية والثقافية والعلمية والتعليمية، تحقق الصواب، كلما كان الدارس ينطلق من موضوعه منطلق المجرب الممارس لأبعاد موضوعه بحس صادق.

ولْنُشِرْ لما لمسناه، إثر إيراد النسب الإحصائية، ففي صفحة 28 نقرأ: «معظم مديري المدارس لديهم اتجاه إيجابي نحو الحاجة إلى المكتبات المدرسية». علمًا أني أعرف أن معظم من تعاملت معهم من المديرين، طيلة عقدين، ليس لديهم اتجاه إيجابي نحو المكتبات. ونقرأ في صفحة 74 ما يؤيد كلامنا السابق عن عدم الدقة في نتائج الاستبانات: «... هذه المؤشرات لا تمثل كل المكتبات...، ولا ينبغي أن تؤخذ هذه النسبة على أنها دلالة على نشاط البحوث في المدارس». كما نقرأ في صفحة 78: «إن قضية استخدام المدرسين للمكتبة تحتاج إلى دراسة خاصة للتدقيق في أساليب التدريس ودور المكتبة في العملية التعليمية». ولْننظر فيما ورد في الصفحة: 79: «ويبدو أن هذه النسبة المرتفعة للمكتبات التي تفتح أبوابها كل ساعات اليوم الدراسي تمثل عينة الدراسة فقط، ولا تعكس الوضع الراهن في كل المكتبات المدرسية». وهكذا في الصفحات:83 و85.

كما أن محور المكتبة وروحها وجوهر وجودها، المتمثل بما يسكن المكتبة من كتب، لم يعره المؤلف أهمية في هذه الدراسة إلا في النذر القليل. وثمة عزوف هائل عن الكتاب، وما ذُكر ليس سوى حجة ضئيلة حيال المستجدات العلمية الحديثة التي باتت تستدرج القارئ وتبعده من المكتبة والكتب وعالمها. فالمشكلة الأساسية هي هذا الخيط الرفيع الواصل بين الكتاب وقارئه، والذي أصبح مقطوعًا، فكيف يُعاد وصله على نحو ما؟

في صيدلية الأدباء

الطيب شبشة

ارتبط جزء كبير من تاريخ الأدب السوداني الحديث والمعاصر باسم صيدلي ومدير «أجزخانة العاصمة المثلثة»(1) التي كانت مُلتقى يوميًا لأكبر وأشهر أدباء وشعراء السودان، وكذلك الناشئة منهم. وطوال عقدين من الزمان، من مطلع الخمسينيات وحتى نهاية الستينيات من هذا القرن العشرين، كانت «أجزخانة العاصمة المثلثة»، مُرتكز الحركة الأدبية خاصة والثقافية عمومًا، فمنها وبتدبير صيدليها ومديرها انطلقت أقوى المعارك الأدبية كالمعركة التي دارت بين الشاعرين محمد محمد علي ومحيي الدين فارس، وكانت ساحتها صفحات جريدة «الرأي العام» - عطرالله ذكرها.

فقد وجد الأدباء والشعراء، وأغلبهم موظفون عاديون في دواوين حكومة السودان، أو أساتذة في جامعات السودان كجامعة الخرطوم وجامعة أم درمان الإسلامية، وجدوا في صيدليّها ومديرها خير عون ومعين، إذ كان يمدهم بالمال بما يخفف عنهم وطأة الحاجة، ويسد كل النقص أو بعضه بين الدخول المحدودة والنفقات الكثيرة، وخاصة في المواسم كشهر رمضان والأعياد التي تزيد فيها مطالب الأزواج والأبناء والبنات، أو في أوقات المآتم التي تزيد فيها - أيضًا - النفقات على عادة عموم أهل السودان!

كانت «أجزخانة العاصمة المثلثة»، يملكها الدكتور الطبيب عبدالحميد صالح عبدالقادر(2) الذي شُغل عنها بابتلائه بداء السياسة، وكان عضوًا بارزًا في حزب الأمة الذي يرعاه إمام طائفة الأنصار من آل المهدي، فأوكل جميع شؤونها الصيدلية والإدارية والمالية لشقيقه الأكبر الأديب الشاعر منير صالح عبدالقادر.

وكان ذلك من يُمْن طالع الأدب والأدباء شيوخًا وشبانًا وشابات، فقد كان منير واحدًا من بين أشهر شعراء السودان، من الرعيل الثاني بعد رعيل العصر الذهبي في الثلاثينيات من هذا القرن(3).

الثالوث الأدبي ومدرسة الديوان

وكان منير أحد أضلاع ثالوث أدبي يتألف منه ومن صاحبيه محمد المهدي المجذوب ومحمد محمد علي، وقد كان الثلاثة من تلامذة عباس محمود العقاد الذي أنشأ مع زميليه الأستاذين إبراهيم عبدالقادر المازني وعبدالرحمن شكري مدرسة «الديوان في الأدب والنقد» في حقبة العشرينيات من هذا القرن في مصر.

وقد تأثر منير والمجذوب ومحمد محمد علي بمدرسة الديوان شكلاً وموضوعًا، فقد جمعهم حب العقاد خصوصًا، كما جمعتهم علاقة الحياة الإنسانية بصداقة لم يفصمها إلا الموت، وكان أول من مات منهم محمد محمد علي في أيلول/سبتمبر 1970م، يوم موت الرئيس المصري جمال عبدالناصر، وكان ذلك سبب تأخر وصول نبأ موته في القاهرة!

كما توفي بعده المجذوب في عام 1984م، وتوفي منير بعدهما في عام 1991م.

إذن فقد جعل منير صالح عبدالقادر من «أجزخانة العاصمة المثلثة» منتدًى أدبيًا يلتئم فيه شمل الأدباء والشعراء كل مساء، وقد حدد لهم وقتًا يقل فيه ازدحام طالبي الأدوية من المرضى، إذ كانوا يأتون - الأدباء والشعراء - للأجزخانة بعد الساعة السابعة مساء كل يوم، ويبقون فيها حتى الساعة التاسعة مساءً قبل أن ينفض سامرهم.

وكان لا يبقى بعد الساعة التاسعة معه في الأجزخانة سوى صاحبيه، محمد المهدي المجذوب ومحمد محمد علي؛ حيث ينتقلون بعد التاسعة إلى فناء خلفي للأجزخانة يبقون فيه وحدهم يتسامرون إلى قريب من منتصف الليل، ثم يغادرون المكان لتناول طعام العشاء.

كان من رواد «أجزخانة العاصمة المثلثة» - أو إن شئت قل «أجزخانة الأدب» إذا صحت التسمية - الشاعر الأديب المحاسب والمحامي - في آخر أيامه - منصور عبدالحميد الملقب بلقب «ديك الجن السوداني»(4) والشاعر والمذيع المعروف المبارك إبراهيم، والشاعر المبدع رجل القانون وضابط السجون مبارك المغربي، والشاعر الرقيق والموظف بوزارة الحكم المحلي مهدي أبو بكر، والدكتور مصطفى عوض الكريم أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة الخرطوم، والبروفسور عبدالله الطيب المجذوب عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم(5) وفي المتأخرين بعد الخمسينيات الشاعر الشهير محمد الفيتوري، والشاعر محيي الدين فارس، وكثيرون آخرون لم يحضرني ذكرهم - وأنا أكتب هذا المقال من ذاكرتي بعيدًا من مذكراتي القديمة التي خلفتها ورائي في السودان منذ نحو سبع عشرة سنة مضت علي

حتى الآن في هذا البلد الشقيق المملكة العربية السعودية ـ. على أنني أذكر أنه كان من رواد الأجزخانة الأديب الشاعر المهندس القاضي السياسي المعروف محمد أحمد محجوب أحد رؤساء الوزارات في السودان في عهد الاستقلال الوطني، وكان والدكتور عبدالله الطيب المجذوب وأحيانًا الدكتور مصطفى عوض الكريم من المحكّمين الذين يقيمون ما يشبه «سوق عكاظ» في جاهلية العرب، حيث ينشر كل شاعر جديده من القصيد، فيحكمون له أو عليه.. وكان من قانون الأجزخانة أن مَنْ يُقرّ له الحكماء بتفوق قصيدته مبنى ومعنًى على غيرها، يكون «أمير شعراء الليلة»، وهذا امتياز يعفيه من المساهمة المالية في تكاليف سهرة تلك الأمسية.

وغالبًا ما يكون يوم الخميس من كل أسبوع هو يوم التحكيم في شعراء رواد الأجزخانة؛ لأن السهرة فيه يمكن أن تمتد إلى الساعات الأولى من فجر اليوم التالي (الجمعة) وهو يوم عطلة للجميع.

إنسان فاضل.. وأديب بارع

كان منير صالح عبدالقادر من ذلك الطراز من الناس الذين يفتحون قلوبهم قبل أحضانهم وأذرعهم للترحيب بالقادمين إليه ممن يعرف ومن لا يعرف، إذ ليست المعرفة الشخصية بالقادم مصدر بشاشته، أو ميزان قياسه لدرجة الترحيب والتكريم، فالرجل مجبول على البشاشة، أكرمه الله بجملة صفات إنسانية من أبرزها الكرم وسخاء اليد، والشهامة والمبادرة إلى نجدة أصدقائه وقاصديه من المحتاجين لعونه.

وكان إلى صفته الإنسانية تلك أديبًا واسع المعرفة بتاريخ الأدب العربي من عصره الجاهلي مرورًا بصدر الإسلام وبقية العصور الوسيطة إلى عصرنا الحاضر، وكان مثقفًا محيطًا بكثير من العلوم الإنسانية. كان من ذلك الطراز الموسوعي المعرفة، جيد النظم، مختصًا في عروض الشعر، وكثيرًا ما يحتكم إليه الشعراء في تدقيق أوزان أشعارهم، وكان في الشعر من طوال الأنفاس.

وقد أهلته هذه الصفات مجتمعه ومؤتلفة لأن يكون رائد «مدرسة الديوان الثانية» على غرار مدرسة الديوان المصرية في الأدب والنقد التي أنشأها العقاد والمازني وشكري كما سلفت الإشارة إلى ذلك.

وقد فتح أبواب مدرسته الأدبية مع صاحبيه المهدي المجذوب ومحمد محمد علي أمام كل أدباء السودان وشعرائه كبارًا وصغارًا، سواء كانوا من أهل العاصمة المقيمين بها أو من الوافدين إليها من أدباء وشعراء الأقاليم الذين دفعتهم ظروف الحياة وضروراتها للإقامة في الخرطوم.

كنت قد قدمت إلى الخرطوم ـ للمرة الثانية في حياتي ـ عام 1956م، للبحث عن عمل فيها، وكان هدفي واضحًا، هو أن أشتغل بالصحافة، وفي نهاية ذلك العام عُيِّنت محررًا ـ لأول مرة ـ في جريدة «العلم» الناطقة بلسان الحزب الوطني الاتحادي، وكان يرأس تحريرها صحافي عريق، وكاتب ضليع هو علي حامد محمد ـ رحمه الله ـ الذي كان أول رئيس تحرير لجريدة «المؤتمر» الناطقة بلسان «مؤتمر الخريجين»، وكانت قد صدرت لأول مرة عام 1938م.

وكان تعييني في جريدة «العلم» في شتاء ذلك العام، وهو أول شتاء أشهده في الخرطوم خصوصًا، وفي شمال السودان عمومًا، وكان شديد البرودة بالنسبة لإقليمي مثلي قادم من دفء الجنوب! فأصابني ذلك الشتاء بنزلة برد حادة!

وفي مساء اليوم الذي أُصبت فيه بنزلة البرد خرجت من مكتب الجريدة قاصدًا البيت وكنت أحسّ اشتداد وطأة الالتهاب في صدري، وبالحمَّى تسري نارًا في أوصالي.. وفي أثناء سيري حانت مني التفاتة عفوية، فوقعت عيناي على لافتة مكتوبة باللون الأحمر: «أجزخانة العاصمة المثلثة»؛ فلم أتردد في الاتجاه إليها ودخولها بنية شراء دواء لنزلة البرد.

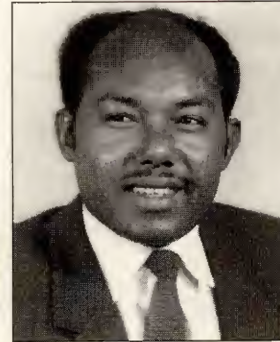
كانت في نظري مجرد أجزخانة تبيع الدواء، وحين وقع نظري على ذلك العملاق الطويل القامة الضخم الجثة يقف وراء المنضدة وهو يبتسم لي لم أشعر بأنه أكثر من مجرد صيدلي سيبيعني الدواء الذي أطلبه. وكانت عادة شراء الأدوية من دون وصفة طبية مألوفة، ولعلها منتشرة إلى يومنا هذا في السودان، وذلك لاعتقاد غالبية السودانيين أن الصيدلي طبيب كالطبيب!

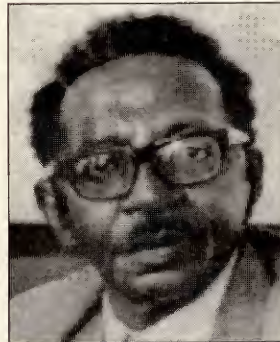
وحين وقفت أمام ذلك الصيدلي العملاق تفصل بيننا المنضدة زادت بشاشته بتلك الابتسامة الودود، فقلت له بصوت بُحّ من شدة الكحة: أريد دواء.. عندي نزلة برد! فَرَدَّ قائلاً: هذا واضح من احمرار عينيك، ثم مَدَّ يده وفتح بابًا صغيرًا يفصل بين الجزء الخارجي والجزء الداخلي من الأجزخانة وقال لي: ادخل، ثم أجلسني على المقعد الذي يجلس هو عليه خلف مكتبه الصغير عندما لا يكون هناك زبون يريد دواء.

وغاب عني هنيهة ثم عاد وبيده حقنة حقنني بها في ذراعي الأيمن، ثم غاب ثانية وعاد وبيده كوب شاي ساخن ومعه حبة دواء لعلها حبةَ أسبرين وطلب إليَّ أن أبتلعها مع الشاي وأن أبقى ساكنًا حتى يشعر هو بتحسن حالتي!

وبعد أن فرغ من زبونين أو ثلاثة، وكانت


د. عبدالله الطيب


محيي الدين فارس


محمد المهدي المجذوب

الساعة قد جاوزت السادسة مساء بقليل، سألني عن اسمي، فقلت له: الطيب شبشة.

ولمحت بريقًا في عينيه، ألفته منه - بعد ذلك حين توطدت علاقتنا - كلما عرته دهشة من شيء أو عراه إعجاب بشيء!

وقال لي وما زالت عيناه تبرقان ذلك البريق المألوف في الأذكياء: أنت - إذن - الطيب شبشة الصحفي والمحرر بجريدة «العلم»؟!

شعرت لحظتها بما يشبه الانتفاخ غرورًا وزهوًا قبل أن أقول له: نعم!

وقلت في نفسي: يا للصحافة كم تمنح الشهرة سريعًا حتى للخاملين أمثالي!

ولكني فهمت أن محدثي ليس صيدلانيًا عاديًا، إنه - على الأقل - قارئ لكل الصحف

«نزلة برد» أتاحت لي - في مستهل حياتي العملية - أن أتعرف إلى أشهر أدباء السودان وشعرائه، وأن تنشأ بيننا صداقة دامت أمدا طويلا

التي تصدر في الخرطوم.

ورد على جواب «نعم» مني بقوله: محسوبك منير صالح عبدالقادر، وأهلاً بك يا أستاذ «الطيب» في أجزخانة العاصمة المثلثة صديقًا جديدًا ورائدًا من روادها!

ولم أفهم!

ولكني سعدت بذلك الترحيب، بل التكريم. وهكذا أتيح لي أن أتعرف في تلك الأجزخانة إلى أكبر وأشهر أدباء وشعراء السودان المعاصرين، وأن تنشأ بيني وبين الأصدقاء الثلاثة: منير والمجذوب ومحمد محمد علي مودة وصداقة وثيقة دامت سبع سنوات نلتقي بشكل يومي كل مساء ولا نفترق إلا بعد منتصف الليل، ولا يغيب أحدنا عن الباقين من دون عذر مسبق حتى «لا تمسخ السهرة» كما كان يقول المجذوب!

سبع سنوات بين سنتي 1957 و1964م ظللنا على اتصال يومي نلتقي كل مساء ونفترق بعد منتصف كل ليل.

كنت الأصغر سنًا والأجهل بكل شيء.. وليس كل ناشئ مثلي يُتاح له أن يكون رابع أشهر ثلاثة أدباء وشعراء في السودان في ذلك الوقت.

فقد تعلمت منهم ما تعلمته من الأدب نثرًا وشعرًا، ومن الثقافة العامة، فلم يبخلوا عليَّ بذخائرهم الثقافية الواسعة العميقة، حتى جاء يوم حَوَّر فيه منير القول المشهور «مازال هذا القرشيّ يهذي حتى قال الشعر»، فقال: «مازال هذا «الشبشي» يهذي حتى قال الشعر!».

شاعرية المجذوب

من معاشرتي للأصحاب الثلاثة، ومراقبتي لأطوار نتاجهم الشعري والأدبي في النقد وغيره خلصت إلى أن المجذوب أشعر صاحبيه، فهو وصَّاف بارع التصوير ناطق الصورة، فريد التركيب الفني لعبارته الشعرية، ذو خيال جامح، وله قدرة عجيبة على توليد المعاني، لا أعرف شاعرًا واتته الدرجة ذاتها من القدرة سوى الحسن بن علي بن جريج المشهور بابن الرومي!

بل لعلِّي كنت أرى في التكوين الجسماني للمجذوب: استدارة رأسه وبروز عينيه دون الجحوظ، واهتزاز عطفيه أثناء مشيه، كنت أرى فيه تلك الصورة البارعة التي رسمها عباس محمود العقاد لابن الرومي في كتابه الرائع «ابن الرومي، حياته من شعره».

فللمجذوب أنفاس ابن الرومي الشعرية نفسها وقدرته على التصوير، وصبره على استقصاء المعاني والإحاطة بأبعاد الصورة التي يريدها!

وقد أسعفه أنه رسام بطبعه، بدأ حياته الإبداعية رسامًا بالريشة التي استبدل بها أخيرًا القلم ليرسم بالكلمات ما كان يرسمه بألوان الريشة(6).

وكمثال لتلك القدرة الفذة في التصوير الشعري يصف المجذوب تلك الفتاة الأرمنية «لوسي»(7) فيقول:

تلك «لوسي» فجنباني «لوسي»
رُبَّ كأسٍ تدير أعتى الرؤوس
شعرها العسجديّ ينسالُ كالشلْ
لاَلِ ينصبُّ في قرار النفوس
وازرقاق العيون يسنى كمااستضـ
ـحك أفق لضوء بدر أنيس
وخد أشفّ من بهج التفـ
ـفاح من جوهرِ الحياة النفيس
وشفاه كأنها الكرز المعـ
ـطار تندى على شبابي اليبيس
فالجمال العظيم فوق سُعود
لا يُبالي بها وفوق نحوس(8)

ومن المعاني الجميلة التي أجملها في بيت شعر واحد، وصفه لعملية من عمليات الكيمياء الحيوية والكيمياء العضوية وهو يشاهد دودة من دود القز تنتج خزًا، قال:

دودة القز، بيتها صُرِعَتْ فيه
فَسَالَ الحرير يَبْرُقُ جَمًّا

وهذا البيت من قصيدة متوسطة عدد الأبيات لم يحضرني منها سوى هذا البيت الذي هو مطلعها، وكنت قد قرأتها ونسختها قبل نحو ثلاثين سنة مضت.

في سوق «الزلعة»!

والشاعر هاوٍ - فيما علمت من عاداته - ارتياد الأماكن الشعبية العامة، فهو يشتري حاجة بيته بنفسه من سوق الخضار أو سوق اللحم أو الفاكهة، أو يطوف بحلقات الذكر، ويزاحم الناس في ركوب الحافلات العامة.

وفي واحدة من تلك الزورات، ذهب إلى «سوق الزلعة»، وهي سوق شعبية تُباع فيها الأطعمة والمأكولات الشعبية، وتقع في وسط مدينة الأبيض عاصمة شمال كردفان بغرب السودان، فقال يصف أحوال تلك السوق:

وهنا في الجانب الآخر سوق
هو سوق الزلعة
وبه طبل وبوق من صرائح الرغبة
حفلت دولته في «حلة»..
ربما قلَّب عينيه خطيبًا في الجماهير الغفيرة..
مرسلاً من ناره ريح شواء..

تتهادى في الفضاء..
بنداء لم يجد فينا عصيًا..
ودعانا.. حيًا.. وتهيًا..
وحواليه الكوانين الوقوره
ولها من داخن الفحم ذريره
وحريره وضفيره..
ودخلنا مطبخًا زاط ولا قصر الإمارة
وبه البادن عراف أتته كل مارة
دارة تقعد في آثار داره..

والمجذوب يظهر ولعًا بالأكلات والأشربة كحال صاحبنا ابن الرومي، فها هو يصف وجبة سودانية أساسية «الكسرة وملاح الملوخية»، فيقول:

الله الله على الكسرة
بيضاء تهيج لها الحضرة
ويعوم بها طبق الخضرة

والنماذج الشعرية للمجذوب كثيرة، وهي تقريبًا في شعره كله الذي استغرق أربعة دواوين.

وعلى ذكر دواوينه الشعرية، قد أكشف سرًا إذا قلت إن المجذوب كان قد جعل شعره كله في ديوان واحد جعل له عنوانًا شاعريًا غير مسبوق هو «خرائب الليل».

ولكن قريبه الدكتور عبدالله الطيب المجذوب رأى تقسيم الديوان الواحد إلى عدة دواوين على النحو الذي صدرت به: كنار المجاذيب والشراقة والهجرة على سبيل المثال.

وكنت قد قمت بنسخ شعر المجذوب بخط يدي عندما بدأ التفكير في تقديمه إلى المطابع؛ ذلك أن خط المجذوب كان رسمًا للحروف أكثر منه كتابة لها..

وكنت أحضر إلى منزله الذي انتقل إليه في أحد أحياء الخرطوم غرب في الساعة الثامنة من صباح كل يوم جمعة، بحيث نبدأ في كتابة ما فرغ الدكتور عبدالله الطيب المجذوب من إجازته من شعره، وكان الدكتور عبدالله يأتي إلينا نحو الساعة التاسعة، وأحيانًا العاشرة صباحًا، ويبدأ قراءة الشعر وإجازته، في حين يملي عليَّ المجذوب الشعر وأنا أكتب.

وقد قلت في شعره بعد أن أعاد الدكتور عبدالله تقسيمه إلى دواوين عدة أوّلها ديوان نار المجاذيب:

خرائب الليل أو نار المجاذيب
أحلى من الشهد، من أنْس الرعابيب
ديوان شعر بخطي كنت أنسخه
عُلِّمْتُ منه أفانين التراكيب

تميزت علاقتي بالمجذوب بدرجة أو درجتين في مقياس العاطفة والميل الإنساني المعهود في الطبائع، وإن لم يكن ذلك لسبب معلوم أو لتفسير معقول!

وكان أقرب إلى نفسي ووجداني من صاحبينا منير ومحمد محمد علي، وإن كنت أكنّ شعورًا لا يدانيه شعور بالوفاء تجاه منير، فهو صاحب الفضل - بعد فضل الله الذي سخّر الأسباب - في اتصالي بهذه النخبة العبقرية من الناس، ومهد لي طريق الأدب بتلك الرفقة الطيبة التي دامت حتى فرقتنا ظروف الحياة في بعض الأوقات عقب النصف الأخير من الستينيات، ثم الموت بعد ذلك!

المجذوب كان الوحيد الذي لم تنقطع صلتي به ذلك الانقطاع الطويل والمثير للقلق والتساؤل، أو للاتهام بالعقوق من تلميذ لأحد أساتذته.

وذات مرة في منتصف عام 1977م، وبالتحديد في شهر أيار/مايو 1977م عدت من مطابع جريدة «الأيام» في الخرطوم بحري إلى مكتبي نهار يوم 1977/5/19م، وكان مكتب تحرير الأيام يشغل الطابق الرابع من عمارة البغدادي، وهي عمارة صغيرة تابعة لجامعة الخرطوم في قلب السوق، بها «درج قاتل» يصدق عليه قول المجذوب نفسه:

أُصَعِّدُ فيها وهي مثلي صواعد

فوجدت على مكتبي «ورقة صغيرة» مكتوبة بخطه الجميل الذي لا تخطئه عين عارف به، وقد كتب فيها العبارة التالية:

عزيزي الأستاذ الطيب
4 أدوار وتقطعت أنفاسي لأراك
لا بد أنك في القمر أيها العزيز - يا حليلك!

عمك
محمد المهدي المجذوب
1977/5/19م

وتذكرت لحظتها أنه مضى شهر لم ألتقه!
فتألمت أيما ألم ولم أشعر إلا وأنا أشعر:

كتابك يا أخا عمري عذاب
يلذعُني كأن الحرفَ ناب
تزعزعني مراميه فأشقى
برَمْيٍ دون فتكته الحرابُ!
ويأرَقُ مضجعي فيزول أمني
ويسحقني مدى ليلي اضطرابُ
أنين مُوجعٌ أسًى مُرِيعٌ
ودون كليهما في الطعم صاب
صعدت السلَّمَ الملعون شوقًا
كليل الأيْدِ زايلك الوثابُ
وكنت قبيل ذاك أراك تعدو
خفيف الخطو يحسدك الشباب

كان محمد المهدي المجذوب أشعر صاحبيه - منير ومحمد محمد علي -، وكان منير مثقفا موسوعيا، كما كان محمد أبصرهم بالنقد الأدبي

وصلتَ مقطَّع الأنفاس تبدو
كمن أغمي وقد جف اللُّعَابُ
حَرَصْتَ على الزيارة وهي فضل
يزيد به لصالحك الحساب
سبقت بها وأنت أخو سباق
أقرَّ به، وسجله «شهاب»(9)
فعذرًا يا أبا سلوى(10) وعُتْبَى
فما كان المُثِيبُ كمَنْ يُثَابُ

محمد محمد علي.. الشاعر والناقد

وإذا كنت أقول عن المجذوب إنه أشعر صاحبيه، فيمكنني أن أقول: إن محمد محمد علي كان أميز صاحبيه في النقد الأدبي، فقد كان إلى ثقافته اللغوية النحوية، وعلمه بأسرار اللغة، دقيق موازين النقد الأدبي في جانبي

الشكل والمضمون، وكان ـ أيضًا ـ شاعرًا رقيقًا وناثرًا، وهو في كليهما مبدع.

ولعل أقوى معاركه النقدية تلك التي خاضها مع الشاعر المبدع الرقيق والناثر أيضًا محيي الدين فارس عندما وصل الأخير إلى السودان من مصر، فشاع ذكره بين الأدباء والشعراء الذين قرؤوا له ديوانه الأول «الطين والأظافر». وقبل أن يرحّبوا به يتناهى إلى جماعة أجزخانة العاصمة المثلثة ما تناهى من أخبار استخفافه بأدباء وشعراء السودان، وتحدّيه لأشعرهم أو لأعلمهم بالنقد وأغزرهم ثقافة!

وربما كان محيي الدين فارس معذورًا بغيابه الطويل عن وطنه السودان لوجوده في مصر التي لم يكن إعلامها يحفل بإبراز ما في السودان من أدب وأدباء، ومن شعر وشعراء، ولهذا كانت معرفته ناقصة بمن في السودان من فحول شعر وأساطين أدب. واستطاع منير أن يثير عليه محمد محمد علي الذي انتقد ديوان «الطين والأظافر»؛ فكانت المعركة التي كانت صفحات جريدة «الرأي العام» ساحتها، وتعد من أقوى المعارك الأدبية في مطلع الستينيات، وقد جاءت بعد معركة الدكتور عبدالله المجذوب وعباس محمود العقاد على صفحات الجريدة نفسها: «الرأي العام».

وإذا لم يحضرني ـ الآن ـ نموذج من نقده، فقد تسنّى لي أن أعثر على بعض شعره، ومن ذلك قصيدة له في ديوانه «ألحان وأشجان» وهي قصيدة «حداء المحراث»:

أكسف لوني جاحم الهجير
وشدى المحراث في البكور
فمن جحيم صاخب السعير
ومن بحار جمة الهدير
ومن غدير سال في غدير
ومن مرامي سبسب مهجور
يهتز فيه الآل كالبحور
هذا ثرائي في الدنى وخيري
فهل ترى بأسا على مصيري؟!

وفي قصيدته «قرية تحت ظلال الخريف» يقول:

وَفَدَ الخريف على المروج رَخيةً أنسامه
في أسحم متدافع زحم الفضاء زحامه
حجب السماء مجلجلاً متواصلاً أرزامه
خنق الرياح جناحه، وأدَ الضياء ظلامه
يفتر في أرجائه لهب يشب ضرامه
يزوَرّ من لمعانه شيخ طغت آلامه
خبر الحياة وملّها، وتنوعت أسقامه
ذعر تطاير في الفضاء وفي الصدور مقامه
في طيه فرح يرف على القلوب سلامه

والقصيدة لها بقية، ولكنها تعكس مقدرة شاعرية فذّة في التصوير الحسي والنفسي لحال قرية في ظلال الخريف وحال شيخ من شيوخها.

وللشاعر شعر متنوع الأغراض ملتزم العمود الشعري في كل قصائده، فلم تساوره نزعة صاحبه المجذوب إلى «النثر المشعور» أو قل الشعر المرسل!

وكذلك كان صاحبهما منير الذي التزم في شعره العمود التقليدي الذي ميَّز ـ وما زال يميز ـ الشعر العربي من أشعار أمم الدنيا كلها قديمًا ووسيطًا وحاضرًا.

ومن نماذج شعره التي عثرت عليها بين أوراقي في الرياض ستة أبيات من قصيدتين له نشرتهما جريدة «الخرطوم» على ما أذكر في باب «الديوان». يقول في الأبيات الثلاثة الأولى وهي دالة على أحد دروس تجاربه في الحياة:

دنياك مازالت تضج تطاحنًا
والناس مازالوا بغير ضمير
دنياك مازالت صراعًا قاهرًا
والويل كل الويل للمقهور
إني أعيش بها على جنباتها
حذرًا وأخشى أن أُرى في النور

وفي الأبيات الثلاثة الأخرى وهي من «وطنياته» قوله:

بني وطني والمجد للعامل الذي
يُضحي لنفع القطر لا يرتجي شكرا
ففيم ـ إذن ـ نخشى الممات وحقنا
مُضاعٌ وكان الموت في حقنا أجرا
تعالوا نجاهد مستميتين في الوغى
فقد يشتفي المغبون أو يسكن القبرا

ويكفي منير فخرًا وذكرًا باقيًا أنه الأديب الشاعر الناقد والإنسان الأريحي الذي جمع إليه أدباء وشعراء السودان في «أجزخانته» التي جعل خدمة الأدب والأدباء وظيفة ثانية لها، إلى جانب وظيفة بيع الدواء، فأصبحت صانعة لتاريخ الأدب والأدباء، كما أصبحت جزءًا من ذلك التاريخ لا يمكن أن يتجاوزها المؤرِّخون للنهضة الأدبية في النصف الثاني من القرن العشرين.

الهوامش:

(1) كانت تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من عمارة «بابا دام» في وسط سوق الخرطوم التي يفصل بينها وبين السوق العربي جامع الخرطوم الكبير، وقد حل محل الأجزخانة الآن المدخل الرئيسي لفندق «إراك».

(2) منير وعبدالحميد ويحيى وسعد هم أولاد صالح عبدالقادر الذي كان أمين سر جمعية اللواء الأبيض السودانية الثورية إبان ثورة 1924م المشهورة في تاريخ السودان الحديث والمعاصر.

(3) كانت الثلاثينيات من هذا القرن تعد العصر الذهبي للنهضة الأدبية والفكرية الثقافية في شتى أبواب المعارف الإنسانية، وظهر خلالها أساطين في الأدب والشعر أمثال امحجوب وعرفات والتجاني يوسف بشير.

(4) ديك الجن هو لقب الشاعر العربي أبي محمد عبدالسلام بن رَغْبان بن عبدالسلام بن حبيب (161- 235هـ =778- 850م) المولود بحمص في سورية من شعراء الدولة العباسية.

(5) عبدالله الطيب المجذوب العلامة الثبت، أهدى ديوانه الأول «أصداء النيل» لأجزخانة العاصمة المثلثة عرفانًا منه بدورها ودور مديرها منير صالح عبدالقادر في خدمة الأدب ورعاية الأدباء والشعراء.

(6) مجلة الدراسات السودانية (شعبة أبحاث السودان) تصدرها جامعة الخرطوم، مقال «أثر النزعة للرسم في الصورة الشعرية لمحمد المهدي المجذوب في ديوان نار المجاذيب»، بقلم الدكتور عبدالرحمن عبدالرؤوف الخانجي، ص 27، العدد الأول آب/أغسطس 1975م.

(7) لوسي هي فتاة أرمنية ـ أو لعلها قبطية ـ رائعة الجمال كانت تعمل كاتبة على الآلة الكاتبة مع الشاعر في المصلحة الحكومية نفسها، وربما في مكتبه نفسه، وكان من عادتها أن تقطع المسافة بين بيتها والمصلحة مشيًا على قدميها في شارع الجامعة في الخرطوم، وكان موظفو المصالح الحكومية الواقعة على جانبي الشارع كمصلحة البريد ومصلحة الإحصاء يترقبون مرورها بهم ليملؤوا عيونهم بجمالها وهم مطلون عليها من نوافذ مكاتبهم، وذات يوم التفت الشاعر من الشباك الذي خلفه يترقبها فرآها مقبلة عليه فصاح: «تلك لوسي..» وهنا صاح رفقاؤه في المكتب: أكمل يا أستاذ، فكانت القصيدة!

(8) البيت الأخير من قصيدة «لوسي» يعالج قضية عقائدية شائعة في السودان وهي قضية رقية البنت الجميلة خوفًا عليها من «العين»، ولكن المجذوب له رأي آخر؛ إذ يرى أن الجمال العظيم لا يحتاج إلى رقية تحفظه من العين ومن الحسد، فهو فوق السعود وفوق النحوس، فهي لا تؤثر فيه.

(9) شهاب هو لقب منير صالح عبدالقادر الذي كان يوقع به مقالاته وبعض قصائده.

(10) سلوى هي الابنة البكر للأستاذ المجذوب، وكانت في الخامسة أو دونها عندما كنت أزور والدها في البيت في جلساتنا لنسخ ديوانه.

الحافلة الجوية

وقصة تطوّر تقنيات الطيران التجاري

عدنان عضيمة

لم يعد حلم الإنسان بالطيران ومحاكاة العصافير كما كان عليه في أيام عباس بن فرناس ودايدالوس وإيكاروس، بل شهد تغيرات كثيرة وعميقة عقب النجاحات المتوالية التي حققها مهندسو الطيران ذوو القرائح التي لا تجف والمخيلات التي لا تنضب. ومع ذلك فلم يزل الطيران بتقنيات الطيور ـ لا الطائرات الجامدة ـ هدفًا بعيدًا أنّى للتقنيات الحديثة أن تبلغه مهما تطورت.



حافلة جوية خلال أحد أطوار بنائها في مستودع التجميع في هامبورغ



من أجل ضمان سرعة العمل وربح الوقت تقوم طائرة ضخمة بنقل أجزاء الحافلات الجوية من أماكن تصنيعها في فرنسا وبريطانيا وإسبانيا وألمانيا إلى محطتي تجميعها في تولوز وهامبورغ

ومنذ أكثر من عقدين من الزمان بدأ بعض الخبراء بإجراء دراسات جدية على تقنيات حركة الطيور في أثناء الطيران للوقوف على الأسباب المفصلة لمرونتها وأدائها الأمثل، إلا أن الأمر الذي عقّد إجراء مثل هذه الدراسة هو سرعة حركة أجنحتها التي لا تسمح لعين الإنسان بمتابعتها. ولقد تمكن المصور الفوتوغرافي والطيار الهاوي ستيفن دولتين STEPHEN DOL-TIN قبل 15 عامًا من التقاط مجموعة من الصور النادرة لمراحل طيران مجموعة من الطيور باستخدام عدسة بالغة السرعة؛ فتبين منها أن لتغيير شكل الجناحين دورًا مهمًا في تحقيق المرونة المثالية في أثناء الإقلاع والتحليق والهبوط. ولقد دفع هذا الاكتشاف مهندسي الطيران إلى إضافة الجُنيحات المتحركة إلى أجنحة الطائرات لتحقيق المرونة الكافية للحركة نظرًا لاستحالة تصميم طائرة ذات أجنحة متحركة. ولم يكتف المهندسون بإضافة هذا الابتكار، بل راحوا يطورونه في إطار السعي الدؤوب نحو تحقيق هدف تحسين أداء الطائرات وزيادة عوامل أمنها وسلامتها وتوفير الطاقة التي تصرفها.

ويعتقد المهندسون الأوربيون اليوم أنهم تمكنوا من قطع أشواط جديدة لبلوغ هذا الهدف بعد التطورات المثيرة التي تمكنوا من إضافتها - مؤخرًا - إلى الجيل الجديد من عائلة «الحافلة الجوية» AIR-BUS. وتجلى هذا النجاح بابتكار نظام الأجنحة المتكيفة ADAP-TIVE WINGS الذي ينبني مفهومه على إضافة العديد من الوظائف الجديدة للجُنيحين المتحركين المتمفصلين مع الجناحين الثابتين؛ بحيث تم تزويدهما بالعديد من المجسات الذكية التي تتحسس حركة الرياح والإجهادات الناتجة من الصدمات الهوائية فيتحركان بالشكل الذي يُمكِّن الطائرة من التكيف مع الظروف المتنوعة في أثناء الإقلاع أو التحليق المستقر أو الهبوط. ويعد هذا الابتكار حجر الأساس في إرساء قواعد تقنية جديدة في عالم الطيران ترمي إلى خفض كمية الوقود المستهلك إلى النصف خلال السنوات العشرين المقبلة. وبالإضافة إلى الوفر في الوقود، يسعى المهندسون إلى حل العديد من المشكلات المعقدة والمستعجلة التي تتعرض لها الطائرات، ومن أهمها:

* التحكم في الدفق الهوائي المضطرب AERODYNAMIC FLOW الذي يُعَرِّض الطائرة لقوى وإجهادات عشوائية غير مرغوب فيها تؤثر في توازنها في أثناء الطيران، وتكون سببًا في هدر نسبة مهمة من الوقود بلا فائدة.
* أن الأجنحة الجامدة RIGID WINGS لا تحقق الإقلاع المثالي والانسياب المرغوب فيه ضمن الهواء إلا خلال أطوار معينة من مراحل الطيران المتغيرة وعند أوزان معينة.

وكانت الأجنحة المتكيفة تمثل الحل المناسب لهذه المشكلات. لذا فقد تمكن المهندسون الأوربيون من تركيب أول نظام منها في الطراز الأحدث للحافلة الجوية المسمّى AIRBUS 340 الذي دخل الخدمة الفعلية منذ مدة قصيرة. وكانت لهذا الإنجاز نتائجه المهمة التالية:

* تخفيض صرف الوقود للراكب الواحد عن كل ميل (وهو مقياس يُعمل به في حقل هندسة الطيران) إلى نصف قيمته المسجلة في النماذج الأقدم من سلسلة AIRBUS 300 التي دخلت الخدمة الفعلية منذ بدايات عقد السبعينيات. ولقد أدى ذلك إلى تحقيق فوائد مباشرة للمسافرين لأنه سمح بتخفيض أثمان تذاكر السفر عن القيم المتوقعة فيما لو بقيت الأمور على حالها. وعلى سبيل المثال، يمكن للحافلة الجوية AIR-BUS 340 أن توفر 20000 لتر من الكيروسين في رحلة من فرانكفورت إلى هونغ كونغ.
* الترحيب الذي لقيه هذا التطور من منظمات حماية البيئة بحسبانه ينطوي على تخفيض أضرار تلوث الهواء بعادم الكيروسين. ولقد تعالت أصوات احتجاج هذه المنظمات - مؤخرًا - عقب نشر إحصاءات وتوقعات تتكهن بمضاعفة حركة الطيران المدني في غضون السنوات الخمس عشرة المقبلة. وعلى هذا يمكن

القول إن هذه التقنية الجديدة سوف تسمح بمضاعفة حركة الطيران في المرحلة القادمة مع الإبقاء على نسبة التلوث ثابتة على ما هي عليه الآن.

وأشارت إحصائية نشرتها وكالة الطيران والفضاء الأوربية - مؤخرًا - إلى أن إمكانات الوفر في الوقود التي يمكن تحقيقها من استغلال الدراسات والبحوث المتعلقة بتأثير الدفق الهوائي المضطرب في الحركة يمكن أن تصل إلى 36٪ بالنسبة للحافلات الجوية النفاثة. وبطبيعة الحال، فإن تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى القدر الكبير من الدقة والمهارة؛ نظرًا للتعقيدات الهائلة التي تنطوي عليها الدراسات المتعلقة بالطيران والدفق الهوائي المحيط بالطائرة خلال الأطوار والسرعات المختلفة للطيران. ومثال ذلك ما لاحظه المهندسون - مؤخرًا - من أن وجود مسامير البرشمة RIVETS التي تثبّت صفائح الألمنيوم على هيكل الطائرة تؤدي دورًا مهمًا في تغيير القوى والإجهادات الهوائية المؤثرة في الطائرة برمتها فيُعرِّضها للكثير من القوى والإجهادات غير المرغوب فيها. ولعل هذه الاكتشافات حول مدى حساسية حركة طائرات المسافرين هي التي دفعت مهندسي الطيران إلى تثوير الابتكارات المتعلقة بها والتعمق البالغ في دراستها وإعطائها الأفضلية في برامج البحوث العلمية الأوربية.

ويتم إجراء البحوث المتعلقة بالدفق الهوائي المضطرب في نفق يُوضع فيه نموذج للطائرة قابل للحركة في الاتجاهات كافة. ثم تعمل محركات ضخمة على ضخ الهواء عبر النفق نحو مقدمة الطائرة محاكاةً لما يحدث عند اختراقها الهواء بسرعات وزوايا مختلفة في أثناء طيرانها الفعلي، ويتم تحديد الإجهادات والقوى التي تتعرض لها أجزاؤها كافة بكواشف خاصة تتألف من عشرات المجسات المثبتة في نقاط متباعدة تحت صفائح الهيكل والجناحين تنقل النتائج إلى «الحاسوب الخارق» SUPER COMPUTER بشكل مستمر، فيُشكِّل منها مجموعة من الصور الفسيفسائية الملونة التي توافق ألوانها تغير الإجهادات من نقطة إلى أخرى.

ولقد فتحت هذه التجارب آفاقًا واسعة لتطوير النماذج الجديدة للحافلة الجوية بعد أن أوحت بابتكار يكتسب أهمية كبيرة، ويتمثل في حفر مجموعة من الثقوب الصغيرة في الجناحين تتولى مهمة شفط الهواء بعيدًا من حوافها الأمامية بما يضمن تحاشي حدوث الإجهادات والاضطرابات الهوائية غير المرغوب فيها. ويجري الآن توسيع تطبيقات هذه التقنية لتشمل جُنيحات الذيل.

وتحقق الأجنحة المتكيفة فوائد مهمة لكل من شركات الطيرات وصنّاع الطائرة. فشركات الطيران ستستفيد من وفر الوقود وجلب عدد أكبر من المسافرين نظرًا لما يمكن أن تحققه هذه التقنية الجديدة من تخفيض في معدل الكوارث الجوية. وأما مصانع الطائرة فسوف تستفيد من مزية تحقيق نسبة أعلى من المبيعات نظرًا لهذه المواصفات التقنية المتميزة التي تقدمها للعملاء.

وأعلنت مؤسسة ديملر - بنز الألمانية عن اقتراب استكمال البحوث لصنع جُنيحات من ألياف الكومبوزيت المقاوم - FIBER REINFORCED COMPOSITE بدلاً من الألمنيوم. ويجمع هذا المركب الجديد بين خفة الوزن التي من شأنها تحقيق وفر إضافي في الوقود وتسهيل استجابة الجُنيح للحركة وفقًا للتعليمات الآلية التي تصله من مجسات مراقبة الإجهادات والقوى الهوائية. يضاف إلى ذلك أن تكاليف تصنيع الجُنيحات من هذه المادة أقل بكثير من تكاليف تصنيعها من الألمنيوم.

ولا تمثل كل هذه الفوائد التي



إقلاع نسر من قاعدة ثلجية.. هل يتمكن مهندسو الطيران من تحقيق مثل هذه المرونة في حركة الطائرات؟



تؤدي حركة الأجنحة دورًا مهما في التكيف مع أطوار الطيران المختلفة، ويبحث المهندسون اليوم عن طرق محاكاتها بإضافة الأجنحة المتكيفة

ستجنيها وكالة الطيران والفضاء الأوروبية من وراء تصميم الأجنحة المتكيفة سوى جزء من القصة. ذلك لأنه سيمكنها أيضًا من استقطاب مسافرين من شركات الطيران العالمية بسبب مرونة هذه التقنية في تلبية الطلب على الطائرات المخصصة للخطوط القصيرة أو الطويلة، بالإضافة إلى تحقيقها زيادة معتبرة في وزن الأحمال المسموح بها للراكب الواحد.

قصة الحافلة الجوية

يعود تأسيس مصانع الحافلة الجوية الأوروبية إلى عام 1970م. وبعد ذلك بعامين فقط حلّقت أولى طائراتها من طراز AIRBUS 300 في الأجواء معلنة بذلك دخول عالم الطيران المدني حقبة جديدة من التطور والتنافس على اقتحام السوق الدولية. ومنذ بداية عهدها بدخول هذه السوق أعلن مصمموها بأنهم عازمون على توظيف أكثر التقانات تطورًا وتعقيدًا ضمن خطط (استراتيجية) مدروسة بكل دقة للاستجابة لمتطلبات الطيران المدني الحديث. ولقد أُدرجت النجاحات التي حققتها منذ تلك الحقبة وحتى منتصف العام الميلادي الحالي 1996م في إحصائية نشرتها وكالة الطيران والفضاء الأوروبية - مؤخرًا - ذكرت فيها أن 164 شركة من شركات الطيران عبر العالم اشترت ما مجموعه 1850طائرة من مختلف نماذج الحافلة الجوية. كما



حافلة جوية على وشك دخول الخدمة

الحافلة الجوية

وقصة تطور تقنيات الطيران التجاري

أشــــارت الوكــــالة إلى تَمَكُّن المهندسين خلال هذه الحقبة من إضـافـة العـديد من الابتكارات المتوالية إلى الطائرة، من أهمها نظام «التحكم العشري بالطيران» -DIG-ITAL FLIGHT CONTROL، وهو يمثل نظام ضبط حاسوبي لحركة الطائرة ووجهتها، بالإضافة إلى تصاميم جديدة للجناحين وأنظمة توفير الوقود.

وتم تأسيس مصانع الحافلة الجوية بالتعاون بين عدة شركات ووكالات أوربية؛ حيث ساهمت فيها شركة ديملر - بنز الألمانية بنسبة 37,9٪، ووكالة الطيران والفضاء الفرنسية AEROSPATIALE بنسبة مماثلة، ووكالة الطيران والفضاء البريطانية BRITISH AEROSPACE AGENCY بنسبة 20٪، ووكالة الطيران والفضاء الإسبانية CASA بنسبة 4,2٪ . ومنذ إنشائها حتى الآن طُرحت في الأسواق نماذج ذات درجات تطور متصاعدة من الطائرات ندرج مواصفات بعضها في الجدول التالي:

الطراز	عدد المحركات	الطول (أمتار)	السعة القصوى (عدد المسافرين)
A 319	2	34	124
A 330	4	64	335
A 340 - 300	4	64	295

وقد أصبح إنتاج النماذج المطورة من الحافلة الجوية أكثر سرعة من ذي قبل نظرًا للخبرة الواسعة التي بات المهندسون يتمتعون بها من جهة، ولتطور وسائل التصميم الهندسي بعد ابتكار تقانة التصميم بمساعدة الحاسوب -COMPUTER - AID ED DESIGN من جهة أخرى.

وأشارت الوكالة أيضا إلى أن عدة نماذج جديدة من الحافلة ستظهر قريبًا. وتضاف إلى ذلك كله ميزة اختصار الوقت اللازم لبناء الطائرة الواحدة ضمن خط إنتاجها إلى النصف؛ حيث يستغرق تجميعها في الوقت الراهن عشرة أشهر في مصانعها في كل من مدينتي تولوز الفرنسية وهامبورغ الألمانية، بينما كان ذلك يستغرق قرابة عامين في عقد السبعينيات. وفيما يتعلق بمستقبل الطلب على الحافلة الجوية توقعت الوكالة أن يصل إلى 11300 طائرة جديدة من النماذج الأكثر أمنًا والأقل مصروفًا وتلويثًا للبيئة خلال السنوات العشرين القادمة، ويقدر ثمنها بنحو 845 مليار دولار. 4800 من هذه الطائرات ستفوق سعتها 210

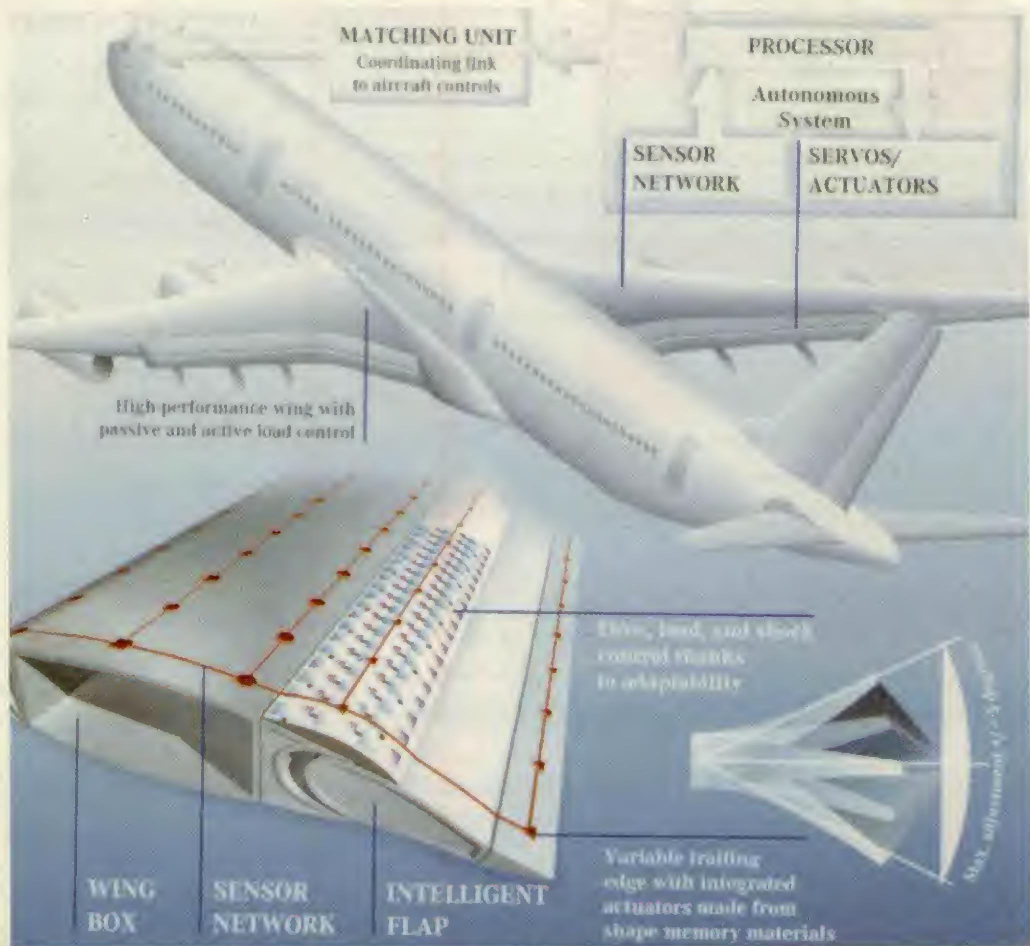


A 340 أحدث نماذج الحافلة الجوية

ركاب، ويقدر ثمن الواحدة منها بنحو 100مليون دولار.

وتكمن أهم العوائد الاقتصادية التي جنتها الدول الأوروبية الأربع المشاركة في مشروع إنتاج وتطوير الحافلة الجوية في تشغيل عدد كبير من المهندسين والكوادر التقنية الماهرة. وبلغ عدد المحطات المخصصة لصنع أجزاء الحافلات الجوية وتجميعها في ألمانيا وحدها تسع محطات، تُشغِّل18500مهندس وخبير.

ويتم تجميع الحافلات الجوية في كل من هامبورغ في ألمانيا وتولوز في فرنسا، في مستودع ضخم يبلغ 300 متر طولاً ومثلها عرضاً ويزيد ارتفاعه على 30 متراً. ويستغرق الصوت المنطلق قريباً من أحد الحوائط ثانيتين حتى يعود صداه بعد أن ينعكس عن الحائط المقابل. ويوجد بالقرب من المستودع مطار خاص يستقبل الطائرات الضخمة الحاملة لأجزاء الحافلات الجوية؛ حيث تصل مؤلفات الهيكل



تسمح الأجنحة المتكيفة الجديدة بتحقيق مرونة أكثر في التكيف مع ظروف الطيران وتخفيض الوقود المصروف وإنقاص درجة التلوث بعادم الكيروسين


هكذا يتم تثبيت أجزاء الجناح بمسامير البرشمة. سيتحول الحيز الفارغ ضمن الجناح في النهاية إلى خزان وقود للطائرة


الأنبوب الأمامي لهيكل الطائرة في أثناء توصيل الكابلات الكهربائية والأنابيب الهيدروليكية التي تبدو كأنها متاهة محيرة

الأنبوبي الأساسي من غرب فرنسا على شكل حلقات يصل قطر بعضها إلى أربعة أمتار، بينما تصل الأجنحة الكاملة من بريطانيا والأذيال الأفقية من إسبانيا. ويقول المهندس الألماني كاي كيوك kai kiock الذي يرأس قسم تصميم وتطوير الحافلة الجوية في ألمانيا: «عندما تسير الأمور وفق الخطة المرسومة، فإن أيًا من مؤلفات الطائرة لا يمكن أن يستغرق أكثر من 36 ساعة حتى يصل من مصنعه إلى محطة التجميع في هامبورغ». وعلى الرغم من أن شركة بوينغ BOEING الأمريكية لصناعة الطائرات تعد المنافس العنيد ضارب إلى الصفرة لحمايتها من عوامل التلف والتآكل. وعند الشروع في بناء طائرة جديدة يتم تثبيت الأجزاء الأنبوبية بعضها إلى بعض في خطوة أولى. بعد ذلك يشرع الكهربائيون ومهندسو الهيدروليك في توصيل الكوابل والأنابيب حتى تبدو للناظر إليها كأنها متاهات لا تعرف لها بدايات أو نهايات. ويبدو العاملون والمهندسون في هذه المرحلة كثيري الحركة قليلي الكلام، وكل منهم يؤدي عمله وفق خطة مرسومة ومحددة مسبقًا، فترى منهم من يشتغل بتثبيت الأرضيات المصنوعة من أليـاف الكربون كزيادة عدد المقاعد أو إنقاصه أو تغيير طريقة ترتيبها وتحديد ألوان ونوعية أقمشتها بما يتفق مع سياستها في إرضاء عملائها من الركاب وتعزيز قدرتها على التنافس مع الشركات الأخرى. ولقد بلغت هندسة الإنشاءات الداخلية للحافلة الجوية حدًا من التعقيد جعلها - على سبيل المثال - تعرض على عملائها 3600 اختيار لوضعية المراحيض وحدها.

وينطوي تركيب جناحي الطائرة على الهيكل على قدر كبير نوربرت كوزوش NORBERT KOSUCH من محطة تجميع الحافلات الجوية الواقعة على ضفة نهر (إلب) ELBE مبلغ هذه الدقة بالقول: «إنها تبلغ درجة من الحساسية تجعل مجرد الارتفاع أو الانخفاض التافه في منسوب الأرض الناتج من تأثيرات مد وجزر مياه النهر يخلق لنا الكثير من المتاعب». ويتم تثبيت كل جناح في الهيكل بألفي مسمار برشمة من أجل ضمان تحمله للاجهادات الهوائية العنيفة في أثناء الطيران. وبعد ذلك يُغطى هيكل الجناح بصفائح الألمنيوم المبرشمة بكل دقة نظرًا لأن الحيز الداخلي للجناح سيصبح الخزان الرئيسي للكيروسين ويتسع لقرابة 23000 لتر منه.

ولعل المراحل الأكثر تعقيدًا في بناء الحافلات الجوية هي تلك التي تشمل تركيب المحركات وغرفة القيادة وأجهزة القياس. وكل من هذه المراحل تخضع للألوف من عمليات الاختبار والتدقيق. وحالما تكتمل هذه المراحل والاختبارات بنجاح يتم إخراج الحافلة الجوية الجديدة من مستودع التجميع إلى ساحة خارجية حيث تُشغَّل محركاتها وتُختبر أجزاؤها، وتأتي الخطوة الأخيرة قبل تسليمها إلى شركة الطيران والمتمثلة برحلة جوية تجريبية، يتم بعدها طليها بألوان وشعار الشركة لتبدأ بعد ذلك في دخول الخدمة الفعلية.

وخلاصة الأمر أن صناعة الطائرات عمل مخطط ودقيق ينطوي على أعلى المهارات التي تمكن الإنسان من تحقيقها في حقول التقانات العالية.



نموذج لحافلة جوية في أثناء إجراء اختبارات الإجهادات المؤثرة في الهيكل ضمن النفق الهوائي

للحافلة الجوية؛ إلا أن أجزاء طائراتها تستغرق بضعة أسابيع حتى تصل إلى محطة التجميع بعد أن تعبر السهوب الأمريكية الوسطى بالقطار أو تُنقل بحرًا من طريق قناة بناما.

وعندما تصل الأجزاء الأنبوبية إلى مستودع محطة التجميع تكون مطلية بدهان زيتي ذي لون أخضر المقسّي، كما تجد آخرين مشتغلين ببرشمة الأجزاء لتثبيتها إلى بعضها، ومنهم من يكون مشتغلاً بتثبيت جدران وأرضيات غرفة القيادة أو قمرة المضيفات أو المراحيض أو رفوف التخزين. وكثيرًا ما يتدخل خبراء شركات الطيران في مرحلة البناء لطلب إضافات خاصة على طائراتهم؛ من الدقة بحيث يتخذ كل جناح وضعيته الصحيحة والمحددة مسبقًا بدقة قياس لا تتعدى جزء المائة من المليمتر. ومن أجل تحقيق هذا الشرط يتم تحريك الجناح على طاولة مضبوطة بالحاسوب -COM PUTER - CONTROLLED TABLE تتولى تحديد وضعيته على الهيكل. ويوضح المهندس الألماني



حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألّفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

ما تلحن فيه العامة

لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي (199 - 189هـ)

كتاب في اللغة يكشف عن الوجه الصحيح لكثير من الكلمات التي يجري الخطأ فيها على ألسنة العامة، فيلتبس عليهم ضبطها، أو يغيب عنهم سبيل تعديتها أو تصريفها كقوله (ص:100، 102):

وتقول قد نَفِدَ المال والطعام، بكسر الفاء. قال الله تعالى: *قلْ لو كان البحرُ مداداً لكلمات ربي لَنَفِدَ البحرُ*. **الكهف**: 109.

وتقول: شكرتُ لك ونصحت لك، ولا يقال: شكرتك ونصحتُك. وقد نصح فلان لفلان، وشكر له، هذا كلام العرب. قال الله تعالى: *اشكُرْ لي ولوالديك*. **لقمان**: 14. *واشكُرُوا لي ولا تكْفُرونَ*. **البقرة**: 152. *ولا يَنفَعُكم نُصحي إن أردتُ أنْ أنصحَ لكم*. **هود**:34.

فالمؤلف يثبت الصحيح لعين الفعل الثلاثي «نَفِد»، ويذكر الوجه الصحيح في تعدية فعلي «شَكر ونصح» وأنهما يتعديان باللام لا بأنفسهما.

والكتاب صغير الحجم، غزير الفوائد، نُسب إلى أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي، أحد القرّاء السبعة، ورأس مدرسة الكوفة النحوية في عصره.

والمؤلف - على شهرته الكبيرة، وعلى خطر المناصب التي اضطلع بها - وقع خلاف في كنيته فقيل: هو أبو الحسن، أو أبو عبدالله. واختُلف في سبب تلقيبه بالكسائي وذهبوا في تعليل ذلك مذاهب، منها أنه حج فأحرم في كساء، ومنها أنه كان يلتزم لبس الكساء، ويحضر به مجالس شيوخه كمعاذ بن مسلم الهراء (ت:187هـ) وحمزة بن حبيب الزيات (ت:156هـ) في الكوفة، وقد أحرم فيه أيضا، وهو ما يرجّحه أكثر الدارسين له.

كما وقع خلاف في سنة وفاته، وسبب طلبه علم النحو وتوسعه في اللغة، وسنة وفاته، ونسبة هذا الكتاب «ما تلحن فيه العامة» إليه، وقد أطال محقق الكتاب د. رمضان عبدالتواب النظر في هذه المسائل الخلافية كلها، ورجّح بعضها على بعض، وأنكر بعضها لأسباب ذكرها في مقدمته الضافية التي سبقت نص الكتاب، وتتبع فيها أخبار الكسائي في كتب التراجم والطبقات والقراءات، وصوّر فيها حياة هذا العالم الكبير، وأحاط بكل ما رُوي عن طلبه للعلم، ورحلاته في سبيل ذلك، وصلته بالمهدي والرشيد، وتأديبه للأمين والمأمون، ونبوغه في اللغة بشكل خاص، وعنايته الشديدة بكتاب الله، وترجيحه لإحدى القراءات التي نُسبت إليه بعد ذلك، وغدا بذلك أحد القراء السبعة. ويمكن أن نستخلص من ذلك الحقائق التالية:

1- اسمه: علي بن حمزة الكسائي أبو الحسن، قدّروا أن مولده كان نحو عام 119هـ، وأن وفاته كانت نحو عام 189هـ، على وجه الترجيح لا اليقين في التأريخين.

2 - دخل الكوفة وهو صغير. فحفظ القرآن عن ظهر قلب، وتلقاه مشافهة عن قراء الكوفة المشهورين، وأكبرهم حمزة بن حبيب الزيات الذي «استمدّ منه الكثير من عناصر قراءته».

3 - يُروى أنه أخطأ في كلمة عابوها عليه، فانصرف إلى دراسة علم اللغة في مجالس معاذ الهراء، والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: نحو 175هـ) في البصرة، ثم خرج إلى البادية يستمع إلى الأعراب ويسجّل ما يسمعه منهم حتى أنفد - كما تذكر المصادر - خمس عشرة قنينةً من الحِبر، سوى ما كان يحفظه حفظًا، وعاد إلى البصرة، وتصدّر للتدريس، وذاعت شهرته حتى وصلت أخباره إلى الخليفة المهدي العباسي الذي أحضره إلى بغداد، وامتحنه في بعض المسائل وأعجب به؛ فجعله مؤدبًا للرشيد الذي جعله مؤدبًا لولديه الأمين والمأمون بعد أن بويع بالخلافة.

4 - تلقى العلم عن أشهر علماء عصره، وكان له بعد ذلك تلاميذ كثيرون جدًا.

5- قامت شهرة الكسائي على اختياره قراءة نُسبت إليه، واتخاذه مذهبًا في النحو يخالف فيه مذاهب نحاة البصرة، وقد درج الدارسون على إطلاق اسم: مدرسة البصرة على الخليل بن أحمد وسيبويه ومن نحا نحوهما؛ ومدرسة الكوفة على الكسائي والفرّاء ومن أخذ بطريقتهما.

6 - تذكر المصادر للكسائي كتبًا كثيرة في النحو واللغة والقراءات، ضاع أكثرها، ولم يصل إلينا إلا القليل منها.

7 - كتاب «ما تلحن فيه العامة» الذي نُشر أكثر من مرة، كان أفضلها، وأكثرها ضبطًا طبعة مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، والتي حققها وقدّم لها وعلق عليها د. رمضان عبدالتواب. وقد ذكر في مقدمته أن كثيراً من الدارسين شكّوا في وضع الكسائي للكتاب، فالمؤرخون وأصحاب التراجم لم يذكروه بين كتبه، وما وُجد منه مخطوطا لم يسلم من اختلاف الروايات فيه، وذكر ما يخالف المشهور من أقواله...

ولعل النسّاخ زادوا فيه، أو لعل بعض التعليقات عليه قد دخلت بعد ذلك في المتن. ولعله كان أول كتاب يحاول مؤلفه جمع ما تلحن فيه العامة، وقد كثرت الكتب التي نحتَ هذا المنحى، وتعددت سبل أصحابها وطرائقهم فيها، منها: إصلاح المنطق لابن السكيت (ت:244هـ)، وتصحيح الفصيح لابن درستويه (ت:347هـ) وشرح ما يقع فيه التصحيف لأبي أحمد العسكري (ت:382هـ) وما تلحن فيه الخاصة لأبي هلال العسكري (ت:395هـ) ودرة الغواص في أوهام الخواص للحريري (ت:516هـ)، وخطأ العوام للجواليقي (ت:540هـ) ولحن العوام للزبيدي (ت:893) وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجي (ت:1069هـ). وغيرها كثير.

8 - ليس في الكتاب منهج واضح في ترتيب الكلمات، لذا قام محمد بن أحمد العلائي من علماء القرن العاشر بترتيب مادته ترتيبًا هجائيًا، وإن كان قد زاد فيه أشياء، استقاها من كتب لحن العامة، يقول في أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم. ما تلحن فيه العامة، ويشتبه على بعض الخاصة، مما أسسه الإمام العلامة أبو الحسن علي الكسائي... رتبته على حروف المعجم... وسميته بالنصيحة التامة للخاصة والعامة، مضيفًا إليه ما أمكن إلحاقه وزيادته، لتتم بذلك فائدته».

9- نسخ الكتاب التي اعتمدها المحقق، نسختان منشورتان: أولاهما بعناية بروكلمان، والثانية بعناية الأستاذ عبدالعزيز الميمني؛ وهناك مخطوطة برلين في ثماني صفحات، ومخطوطة مكتبة المتحف العراقي في إحدى عشرة صفحة، ومخطوطة العلائي في استانبول في ست ورقات، ومخطوطة دار الكتب المصرية، وعنوانها: «كتاب الإفهام فيما تلحن فيه العوام» للكسائي، ويبدو أنها ضمت إلى كتاب الكسائي أشياء، ونقصت منه أشياء.

10- في الكتاب ذكر لمئة وسبع كلمات مما يُخشى خطأ العامة فيه كما قدمنا. والكسائي يؤيد ما يذكره من الوجه الصحيح للكلمات بنصوص من القرآن الكريم غالبًا، وبما روي من شعر الشعراء الذين يُحتج بلغتهم، وأقوال فصحاء العرب. وهو حريص على ضبط الكلمات والحروف بذكر الحرف وحركته كما رأينا في الأمثلة التي ذكرناها في صدر هذه الكلمة.

ونختم كلمتنا هذه بمثال أخير يمثل وجهًا من وجوه طريقة الكسائي يستند فيها إلى الشعر: «وتقول: غَثَت نفسي ولا يقال غَثيَت بالياء. وكذلك غَلَت القدر بلا ياء» وتقول: أغْلقت الباب فهو مُغْلَق، ولا يقال: مَغْلوق. قال حاتم الطائي:

ولا أقول لقدرِ القوم قد غَليَت
ولا أقول لبابِ الدار: مغلوق
لكن أقول : غَلَت للقوم قدْرُهم
والباب مُغلَقٌ أو فالباب مصفوقُ

ص:121: 50؛ 51. وقد نُسب الشعر لأبي الأسود الدؤلي، وهو بأقواله (أشبه)

شعر

من روائع لافونتين

«عُرفت أساطير الشاعر الفرنسي «لافونتين» بأنها ذاتُ بُعْدَيْن.. تقرؤها طفلاً فتستمتع بظاهرها. وتعودُ إليها كهلاً فيفاجئك عُمْقُ باطنها وجمالُ حكمتها...».

قصيدة :

الشمس والقمر

ترجمها شعرًا:
أحمد عبدالسلام البقالي

بحُسنِهِ زها القمرْ   على النجوم وافتخرْ
والشعَراء نوَّهوا   بفضله على البشرْ
فاغترَّ بالنور الذي   يَشِعُّ كلما ظهرْ
واستصغر النجوم في   عرض الفضاء واحتقرْ
وذاتَ يوم جاءه   نجمٌ، وقال: «يا قمرْ
دعِ الغرورَ، وتوا   ضعْ للكواكب الأخَرْ
ما أنت إلاَّ صخرةٌ   مظلمة من الحجرْ
لولا ضياء الشمس ما   كنت تلوح لنظرْ!»
فغضب البدر، وطا   ر من حواليْه الشررْ
وأخذته عِزَّةٌ   بالإثم، والعزة شرْ
ولعن الشمس جهـا   را وبفضلها كفرْ
فابتسمت له ذُكا   ءُ، حين جاءها الخبرْ
وحجبت ضياءها   عنه، فغاب واستترْ
وبلعته الظُّلُما   تُ وأحاطه الكدرْ
ولم يعد له بها   ء يتملاَّه البصرْ
ولم يعد يسمع مد   حًا أو ثناءً من بشرْ
فدار حول نفسه   وكرَّ في الجو وفرْ
لعله يسترجع الـ   نور الذي منه نفرْ
غروره أوحى له   بأنه عنه صدرْ
لم يشكر الشمس على   ضيائها ولا اعتذرْ
لم يعترف بفضلها   وبعدائها جهرْ
فزاد غيظه وضا   قَ صدره حتى انفجرْ
ولم يعد له وجو   دٌ في السماء أو أثرْ
واختارت الشمس سوا   ه من ملايين الحجرْ
ونورته فغدا   في الكون ثانيَ قمرْ
فحمد الله على   ذاك الضياء وشكرْ
من يعترف بالفضل يعـ   لُ قدره، ويُعتَبَرْ
أما الذي ينكره،   فذنبه لا يُغتَفَرْ!

نافذة على ثقافة العالم

النقد

من النظرية إلى التطبيق

1

في عام 1988م أصدر البروفيسور كي. إم. نيوتن كتابه: النظرية الأدبية في القرن العشرين Twentieth Century Literary Theory، وكان تقديمًا لأهم التيارات والخلافات النقدية التي يموج بها هذا القرن. وكتاب اليوم: من النظرية إلى التطبيق: قراءات من النقد الأدبي الحديث Theory into Practice: A Reader in Modern Literary Criticism (1992م) هو تطبيق عملي لما ورد في النظريات التي تحدث عنها الكتاب الأول. فنحن أمام كتابين: الأول نظري بحت، والثاني عملي. والكتابان من إصدار دار ماكميلان في بريطانيا.



تأليف:
كي. إم. نيوتن
عرض وترجمة:
د. بشير العيسوي

«من النظرية إلى التطبيق» يقع في ثلاثمئة وإحدى وعشرين صفحة من القطع المتوسط، وينقسم إلى مقدمة قصيرة في سبع صفحات، تليها ستة فصول. الأول: النقد الجديد ومدرسة ليفيز النقدية، ويقع في إحدى وثلاثين صفحة، ويمثل له بالناقدَيْن كلينث بروكس، وفرانك ريموند ليفيز. الثاني: الشكلية، الخطاب، البنيوية، ويقع في ثمان وثلاثين صفحة، ويمثل له بثلاثة نقاد، هم: فيكتور شكولوفسكي، ومايكل باختين، وديفيد لودج. الثالث: النظريات المتجهة إلى القارئ، ويقع في خمس وأربعين صفحة، ويمثل له بالناقدَيْن: ولفجانج إيسر، وستانلي فيش. الرابع: ما بعد البنيوية، ويقع في سبعين صفحة وهو أكبر فصول الكتاب، ويمثل له بأربعة نقاد، هم: جي. هيليز ميلر، جاياتري سبيفاك، كاثرين بلسي، وشوشانا فيلمان. الخامس وهو من جزأين: أ. النقد النسائي، ويقع في تسع وأربعين صفحة، ويمثل له بناقدتين، هما: إيلين شوالتر، وباربارا جونسون، ب ـ نقد الملونين، ويمثل له بالناقد هنري لويس جيتسن. السادس: السياسة والتاريخ، ويقع في ست وستين صفحة، ويعد ثاني أكبر فصلين من حيث عدد الصفحات، ويمثل له بأربعة أعلام، هم: تيري إيجلتون، ستيفن جرينبولت، آلان ستيفيلد، وإدوارد سعيد. وفي نهاية الكتاب فهرس بأسماء الأعلام في أربع صفحات.

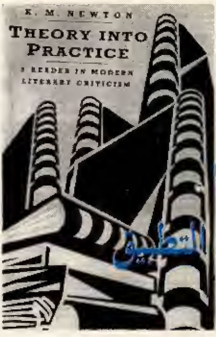
ويعلن البروفيسور نيوتن في مقدمته لهذا الكتاب أن حالة كتب النقد الحالية تمثل صعوبة بالغة لدارسيها أو قرائها، حيث إنها تجريدات ومهمات لا علاقة لها بالتطبيق على النصوص؛

لذا فهو يُقدِّم هذا الكتاب في محاولة لسد ذلك الفراغ، ولتسهيل وصول النظرية - عند تطبيقها على نص ما - إلى القارئ أو الدارس. ويقول: «إن الممارسة النقدية الأدبية تقتضي الاختيار والالتزام. فالدارسون الذين يطالعون مختلف كتب قراءات النظرية النقدية يشعرون كأنهم متسوقون تنقصهم الخبرة في أحد الأسواق الكبرى، حيث يجدون قبالتهم أنماطًا متعددة للمنتج الواحد ولم يجرِّب أحدهم أيًا منها»(1). وبالطبع فإن النصوص المختارة تواجهها قضية «المعيارية» التي يختلف حولها النقاد والكتّاب، لذا فهو لا يقدم رؤية خاصة به توسع من هوة الخلاف حول معيارية النصوص، لكنه يقدم نصوصًا أجمع النقاد على معياريتها عند التطبيق العملي للنقد، «فمثلاً يطرح نقاد الأدب النسائي وأدب الملونين السود المعيار الذي يشمل عددًا قليلاً من النصوص لكاتبات من النساء أو غير البيض. لذا فإن هذا الكتاب من المحتّم أن يضع في الحسبان ذلك الطرح لذلك المعيار»(2). إن الفصل بين النظرية والتطبيق بحجة أن الأولى أسبق من الثانية أمر مشكوك فيه، حيث إن اختبار أي عملية تطبيقية للنقد تفيد استحالة الفصل الكامل بين النظرية والتطبيق. لذا فإن «النظرية والتطبيق يتفاعلان دومًا، وَهُمَا، تبادليًا، يعتمد كل منهما على الآخر. من الواضح أن هناك فوارقَ يجب أن تُقام، ولكن يجب أن نحذر من تحويل تلك الفوارق إلى قاسم أساسي بموجبه يُعطى شكل خطاب ما أفضلية جوهرية على خطاب آخر. إن الممارسة في الغالب ليست التطبيق البسيط للنظرية؛ إن تطبيق النظرية على الممارسة يستدعي حتمًا ظهور خلاف لابد أن يكون له تأثير متتابع من الأحداث في النظرية، وبهذا يتم تغيير النظرية وتطويرها. وهذه بصفة خاصة حالة النظرية النقدية، حيث الكثير من الشخصيات الرئيسة منظّرون وممارسون للنقد، ويستطيع المرء أن يرى تفاعلاً مستمرًا بين شكلي الخطاب. إن ناقدَيْن مثل جى. هيلز ميلر وستيفن جرينبولت يعتمد نقدهما بشكل واضح على مفاهيم نظرية محددة، ولكن عملهما الرئيس انصب على الممارسة النقدية بدلاً من النظرية بمفهومها الضيق. ولا يمكن النظر إلى ذلك على أنه تطبيق سلبي للنظرية. إن ممارستهما النقدية ذات قوة نظرية مستقلة كان لها تأثير في النظرية (الصرف)»(3).

وينتهي نيوتن إلى أن الفصل بين أقطاب المدارس النقدية المختلفة يجب أن لا يؤخذ بحزم بالغ، كالفصل بين الشكليِّين والتاريخيين مثلاً، علي يقيننا أن التوفيق بينهما يبدو مقصدًا طوباويًا»(4).

وتنتهي مقدمة نيوتن إلى نبوءة نقدية مثيرة، هي عودة النقد المعاصر إلى سابقه من المدارس النقدية التي ظهرت في النصف الأول من القرن الحالي. وقبل أن أعرض لما قاله نيوتن في هذا الخصوص؛ فإنني أشير إلى محاضرة قيمة للناقد الدكتور حامد أبو أحمد تحدث فيها عن نقد الحداثة، وعلم النص تحديدًا، ونُشرت فيما بعد في كتابه «نقد الحداثة». إن ما قاله حامد أبو أحمد يتفق نصًا وروحًا مع ما يقوله نيوتن؛ فقد قال الأول: إن معاصرينا من النقاد في العالم العربي يأتون بطلاسم ومبهمات وأساليب غامضة في النقد تجعل ما يقولون صعبًا على أفهام المتخصصين، ناهيك عن الطلاب ودارسي النقد. فهو يقول في نقده للدكتور صلاح فضل كونه واحدًا من أبرز أعلام نقدنا المعاصر: «هكذا نجد كيف يأتي كتاب «بلاغة الخطاب وعلم النص» للدكتور صلاح فضل دليلاً على الابتسار والخلط والتجهيل الذي مارسه بعض المؤلفين العرب في التعامل مع العلوم الإنسانية التي نشأت حديثًا في الغرب. ولا شك أن ما فعله الدكتور فضل في هذا الكتاب ينسحب على كتاباته، فقد كنت دائمًا أحسن بالتوجس من هذه الكتب الغربية في مناهجها، والتي يبدو كأنها أُلِّفت بقصد أن تقيم جدارًا يفصل بيننا وبين العلوم الحديثة»(5). إن شكوى حامد أبو أحمد هي شكوى نيوتن نفسها. فنيوتن يرى أن النقد الجديد على أيدي ليفيز وبروكس ووارين قد قُدِّمَ تقديمًا جيدًا وبسيطًا، وأوردت النصوص التي تجعله سهلاً ومفهومًا، ويمكن هضمه في فكر المتلقي من الدارسين والطلاب، وهذا ما تفتقده مدارس النقد المعاصر، حيث يجد فيها الدارس والطالب نفسه في موقف العاجز عن الفهم والاستيعاب، فما عليه إلا أن يكون متلقيًا سلبيًا، وبذا تنعدم مشاركته في العملية النقدية التي حدثت في حالة ليفيز وبروكس وويليك. يقول البروفيسور نيوتن: «من الصعب التنبؤ بالكيفية التي سيتطور بها النقد المعاصر؛ حتى إن المرء لا يستبعد إمكان عودة النقد الجديد إلى الوجود بشكل معدل، حيث إن واحدة من أهم مزاياه أنه كان متاحًا عمليًا لجميع الدارسين على جميع المستويات من خلال نشر كتب النصوص من أمثال فهم الشعر، لبروكس، وفهم القصة، لوارين. لقد ظهر أيضًا أن كلاً من مدرسة ليفيز والنقد الجديد يشجعان نوعًا من المساواة بين المعلم والطالب أمام النص، حتى وإن كان هذا النوع من المساواة ضربًا من الوهم. ومن المحتم أن المعلم كان لديه قدر أكبر من المعلومات المفهومة من تلك التي لدى الطالب، وذلك ما يضع المعلم في موقع السيادة. أما الخطر الناجم عن الموقف المعاصر، على أية حال، فيكمن في أن كثيرًا من الطلاب يجدون النقد المعاصر بالغ الصعوبة لدرجة أنهم يشعرون أن قليلاً أو لا شيء لديهم يشاركون به، لذا فإنهم قد يميلون إلى التلقي السلبي في مواجهة سلطة المعلم. وقد يكون مثيرًا للسخرية لو أن النقد المهيمن حاليًا الذي يتخذ النظرية قاعدة له، كان من نتائجه أن يعيد إلى الوجود ثانية ما كان عليه الحال قبل ظهور الاتجاه النقدي الجديد، وما تميز به من نقد عملي وتحليل عن قرب، في الوقت الذي يتسيَّد فيه المعلمون ساحة النقد، ويميلون إلى خلق شعور لدى طلابهم أنه يستحيل عليهم أن ينافسوا

الفصل بين النظرية والتطبيق في الأدب بحجة أن الأولى أسبق من الثانية أمر مشكوك فيه. واختبار أي عملية تطبيقية للنقد تفيد استحالة الفصل بينهما



النقد
من النظرية إلى التطبيق
1

أساتذتهم لما لديهم من معرفة ذات شأن. لذا فإن أحد مقاصد هذا الكتاب هي مواجهة هذا الموقف بتقديم أمثلة متاحة من النقد المعاصر الذي يعتمد النظرية أساساً بغية توضيح كيفية عمله عند التطبيق وليشجع الطلاب على تطبيق المفاهيم النظرية في نقدهم. ومع أن كثيراً من النقد المعاصر صعب، فإنه من غير الصحيح، من وجهة نظري، القبول سلبًا بادعاء الصفوة أنه ذخيرة الخبراء. فمن الواضح أن التطورات في النقد المعاصر تمثل تحديًا في عملية تدريسها، وآمل أن يكون هذا الكتاب مساعداً للمدرس والطالب حتى نرقى لمواجهة ذلك التحدي»(6).

يعتمد المؤلف في تقديمه للنصوص النقدية على إعادة نشر ما سبق من أعمال نقدية لأقطاب كل مدرسة على حدة؛ وهو يوضح في بداية كل فصل الاتجاهات الرئيسة لكل مدرسة في حدود ثلاث إلى أربع صفحات. لذا ستكون تلك الصفحات التقديمية هي موضوع الترجمة، وستأتي بين فاصلتي تنصيص في أعلى السطر، أما الاختصار فسيكون في النصوص النقدية التي لابد أن كثيراً من قرائنا يعرفونها وقد تُرجم بعضها إلى العربية.

1 ـ الفصل الأول: النقد الجديد ومدرسة ليفيز النقدية:

«كثير من النقد المعاصر رد فعل، بطريقة أو بأخرى للنقد الجديد، الذي كان نمطًا نقديًا سائدًا في الحقبة من 1940م إلى نهاية الستينيات. وقد كان له جذوره في بريطانيا من خلال أعمال تي. إس. إليوت، آي. أيه. ريتشاردز، ووليام إمبسون، ولكن لم يكن تأثيره على الإطلاق كما كان تأثيره في أمريكا، مع أن كثيراً من النقاد الإنجليز قد تأثروا به بشكل كبير. لقد حظي النقد التاريخي والمعرفي التقليديان بقوة ونفوذ أكبر في بريطانيا مما حظيا به في أمريكا، والأهم من ذلك أن تأثير ليفيز ومؤيديه، والذي تمركز في جريدته التفحص Scrutiny، أوجد نوعًا من المعادل له في النص الإنجليزي. وعلى أي حال، فإن النقد الجديد ومدرسة ليفيز النقدية، كان بينهما الكثير من نقاط الاتصال؛ فكلاهما تأثر بشكل كبير بالأفضليات النقدية التي ذهب إليها إليوت، وأخلصا عملهما للجماليات الأساسية التي ذهبت إلى أنه في أكبر الأعمال الأدبية قد توحد الشكل والمضمون، كما أن تلك المدرسة نظرت إلى التطورات الاجتماعية بتركيزها على ما هو تقني ومنفعي، نظرت إليه باعتبارات سلبية، وكانت تنظر إلى الوراء بحنين، إلى مجتمعات متوحدة روحانيًا أكثر والتي يفترض أنها موجودة في الماضي. وعلى أي حال هناك فارق رئيس، فقد فضل النقاد الجدد تفسير النص أكثر من ليفيز، الذي كان أقل اهتمامًا بقضايا المعنى».

«أما كلينث بروكس فقد فرغ نفسه بشكل رئيس لتطبيق مذاهب النقد الجديد، ولكنه أيضًا كتب مقالات نظرية ذات تأثير. لقد عَدَّ نفسه شكليًا، ومع أنه يعترف بأهمية الاعتبارات التاريخية وبُعد استجابة القارئ، إلا أن تلك احتلت مكانة ثانوية في ذهنه أقل بكثير من العمل الأدبي بوصفه بنية موضوعية. فالوحدة، والشكل، والبنية، على أية حال، لم يكن لِيُنظر إليها بمفاهيم آلية عند دراسة علاقتها بالأدب، ذلك أنه في الأعمال الأدبية الرئيسة فإنه يتحتم أن تؤلف فيما بينها عناصر متناقضة(7)، أو ما يبدو منطقيًا عناصر متضادة. في واحدة من أهم مقالاته النظرية وهي: بدعة الصياغات الجديدة The Heresy of Paraphrase، يطالب بروكس أن تكون وحدة الموضوع، وهي التي تشكل جوهر البنية في الأدب، تآلفًا منسجمًا، وأن تكون قادرة على تقبل الغموض، والتضاد أو السخرية، ولهذا فإن بنية العمل الأدبي تحتوي دائمًا على مجموعة توترات: فالبنية الأساسية للقصيدة ـ حيث تتميز عن البنية المنطقية أو الفعلية «للعبارة» التي نجردها منها ـ تشبه فن العمارة أو الرسم، وهما تعريفًا: نمط من التوترات الخامدة. وهو يعلن أن هذه الوحدة لا تتحقق من خلال منطق الأشياء، ولكن من خلال عملية مفعمة بالحركة والشعور التي تجد مستقرها بطريقة جدلية، كتلك التي تصبح بها الصراعات جوهرية بالنسبة للمسرح، وهي التي يمثلها العمل الأدبي»(8).

النقد الجديد على أيدي ليفيز وبروكس ووارين قدم تقديمًا جيدًا، بما يمكن المتلقي من هضمه واستيعابه، وهو ما تفتقده مدارس النقد المعاصر

«إن السخرية Irony هي المصطلح الذي غالبًا ما يستخدمه لإثبات وجود التعارضات أو التناقضات في النصوص الأدبية، وبهذا المعنى فهو يدّعي أن السخرية تتخلل جميع الأعمال الأدبية الأصيلة. إن جزءاً من المشروع الأدبي لبروكس هو إظهار أن هذه هي الحال. وعلى السطح فإن نوع السخرية التي يقيمها وُجدت في أوضح أشكالها جلاءً في الشعر الغيبي (الميتافيزيقي) وفي أعمال عدد معين من الحداثيين أمثال تي. إس. إليوت، لكن بروكس بذل جهده ليظهر أن السخرية تنطبق على رُقعة الأدب قاطبة. ومع أن مارفيل(9) عادة ما يُصَنَّف مع الشعراء (الميتافيزيقيين) ـ وهذا هو النوع الذي يتوقع المرء من ناقد مثل بروكس أن يركز عليه ـ فإن القصيدة التي يختارها للمناقشة في هذه المقالة ـ غنائية حورس Horatian Ode(10) ـ هي قصيدة تمثل مجموعة صعوبات لمنهج نقدي يركز على البنية الشعرية وينظر إلى الاعتبارات التاريخية والإبداعية على أنها ثانوية؛ حيث إن هذه الاعتبارات أصبحت أولية في الكثير عند مناقشة هذه القصيدة. إن الفائدة من وراء قراءة بروكس تكمن فيما إذا كان قادراً على إظهار أن القصيدة يمكن مناقشتها بشكل مقنع مستخدمين مصطلحات النقد الجديد».



النقد من النظرية إلى التطبيق 1

«غالبًا ما يقال: إن النقاد الجدد كانوا ضد النقد التاريخي، وعَدُّوا النص الأدبي (أيقونة لفظية) وإنهم يفصلون النص عن أي سياق في المحتوى، ويركِّزون فقط على الكلمات في الصفحة. إلا أن مقالة بروكس تظهر بوضوح أن النقد الجديد لم يرفض الاعتبارات التاريخية أو يتجاهلها. إنه يعترف أن على الناقد أن يولي اهتمامًا بالسياق اللغوي، وأن يعرف ما تعنيه الكلمات في مرحلة معينة، وتظهر بوضوح أيضًا أن الموقف التاريخي أساس في قصيدة تتناول شخصيات تاريخية مثل كرومويل(11) وتشارلز الأول»(12).

«وليفيز(13) يشبه بروكس في أنه يركز في نقده على الانشغال الفعلي بالنصوص الأدبية، لكن ليفيز - على خلاف بروكس - لديه اعتراضات على أي تعقيدات نظرية في مكانته النقدية. وحيث إنه ضد التجريد الذي يتطلبه حقل معرفي كالفلسفة، فإن ليفيز يدعو إلى القول: إن الكلمات في الشعر تدعونا لا إلى «أن نفكر فيها» أو أن نحكم بمقتضاها، ولكن إلى أن نشعر بها، أو أن «نتحول معها»، وأن ندرك التجربة المعقدة التي تؤديها الكلمات، وإن الاهتمام الأول للناقد هو أن يدخل في الفكرة التي تستحوذ على القصيدة المعطاة، وخصائصها المميزة الملموسة، كما أن اهتمامه الدائم هو ألا يفقد - على الإطلاق - الصورة الكاملة للفكرة في القصيدة، لكن بدل ذلك أن يزيد فيها»(14).

«ثمة ارتباطات قويّة بين ليفيز ومدرسة أرنولد(15) النقدية التي اعتقدت أن باستطاعة الأدب أن يشكل الأساس الروحي لمجتمع لم يعد فيه الدين بمعناه الشكلي يمثل قوة رئيسة؛ ومن ثم فقد رفض أي فصل بين القيم الجمالية أو الشكلية من ناحية والقيم الأخلاقية من ناحية أخرى. كما أن مطالبه الأكثر طموحًا فيما يتعلق بجعل اللغة الإنجليزية حقل المعرفة الذي يجب أن يشكل المركز الروحي للجامعة، كانت قد هوجمت واستُهزئ بها. لكن جدلاً مقنعًا قد وقع مفاده أنه إذا نظرنا إلى ليفيز بوصفه ناقدًا فقط حسب تقليد أرنولد، فإننا نقلل بشكل كبير من أهميته؛ فمن الواجب أيضًا أن يُنظر إليه في ضوء ما لديه من ارتباطات قوية بالحداثة الأدبية واعتقادها أن النص الأدبي لا يمكن بحال اختزاله أو إعادة سبكه. كما أن التأكيد الذي يعطيه لمعنى «الحياة» في مناقشته للأدب فيه بعض التشابه مع النتاج الفكري لفيلسوف مثل هايدجر واهتمامه «بالكينونة»، وكلاهما مخالف للتقليد الديكارتي الذي يسعى إلى تعطيل ازدواجية التفكير(16). فبينما اللغة عند استخدامها في مواقف عادية ترسِّخ بشكل دائم تلك الازدواجية من خلال مفاهيم مثل الشكل والمضمون، المدلول والمعنى، المشار والمشار إليه؛ فإن لغة الأدب عند ليفيز تتقوى بما لديها من قوانين وقواعد بشكل يجعلها لا تسمح بوجود تلك الازدواجات».

«مع أن ليفيز ذا صلة بالقراءة عن قرب وكذا النقد العملي، فهناك قليل من الصفات التي تجمع بين نقده والتحليل عن قرب للمدرسة النقدية الجديدة، حتى إن تلك الصفات تقل أكثر عن موازنة نقده باستنطاق إمبسون للنص. وعلى كل فقد عَدَّ ليفيز نقد إمبسون تحذيرًا للناقد. إن تحليل إمبسون القاسي للنصوص قد تجاهل نوعية الأسئلة التي اهتم بها ليفيز، مثل ترابط النص، والدمج بين الشعور والفكر، وكذا قضية القيمة. فقد كان ليفيز يركز دومًا على شمول الأعمال الأدبية والطريقة التي تحقق بها «إدراكًا ملموسًا» و«الخصوصية الحسية». وكما في المقالة التي أعيد طبعها هنا، والتي تركز على «أنتوني وكليوباترا» لشكسبير، وكذلك مسرحية درايدن حول الموضوع نفسه بعنوان «كل شيء من أجل الحب»، فإنه غالبًا ما يوظف الموازنات ليظهر الكيفية التي يصبح بها نص أدبي معين إنجازًا أدبيًا رئيسًا»(17).

بعد ذلك يعيد الأستاذ كي. إم. نيوتن طبع مقالتين تمثلان النقد الجديد ومدرسة ليفيز النقدية. ولأن هاتين المقالتين موجودتان في أكثر من مرجع سابق، فإنني سأكتفي بإعطاء ملخص لهما آمل أن يكون وافيًا، وفيه تتبع للخط النقدي لهاتين المقالتين.

الهوامش:

1 -K. M. Neowton, Theory into Practice (Macmillan, 1992) pp. 1,2,3,4.

5 - د. حامد أبو أحمد، نقد الحداثة، الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية، كتاب الرياض 8، 1994م، ص 65.

K.M. Newton, Theory into Practice, p. 6. -6

7- يتخذ كل قطب من أقطاب المدرسة الشكلية شعارًا يميزه من الآخرين: كلينث بروكس يرى أن التضاد Paradox هو أساس فهم الشعر، وآلين تيت يرى أن التوتر Tension في القصيدة هو السبيل إلى فهمها، وجون كرودانسوم يرى أن نسيج القصيدة Texture هو الأساس لفهمها، أما إمبسون فإنه يتخذ الغموض Ambiguity سبيلاً لقراءة القصيدة وفهمها، ويوافقه في ذلك إف. دبليو. بيتسون - المترجم.

8- Cleanth Brooks, The Well Wrought Urn: Studies in the Structure of Poetry (London, 1949), pp. 186-189. هذا الهامش من النص الإنجليزي كما هو.

9- آندرو مارفيل (1621 - 1678م) شاعر إنجليزي، كاتب ساخر - المترجم.

10- حورس، هو كونتيس هوريشوس فلاكوس (65 - 8) قبل الميلاد، وهو شاعر روماني وكاتب ساخر. في المدة من 1651م التي كتب فيها مارفيل «غنائية حورس» إلى 1655م السنة التي كتب فيها قصيدة تحتفل بالنصر على هولندا، يرى لورانس هايمان أن أندرو مارفيل قد عُدَّ صاحب «القلم المرتزق».

Andrew Marvell (New York: twayne Publishers, Inc., 1964), p. 94.

والقصيدة التي يتناولها بروكس في هذا الفصل كُتبت في عودة كرومويل منتصرًا من أيرلندا. ولم تلق هذه القصيدة اهتمامًا كبيرًا وقت نشرها، لكن الجدل الذي دار بين كلينث بروكس - وهذا المقال جزء منه - ورد الناقد دوجلاس بوش عليه قد حولها إلى عمل كلاسيكي، على اختلاف تناولات النقاد اللاحقين عليهما لها.

George de F. Lord, Andrew Marvell (New Jersey: Prentice Hall, Inc., 1968), p. 85 - المترجم.

11- هو أوليفر كرومويل (1599 - 1658م) جنرال بريطاني وزعيم تطهيري أسس الكومنولث البريطاني، حكم إنجلترا بالوصاية من 1653 - 1658م. ثم جاء ابنه ريتشارد من 1658 إلى 1659م - المترجم.

12- ملك بريطانيا العظمى (1600 - 1649م) حكم بريطانيا من 1625 إلى 1649م وهو ابن جيمس الأول - المترجم.

13- فرانك ريموند ليفيز (1895 - 1978م) - المترجم.

14- F.R. Leavis, 'Literary Criticism and Philosophy', in Twentieth Century Literary Theory: A reader, ed. K. M. Newton (London, 1988), p. 67. الهامش كما هو في النص الإنجليزي، والكتاب من مطبوعات ماكميلان - المترجم.

15- ماثيو آرنولد (1822 - 1888م) - المترجم.

16- See Michael Bell, F. R. Leavis (London. 1988) من النص الإنجليزي.

17- K. M. Newton, Theory into Practice, pp. 8-11. - المترجم.

إعادة التأهيل والطب النفسي

د. حسان المالح

إن تأكيد أهمية موضوع إعادة التأهيل(*) يرتبط بالنظرة المتوازنة لمشكلات الاضطرابات النفسية وعلاجها.. حيث تتشارك العوامل العضوية والنفسية والاجتماعية وتتشابك في نشوئها، مما يستدعي ضرورة توفير برامج علاجية تتضمن تعديل وتصحيح هذه العوامل الثلاثة معا وما يتعلق بها.. وهذا يضمن نتائج علاجية أفضل بالطبع.

ويجب تأكيد ضرورة دراسة الحاجات الفعلية لمرضانا مقارنة مع مرضى الدول الغربية، وضرورة الاستفادة من ملامح المجتمع في عملية إعادة تأهيل المرضى النفسيين؛ مثل الترابط الأسري والنشاطات الاجتماعية المتعددة التي تكفل مشاركة المريض مع الآخرين، والتخفيف من عزلته وانعزاله. وأيضًا تأكيد أهمية المسجد وحضور صلاة الجمعة والجماعات وحلقات العلم، وغير ذلك من التطبيقات التي أجريت في عدد من المراكز الطبية في بعض الدول العربية والإسلامية بحسبان ذلك جزءًا من برامج إعادة التأهيل النفسية. ويمكننا ملاحظة توافر عدد من الأعمال البسيطة في المجتمع والتي لا تتطلب دقة متناهية أو ضغوطًا شديدة، مثل بعض الأعمال الكتابية والأعمال الزراعية والرعوية وغير ذلك من الأعمال المساعدة التي يمكن أن يقوم بها بعض المرضى. إضافة إلى أن كثيرًا من المرضى لايزال يحافظ على عمله في مثل هذه المهن دون أن يؤدي به المرض إلى العجز المهني، وهذا ما يمكن تسميته «بإعادة التأهيل العفوية»، وهي موجودة في المجتمع بشكل تلقائي.

وتعتمد إعادة التأهيل في أسسها النظرية على تطوير قدرات الفرد ومهاراته، وتنمية قدراته الكامنة، إضافة إلى التدريب لاستعادة ما فقده المريض من إمكانات من خلال مرضه وأعراضه وعطالته المهنية والاجتماعية.

والحقيقة أن الظروف الشخصية والقدرات والمهارات التي يمكن اكتسابها من خلال العلاج التأهيلي تختلف بين الأفراد اختلافًا واضحًا مما يستدعي دراسة كل حالة على حدة وترتيب البرنامج الملائم لها.

ولا بد من الانتباه إلى عدم المبالغة في التوقعات والأهداف العلاجية.. حيث يؤدي دفع المريض إلى «مالا طاقة له به» إلى انتكاس حالته النفسية وتدهورها، وذلك من خلال زيادة الضغوط النفسية التي يتطلبها الأداء، وأيضًا إثارة مشاعر العجز والإخفاق في الوصول إلى أهداف صعبة.

والحقيقة أن أعراض العزلة والجمود الانفعالي وقلة الحركة وعدم التفاعل مع المحيط.. والتي نجدها في بعض حالات الأمراض النفسية المزمنة ما هي إلا أساليب دفاعية يضمن المريض من خلالها تخفيف قلقه وخوفه الداخلي وتحميه من التفكك والانهيار التام.

وهنا يجب الانتباه إلى ضرورة البدء التدريجي والتحلي بالصبر (النفس الطويل) في الخطة العلاجية التأهيلية التي تتطلع إلى إشراك المريض في الحياة اليومية الاعتيادية واكتسابه، وفقًا لطاقته، المزيد من الاستقلال والفعالية.

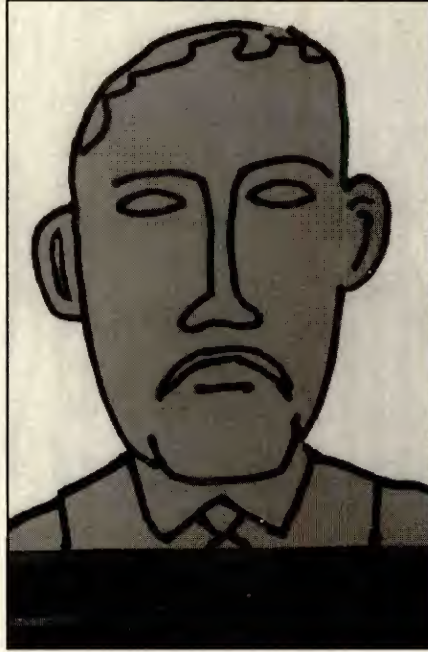
وأما بالنسبة للأساليب التأهيلية المتبعة فهي

تتضـمن، في أبسط أشكالهـا، حث المريض على العناية بجسـمـه ونظافتـه ومظهـره، ومسـاعدته أيضًـا على تنظيم أوقـات النوم والطعـام والراحـة والحـديث مـع الآخـرين ومشاركتـهم. وهذا ما يُطبَّق عادة في الحالات الفصامية المزمنة.

ويُعـدّ تنظيم الوقت وشـغل الوقت بنشـاطات مفيـدة من أهـم الخطوات التأهيليـة التي تعطي المريض شعـورًا بالأمـن، وتزيد في تنظيم حياته النفسية الداخلية، وتخـفف من صراعاته ومخاوفه.

وهكذا تتضـمن برامج التـأهيل عـددًا من النشـاطات اليومية والأسبوعيـة، مثل القـراءة المنظمة أو شراء بعض الحاجيات بشكل دوري اعتيادي، والقيـام أيضًا بإعداد أو ترتيب الغرفة الخـاصـة بالمريض، والجـلـوس مـع الآخـريـن، والمشـاركـة في الطعـام والشراب، أو الاسـتمـاع إلى الإذاعة أو مـشاهدة التلفاز لمدة معينة، ثم تبـادل بعض الأحـاديث والآراء. وكـذلك القيـام ببعض الأعمال الفنية المتنوعـة أو الأعمال المهنية على اختـلافهـا في البسـاطة والتـعقيد «مثـل إعداد الطعـام ـ الغسـيل ـ الكتابة على الآلة الكاتبـة ـ أعمال الخشب والتـزيين ـ الطلاء (البوية) وغير ذلك».

ويعتـمـد التدريب على الحث والتـشجـيع وبعض مبادئ التـعلم السلوكي، مثل المكافآت والحوافز المادية والمعنوية، إضافة إلى عدم إعطاء الامـتيـازات إلا بعـد تنفيـذ السلوك الإيجـابي المطلوب أو الاقـتراب من ذلك. وأيضًـا تنمية المهارات الاجتماعية مثل ابتداء المحادثة والنظر في الوجـه أثناء الكلام وإظهـار الاهتـمـام والمتابعة للحديث وغير ذلك.



يعد تنظيم الوقت وشغله بنشاطات مفيدة من أهم الخطوات التأهيلية التي تعطي المريض شعورا بالأمن، وتزيد في تنظيم حياته النفسية، وتخفف من صراعاته ومخاوفه

وإذا تحدثنا عن الوضع الحـالي للأسـاليب التـأهيلية المتـوافرة في المملكة، نجـد أن العـلاقة العادية بين الطبـيب والمريض تتضـمن نوعًا من التأهيل من خلال الزيارة نفسـها، ومن خلال مـضـمـون هذه العـلاقـة التي تتـضـمن الدعم والتـفهم والتـشجـيع. وهذا متـوافر في غـالب الأحيان. ويجب تأكيـد ضرورة تضمين زيارة المريض الاعـتيـادية بعض التـوجيـهات المحـددة باتجاه التأهيل إضافة إلى العلاج الدوائي.

كـمـا نجـد ممارسـات نـاجـحـة ومنظمـة لأساليب التـأهيل والعلاج في «مشـفى الأمل» بجـدة بالنسـبـة لحـالات الإدمان. إضـافـة إلى بعض البـرامج الأخـرى في مـشـفى الصـحـة النفسيـة بجـدة وغيرها، ويجب الانـتبـاه إلى ضرورة الاسـتفـادة من الإمكانات المتاحـة قدر المستطاع.

ويمكن الإشـارة إلى فكرة تقـديم الـرعـاية التـأهيليـة في المنزل من خـلال الطبـيب أو الإخصائي النفسي أو الاجتماعي أو الممرض؛ حيث يمكـن توفيـر ذلك في بـعض الحـالات الخاصة من طريق العيادات والمشافي الخاصة.

وإذا تحـدثنا عن الأبعـاد المالية والتنظيـميـة لمؤسـسـات وخدمـات التـأهيل، نجـد الجـانب المادي له أهميـة كبيـرة في تحقـيق خدمـات متـميزة. والواقع أن الحاجـة إلى ميزانية خـاصة وأشخـاص مؤهلين مـوضوع مطروح ومتكرر في مـجـتمـعـاتنا، وهو يتـعلق بالاحـتيـاجـات الفـعلية والأوليـات المطروحـة وغيـر ذلك من الاعتبارات.

وأخيرًا، لابد أن نشير إلى ضرورة الاهتمام بموضـوع إعادة التأهيل ومتابعـة التجـارب في الدول الأخرى، ومـا يجري من تطورات لكل المهتمين بهذا الموضوع. فقد أصبح التأهيل ـ إلى درجة كبيرة ـ أحد الاختـصاصات الفرعية في الطب النفسي مـثله في ذلك مـثل طب نفس الأطفـال والشـيـوخ والعـلاج النفـسي والطب النفسـي القـانوني وغيـره.. وهذا مـا يتطلب من الأطباء أدوارًا إضافية وتوجيهية في تنظيم عـمـليـة التـأهيل مع مـخـتـلف الاختصاصات الأخرى.

ولا بد أيضًـا من ضـرورة إجـراء المزيد من الدراسات والتطبيقات لقضايا إعادة التأهيل بما يتناسب مـع الظروف والإمكانات المحليـة، حيث إن التأهيل يعـتـمد على أسس مبـسطة نسبيًا، والمجال مفتوح أمام الجميع للعديد من الابتكارات والأفكار التي يمكن أن تسـهم في تطويره بشكـل عملي وعلمي بعيـدًا من نقل الأساليب الغـربية الجـاهزة من دون تمحيص أو نقد.

والحـقيـقـة أن مـوضوع إعـادة التـأهيل في الطب النـفسي يـرتبط بعـدد من المجـالات الأخـرى.. فـالتـأهيل لا يقـتـصـر على

الاضطرابات الذهانية والمزمنة أو مشكلات الإدمان أو التخلف العقلي أو الإعاقة الجسدية فقط، وإنما يشمل أيضًا كثيرًا من الاضطرابات النفسية الصغرى، مثل حالات القلق والخوف الاجتماعي والمخاوف المرضية الأخرى والاكتئاب والوساوس المرضية واضطرابات الشخصية وغيرها.

ويمكن للأساليب التأهيلية أن تقدم عونًا وفوائد كبيرة من خلال العلاج الجماعي والاجتماعات التثقيفية واللقاءات والندوات المختلفة، إضافة إلى التدريب على اكتساب المهارات المتنوعة في الحياة اليومية، وكيفية التعامل مع الآخرين ومواجهتهم والسيطرة على النفس وانفعالاتها وغير ذلك.

كما أن مبادئ التأهيل يمكن أن تفيد الإنسان العادي من خلال زيادة قدراته وتنمية مهاراته الكامنة مما يجعله يشارك بشكل إيجابي في المجتمع. وأيضًا فإن للتأهيل دورًا وقائيًا من عدد من الأمراض والاضطرابات الجسمية والنفسية والاجتماعية.

وأخيرًا يمكننا القول: إن إعادة التأهيل يمكن أن يشترك فيه عدد من الجهات ابتداءً من الأسرة والأبوين والمؤسسات التربوية والتعليمية والدينية والهيئات المهنية والرياضية والجمعيات الخيرية وجمعيات أصدقاء المرضى وجمعيات المرضى أنفسهم، وانتهاءً بالأجهزة الصحية والعيادات النفسية.

ولابد من تضافر الجهود والخبرات للوصول إلى مستويات أفضل في هذا المجال بما يخدم الفرد والمجتمع معًا.

(*) اعتمدت في هذه المقالة على موضوع الندوة العلمية والمناقشات التي أجرتها جمعية منتدى الأطباء النفسيين في جدة تحت عنوان «إعادة التأهيل في الطب النفسي». وقد شارك فيها الأطباء النفسيون العاملون في مختلف القطاعات الصحية العامة والخاصة في منطقة جدة برئاسة الدكتور محمد عرفان.

قصة قصيرة

مُتعَبٌ.. وعابرُون

عزمي خميس

حين أعياه المسير، وأكلت الطريقُ من قدميه طبقةً، انتحى منها مكانًا قَصيًّا، ومدَّ يديه للمركبات العابرة من كل صنف ولون، علّ سائقَ واحدة منها يرقُّ لحاله فيحمله.

بعد زمن لا يدري طال أم قصر، وقفت حياله شاحنةٌ كالحةُ اللّون، في جوفها سائقٌ حفرت على وجهه السنون والدروب التي قطعها أخاديدَ وغضونًا.

قال السائق وقد بدا توّاقًا لحمله:

- إلى أين تبغي؟

قال كمن يُوشك أن يلقي عنه حملاً أنْقَضَ ظَهره:

- إلى هناك.

هز السائق رأسه عجبًا، ورمقه بنظرة إشفاق، وقال:

- طوّفت عبر كل الطرقات سنين عددًا. وحملت مئات المُنقطعين أمثالك. لكن أحدًا لم يطلب أبدًا أن أُوصله إلى هناك.. يبدو أنك ستنتظر طويلاً!

ومضى السائقُ ذو الغضون، والشاحنة الكالحة في طريقه.

عاد يُلوّحُ للمركبات من كل صنف ولون. بعد زمن لا يدري طال أم قصر، وقفت حياله مركبة فخمة. في جوفها رجلٌ سمينٌ ناعمٌ مترف، يبدو عليه الضجر.

مدّ السمينُ نحوه نظرةً، فحصه فيها ووزنه، وحدّث نفسه بعدها أنه سيحمله معه رغبةً منه في رفيقٍ يستأنسُ به في سفره هذا.

قالَ السمين:

- إلى أين؟

قال متهللاً :

- إلى هناك.

تجهّم وجهُ السمين. رمقه بنظرة غضب، وقال:

- ظننتك تصلح رفيقًا في سفري، فإذا بك تُفسد عليّ يومي.

قال له:

- ولكنك ذاهب إلى هناك على ما يبدو!

أجاب السمين:

- لعلك مجنون. من ذا الذي يفكر بالذهاب إلى هناك!. إنّك رجل مشؤوم.

وانطلقت المركبة الفخمة تتهادى براكبها السمين المُستاء.

رفع يديه ولوّح. وقفت سيارةٌ صغيرةٌ في جوفها فتى وفتاة.

- إلى أين؟ قال الفتى.

- إلى هناك.

- تبًا لك!

رفع يديه ولوّح:

- إلى أين؟

- إلى هناك.

- لعلك تهذي!

رفع يديه...

- إلى أين؟

- .. هناك؟

- يالك من...

رفع ..

- ...

- .. هناك

- ...

مخاطر التلوث وحج

نحو تشريع بيئي متكامل

د. محمد الحسن

التلوث من التغيُّرات غير المرغوبة في ما يحيط بالإنسان كليًا أو جزئيًا، وهو نتيجة حتمية لأنشطة الإنسان المختلفة والمتنوعة. وينتج التلوث من خلال حدوث تأثيرات مباشرة أو غير مباشرة تغيّر من المكونات الطبيعية والكيماوية والحيوية (البيولوجية) للبيئة ـ وهذا قد يؤثر في نوعية الحياة التي يعيشها الإنسان، بل في الكائنات الحية الأخرى بشكل عام ـ.

ويرى بعض العلماء أن هذه التغييرات غير المرغوبة تختلف حتى بين المجتمعات الغنية والفقيرة في العالم، «وهذا يعود لاستخدام مستويات مختلفة للمعايير المطبقة، بالإضافة إلى الاختلاف في نوعية الأنشطة الخاصة بكل مجتمع».

وبفضل من الله سبحانه فإن البيئة في حالة توازن بطبيعتها، وخاصة ما يتعلق بتوازن العناصر الثلاثة الرئيسة: الماء، الهواء، الأرض. والعلاقة بين الإنسان والمناخ، والتربة، والنبات، والحيوان، يجب أن تكون متوازنة، وكذلك علاقة هذه العناصر بعضها ببعض وبالإنسان، لأنه العامل الأهم في كل المعادلات السابقة للأسباب التالية:

أ ـ الإنسان هو المتحكم بالبيئة.

ب ـ الإنسان هو المتأثر بالبيئة بوصفه أحد الكائنات الموجودة فيها.

جـ ـ الإنسان هو الأكثر قدرة على مواجهة التلوث وتحجيمه.

ويتأثر توازن البيئة بشكل متفاوت بما قد يصل إليها من زيادة ونقصان، بسبب وصول الملوثات المتعددة التي تأتي في صُوَر غازية أو صلبة أو سائلة أو حرارية أو إشعاعية. ويتمثل التلوث بوجود ملوث أو أكثر بكميات تؤثر مدة من الزمن في صحة الإنسان وغيره من الكائنات الحية: الحيوانات، والنباتات.

ماهية التلوث

التلوث هو التغير الحاصل في الصفات الطبيعية الكيماوية، و(البيولوجية) في الوسط المحيط، مما يسبب تأثيرات ضارّة في الحياة البشرية، بل في الحياة بشكل عام (الكائنات الحيّة الأخرى) وحدوث خلل في التوازن الطبيعي للبيئة.

أهمية المشكلة

لقد حظيت قضية التلوث باهتمام الجميع ولاسيما علماء الطبيعة وفقهاء القانون وعلماء الاقتصاد، منذ ما قبل القرن التاسع عشر، حيث أصدر عدد من حكام المقاطعات في دول كثيرة تشريعات وأوامر تُحَرِّمُ إلقاء القاذورات والأوساخ في الأنهار والبحيرات حفاظًا على الصحة العامة، وقد صدرت أوامر أخرى تحرّم صيد أنواع معينة من الطيور والحيوانات. ومع التطور الصناعي الضخم ازداد اهتمام الإنسان بقضايا البيئة التي نجمت عن سوء استخدامه للبيئة والطاقة. واستخدام المبيدات الحشرية بشكل غير منظم أدى إلى تغيير كبير في الخواص الحيوية للتربة، وكذلك مخلفات المصانع ومجاري الصرف الصحي وتلويثها للأنهار والبحيرات؛ مما تسبب في هلاك أنواع كثيرة من

...ية البيئة



الأسماك والحيوانات البحرية.

أضف إلى ما تقدم مخلفات المصانع، كصناعة الإسمنت والدباغة، وضوضاء المدن وضوضاء العصر بشكل عام، وما قد يؤدي إلى تدهور في حالة البيئة وعدم توازنها. وهذا كله يؤثر، بل يؤدي في النهاية حياة الإنسان وبقاء الكائنات الحية الأخرى.

وهناك مجالات أخرى تُستخدم فيها الطاقة الذرية، ومعروف ما يمكن أن يسببه التلوث الذري من تهديد للجنس البشري والكائنات الحيّة وموارد الطبيعة، وكذلك هجوم الجدران الإسمنتية على المناطق الزراعية، والخضراء وظهور مشكلة التصحر وتفاقمها.

هذه الأسباب والأوضاع جميعها دعت إلى دق ناقوس الخطر، وأصبحت حماية البيئة قضية ملحة، على المستويين العالمي والمحلي. ففي الاتجاه الأول، وهو الاتجاه العالمي، نجد أن هناك مسائل وقضايا بيئية كبرى تهمّ البشرية وحياة الإنسان في هذا العالم، كمشكلات التلوث الذري، وحماية طبقة الأوزون، وتلوث البحار، والتلوث الناجم عن النفايات السامة. وتتم معالجة هذه المشكلات من خلال المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي يمكن أن تشكل نواة حقيقية للقانون البيئي الدولي. وشكّل هذا الاتجاه أحد المحاور الرئيسة للمؤتمرات البيئية الدولية. وكذلك معاهدات الحد من الأسلحة الاستراتيجية وضرورة إخضاع جميع المفاعلات الذرية في العالم إلى رقابة دولية صارمة. ونؤكد في هذا الصدد الدعوات الصادقة من الدول العربية ومناشدتها مختلف دول العالم لجعل منطقة الشرق الأوسط والوطن العربي منطقتين خاليتين من أسلحة التدمير الشامل بما فيها ما تملكه إسرائيل من ترسانة نووية هائلة.

أما بالنسبة للاتجاه الثاني، وهو الاتجاه المحلي، فيتمثل في القوانين والأنظمة الوطنية التي تصْدِرها كل دولة في إطار إقليمها. والوسيلة الضرورية لضمان بيئة سليمة إقليميًا إصدار تشريعات وطنية تتضمن المبادئ العامة للحفاظ على سلامة البيئة ومنع تلوثها؛ لأن سلامة الشعب، ومن ثم سلامة البشرية رهن بالبيئة السليمة والنظيفة. فسلامة البشرية في سلامة البيئة، والبيئة - كما ذكرنا آنفًا - ليست في معزل عن طموحات الإنسان والحاجات البشرية، لأن الحديث عن البيئة بمعزل عن هموم الإنسان «يؤدي حكمًا إلى ضعف وتحجيم هذا المفهوم». فالبيئة تؤثر وتتأثر بنشاط الإنسان، ولذلك يرتبط مستقبل الإنسان بالمنظور المستقبلي للبيئة.

ولكن، هل يمكن الحفاظ على بيئة سليمة ونظيفة من طريق الوقوف في وجه التقدم الحضاري للإنسان من خلال مشاريع التنمية؟ والمشاريع التنموية متعددة، وقد يستخدم فيها أنواع مختلفة من مصادر الطاقة، والذرية منها خاصة، أو تخريب الطبيعة ومواردها... إلخ.

ونقول: يجب تحقيق التنمية لخير الإنسانية، ولكن من دون من تدمير للبيئة التي تحيط بالإنسان؛ أي «لهذا الوعاء الخارجيّ الذي يشكل مناخًا وبيئة للإنسان». لذلك يجب أن يضع الجميع نصب أعينهم تحقيق تنمية عقلانية منظمة ومدروسة، ومن خلال تحقيق التطوير التقاني (التكنولوجي) ووضعه في خدمة الإنسان، وفي خدمة البشرية بأكملها ومصلحتها.

إن مشكلات التلوث البيئي قد تفاقمت إلى درجة خطيرة في العالم أجمع مما أصبح يشكل تهديدًا حقيقيًا لوجود الحياة، واستمرارها، لدرجة دفعت أحد العلماء للقول «إن الخوف من اندثار الحضارة وانهيارها، ليس بسبب كارثة نووية نتيجة حرب مفاجئة، بل بسبب تلوث البيئة».

اقتراح ملامح تشريع بيئي متكامل

إن قانون البيئة قانون حديث كقانون الفضاء، وتكمن أهمية مثل هذا النوع من التشريعات، في حال وجودها، بأنها تتطلّع إلى الحفاظ على سلامة البيئة، وسلامة الإنسان تبعًا لذلك، وتؤدي الظروف والأسباب المؤدية إلى تلوث البيئة دورًا في إصدار تشريعات بيئية لحماية الإنسان، نظرًا لأن الإنسان له الدور الفعال في وضع ضوابط وأسسٍ كفيلة بحماية البيئة والحد من مصادر التلوث.

والخطوة الأساسية في النطاق المحلي تتمثل بوضع تشريعات وطنية لحماية البيئة، على أن تُراعى الظروف والمعطيات الآنية لكل دولة ووضعها، وذلك من خلال

مخاطر التلوث وحماية البيئة

تحديد أشكال التلوث المحلي وحصرها وسُبُل معالجتها والحد منها، ويمكن تحقيق ذلك - كما أشرنا - من خلال القوانين والأنظمة الوطنية ومنها:

1 - قانون أساسي لحماية البيئة، يتضمن المبادئ العامة والأسس الرئيسة، الكفيلة بالمساعدة على حماية البيئة، بحيث يتضمن هذا القانون المنطلقات الأساسية للتشريعات البيئية، ويكون بمثابة دستور لحماية البيئة (كونه يتضمن الخطوط العريضة لمكافحة التلوث وحماية البيئة)، وبحيث يترك الجانب التفصيلي للوائح وأنظمة متعددة ومختلفة تنظّم كل الأمور والتفاصيل الجزئية من قضايا البيئة.

2 - ضرورة وجود قانون لحماية الأنهار والينابيع والبحيرات والمياه الجوفية، ومصادر المياه كافة، لأن تلوث المياه أهم مصادر التلوث الشامل وأخطرها.

3 - قانون ينظم شروط وأماكن الصرف الصحي، فالصرف الصحي قد يكون أحد أهم مصادر التلوث.

4 - قانون أو لائحة تنظم عمليات جمع المخلفات البشرية، من فضلات وقمامة وبقايا ونقلها ومعالجتها، لأنها تشكل أيضًا بؤرة للتلوث والضرر بسلامة الإنسان.

5 - ضرورة وجود قانون ينظم ويحدد شروط إقامة المنشآت الصناعية وأماكنها، وتطبيقه بدقة، وإيجاد رقابة دقيقة بهذا الخصوص (كأن توضع كشرط لاستكمال المخطط التنظيمي لبناء منشأة أو معمل... إلخ). وتحديد طريق تصريف المخلفات الصناعية المختلفة (الغازية، السائلة، الصلبة)، وضرورة وجود أجهزة رقابة دقيقة على المنشآت الصناعية وخاصة الكيماوية والنفطية.

6 - قانون لحماية الأراضي الزراعية ومنع التعدي عليها (مثال تشكيل لجنة عليا لحماية أراضي البادية ومنع التعدي عليها في سورية). والحفاظ على الغطاء النباتي للتربة، والغابات والحدائق والمناطق الخضراء كافة، وذلك بقصد مكافحة التصحر.

7 - تنظيم الرقابة على الأدوية والكيماويات بحيث تشمل الأدوية البشرية والبيطرية والزراعية من المبيدات والأسمدة وغيرها.

8 - تطوير مخططات وأنظمة تخطيط المدن وأسلوب البناء فيها، بحيث يكون التوسع في الاتجاه المناسب دون التضحية بالمناطق الخضراء، وتخصيص مناطق واسعة للحدائق، وإلزام سكان الأبنية الحديثة في المدن إحاطتها بحزام أخضر.

9 - قانون أو لائحة تتناول تنظيم كل ما يتعلق بالنظافة العامة، والهواء النظيف، من خلال تعديل قوانين السير ومراعاتها للأمور الفنية للمركبات وبما يحقق الاحتراق الكامل للمحركات، وضبط العوادم التي تقذفها السيارات.

10 - وضع قوانين أو لوائح لمكافحة الضجيج والضوضاء من خلال تحديد مناطق للمدن الصناعية خارج المناطق المأهولة، أو من خلال تحديد اتجاهات السير أو منع المرور في أماكن محددة أو منع استعمال آلات التنبيه خلال فترة الهدوء والسكينة (بعد الظهر وفترة الليل).

11 - الانضمام إلى الاتفاقيات والمعاهدات الدولية المتعلقة بحماية البيئة ومكافحة التلوث كافة، فهذا يشكل رافدًا ثرًا وغنيًا لتكامل التشريع البيئي.

وقد ركزنا على الجانب القانوني نظرًا لأن القوانين ترمي إلى ضبط السلوك الإنساني، والمطلوب ليس وجود القوانين، بل تطبيق هذه القوانين وتنفيذها على الصعيد العملي، لأن المشكلة الكبرى لا تكمن في وجود القوانين أو عدمه، بل في حسن تطبيق القوانين وتضافر الجهود كافة في ذلك، ولاسيما أن ذلك لا يمس الكائنات الحية الموجودة على هذا الكوكب فحسب، بل لأنه يمس مستقبل الإنسان نفسه، لذلك يجب التركيز على المحاور التالية:

المحور الأول: اعتبار البيئة من حولنا المجال الطبيعي والحيوي الذي يمدنا بوسائل الاستمرار في الحياة، لذلك نؤكد ضرورة التعامل مع البيئة باعتدال وعقلانية، والحفاظ على مكوناتها الأساسية (كما هي في حالتها الطبيعية من توازن)، والعدول عن النظرة التقليدية وهي المجابهة مع البيئة.

فالوضع الإيكولوجي يستدعي تغيير طريقة الحياة ومعالجة المشكلات البيئية بحكمة وتأن وبعقلانية (نظرًا لوجود أزمات مخيفة: سباق تسلح، زيادة النمو السكاني، نقص الأغذية، الاستهلاك المفرط)، وكل هذا يستدعي ضرورة التعاون على المستوى الدولي وإحلال مفهوم التضامن والتعاون بدلاً من مفهوم المواجهة، وتطبيق سياسة التفاعل والتعاون الخلاق للحفاظ على هذا الكوكب بدلاً من ثقافة وسياسة العدوان والتنافر.

المحور الثاني: الوعي الإنساني بأهمية البيئة، فمؤثرات التلوث ستترك آثارًا سلبية قد تدمر الحياة على كوكب الأرض، وتطبيق النظرة الجديدة التي أشرنا إليها في المحور السابق تحتاج إلى وعي ينقلها من مجال الحيز النظري إلى مجال التطبيق العملي، والنظرة المتأنية الواعية إلى الكون، والأرض والإنسان وكل الكائنات الحيّة. وأساس هذا الوعي هو الوعي المبني على الإقناع والرضا بالمشاركة في حماية البيئة، والإدراك العام أن الحفاظ على البيئة هو حفاظ على سلامة الإنسان نفسه وعلى أسرته، وشعبه، والبشرية جمعاء، بل الكائنات الحية على هذا الكوكب جميعها.

المحور الثالث: ويتمحور حول وجود تشريعات وطنية واتفاقيات دولية تسهم بالمحافظة على البيئة وسلامة الإنسان. وكما أكدنا ضرورة وعي المواطن ومشاركته بالحفاظ على سلامة البيئة، نؤكد نقطة مهمة أخرى هي القوانين والتشريعات ودورها أساسي في تكوين معالم تشريع بيئي جديد، لأن القانون هو المؤسسة الجوهرية في الحياة الاجتماعية، ولأن القوانين ليست إلا انعكاسًا للأفكار والثقافات والقيم الاجتماعية السائدة في كل دولة. وتأتي النصوص القانونية متفقة مع درجة وعي الأفراد، وبما يساعد في تحديد أفضل الوسائل والسُبل لحماية البيئة، كونها تشكل رسالة سامية تتطلّعُ للحفاظ على المخلوق الذي كرّمه الله وهو الإنسان.

وقيمة النصوص القانونية تكمن في تحديد ما هو مباح وما هو محظور، وكونها تتضمن مؤيدات جزائية تطبق بحق المخالفين لأحكامه (قد تكون الحبس أو الغرامة أو كليهما معًا). ويمكن إحداث ضابطة بيئية على غرار ضابطة الحراج وضابطة البادية... إلخ.

وفي نهاية المطاف نؤكد أن سلامة البشرية رهن بوجود بيئة سليمة ونظيفة، فسلامة البشرية رهن بسلامة البيئة، والعلاقة السليمة العقلانية والموضوعية بين الطبيعة والإنسان هي المفتاح للحفاظ على البيئة السليمة، لأن حماية البيئة هي حماية للإنسان نفسه وشرط ضروري وأساسي لاستمرار الحياة على هذا الكوكب الذي نحب.

المراجع:

1 - الجرائم المضرة بالمصلحة العامة. رمسيس بهنام، منشأة المعارف، الإسكندرية 1977م.

2 - الجرائم المضرة بالمصلحة العامة. عوض محمد، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية 1985م.

3 - الجرائم المضرة بالمصلحة العامة في القانون المصري. عبدالله الشاذلي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية 1991م.

4 - الوسيط في شرح جرائم التخريب والحرائق. معوض عبدالتواب، دار المطبوعات الجامعية 1989م.

5 - جرائم التلوث. معوض عبدالتواب، ومصطفى معوض عبدالتواب. منشأة المعارف، الإسكندرية 1986م.

6 - مجموعة القوانين السورية الخاصة. جمع وتحقيق أديب استانبولي المفتش لدى وزارة العدل السورية. وقد صدرت في مجلدين الأول والثاني، دمشق 1983م.

7 - مجلة: «المحامون السوريون»، الأعداد 4، 5، 6، لعام 1990م، السنة الخامسة والخمسون، دمشق.

دائرة المعارف

من أشهر المدارس الإسلامية القديمة

2

إعداد: الزبير مهداد



مدرسة ابن صالح

بمراكش، بنيت ما بين عامي 1074و 1082هـ. بنى المولى رشيد قوس باب مدخلها. توجد عليها نقوش كتابات تصعب قراءتها.

مدرسة ابني الإمام

بتلمسان، مدرسة كبيرة من منشآت دولة بني زيان أو بني عبدالواد، بناها السلطان أبو حمو داخل باب كشوط بناحية المطهر بتلمسان، برسم فقيهين كبيرين هما: أبو زيد عبدالرحمن وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبدالله المعروفان بابني الإمام، وقد نزلا تلمسان زمن أبي حمو.

مدرسة ابن يوسف

بمراكش، شيدها السلطان عبدالله الغالب السعدي على أنقاض مدرسة علي بن يوسف القديمة التي شيدها السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين. وبالغ السلطان السعدي في تحسينها وتنميقها وزخرفتها حتى ظن الناس من كثرة ما أنفق عليها من أموال أنه يشتغل بالسيميا، كما اتهمه خصومه بالتزوير والتعفية على اسم المؤسس الحقيقي ووضع اسمه هو مكانه. أوقف عليها مكتبة عظيمة، وظل العلماء بعده يتنافسون في وقف الكتب عليها.

تُعدّ هذه المدرسة من أحسن الآثار المعمارية السعدية الباقية، وتضم قبة للصلاة وأخرى للدراسة وعددا كبيرا من الغرف المعدة لسكنى الطلبة، وما تزال المدرسة قائمة تعرف باسم مدرسة ابن يوسف. أصبحت كلية للدراسات الجامعية ونواة لجامعة القاضي عياض فيما بعد.

مدرسة أحمد بن موسى

يقال إنها بنيت في عهد الشيخ، وقيل إنها من بناء حفيده الأمير أبي حسون. وقد وفد على هذه المدرسة عدد من الشيوخ للتدريس والتأليف وملازمة الشيخ أحمد بن موسى الذي توفي عام 971هـ.

مدرسة أجلو

تُعدّ مدرسة أجلو أو «أوكلو» التي بناها وكاك أو «واجاج» بن زلو اللمطي، تلميذ أبي عمران الفاسي، قرب تزنيت جنوب المغرب أول ما بني من المدارس في المغرب. أنشئت خلال حكم الدولة المرابطية، ولم يبق لهذه المدرسة أي أثر منذ عدة قرون.

المدرسة الأزكشية

بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدي. أحد أمراء صلاح الدين الأيوبي. وجعلها وقفا على الفقهاء من الحنفية.

مدرسة أسرير

على ضفاف وادي نون بكولمين في تخوم الصحراء بالمغرب. شاركت في إثراء الحياة العلمية والدينية منذ القرن التاسع، درس فيها فقهاء كبار من آل ابن عمرو، وعرف التعليم فيها تراجعا بعد وفاة شيخ الجماعة الفقيه عبدالواحد بن الحسن الرجراجي، وحاول الشيخ عبدالله بن يعقوب السملالي إنقاذها وإعادة الحياة لدورها العلمي، فأوفد إليها نخبة من تلاميذه النجباء ذكرهم محمد حجي بأسمائهم وآثارهم.

المدرسة الأسعدية

بالقدس في جبل الطور، كانت مدرسة وزاوية وخانقاه. بناها شيخ الإسلام أسعد أفندي في العصر العثماني.

المدرسة الأشرفية

1ـ المدرسة الأشرفية بالقاهرة: بناها الأشرف شعبان بن حسين بالصوة تحت القلعة، ومات ولم يكملها. ثم هدمها الناصر فرج بن الظاهر برقوق لتسلطها على القلعة في سنة أربع عشرة وثمانمئة، ونقل أحجارها إلى عمارة القاعات التي أنشأها بالحوش بقلعة الجبل. ولم تُعهد مدرسة قصدت بالهدم قبلها،

وبنى مكانها السلطان «المؤيد شيخ» المارستان المؤيدي.

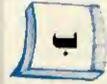
2 ـ وبالقاهرة أيضًا توجد أشرفية أخرى من بناء الأشرف برسباي عام 826هـ في شارع المعز لدين الله الفاطمي وتعرف اليوم بجامع الأشرف.

3 ـ أشرفية القدس: من أوقافها أراضي قريتي الشافرة وبيت الدجن.

4 ـ المدرسة الأشرفية بالمدينة المنورة :أنشأها السلطان الأشرف قايتباي عام 887هـ.

مدرسة أقلا وكنس

بسوس المغرب، في إحدى القرى الجبلية. أنشأها علي بن أحمد الرسموكي البعقيلي المتوفى عام 1049هـ، وخصصها لطلبة العلم، وقضى حياته فيها تدريسًا وإفتاء وتأليفًا.



المدرسة الباسطية

بالقاهرة، ذكرها المقريزي تحت اسم الجامع الباسطي، من إنشاء زين الدين عبدالباسط بن خليل، ناظر الجيوش في سنة 822هـ.

المدرسة البدرية

1ـ المدرسة البدرية بالقاهرة: وتقع في حارة كتامة بالقرب من الجامع الأزهر، بناها بجوار مسكنه بدر الدين محمود العيني عام 814هـ ووقف عليها أوقافًا وكتبا، ودرس فيها بعض علماء الأزهر.

2 ـ المدرسة البدرية بالموصل: بناها بدرالدين لؤلؤ شمال الموصل وتشرف على دجلة، وشيد فيها مشهد الإمام يحيى بن القاسم عام 638هـ وتحت المدرسة عين كبريت. ويعد البناء من أنفس العمارات التي شيدت في العصر الأتابكي، لما تحتويه من نقوش وزخارف وكتابات متنوعة. بقي منها المشهد الذي دفن فيه بدرالدين بعد وفاته عام 657هـ.

المدرسة البرقوقية

بالقاهرة، تقع بخط بين القصرين، بين مدرستي الناصرية والكاملية، أنشأها الظاهر برقوق في موضع القصر الكبير، يعرف اليوم بقاعة الخيم، وكان بناؤها ما بين 783و788 هـ. مازالت قائمة.

مدرسة البلقيني

بالقاهرة، أنشأها عمر بن السلان بالقرب من منزله في حارة بهاء الدين عام 795، وبها قبره. تعرف اليوم باسم جامع البلقيني.

مدرسة جبل بني يرزو

بشمال المغرب، يدرس فيها الطلبة علم الكلام، أعفي السكان بسببها من الضرائب، وكانت بها مكتبة مهمة. خربت المدرسة والمكتبة عام 918 هـ.

المدرسة البوعنانية

1 ـ المدرسة البوعنانية بتلمسان. انظر: الشيخ الحلوي.

2 ـ المدرسة البوعنانية بسلا، بحومة باب حسين. بناها السلطان أبو عنان المريني، وتسمى المارستان أو المدرسة العلمية، وعين لها عدة أطباء، وجرايات كثيرة. وكانت مدينة سلا تحتل مركزًا مهما في عهد الدولة المرينية. وتمتاز هذه المدرسة من غيرها بعدم احتواء أروقتها الأربعة على غرف للطلبة، لم يبق من هذه المدرسة سوى باب الدخول. وقد صارت بعد ذلك فندقًا يعرف بفندق أسكور، ثم حولت إلى محكمة شرعية.

3 ـ المدرسة البوعنانية بفاس: تنسب إلى السلطان أبي عنان المريني، وقد تم بناؤها في عهده عام 757هـ. وهي آخر مدارس بني مرين وأكبرها وأجملها. وصفها ابن خلدون بأنه لم ير لها نظيرًا بالمشرق. خصص لها السلطان أبو الحسن المريني أحباسا كثيرة للإنفاق عليها وعلى طلبتها وأساتذتها وقومتها. لها منارة في غاية الحسن، وتتميز بمسجدها الذي بني منفصلاً عنها، يفصلهما وادي اللمطيين، وتوجد قنطرتان توصلان المدرسة ببيت الصلاة. وصنعت لها منجانة ساعة مائية ذات ثلاثة عشر طاسا، ومقياسها نحو أحد عشر مترًا طولاً.

4 ـ المدرسة البوعنانية بمكناس: لعل بناءها كان معاصرًا لبناء بوعنانية فاس. وهي عبارة عن بناء أنيق متوسط المساحة. ذات بوابة مصممة بشكل فريد. فقدت المدرسة كثيرا من زخارفها بسبب عمليات الإصلاح المختلفة.

المدرسة البونعمانية

في جنوب سوس. كانت تحوي عددًا كبيرًا من بيوت الطلبة.

مدرسة البيضاء

أو فاس الجديد، بناها أبو سعيد عام 730هـ. كان لها طلبة يرتلون القرآن، وخصصت لها أحباس كثيرة. حولها السلطان محمد بن عبدالرحمن خلال خلافته على فاس إلى معهد للتخصص العلمي، يتكون فيها الموظفون الإداريون. ثم أدخلت إلى المشور بعد ذلك.



مدرسة التربة الأوحدية

بالقدس، وقفها الملك الأوحد نجم الدين يوسف بن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى بن العادل أخي صلاح الدين الأيوبي عام 697هـ. تشتمل المدرسة على طابق أرضي وطابقين علويين، وهي ما تزال قائمة كدارللسكنى بباب حطة شمالي ساحة المسجد الأقصى، وفيها ضريح الملك الأوحد.

المدرسة التنكزية

بباب السلسلة بالقدس. بناها سيف الدين تنكز، نائب الشام عام 730 هـ. وكانت مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها، وهي ماتزال قائمة إلى اليوم. كانت مجمعًا مؤلفا من عدة أجنحة يشتمل على

مدرسة ودار حديث وخانقاه للصوفية ورباطين للعجائز من النساء. وكانت المدرسة تشغل الطابق الأرضي من المبنى، بها مطبخ برسم المرتبين بها، وبيوت للطهارة ومستحم. من أوقافها ضيعة عين قنية غربي رام الله ونصف الحمام المعروف بحمام العين. كانت عامرة إلى عهد قريب. وفيها مقر المحكمة الشرعية.



مدرسة الجامع الكبير

بالرباط، هي المارستان المريني، الذي كان في الأصل مدرسة لطلبة العلم المترددين على تلقي العلوم بالجامع الكبير.

والمارستان العزيزي والسقاية بجواره منسوبان إلى مؤسسها السلطان أبي فارس عبدالعزيز علي بن عثمان المريني، ويرجع تاريخ البناء إلى القرن الثامن الهجري.

مدرسة الجاي

بالقاهرة، تقع خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، كان موضعها مقبرة. أنشأها الأمير سيف الدين الجاي عام 768هـ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ودرسا للفقهاء الحنفية وخزانة كتب. وهي من المدارس المعتبرة الجليلة.

المدرسة الجقمقية

شمال الجامع الأموي بدمشق. أنشأها نائب الشام الأمير سيف الدين جقمق عام 822هـ لتكون خانقاه ومدفنا له ولوالدته، مكان مدرسة قديمة أحرقت خلال غزو تيمورلنك لدمشق.

كانت للمدرسة أوقاف كثيرة، وعين لها مدرسين وظلت مكانا تعليميا إلى وقت قريب، حتى أصيبت خلال الحرب العالمية الثانية بأضرار جسيمة. رممت وجعلت متحفا للخط العربي.

المدرسة الجميلة

بتازا في المغرب. شيدها أبو الحسن المريني

المدرسة الجوبانية

بالمدينة المنورة، أنشأها جوبان أتابك العساكر المغلية عام 724هـ.



مدرسة الحلفائيين

بمدينة فاس. هي أول ما بني من مدارس بني مرين، بعد عام 670هـ. أسسها السلطان المريني يعقوب بن عبدالحق الملقب بالقائم والمؤيد والمنصور. قيل كان اسمها أول الأمر المدرسة، ثم دعيت بالصفارين، لوجودها في حومتهم. وذكر أنها بنيت على يد الفقيه ابن أبي أمية مفضل بن محمد الدلائي.

جهزها المنصور بخزانة كتب كبيرة مما كان لدى اليهود والنصارى في مملكة قشتالة، والتي حازها منهم بموجب اتفاق عام 1284م. وللمدرسة منار يتجه نحو القبلة. كانت المدرسة مقاما للطلبة، وفيها يؤدون صلواتهم اليومية.

مدرسة الشيخ الحلوي

بتلمسان، بناها أبو عنان المريني عام 754هـ بجانب الجامع وضريح الشيخ الصالح أبي عبدالله الشودي الإشبيلي المعروف بالحلوي. وهي مدرسة متعددة رقيقة السمو، بها أبواب تشرع إلى دار كاملة المنافع حسنة المقاطع معينة للرؤساء القائمين بالوظائف.



المدرسة الخيارية

بالمدينة المنورة، من مدارس القرن الحادي عشر. دَرَّسَ فيها الشيخ إبراهيم بن عبدالرحمن بن علي المدني الخياري، المتوفى بالمدينة المنورة عام 1083هـ. ورث التدريس فيها عن والده. كان للمدرسة مخصص مالي يأتيها من مصر.

دائرة المعارف



مدرسة درب الزهراء

أنشئت بالرباط في عهد السلطان مولاي إسماعيل. كان يسكنها بعض طلبة العلم في العهد المذكور. وهي التي صارت اليوم زاوية للطائفة الحراقية.

المدرسة الدلائية

بإزاء جامع الخطبة في الزاوية الدلائية، بسوس المغرب. بلغ عدد بيوتها المعدة لسكنى الطلبة الفا وأربعمائة مسكن.



المدرسة الشارية

المدرسة الشارية بسبتة، أسسها الإمام أبو الحسن علي بن محمد الشاري الغافقي المتوفى عام 649هـ، ووقفها على الغرباء من طلبة العلم، وحبس عليها أول مكتبة من نوعها في المغرب، وعين لها خير أملاكه وقفا صالحا، وقعد بها لرواية الحديث وإسماعه بعد إكمالها في رجب 635هـ.

المدرسة الشاملية

بسوق ساروجة بدمشق. أنشأتها ست الشام ابنة نجم الدين أيوب ابن أخت الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي نحو عام 587هـ، وبها مدفن ست الشام. وكانت وقفا على أصحاب الإمام الشافعي.

بالمدرسة مسجد ذو مئذنة حجرية مربعة الشكل، تستعمل حاليا مسجدا يعرف باسم جامع الشامية.

مدرسة الشراطين

بفاس. هي دار الباشا عزوز، يقول الأستاذ

عبدالهادي التازي إن المكان كان منجرة تابعة لأحباس القرويين، ولم ينته العمل من بنائها إلا في عهد المولى إسماعيل عام 1089هـ، ولها مدخلان واحد من سوق الشراطين والثاني من السبطريين. وهي مكونة من ثلاث طبقات، وتشتمل على 232 بيتا لسكنى الطلبة، وتمثل النموذج الأول للفن المعماري العلوي.

مدرسة شيخون

بالقاهرة، ذكرها العيني في كتابه عقد الجمان، وعلق المحقق - نقلا عن المقريزي - أنها تسمى جامع شيخو، وهو بسويقة منعم، من إنشاء الأمير شيخو الناصري رأس نوبة الأمراء عام 756هـ وجعل فيها خطبة، وهو من أجل جوامع مصر. كما ذكر المحقق في مكان آخر أن الأمير شيخو أنشأ خانقاه تجاه الجامع المذكور في السنة نفسها، وجمع فيه الصوفية ورتب لفائدتهم دروسا عدة في المذاهب الأربعة وعلوم أخرى.

المدرسة الشيرازية

بالمدينة المنورة، أنشأها إبراهيم الرومي المتوفى عام 730هـ.



مدرسة الصابرين

بمراكش، أنشأها أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين نحو منتصف القرن الخامس، وعرفت في القرن الثاني عشر بمدرسة بومدين.

المدرسة الصاحية

بنتها ربيعة خاتون في دمشق للحنابلة.

المدرسة الصلاحية

تعرف بالصلاحية أو الناصرية بالقدس، وتقع عند باب أسباط. كانت في الأصل كنيسة صندحنة. يذكر إنها من إنشاء نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الشهيد، ونسبت إلى صلاح الدين فاتح بيت المقدس. جعلها صلاح الدين الأيوبي مدرسة وخانقاه، وأوقفها على السادة المشايخ الصوفية، الشيوخ والكهول والشباب البالغين المتأهلين والمجردين من العرب والعجم. وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي. أما السكن بها فهو مأذون للمتجردين دون المزوجين، وكذلك للواردين من الصوفية من الخارج. ثم انقلبت كنيسة عند تملك الفرنج للقدس. ثم عادت إلى السلطة الإسلامية حتى عام 1856م. وهبها السلطان العثماني عبدالحميد لفرنسا اعترافا بجميلها لمساعدته في حرب القرم، فعمرها الرهبان وجعلوها مدرسة لهم. ثم جعلها جميل باشا خلال الحرب العالمية الأولى كلية علمية دينية فجهزها وعين لها علماء كبارا، ثم أعيدت للرهبان مرة أخرى بعد خروج العثمانيين، وهي اليوم مدرسة وكنيسة ومتحف. يوجد كتاب وقفها منقوشا على حجر كبير وضع على باب المدرسة. من أوقافها أراضي البقعة بظاهرالقدس، وبركة ماصلا والحمام المعروف بالبطرك والقبو والحوانيت المجاورة له والبركة المعروفة بالبطرك والربع الملاصق لها وغيره.

مدرسة الصهريج

بالقرب من مسجد الأندلس بفاس. بناها أبو الحسن المريني عام 721هـ. وكان يومئذ خليفة لوالده. مدرسة أنيقة رائقة ليست لها منارة. أخذت اسمها من الصهريج المستطيل الموجود بفنائها. كلف بناؤها مالا كثيرا، وكان بها أساتذة نظاميون. جدد بناءها عبدالله الغالب السعدي عام 1562م.

مدرسة صيرغتمش

خارج القاهرة، بجوار جامع أحمد بن طولون، فيما بينه وبين قلعة الجبل، ابتدأ في بنائها المير صيرغتمش الناصري في رمضان من عام 756، واكتمل البناءعام 757هـ. وكانت من أبدع المباني وأحسنها. جعلها وقفا على الفقهاء الحنفية، ورتب بها درسا للحديث النبوي. ماتزال المدرسة قائمة إلى اليوم.

المراجع:

الكتب:

إسماعيل بن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين. تحقيق: عبدالوهاب بن منصور. الرباط، القصر الملكي، 1962م.

حجي، محمد: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. الرباط، الدار المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1978م.

حركات، محمد: المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984م.

الزركلي، خير الدين: الأعلام. بيروت، دار العلم للملايين، 1986م.

السباعي، أحمد: تاريخ مكة. مكة المكرمة، نادي مكة الأدبي، 1979م.

السويسي، عبدالله: تاريخ رباط الفتح، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1979م.

الضعيف، محمد الرباطي: تاريخ الضعيف، تحقيق وتعليق: أحمد العماري. الرباط، دار المأثورات 1986م.

العيني، بدر الدين: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق وتعليق: عبدالرزاق الطنطاوي القرموط. القاهرة، الزهراء للإعلام 1989م.

القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين. بيروت، دار الكتب العلمية 1987م.

الماحي، علي حامد: المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني. الدار البيضاء، دار النشر المغربية 1986م.

مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية الميسرة. بيروت، دار نهضة لبنان 1986.

الوزان، الحسن بن محمد (ليون الإفريقي) وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت، دار الغرب الإسلامي 1983م.

يوسف، شريف: المدخل لتاريخ العمارة العربية والإسلامية وتطورها. بغداد، دار الرشيد للنشر 1980م. سلسلة الموسوعة الصغيرة 67.

الدوريات:

الأنصاري، ناجي محمد حسن: مجلة المنهل، جدة، عدد 499 [1413] ص128.

بنعبدالله، محمد: مجلة دعوة الحق، الرباط، عدد 270 [1408] ص 229.

تاجا، وحيد، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، عدد 357 [1416] ص 20.

حجي، محمد: مجلة المناهل، الرباط، عدد 26 [1980].

شراب، محمد حسن: مجلة المنهل، جدة، عدد 467 [1409] ص 69.

العسلي، كامل جمال: المجلة العربية للثقافة، تونس، عدد 2 [1402] ص 99.

غرايب، محمد الرحيل: المجلة العربية للثقافة، تونس، عدد 26 [1414] ص 187.

القاضي، وداد: مجلة الفكر العربي، عدد 21 [1981] ص 61.

معتينو، أحمد: مجلة الفنون، الرباط، ديسمبر 1977م ص 111.

أبها

إلى المدينة القصيدة ـ أبها ـ، وإلى كحل خضرتها الأمير الشاعر الفنان خالد الفيصل

شعر: يحيى السماوي

تعرى، ولكنّ الربيعَ إزارُ   والنَّبْعَ شالٌ، والزهورَ خِمارُ!
«أبها» لكلّ الباحثين عن الندى   وعن اختلاج الياسمين: مَسارُ!
للعاشقين: ربابةٌ بدويّةٌ   والعاشقات: قلادةٌ وسوارُ
جَلَسَتْ، فجاء الزهرُ يلثمُ صخرها   فَغَفَا، وأثْمَلَهُ شذًي وَهَزارُ
نام الربيعُ على حدائقِ خدّها   خالاً فَجُنَّ بسحرها السُّمّارُ
وَوَثَبْتُ من «بحر القصيد» لبحرِها   فإذا الشّراعُ رياحُهُ الأشعارُ!
الليلُ؟ صبحٌ في الأمان، وصُبْحُها   ليلٌ تُسامرُ نَجْمَهُ الأقمارُ
وَذُهِلْتُ، ما هذي السفوحُ؟ وأيْنَ من   أشذائها ما تنفثُ الأزهارُ؟
قد جئتُ يا «أبها» وتحت محاجري   رملٌ، ومن بئرِ الفجيعةِ قارُ
عينايَ ـ نافذتاي ـ فوقهما أسًى   وعليهما دمع السنين ستارُ
أهلي؟ ولكنّ الدروبَ تباعدتْ   وتَفَرَّقَتْ بعد الوئامِ ديارُ
نصبو إلى بعضٍ فَيَنْدبُ حظَّهُ   شَمْلٌ، ويرثي موجَهُ التيّارُ!
كيف الوصول إذا سفينةُ رِحلتي   وَرَقٌ، وأمْواجُ السواحلِ نارُ؟
عَبَثَ الهوى بي فارتميتُ خلاصةً   للوَجْدِ يلهو فوقَها الإعصارُ
واسْتَعْبَدَتْني ـ للعراقِ ـ صَبابةٌ   فَضَحَتْ ضعيفًا فاستَجارَ، وجاروا
أحْبَبْتُ من بين الحسانِ حبيبةً   طَرِبَتْ لوقع مسيرها الأحْجارُ
هي ـ من فصول العمرِ ـ بدءُ ربيعها   وهي المساءُ غفا عليه نهارُ
أبْحَرْتُ في أحْداقها حيثُ الهوى   غَسَقٌ يطيب وراءَهُ الإبْحارُ
ما خانني بَحْرِي غداة ركبْتُهُ   نحو الصباحِ، وخانني البَحّارُ!
ذبحوا أناشيدي وعطرَ حبيبتي   فأنا لِيَنْبوعِ النزيفِ جِرارُ
وأنا ـ وإنْ خَذَلَ الظلامُ نوافذي ـ   كأسٌ على شَفَةِ الدروب تُدارُ
وأنا ـ وإنْ حَرَثَ العذابُ حشاشتي ـ   وَرَمَتْ عليَّ نِصالَها الأقدارُ
قد جئت يا «أبها» وملءُ قصائدي   وَجْدٌ وما بينَ الجوانحِ غارُ
وعلى فمي لحنٌ يفيضُ صبابةً   وهوًى به للطيبين عَرارُ
لا تَسْأليني مَنْ تكون عشيرتي ..   أهلوك لي أهلٌ، وحقلُكِ دارُ!

الأستاذ

إسحق أحمد فضل الله

لا أحد من الطلاب ينسى يوم قدوم الأستاذ جاويش معلم الرياضيات، وهو يمشي في معطفه الرمادي وياقة المعطف مرتفعة قليلاً، ويده اليسرى تمسك بكراسة ينفخ الهواء أوراقها.

كلنا عرفنا الأستاذ جاويش في الحال، فلا شيء كان أشهر من صورته التي يراها الناس منذ سنوات في كل مكان، والتي نشرتها الصحف بعد أن نال المصور بها جائزة التصوير السنوية، ثم جعلتها الشركة صانعة آلة التصوير (الكاميرا) ملصقًا شهيرًا لها.

لكن ما أدهشنا تمامًا، كان هو ملاحظة أن كل شيء في الأستاذ جاويش الذي يدخل علينا الفصل لأول مرة، كان هو نفسه ما رأيناه في الصورة، المعطف الرمادي والياقة المرتفعة قليلاً، والنظرة الشاردة على وجه الالأستاذ التي تعطي ظلاً من الحنان الشاعري الشفيف، حتى الكراسة التي تبدو كأن الهواء ينفخ أوراقها قليلاً وهي في يده اليسرى، كانت هناك الآن والهواء ينفخ أوراقها قليلاً.

الأستاذ جاويش كان يبدو كأنه مدّ ساقه اليمنى التي كان يتكئ عليها في ملصق دعاية الشركة الضخم الذي يملأ كل مكان، ثم هبط إلى الطريق، وجاء إلينا.

ما من ساعة بعد ذلك من الليل أو النهار، إلا وكان الأستاذ جاويش يبدو فيها بمعطفه وكراسته والنظرة التي كأنها تطل من وراء إضاءة خافتة ملونة.. وحين اكتشفنا ـ نحن ثلاثة من الطلاب ـ أن دولاب ملابسه في غرفة داخلية المعلمين ليس فيه غير نسخ متكررة للمعطف الرمادي وبقية الملابس التي ظهرت في الصورة، خرجنا صامتين وفي أذهاننا شعور غامض بالانزعاج الأبكم.

حديث الأستاذ جاويش معنا نحن الثلاثة الذين اصطفانا من دون غيرنا كان همسًا لا ينتهي عن لحظة المصادفة الغريبة تلك:

ـ الحق .. لم أكن أعلم أن هناك من يلتقط صورة لي، كنت قادمًا لتوي من ألمانيا بعد عشر سنوات، كما تعلم، وكانت العاشرة مساء، وكنت أقف في طرف ميدان المطار شاردًا، كل شيء كان غريبًا، ولم يكن هناك من ينتظرني ولا حتى في البيت، وكان هناك البرد والإضاءة الملونة الخافتة، ويبدو أن المصور رأى ذلك كله، فالتقط صورتي من دون أن أنتبه..

والحق أنني دهشت جدًا حين رأيت صورتي بعد ذلك في الصحف. وكان ذلك بالطبع، حين فازت الصورة بالجائزة.. اللجنة التي اختارت الصورة هذه للفوز رأت فيها شيئًا لا يعرفه غيري وغيرها، اللجنة رأت....

ويستمر الأستاذ جاويش يحدثنا في همس جاذب متلذذ مسحور عما رأته اللجنة العبقرية.. وكانت اللجنة ترى في ليلة حيرته وعذابه ووحشة المسافر الذي يهبط في الليل، وليس في انتظاره أحد..

وكانت اللجنة ترى في ليلة أخرى قطارات ألمانيا التي تركها المسافر لتوه وراء ظهره ومحطاتها تتنهد تحت إجابات الأسئلة وتلفتات الذين لا يودعهم أحد.. وترى الأستاذ جاويش وهو يحمل القطارات في عينيه، وندف الثلج وهمس الأقدام المتعبة العائدة إلى البيت بعد السهر وأضواء آخر الليل المائجة في النعاس.

وكانت اللجنة ترى شيئًا ثالثًا في ليلة ثالثة.. اللجنة في ليال أخرى لم تكن ترى شيئًا، فالأستاذ جاويش كان يعمد فجأة إلى الصمت والشرود، ويبدو عنقه غائصًا عميقًا في ياقة معطفة، ثم يبدو عليه أنه يريد أن يقول لنا شيئًا خاصًا جدًا، وأنه قد شاور ذهنه طويلاً، ثم صمّم، لكنه يعدل فجأة عن ذلك. يرمينا بالنظرة المستوحشة، ثم يسكت في يأس.. مرة واحدة ـ ولم يكن معه أحد غيري ـ سألني وعيونه ملتهبة:

ـ هل تظن أن هناك شيئًا يجعل هذه الصورة خيرًا مني، أو لنقل أحسن حظًا، أحيانًا أرى أن هذه الصورة هي الأصل. أنت في السنة الثالثة أليس كذلك؟ لا أحسبك تفهم في السينما.. أنت فقط كثير الحديث عنها، كيف أشعر أن هذه الصورة هي الأصل في وجودي ذاته، وأن الصورة هذه هي.. هي أنا؟ هل أنا لم أفعل في حياتي كلها غير هذه الصورة؟ أو لنقل بالدقة، غير وقفتي تلك في الساعة العاشرة في مساء المطار، هل؟

كان الحديث يبدأ دائمًا عند سؤالي، ثم لا يكتمل.

الأستاذ جاويش لم يمكث معنا طويلاً، حمل حقائبه، وسمعنا به في عدة مدارس ومدن، ثم اختفى.

ثلاثتنا لم نعد نشير إليه بعد ذلك، وعندما يتعثر الحديث فوقه، كانت عيوننا تلتقي، ثم تبتعد بسرعة كأنها تلمس ذكرى سريعة البكاء، وفي نفوسنا شيء من الارتباك الساخط يشبه أن تقع عيونك فجأة على شخص جليل وهو عريان، وهو يلملم عريه خجلان مرتبكًا، شيء مثل ذلك كان في نفوسنا الطفولية في تلك الأيام كلما ذكرنا الأستاذ جاويش.

مازلت حتى اليوم أشعر شعورًا غامضًا أن الأستاذ جاويش في الحافلة التي غادرت الموقف قبل قليل، أو أنه سوف يدخل مكتبي بعد قليل، أو أنه قريب بصورة ما، والمعطف والكراسة، والسؤال عن الصورة: هل تعتقد أن هذه الصورة هي الأصل؟ وأنني.. أنني..

مازلت أنا أحتفظ بالصورة التي انتزعتها من لافتة على طرف الطريق. أتمنى لقاء الأستاذ جاويش، لكن شعورًا غامضًا يؤكد لي أنه يعرف، وأنه لن يقترب مني أبدًا ما دمت محتفظًا بالصورة.

المعيار الأخلاقي في نقد الشعر

د. نوره صالح الشملان

هل يُطَالَب الشاعر بأن يكون مُعَلِّمًا يحثّ الناس على التمسك بالفضيلة، والمُثُل الأخلاقية الحميدة؛ أي أن تكون له رسالة يسعى إلى إيصالها إلى الناس؟

وماذا عن الشعراء الذين يرون الشعر نفثات وجدانية وتعبيرًا عن الأحاسيس والمشاعر، ولا يهمهم بعد ذلك وَقْعَ هذا الشعر على الناس هل يصلحهم أم يفسدهم، أم إن تأثيره فيهم لا يتعدى المتعة المتجلية في قيمة الشعر الجمالية، ونقل تجربة الشاعر الوجدانية إلى الآخرين ليشاركوه فيها، وليجدوا بين طياتها أنفسهم حين يتعرضون لموقف مشابه؟

فمنذ أن نادى أفلاطون في جمهوريته برسالة الشعر التي يجب أن تحض على الفضيلة، والناس مختلفون في هذه الدعوة بين مؤيد ومعارض ومعتدل؛ فمنهم من يرفض الشعر الذي لا يحتوي على القيم الأخلاقية ولا ينادي بها، ومنهم من فَصَلَ الأخلاق والدين عن الشعر، ونظر إلى الشعر بمنظار فني مجرد، ومنهم من حاول أن يجمع بين الأمرين من جهة أن الشعر الجيد لا بد أن تتوافر فيه الغاية الأخلاقية والجمال الفني.

وكان لنقادنا القدماء موقف من هذه القضية، فمال بعضهم إلى تقديم الشعر الذي يخدم الأخلاق أو الدين، ومنهم ابن قتيبة الذي بنى اختياراته وتقويمه للشعراء على هذه الركيزة، ولم يكن الباقلاني أقل اهتمامًا بالمعنى الأخلاقي من ابن قتيبة؛ بل ربما كان أشد منه عنفًا في رفض الشعر الذي يتجرأ على الأخلاق، يعزز ذلك موقفه الرافض لبعض شعر امرئ القيس.

وكان يقابل هذه الجماعة التي ربطت الشعر بقيمته الأخلاقية جماعة أخرى من النقاد حاولت أن تحرر الشعر من الرسالة الأخلاقية، وأبرز هؤلاء محمد بن سلاّم الجُمحي الذي فصل الفن عن الأخلاق، ولم يجعل ما يحمله الشعر من رسالة أخلاقية معيارًا لتفوق الشاعر.

وكان ابن المعتز جريئًا حين فصَّلَ في هذا الموضوع؛ مبينًا أن شعر عدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت اللذين اشتهرا بالمواعظ والدعوة إلى الخير، لم تخلق المعاني السامية منهما قمتين تناطحان امرأ القيس والنابغة والأعشى والفرزدق، على خلو شعر هؤلاء من تلك المعاني التي يتحلى بها شعر الشاعرين السابقين.

أما قُدامة بن جعفر فلم يشر إلى المعاني الأخلاقية لأن المعيار في الجودة عنده هو التفوق الفني والنجاح في إبراز الصورة المعبرة.

إن الجمال هو غاية الشعر ومقصده، وهو إمتاع للأحاسيس يُقرأ لذاته ويُفهم مستقلاً عن كل ما سواه، ويعجبني ما قاله الدكتور زكي نجيب محمود في ضرورة التفرقة الفاصلة بين الشعر والأخلاق، يقول: «... وإن الشعر يظل شعرًا سواء أرضيت عنه مبادئ الأخلاق أم لم ترض مادام قد حقق ما تقتضيه طبيعة فنه»(1).

إن أعظم الشعراء هو من استطاع أن يكشف بشعره عن حقيقة النفس البشرية بعد أن يغوص في أعماقها. والشاعر المجيد يؤدي رسالة وإن لم تكن مباشرة، فالشاعر العاشق الذي يترجم عشقه غَزَلاً يجد فيه الآخرون كنزًا يلجؤون إليه ويتخاطبون به مع محبوباتهم حين يرغبون أن يقولوا ما قاله الشاعر، لكن قدراتهم تعجز عن ذلك فيستعينون بقدراته فينفسون بها عن كربهم.

وليقل لي من شاء ما القيم الإنسانية التي جسدها المتنبي في قصيدته المشهورة في هجاء كافور:

عيدٌ بأية حال عُدتَ يا عيد
بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ

لقد نادى المتنبي في هذه القصيدة بأمور نرفضها رفضًا شديدًا حين قسم الناس إلى عبيد وأحرار وجعل اللون معيارًا للتفوق في قوله:

العبد ليس لحر صالحٍ بأخٍ
لو أنه في ثياب الحر مولودُ
لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ

وهذه الأبيات تكاد تكون من شعر المتنبي الخالد الذي يردده الناس على اختلافهم مع المتنبي في هذه النظرة القاسية التي تتنافى مع الدين والحضارة والقيم الإسلامية والإنسانية.

أما سرُّ تعلقنا بها فيعود إلى نجاح المتنبي في نقل حياته الشعورية، فهو ناقم على كافور نادم على قدومه إليه؛ فالأبيات هي تعبير صادق وصريح عن موقف الشاعر النفسي من خصمه. إننا نختلف مع المتنبي في نظرته ولكننا نتفاعل مع غضبه وثورته.

والشاعر لا يُطالَب بالصدق، وإلا لحُكم بالإعدام على أكثر الشعراء.

ولعلي أختتم هذه المقالة بهذه الحكاية الطريفة التي تُروى عن المتنبي وسيف الدولة اللذين ذهبا في رحلة إلى الصحراء مع مجموعة كبيرة من الحاشية، ونُصبت الخيام فَهبَّت ريحٌ أسقطت خيمة سيف الدولة على حين لم تؤثر في الخيام الأخرى، وما كان من سيف الدولة إلا أن انزعج وتشاءم من ذلك؛ فوقف المتنبي بين يديه يُسوِّغ أمامه سقوط خيمته بهذه الأبيات:

أينفع في الخيمة العُذَّلُ
وتشمل من دهرها يشملُ
تضيقُ بشخصك أرجاؤها
ويركضُ في الواحد الجحفلُ
رأت لون نورك في لونها
كلون الغزالة(*) لا يُغسلُ
وأنَّ لها شرفًا باذخًا
وأنَّ الخيام بها تخجلُ
فلا تُنكرن لها صرعةً
فمن فرح النفس ما يقتُلُ
ولو بُلِّغَ الناسُ ما بُلِّغَتْ
لخانتهم حولك الأرجلُ

وصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين قال: «إن من البيان لسحرا».

الهوامش:

(*) الغزالة: الشمس.

(1) زكي نجيب محمود، مع الشعراء ص 188.

الحركة الثقافية في شهر

جامعة الدول العربية تدرس اقتراح سمو الأمير طلال بن عبدالعزيز إنشاء جامعة عربية مفتوحة

إقامة معرض «المصحف الشريف» - المخطوط والمطبوع والمسموع - في العاصمة الجزائرية

منظمة «اليونسيف» تؤكد حاجة الطفل العربي إلى مزيد من الرعاية وتنمية المهارات

السفراء العرب في العاصمة النمساوية يستعدون لإقامة أكبر مهرجان ثقافي عربي تشهده النمسا

علماء التاريخ والمصريات في لندن يحاولون - من جديد - استجلاء غموض وثائق نجع حمادي



الأمير سلطان بن عبدالعزيز
وَضَعَ حجرَ أساس «مدينة سلطان للخدمات الإنسانية»
سموه: تعاون كبير بين المدينة والمؤسسات الخيرية والجامعات في داخل المملكة وخارجها

وضع صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران المفتش العام، الرئيس العام لمؤسسة سلطان بن عبدالعزيز الخيرية، حجرَ أساس «مدينة سلطان بن عبدالعزيز للخدمات الإنسانية» في مقر المشروع شمالي مدينة الرياض؛ وذلك في يوم الأحد 3 جمادى الأولى الماضي.

وقال سموه في ختام الحفل الذي أُقيم بهذه المناسبة: «نشكر الله سبحانه أن هيأ لنا حكامًا من موحد الجزيرة العربية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن - رحمه الله - ومن بعده أبناؤه البررة - إلى أن وصلنا إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - حفظه الله -، لعمل أقل مما يجب لشعبنا العزيز ولمواطنينا الكرام». وأضاف واصفًا مشاعره وهو يضع حجر أساس هذه المؤسسة ذات المقاصد الإنسانية: «إنها تماثل مشاعر الأم التي تنظر لابنها المعاق عندما يخرج من هذه المدينة طيبًا معافى، ومشاعر الابن المعاق عن أداء واجبه، وبفضل الله سبحانه وتعالى وبنعمته منّ علينا بأن عالجناه في هذا المكان، وخرج عاملاً مؤمنًا بدينه ثم وطنه».

جولة جديدة لقوافل الثقافة

بعد نجاح التجربة الأولى للقوافل الثقافية المتجولة، التي نفَّذتها الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون قبل عامين، بدأت الجمعية - مؤخرًا - في تنفيذ جولة أخرى بعد تهيئة مكتبة متجولة تحملها سيارة خاصة مجهزة.

تشمل الجولة الجديدة المناطق: الوسطى والغربية والشرقية.

ترميم سور الدرعية وأبراجها

انتهى - مؤخرًا - العمل في مشروع ترميم أسوار وأبراج مدينة الدرعية القديمة وصيانتها بإشراف وكالة وزارة المعارف لشؤون الآثار والمتاحف.

وكان العمل في المشروع قد استغرق ست سنوات، تم خلالها ترميم أجزاء السور، وبناء أجزاء أخرى متهدمة منه.

الفائزون بجوائز معرض المسابقة السنوي

أعلنت - مؤخرًا - نتائج معرض المسابقة السنوي للفنون التشكيلية الذي نظمته، في بيت الفنانين التشكيليين بجدة، الرئاسة العامة لرعاية الشباب.

شارك في المعرض 40 فنانًا وفنانة قدموا ما يزيد على 50 عملاً، وتم توزيع الفنانين على ثلاثة مستويات؛ حيث فاز بالمراكز الأولى في المستوى الأول على التوالي كل من الفنانين: عبدالله إدريس،

وأشار سموه إلى أن هناك اتصالات بين المؤسسة والمؤسسات المماثلة داخل المملكة العربية السعودية وخارجها. وقال: «إن المزيد من العلم والتقنية واجب، ولذلك هناك اتجاهات وبحوث مع كل المؤسسات سواء كانت مؤسسات وطنية مثل مؤسسة الملك فيصل الخيرية ومركز الأمير سلمان الاجتماعي للتعاون معهم، وكذلك الجامعات السعودية، ولنا كذلك اتصالات، مثلما قال الأمين العام، مع جامعات الولايات المتحدة».

أهداف المؤسسة

وألقى صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن سلطان بن عبدالعزيز الأمين العام لمؤسسة سلطان بن عبدالعزيز الخيرية كلمة نوه فيها بالجهود الإنسانية لحكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، ثم تطرق إلى أهداف المؤسسة التي تتمثل في تقديم الرعاية الصحية والاجتماعية، والتأهيل الشامل للمعاقين والمسنين، وإيجاد دور للنقاهة والتأهيل والتمريض، والتوعية بضرورة استخدام الرعاية المنزلية والاجتماعية للمعاقين، ونشر الوعي لتعرف مظاهر الشيخوخة المبكرة، وتهيئة الأجهزة التعويضية للمعاقين والمسنين، وإجراءالبحوث العلمية عن الإعاقة والشيخوخة المبكرة.

وأشار سمو الأمير فيصل بن سلطان إلى إسهامات المؤسسة الخيرية، التي من أهمها: اتفاقية التعاون بين المؤسسة وجامعة الملك سعود، ومشاركة المؤسسة في دعم بحث وطني عن الإعاقة في المملكة بالتعاون مع مركز الأمير سلمان لأبحاث الإعاقة، واستضافة المؤسسة عددًا من العلماء والأطباء من تخصصات مختلفة، والقيام ببحث عن مرض الخرف (الزهايمر)، ودعم مركز مكة الطبي بمشاركة سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز بمبلغ خمسة عشر مليون ريال، وتخصيص خمسين في المئة من أرباح حصة سموه لصالح الصندوق الخيري للمركز، إضافة إلى صدور توجيهات سموه بإنشاء مركز للعلوم والتقنية بالمنطقة الشرقية، يتكلف إنشاؤه أكثر من سبعين مليون ريال، عدا الأرض التي تبرع بها سموه في مدينة الخبر.

مرافق المدينة

وألقى الدكتور راشد أبا الخيل مدير عام مدينة سلطان بن عبدالعزيز الخيرية كلمة أشار فيها إلى بعض مرافق المدينة، وهي: مركز التأهيل الطبي - وهو أكبر مركز طبي من نوعه في الشرق الأوسط -، مركز النقاهة، العيادات التخصصية الشاملة - ويُقدر عدد المراجعين لها بمئتين وتسعين ألفا وستمئة وخمسة وخمسين مراجعًا في العام الواحد -، مركز الجراحة النهارية - ويقدر عدد العمليات الجراحية فيه بأربعة عشر ألفا وتسعمئة وسبع عمليات جراحية في العام -، مركز تنمية الطفل - وهو يخدم الأطفال من سن الولادة إلى سن العاشرة -، مركز علاج وجراحة الوجه والجمجمة، إضافة إلى مركز الأبحاث والدراسات.

وقال السيد جيفري كارير النائب السابق للمدير العام لمستشفى شاميا، والرئيس الحالي لمستشفى هيلث ساوثر بفلوريدا وهو أحد الخبراء الذين شاركوا في إعداد الدراسات الأولى للمشروع: «إن هذا المشروع سوف يتيح العلاج لأولئك الذين يحتاجون إلى رعاية خاصة ومتقدمة مما يمكنهم من العيش والتمتع بأسلوب حياة أفضل»، وأضاف: «إننا نأمل أن تكون هذه المدينة مدينة التأهيل المتميزة التي تنشأ في هذا القرن».

وقدم عدد من المعاقين درعًا لصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز، كما أُهدي لسموه مجسم المدينة الإنسانية.

ومما يجدر ذكره أن مدينة سلطان بن عبدالعزيز الخيرية تقام على أرض مساحتها مليون متر مربع، والمسطحات مئة ألف متر مربع، بتكلفة تزيد على 500 مليون ريال، وسوف يستغرق تنفيذها 28 شهرًا.

6 ملايين ريال تبرع من مؤسسة الملك فيصل الخيرية والأمير خالد الفيصل

أعلن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز المدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية عن تبرع المؤسسة بمبلغ خمسة ملايين ريال لمؤسسة الأمير سلطان بن عبدالعزيز الخيرية، وتبرعه الشخصي بمبلغ مليون ريال دعمًا لأعمال المؤسسة.

وقال سموه: «إن خطوات صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز مدعاة فخر واعتزاز لكل من ينتسب إلى المملكة العربية السعودية؛ لأنه مثال ورمز للخير والإقدام في كل ما ينفع هذا البلد ومواطنيه من خدمات إنسانية».

وأضاف سموه: إذا كان قد قُدِّر للناس أن يعرفوا هذا العمل الذي قام به سمو الأمير سلطان، فإن هناك أعمالاً أخرى كثيرة لا يعرفونها». وأشار الأمير خالد الفيصل إلى أن الدعم الذي قدمته مؤسسة الملك فيصل الخيرية يأتي تأكيدًا للدور الكبير الذي تقوم به مؤسسة الأمير سلطان الخيرية في المجال الطبي والتأهيلي للمعاقين والمسنين من أبناء المملكة، إلى جانب القيام بالدراسات والبحوث الأكاديمية والطبية والتقنية المتطورة.

وعمر طه، ومحمد المنصور، وجاء في المستوى الثاني على التوالي كل من: محمد زكي، ومحمد الغامدي، وابتسام مبارك، وفائز الحارثي، فيما فاز في المستوى الثالث كل من: وليد الطيار، وسلمى بنت أحمد، وزكريا مليمان، وغالية القثامي.

كتب جديدة

القيم الإنسانية في شعر الرثاء الجاهلي، تأليف محمد جرمان العواجي، صدر عن دار الحارثي للطباعة والنشر في الطائف.

حوار الأسئلة الشائكة، تأليف محمد علي قدس، صدر عن نادي جدة الأدبي الثقافي.

الرؤى والأحلام في سنة هادي الأنام، تأليف أحمد بن سليمان العريني، صدر عن دار الوطن في الرياض.

بداية السول في تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم، تأليف الإمام عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، عُني بتقديمه حسين محمد شكري، وصدر عن دار المدينة المنورة.

كشف الشبهات، تأليف الشيخ محمد بن عبدالوهاب، صدر باللغة الأوردية عن لجنة كشمير المسلمة في الأمانة العامة للندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض.

مكاشفات السيف والوردة، تأليف عبدالعزيز مشري، صدر عن نادي أبها الأدبي.

الإمارات

تكريم الفائزين بجوائز البابطين

تقيم الأمانة العامة لجائزة عبدالعزيز سعود البابطين الشعرية الحفل السنوي للجائزة في دورتها الخامسة التي تحمل اسم الشاعر الكويتي الراحل «أحمد مشاري العدواني» في أبو ظبي يوم الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة الجاري (27 أكتوبر 1996م).

ويتم خلال الحفل توزيع الجوائز على الفائزين بالجائزة للعام الحالي الذين اختيروا من بين 337

الأمير خالد الفيصل

يُكرِّم الفائزين في جائزة أبها ويتبرّع بمليون ريال لأربعة مجالات جديدة



رعى صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير، رئيس لجنة جائزة أبها، في يوم الأربعاء 13 جمادى الأولى الماضي حفل توزيع الجوائز على الفائزين في مسابقة هذا العام.

وقال سمو الأمير خالد في كلمته بهذه المناسبة: «الحمد لله على جميع نعمه، ثم الشكر لمليكنا المفدى رائد العلم والثقافة في هذه البلاد، والتهنئة للفائزين بهذه الجائزة الذين عملوا ففازوا فكُرِّموا، والتحية لمن لبى دعوتنا وحضر هذا الحفل، والتقدير لكل من شارك وساهم في نجاح ملتقى جائزة أبها».

وكان سموه قد رصد من ماله الخاص مبلغ مليون ريال تُوزع سنويًا على المبدعين في أربعة مجالات هي: الخدمة الوطنية، والثقافة العامة، والتعليم العام، والتعليم الجامعي.

وقد فاز في فرع الخدمة الوطنية 38 من مختلف القطاعات، وفي فرع الثقافة 22 فائزًا، وفي فرع التعليم العام 51 فائزًا، وفي فرع التعليم الجامعي 49 فائزًا.

وقد فاز بالجائزة الأولى في مجال البحوث والدراسات أحمد بن إبراهيم المحيميد عن موضوع «الدراسات العالمية والتطبيقية في الجانب الثقافي»، كما فاز بالجائزة الثانية الدكتور محمد إبراهيم ماضي، وفازت الدكتوره رقية القشقري والأستاذه ملوك الخزان بالجائزة الثالثة. وفاز بجائزة الشعر الفصيح الشاعر إبراهيم عبدالله مفتاح، والدكتور شهاب محمد عبده غانم. أما في مجال المجموعة القصصية، فقد فازت سمر محمد الرملاوي بالجائزة الأولى، وفاطمة يوسف العلي بالجائزة الثانية، وندى عبدالله الطاسان بالجائزة الثالثة، في حين فاز أديب أحمد عاشور بالجائزة الثالثة للرواية. أما في مجال النصوص المسرحية، فقد فاز بالجائزة الأولى محمد عبدالله العثيم، وكانت الجائزة الثانية من نصيب حسين عبدالله مناصره، وفاز محمود محمد القليني بالجائزة الثالثة. وفي الشعر الشعبي فاز بالجائزة الأولى سعد زهير الشمراني، ونالت منيرة حمد المبارك الجائزة الثانية، بينما حصل عويد محمد المطرفي على الجائزة الثالثة. وفي مجال الفن التشكيلي فاز الفنان عبدالله شاهر بالجائزة الأولى، وفاز سلطان الزيلعي بالجائزة الثانية، بينما حصل محمد علي عسيري على الجائزة الثالثة. وفي مجال التصوير الضوئي، فاز عبدالله العامر بالجائزة الأولى، وصالح الأزرق بالجائزة الثانية.

وفي إطار الاحتفال بتوزيع جائزة أبها هذا العام، أقيمت معارض فنية تشكيلية وضوئية، ومعرض استراتيجيات السرد للفنانين الأمريكيين.

وشارك في المعرض التشكيلي 39 فنانًا بأكثر من 60 لوحة فنية، كما شارك 60 مبدعًا وناقدًا عربيًا؛ حيث تقرر حجب جائزة أفضل ديوان شعر كون الأعمال المقدمة لا تحقق صفة أفضل ديوان، فيما نالت الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة جائزة الإبداع الشعري، وحصل الناقد المصري د. صلاح فضل على جائزة الإبداع في مجال نقد الشعر، والشاعر المصري أحمد محمد الشهاوي على جائزة أفضل قصيدة عن قصيدته «المرأة الاستثنائية».

الكويت

برنامج للتعاون الثقافي مع مصر

أثمرت الزيارة التي قام بها للقاهرة - مؤخرًا - الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب د. سليمان العسكري عن وضوح ملامح هيكل البرنامج التنفيذي لاتفاقية التعاون الثقافي الكويتي المصري.

ويتوقع أن تشارك الخبرات المصرية في التنقيب عن الآثار في الكويت، وتدريب المرممين الكويتيين على ترميم المخطوطات والكتب، والدعم الفني لإنشاء مجمع المسرح الوطني الكويتي، فضلاً عن تكثيف وجود الكتاب الكويتي في معرض القاهرة الدولي للكتاب.

محاضرات وندوات

«مفهوم الوسطية في الإسلام»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع أبي سعيد الخدري بمكة المكرمة، الشيخ د. صالح بن فوزان الفوزان.

«توجيهات للمدرسين والمدرسات والطلاب والطالبات»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع الأمير متعب بحي الثغر في جدة، الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

«الولاء والبراء»، عنوان محاضرة ألقاها في مسجد صلاح الدين بالثقبة، الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن السعد.

«نحن أمة في مستوى التحديات»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي الطائف الأدبي، د. حسن بن فهد الهويمل.

«النقد الأدبي البنّاء»، عنوان ندوة وحوار مفتوح نظمهما النادي الأدبي في حائل، وشارك فيهما كل من: د. عبدالرحمن الفريح، وزامل محمد السبهان، وعبدالرحمن السويداء، وعبدالعزيز المنصور، وآخرون.

«جماليات النص الشعري للأطفال» كتاب الناقد أحمد فضل شبلول، كان موضوعًا لندوة نظمها قصر ثقافة الحرية في الإسكندرية، شارك فيها د. حلمي القاعود، وأدارها أحمد فراج.

«علاقة الفن التشكيلي بالصحافة»، موضوع ندوة أقيمت في جمعية الفنون التشكيلية في الكويت، شارك فيها عدد من الفنانين التشكيليين والصحافيين.

«وجوب العناية بأسباب الأمن والتحذير من ضدها»، عنوان ندوة أقيمت في جامع الأمير تركي بن عبدالله (الجامع الكبير) في الرياض، شارك فيها كل من: الشيخ محمد حسن الدريعي، والشيخ عبدالله بن محمد الخنين، والشيخ سليمان بن إبراهيم الحديثي.

«قصيدتي المفضلة»، عنوان ندوة نظمتها أسرة ندوة شعراء العروبة في

فنانًا في معرض التصوير الضوئي، وذلك بمئة لوحة مصورة.
من جهة أخرى، رعت حرم صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل حفل توزيع الجوائز على الفائزات، معبرة عن سعادتها بهذه المناسبة، التي توضح ما نالته المرأة من اهتمام حكومة خادم الحرمين الشريفين ورعايتها، ولاسيما وقد ازداد عدد المشاركات في الجائزة هذا العام.

نادي أبها
يعلن عن مسابقته السنوية الخامسة والعشرين

كما أعلن نادي أبها الأدبي عن فتح باب المشاركة في مسابقته الثقافية الخامسة والعشرين، للمثقفين ـ من الجنسين ـ من سعوديين وعرب. وتدور المسابقة السنوية لعام 1417هـ حول ثلاثة مجالات هي: المخدرات، والتراث الإسلامي، وأدب الطفل. وعلى من يرغب في المشاركة في أي من المجالات الثلاثة المذكورة تقديم ما يلي:

1ـ بحث موثق عن المخدرات وأضرارها وكيفية صيانة المجتمع من شرورها.
2 ـ بحث موثق عن جانب من التراث الإسلامي وأبرز معالمه وأعلامه.
3 ـ بحث موثق عن أدب الطفل العربي، وإيجاد الأبدال لما تنتجه المصادر الغربية في هذا المجال.

ووضعت أمانة الجائزة عددًا من الشروط، إذ قررت أن تكون النصوص مكتوبة باللغة العربية الفصحى، ومطبوعة بالآلة، وأن يقدِّم المشارك ثلاث نسخ من البحث الذي يشارك به، على ألا يقل البحث عن أربعين صفحة (فلوسكاب). ويجوز للمتسابق أن يشترك في أكثر من مجال، ولكن لا يحق له الفوز إلا بجائزة واحدة، ويحصل الفائز في أي مجال من مجالات المسابقة على جائزة قدرها خمسة آلاف ريال. وحُدِّد آخر موعد لتسليم مشاركات المتسابقين بنهاية شهر شوال 1417هـ، وتُرسل النصوص على عنوان نادي أبها الأدبي : ص.ب 478، أبها ـ المملكة العربية السعودية.

سلطنة عمان

كتب جديدة

القراءات الثماني للقرآن الكريم، تأليف الإمام أبي محمد الحسن بن علي بن سعيد المقرئ العماني، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض وأحمد حسين صقر، وتقديم سماحة مفتي السلطنة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، صدر عن وزارة التراث القومي والثقافة.

مصر

اقتراح إنشاء جامعة عربية مفتوحة

اقترح صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبدالعزيز رئيس المجلس العربي للطفولة والتنمية ورئيس برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية، إنشاء جامعة عربية مفتوحة تأخذ بنظام التعليم عن بعد. ودعا في رسالته إلى عقد لقاء تحت مظلة الجامعة العربية تشارك فيه نخبة من التربويين العرب لدراسة أبعاد الفكرة.

من جانبه قام الأمين العام للجامعة الدكتور عصمت عبدالمجيد ببحث الاقتراح الذي سيفيد منه أبناء العروبة جميعًا.

خطة لنشر التراث العلمي الإسلامي

وضعت جمعية إحياء التراث العلمي للحضارة الإسلامية التي تأسست ـ مؤخرًا ـ خطة لنشر التراث الإسلامي محققًا في سلسلة من الكتب تعتزم إصدارها بمعدل أربعة كتب في العام، إضافة إلى سلسلة أخرى تقدم التراث العلمي بلغة العصر.

كما تعتزم الجمعية ـ بدءًا من العام الميلادي المقبل ـ تنظيم موسم ثقافي يحاضر فيه كبار المتخصصين بالتراث العلمي، إضافة إلى إعداد متحف في مقر الجمعية للتراث العلمي وإبداعاته في كل العلوم.

يُذكر أن الجمعية تضم خمسمئة عضو. ويترأسها د. أحمد فؤاد أبو باشا، وكيل كلية العلوم بجامعة القاهرة.

مجلة «الأهرام العربي»

في الطريق إلى الصدور مجلة أسبوعية جديدة جامعة تتوجه إلى القارئ العربي عامة وتحمل اسم «الأهرام العربي».

تصدر الأهرام العربي عن مؤسسة الأهرام الصحفية بالقاهرة، ويترأس تحريرها إبراهيم نافع، ويُنتظر أن تضم أبوابًا في مختلف الفنون المعرفية،

القاهرة، شارك فيها الشعراء: ياسر قطامش، وعبدالحسيب الخناني، وإبراهيم صالح، وآمال شحاتة، ورشاد يوسف، وأدارها إبراهيم عيسى.

«تشخيص العيوب الخلقية للجنين قبل الولادة»، عنوان محاضرة ألقاها في مستشفى بللسمر في عسير، د. جابر أحمد رزق.

نظم مركز الإبداع في كرمة ابن هانئ بالقاهرة أمسية شعرية للشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي.

نظم مركز الهناجر بالقاهرة أمسية شعرية للشاعرة السعودية حنان علي شبكشي.

«وادي الرافدين وأول الحضارات في العالم»، عنوان محاضرة ألقاها في ديوان الكوفة في لندن، بول كولنس.

«الصحافة الأدبية»، موضوع ندوة أقيمت في مكتبة سوزان مبارك بحديقة 6 أكتوبر بالقاهرة، تحدث فيها الكاتبان مصطفى عبدالله وخالد هاشم.

«آفاق التعاون في المجالين السياسي والاقتصادي بين دول الشرق الأوسط»، عنوان محاضرة ألقاها في ندوة نظمتها غرفة التجارة الألمانية العربية في القاهرة، د. أسامة الباز.

«شؤون البيئة»، موضوع محاضرة ألقاها في مركز جمعية مراسلي الصحافة الأجنبية في لندن، ديفيد أتنبورو.

«الطب النفسي في ضوء القرآن الكريم»، موضوع ندوة نظمتها في القاهرة جمعية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بالتعاون مع مجمع العمرانية الإسلامي، تحدث فيها د. أحمد شوقي إبراهيم.

نظمت مكتبة القاهرة الكبرى أمسية شعرية للشاعر عبدالرحمن الأبنودي، أعقبها لقاء أداره كامل زهيري.

«الوضع الراهن لأكراد العراق»، موضوع محاضرة ألقاها في القسم العربي بإذاعة سبيكتروم المحلية في لندن، د. محمود عثمان.

«النظرية الإسلامية في حماية البيئة»، عنوان محاضرة ألقاها في قصر التذوق بسيدي جابر في الإسكندرية، محمود عوضين.

ومنهـا السياسـة والأسـرة والاقتصـاد والفن والأدب والرياضة.

وفاة لطيفة الزيات

توفيت ـ إلى رحمة الله ـ الناقدة الأدبية د. لطيفة الزيات عن عمـر ناهز 73عـامًا، إذ ولدت عـام 1923م، ونالت درجـة الدكتـوراه في الأدب الإنجليزي من كلية الآداب بجامعة القاهرة عام 1957م. وعملت بالتدريس في الجامعة إلى أن بلغت درجة الأستاذية ورئاسة قسم اللغة الإنجليزية، كما عملت مديرة لثقافة الطفل، ومديرة لأكاديمية الفنون، ورئيسة لقسم النقد المسرحي بالمعهد العالي للفنون المسرحية.

وكانت الراحلة عضوًا في المجلس الأعلى للفنون والآداب، ومجلس السلام العالمي، وعضو شرف في اتحاد الكتّاب الفلسطينيين، ونالت جائزة الدولة التقديرية في الأدب هذا العام قبل رحيلها بنحو شهرين.

ومن مؤلفاتها: رواية «الباب المفتوح»، و«نجيب محفوظ الصورة والمثال»، و«مقالات في النقد الأدبي»، وغيرها.

مكتبة زراعية متخصصة

افتُتحت في القاهرة ـ مؤخرًا ـ المكتبة القومية للزراعة والعلوم، التي تُعَدّ ثاني أكبر مكتبة من نوعها على مستوى العالم بعد المكتبة الزراعية الوطنية الأمريكية.

أقيمت المكتبة على مساحة 3200 متر مربع، وتضم 25 ألف مجلد، و650 دورية ، و50 قاعدة معلومات ببليوجرافية، و1500 مرجعية، و 8 آلاف رسالة جامعية في العلوم الزراعية، ومكتبة سمعية بصرية، إضافة إلى الحاسبات الآلية.

وتستهدف المكتبة الوصول بعدد مجلداتها إلى 200 ألف مجلد، وقد تكلف إنشاؤها 25 مليون جنيه.

المؤتمر الثاني عن القدس

يقام في القاهرة المؤتمر الثاني عن القدس الشريف تحت عنوان «مصادر تاريخ القدس عبر العصور» في الأسبوع الأول من شهر مارس المقبل 1997م.

ينظم المؤتمرمركز الدراسات التاريخية في كلية الآداب بجامعة القاهرة بالتعاون مع أقسام التاريخ في الجامعات المصرية واتحاد المؤرخين العرب.

من ناحية ثانية يعتزم المركز إصدار موسوعة تاريخية للناشئة تحمل عنوان «موسوعة التاريخ العربي الإسلامي عبر العصور»، وينتظر أن يصدر العدد الأول منها خلال شهر رجب المقبل.

معهد لتخريج الدعاة باللغات الأجنبية

في خطوة جديدة لخدمة الدعوة الإسلامية، قررت جامعة الأزهر إنشاء معهد في مدينة المنيا بصعيد مصر لتخريج الدعاة في الدول الأجنبية.

يتضمن المعهد المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، وتتم الدراسة فيه باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

تكريم د. هيكل في ذكراه

يقيم المجلس الأعلى للثقافة ندوة دولية بعنوان «محمد حسين هيكل وجهود الاستنارة المصرية» بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاة هيكل خلال المدة من 14 إلى 16 شعبان 1417هـ المقبل (14- 16 ديسمبر 1996م).

تناقش الندوة التي يشارك فيها باحثون عرب وأجانب عدة محاور منها: الإنجاز الأدبي والفكري والإبداعي، والتراث الإسلامي، والدراسات النقدية والأدبية، والكتابات السياسية.

كما يقام معرض لأعمال المحتفى به وما كتب، ومعرض آخر لمقتنياته الشخصية، ونشر مقالات له لم يسبق نشرها، وكذلك مذكراته عن مرحلة الشباب في فرنسا، فضلا عن عرض فيلم تسجيلي عنه، وعرض فيلم «زينب» بمقدمة يتحدث فيها بصوته.

ملتقى للجامعات الإسلامية

التقت وفود من 54 دولة في اجتماعات الملتقى الثالث لرابطة الجامعات الإسلامية، التي استضافتها القاهرة في النصف الثاني من شهر ربيع الآخر الماضي واستمرت عشرة أيام.

طُرحت خلال الملتقى عدة قضايا إسلامية، وخاصة ما يتعلق منها بالتعليم الجامعي، كما أُقيمت عدة ندوات من أبرزها: «الإعلام الإسلامي وتكوين الرأي العـام»، و«العطاء الحضاري للإسلام»، و«مستقبل التعليم الإسلامي» و«الاقتصاد الإسلامي ودوره في بناء المجتمعات الإسلامية».

الصليبيون أول مزيفي العملات

كشفت ست عملات أثرية عثر عليها في مركز سمالوط بمحافظة أسيوط أن الصليبيين كانوا من أوائل مزيفي العملات في التاريخ، حيث قاموا بتزييف عملات ذهبية إبان عصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

واحتوت العملات الأثرية المزيفة في أحد وجهيها على عبارة من هامشين بالخط الكوفي المعقد إمعانًا في عملية التزييف، وكذلك كتابة مماثلة على ظهر العملة.

الفائزون بجوائز مسابقة «أخبار الأدب» للقصة

أعلنت صحيفة «أخبار الأدب» نتائج مسابقتها الثانية للقصة القصيرة، التي تقدم إليها قرابة 3500 مشارك من مصر والعالم العربي، حيث فاز 25 قاصًا بالجوائز المقدمة من الصحيفة.

نال الجائزة الأولى ومقدارها ستة آلاف جنيه مناصفة القاصان المصريان محمود حامد عبدالعظيم عن قصته «تمارين على السقوط الأخير»، ونورا أمين عن قصتها «قميص وردي فارغ»، وتقاسم الجائزة الثانية وقيمتها أربعة الاف جنيه ممدوح عبدالستار نصر عن قصته «ابن الميتة» ومحمد ساطع زغلول عباس عن قصته «حزب الرسائل»، وفاز بالجائزة الثالثة وقيمتها ثلاثة آلاف جنيه مناصفة كلا من سناء محمد فرج «مصر» عن قصتها «الضوء الآخر»، وعبدالقادر الدردوري «تونس» عن قصته «من سجلات أبي زيد البسطامي»

كتب جديدة

الديموقراطية والدولة في العالم العربي، تأليف تيموثي ميتشل، ترجمه إلى العربية بشير السباعي، وصدر عن دار مصر العربية.

الضحك بالراحة، مجموعة قصصية لمختار السويفي.

أعلام العصر، تأليف د. محمد رجب البيومي.

صدر الكتابان السابقان عن الدار المصرية اللبنانية.

الدين والفلسفة والتنوير، تأليف د. محمود حمدي زقزوق، صدر ضمن سلسلة «اقرأ» عن دار المعارف.

فن القصة عند محمد عبدالحليم عبدالله، تأليف د. يوسف نوفل، صدر ضمن سلسلة «أدبيات» عن الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان).

أدب الرحلة في التراث العربي، تأليف فؤاد قنديل، صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.

دار الكتب المصرية، تاريخها وتطورها، تأليف د. أيمن فؤاد سيد، صدر عن دار أوراق شرقية.

ترانيم في ظل تمارا، رواية لمحمد عفيفي، صدرت ضمن سلسلة «روايات الهلال» عن مؤسسة دار الهلال.

الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، تأليف د. أحمد عبدالرحيم السايح، صدر عن الدار المصرية اللبنانية.

السودان

مهرجان الثقافات السودانية

أقيم في المدة من 1 ـ 7 سبتمبر الماضي المهرجان الثاني للثقافات السودانية، وذلك في مركز شباب الجزيرة بالقاهرة، ونَظم هذا المهرجان، الذي أقيم تحت عنوان «أينما تكون يشرق السودان»، المركز

السوداني للثقافة والإعلام.

تناول المهرجان الفن التشكيلي والعادات والتقاليد والفنون التعبيرية، وهو يرمي إلى إبراز التنوع في ثقافات القبائل السودانية، وتلاقحها، وتبادل التأثير فيما بينها.

الأردن

موسوعة عن أدباء الأردن

شكلت وزارة الثقافة الأردنية لجنة من الأساتذة الأكاديميين والأدباء للبدء في تنفيذ مشروع موسوعة عن الأدب الأردني.

يرمي المشروع إلى التعريف بأدباء الأردن في مجالات الأدب المختلفة من شعر وقصة ورواية، من خلال إصدار موسوعة باللغتين العربية والإنجليزية تتضمن كل ما يهم عن المبدع سواء من حيث السيرة الذاتية أو العطاء الأدبي.

مدفنان أثريان

عُثر في منطقة تل أربيل شمالي الأردن على مدفنين أثريين يمثلان جميع الحضارات التاريخية من عام 2100 قبل الميلاد إلى عام 1500 ميلادية.

والمدفن الأول مقطوع في الصخر الجيري ويتكون من قاعة محفورة في الصخر، يحيط بها ثمانية قبور إضافية، وقبر محفور في أرضيتها، وبها ثلاث جرار تعود إلى العصر البيزنطي.

أما المدفن الثاني فيتألف من قاعة على جانبيها الجنوبي والشرقي عقدان فيهما مجموعة من القبور، وهو كسابقه محفور في الصخر، وقد غطيت جدرانه «بالفريسكو» الجبس المغطى بالرسومات والألوان المتعددة، وقد وجدت عليه بعض الكتابات، وعُثر داخل المدفن على أوان زجاجية وفخارية وقطع نقدية من العصرين الروماني والبيزنطي.

حاجات تنمية الطفولة العربية غير كافية

حذرت دراسة أعدتها منظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونسيف) من أن حاجات تنمية الطفولة المبكرة في البيوت العربية غير كافية، نتيجة لكبر حجم الأسرة وعدم التباعد بين الولادات ونقص الوعي لدى الوالدين، مما يخلق بيئة غير مواتية لتعزيز مهارات الطفل وتنميتها، حيث يجهل عديد من الآباء والأمهات دورهم في هذا المجال.

وأشارت الدراسة التي جاءت في إطار شامل عن واقع تنمية الطفولة المبكرة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى أن خدمات تربية الطفولة المبكرة تكاد تقتصر بشكل رئيسي على الخدمات التي تقدم على هيئة برامج ما قبل المدرسة، التي تتوافر أساسًا في المدن.

مهرجان الأزرق للثقافة والفنون

استضافت قلعة الأردن التاريخية التي بناها الرومان وأعاد المماليك إعمارها أعمال مهرجان الأزرق الرابع للثقافة والفنون الذي نظمته - مؤخرًا - وزارة الثقافة بالتعاون مع منتدى الأزرق الثقافي.

تضمن المهرجان الذي استمر أربعة أيام عروضًا فنية شعبية، وقراءات شعرية وندوة حول الواقع المائي في الأردن عامة وواحة الأزرق خاصة، إضافة إلى مسرحية نقدية ساخرة.

كتب جديدة

أعمدة الغبار، رواية لإلياس فركوح، صدرت عن دار أزمنة.

خيوط الزعفران، مجموعة قصصية للدكتور محمد طلال الرشيد، صدرت عن دار البشير.

معجم بلدان فلسطين، إعداد محمد محمد حسن شراب، صدر عن الدار الأهلية للنشر والتوزيع.

ليلة عاصفة، رواية لعدي مدانات، صدرت عن وزارة الثقافة.

لبنان

جائزة هاسكل لدراسة عن أدب نجاح العطار

مُنحت الكاتبة نبيهة عيسى جائزة ماري هاسكل لعام 1996م عن بحثها «الوطن والإنسان في كتابات الأديبة نجاح العطار».

وكانت لجنة الجائزة قد اختارت أعمال وزيرة الثقافة السورية د. نجاح العطار، لتكون محل التنافس بين المتسابقات هذا العام، حيث سبق على مدى السنوات الثماني الماضية تكريم عدد من النابغات عبر الاحتفاء بهن بتخصيص الجائزة لأحسن بحث عنهن أو عن أعمالهن.

ومن بين المكرمات: مي زيادة، سلمى الحفار الكزبري، ليلى عسيران، إملي نصر الله، سليمي المولوي الخطيب، نادية تويني، وبريجيت ماي.

كتب جديدة

سطوة المساء، ديوان للشاعر وليد خازندار، صدر عن دار بيسان للنشر والتوزيع في بيروت.

ناي على أيامنا، ديوان للشاعر محمد القيسي، صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

كتاب البلدان، تأليف ابن الفقيه الهمداني، تحقيق يوسف الهادي، صدر عن دار عالم الكتب.

صورة المرأة، تأليف علي أفرفار، صدر عن دار الطليعة.

لئلا يكون صدام الحضارات: الطريق الثالث بين الإسلام والغرب، تأليف هادي المدرسي، صدر عن دار الجديد.

المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى، تأليف محمد منير سعد الدين، صدر عن المكتبة العصرية في صيدا.

جبل لبنان في القرن التاسع عشر: من الإمارة إلى المتصرفية، تأليف كرم رزق، صدر عن منشورات الكسليك.

الرقة والبكاء، تأليف أبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، صدر عن دار ابن حزم.

سورية

معرض دمشق الدولي للكتاب

شاركت 325 دارًا للنشر في معرض دمشق الدولي للكتاب الذي نظمته مكتبة الأسد الوطنية خلال شهر جمادى الأولى المنصرم.

احتوى المعرض على 219 جناحًا، ضمت 34 ألف عنوان منها 19 ألف عنوان موثق، نظرًا لورود كثير من العناوين بعد طباعة دليل المعرض، ومن ثم لم تُدوَّن فيه، إلا أنه أمكن تدارك هذا النقص بإدخال العناوين التي لم توثق في الحاسب الآلي، الذي استعان به المعرض للمرة الأولى، مما ساعد رواد المعرض على معرفة الكتب الجديدة.

الندوة السنوية الثالثة حول المعلومات

بإشراف مركز المعلومات القومي، نظمت، في دمشق في بداية شهر أيلول/ سبتمبر الماضي الندوة السنوية الثالثة للمعلومات بمشاركة خبراء ومختصين من مراكز البحوث المعلوماتية العربية والجامعة العربية. وشملت المحاضرات التي ألقاها المشاركون استعراض العديد من مظاهر ثورة المعلومات وتأثيراتها في التطورالحضاري وكيفيات إدخال أنظمتها والاستفادة منها في مختلف قطاعات الحياة.

كشوف أثرية في شمالي سورية

عثرت بعثة آثار ألمانية يترأسها الدكتور منفريد

أولثمان في محافظة الرقة - مؤخراً - على بقايا قصر آشوري يرجع عهد بنائه إلى القرن الثالث عشر ق.م في عصر الإمبراطور الآشوري تيكولتا نينورتي. كما عثرت البعثة على نحو مثتي لوح كتابي تتضمن مجموعة من المراسلات والتوجيهات الإدارية.

كتب جديدة

ليس للروح ذاكرة، ديوان للشاعرة هالا محمد، صدر ضمن منشورات وزارة الثقافة السورية.

العطش المزمن، مجموعة قصصية لمطيع القادري، صدرت عن دار الوفاء للطباعة والنشر في حلب.

الريح تمحو والرمال تتذكر، تأليف حسب الشيخ جعفر.

سنة 501 الغزو مستمر، تأليف نعوم تشومسكي، ترجمته إلى العربية مي النبهان.

إمرأة ورجل، مجموعة قصصية لفوزية الرشيد.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن دار المدى في دمشق.

تاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق، تأليف محمد بن عمر الواقدي، تحقيق عبدالعزيز فياض الحرفوش، صدر عن دار البشائر.

للعبقرية أسرارها تأليف الدكتور كريم مرزة الأسدي، صدر عن دار فجر العروبة في دمشق.

في النقد الجمالي، رؤية في الشعر الجاهلي، تأليف د. أحمد محمود خليل، صدر عن دار الفكر في دمشق.

المغرب

ندوة التقريب بين المذاهب الإسلامية

أكدت الندوة الثانية حول التقريب بين المذاهب الإسلامية أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الرئيسان في التشريع الإسلامي، مشيرة إلى أنه لا خلاف في ذلك بين المذاهب الإسلامية.

ودعت الندوة في ختام أعمالها - مؤخراً - في الرباط إلى توسيع دائرة التقارب بين المذاهب الإسلامية من خلال تكثيف جهود التعاون على نشر التربية المنهجية المعتدلة، والثقافة المذهبية الصحيحة والمعرفة التاريخية السليمة، وتقوية الاتصال مع وسائل الإعلام في العالم الإسلامي، ليقوم الإعلام بدوره في التقريب بين المذاهب، وكتابة التاريخ الإسلامي بأسلوب موضوعي يروج للاعتدال والتقريب، وإصدار كتاب ميسر يحتوي على التعريف بالمذاهب الإسلامية على أساس علمي سليم يشارك في تأليفه ممثلون عن المذاهب الإسلامية، وتوصيات أخرى. يُذكر أن الندوة نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة وشارك فيها ممثلون لمختلف المذاهب الإسلامية.

مناقشة خطط الإيسيسكو متوسطة المدى

بحثت لجنة مراجعة الخطة متوسطة المدى للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو) الخطوط العريضة لمشروع خطة العمل الثلاثية (1998- 2000م) والخطة متوسطة المدى (1991- 2000م)، واحتياجات الدول الأعضاء في مجال اختصاص المنظمة، وخطة تطوير التربية في البلدان الإسلامية، وتصورات مشروع الخطة متوسطة المدى (2001 - 2009م).

وناقشت اللجنة كيفية صياغة الرؤى الاستراتيجية المعدة لأن تكون مدخلاً جديداً إلى المستقبل من خلال التعامل مع المتغيرات، بما ينتج خطة مرنة مشبعة بروح العصر وقيم الإسلام تخدم أغراض التنمية الحضارية في العالم الإسلامي.

معرض للمخطوطات التاريخية

أقيم في المتحف البلدي بمدينة أغادير - مؤخراً - المعرض الأول للمخطوطات التاريخية بمدينة سوس.

ضم المعرض نحو 2500 من المخطوطات والصور التي تجسد مرحلة المقاومة المغربية وسلاطين الدولة العلوية.

كتاب بثلاثة لغات في طبعة واحدة

أصدرت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) كتابا بثلاث لغات هي العربية والإنجليزية والفرنسية في طبعة واحدة.

الكتاب مرجعي ويحمل عنوان «الإسلام والثقافة الأذربيجانية: الخصائص الرئيسية للمنظور الثقافي في أذربيجان قديمًا وحديثًا»، وهو من تأليف مدير مركز الدراسات الإسلامية في مدينة باكو د. رفيق عليوف.

يذكر أن الكتاب دراسة ثقافية تاريخية حضارية تتضمن تحليلاً عميقًا للظروف الراهنة المحيطة بالمجتمع الأذربيجاني وثقافته، فضلاً عن استشرافه مستقبلهما.

رسائل جامعية

«واقع الإرشاد الزراعي بمنطقة تبوك في المملكة العربية السعودية»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الزراعة بجامعة الملك سعود في الرياض، تقدم بها غالي مبارك أحمد الفقيهي.

«شكل وتركيبة القوى في الشرق الأوسط بعد السلام مع إسرائيل»، موضوع رسالة دكتوراه في العلوم السياسية نوقشت في جامعة بروكسل في بلجيكا، تقدم بها محمد شعبان.

«دور الإعلام في نشر الإسلام»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، تقدمت بها أمل محمد نبيل.

«الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عهد الخانات المغول في إيران من 650- 736هـ»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، تقدم بها صبري عبداللطيف.

«أساليب التعبئة السياسية تحت الاحتلال»، موضوع رسالة دكتوراه في الإعلام السياسي نوقشت في جامعة برادفورد البريطانية، تقدم بها عبدالله السعافين.

«الرأي العام التربوي في مصر»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية التربية بجامعة عين شمس، تقدم بها أحمد يوسف سعد.

«منهج التأثيث الحضري للقاهرة الإسلامية»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، تقدم بها علاء الدين علي شاهين.

«الفكر السياسي والاجتماعي عند أحمد حسين»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية البنات بجامعة الأزهر، تقدمت بها ميساء محمود خليفة.

«التحكم في سرعة المحركات»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الهندسة بجامعة القاهرة، تقدم بها عادل اللقاني.

«التصميم الداخلي لأجنحة عرض الأثاث المنتج في مصر بالخارج»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الفنون التطبيقية بجامعة حلوان المصرية، تقدم بها رؤوف علي البوري.

«بناء الرواية عند خيري شلبي»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدم بها أيمن رجب محمد.

كشوف أثرية جديدة

اكتشف علماء آثار ألمان - مؤخرًا - مواقع أثرية مهمة في قرية ساكه التابعة لإقليم تازة شمال شرقي الرباط تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد. وشملت اللقى أدوات وعظامًا بشرية بالإضافة لعظام حيوانات متوحشة وداجنة وبعض الأدوات الخزفية العتيقة.

كتب جديدة

فصول من تاريخ الريف الشرقي، وخاصة بني سعيد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، استنادًا إلى وثائق السيد حسن أوشن، تأليف عبدالمجيد بنجلون.

كيمياء، ديوان للشاعر أحمد محمد حافظ.

صدر الكتابان السابقان عن دار المعارف الجديدة في الرباط.

دراسات في تاريخ شمال المغرب المعاصر، تأليف عبدالعزيز خلو التمسماني، صدر عن منشورات سليكي في طنجة.

مساءلة الحداثة، تأليف نجيب العوفي، صدر عن وكالة شراع في طنجة.

الجزائر

المعرض الوطني الأول للمصحف الشريف

احتضن قصر الثقافة «مفدي زكريا» بالجزائر العاصمة، - فيما بين 20 و28 يوليو 1996م - معرضًا وطنيًا، هو الأول من نوعه للمصحف الشريف: المخطوط والمطبوع والمسموع.

جاء هذا المعرض - الذي تنظمه وزارة الشؤون الدينية - في إطار برنامجها الرامي إلى جمع التراث الإسلامي في مختلف العلوم والفنون والتعريف بأعلام الجزائر ومآثرهم العلمية والفكرية.

شاركت في هذا المعرض عدة ولايات، وعرض أكثر من مئة مخطوط للقرآن الكريم، تنتمي إلى أزمنة وأمكنة مختلفة.

ومن الذين عُرضت مخطوطاتهم من القرآن الكريم الشيخ علي الفرجاني - من العهد التركي بالجزائر 1733م - بمخطوطه الموقوف على الجامع الأعظم بقسنطينة، والشيخ جلول بن محمد الذي يعود مخطوطه إلى سنة 1183هـ، وأحمد بن محمد بن إبراهيم ويعود تاريخ مخطوطه إلى سنة 1177هـ.

كما عُرضت مصاحف مطبوعة بروايتي: ورش وحفص، مرفقة ببعض التفاسير كتفسير الإمامين الطبري وابن كثير؛ كذلك عُرضت مصاحف مسجلة في الحاسب الآلي وأقراص الليزر التي أثبتت درجة عالية من الدقة في صياغة خدماتها البديعة المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه الشريفة.

احتوت هذه الأقراص النصّ القرآني مشكولاً وفق الرسم العثماني، ومرتلاً بصوت كلٍّ من: الحصري والحذيفي، مع تفسيرين له: تفسير الجلالين، وتفسير ابن كثير، وترجمتين لمعانيه الكريمة، الأولى إلى اللغة الإنجليزية، والثانية إلى اللغة الماليزية، إلى جانب شرح لغريب ألفاظه.

وتحتوي هذه الأقراص على البحث الموضوعي للقرآن (طلب جميع الآيات التي يمكن الاستشهاد بها في موضوع ما أو دراسة قضية بعينها)، وعلوم القرآن وتاريخه، فضلاً عن تلك المتعلقة بأحكام التلاوة المرفقة بالأمثلة مع إمكان التصحيح للقارئ عند الخطأ في النطق، وتعليمه مخارج الحروف.. كما ألقيت على هامش المعرض بعض المحاضرات: منها محاضرة: «القرآن وعلومه» لمحمد الطيب قريشي، ومحاضرة: «معالم قرآنية» لإسماعيل بو دشيش.

العراق

غياب القاص موسى كريدي

توفي القاص الروائي موسى كريدي عن عمر ناهز 56 عامًا.

وُلد كريدي - يرحمه الله - في النجف عام 1940م، وبدأت ميوله القصصية تتضح في أوائل الستينيات الميلادية، وكانت مجموعته الأولى «أصوات في المدينة» إيذانًا بمولد قاص يشق طريقه نحو البروز، وأتبعها - فيما بعد - مجموعات أخرى، كما ترأس تحرير مجلة «الكلمة» التي صدر قرار بإيقافها عام 1974م.

من مؤلفاته مجموعاته القصصية: «غرف نصف مضاءة»، و«خطوات المسافر نحو الموت»،

«الزي المدرسي بين الكفاءة والتطوير لمرحلة الثانوية بمدارس البنات في مكة المكرمة»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الاقتصاد المنزلي، تقدمت بها خديجة سعيد مسفر.

«دراسة فسيولوجية لجريمة السرقة بالإكراه»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب في بني سويف بمصر، تقدم بها عادل عبدالجواد الكردوس.

«السماع عند صوفية الإسلام»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة الزقازيق فرع بنها، تقدمت بها فاطمة فؤاد عبدالحميد.

«مجلة المعرفة 1931- 1934م واتجاهاتها الأدبية»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية اللغة العربية بالمنصورة في مصر، تقدم بها محمد السيد إبراهيم.

«مفهوم التفسير ودلالته في فلسفة العلم المعاصر»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب ببنها في مصر، تقدم بها سامي عبدالوهاب.

«اتجاهات الشعر الأندلسي في القرن الرابع الهجري»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، تقدم بها أسعد أحمد عجلة.

«الأشكال المختلفة للأداء الموسيقي لسيرة بني هلال»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في المعهد العالي للفنون الشعبية بالقاهرة، تقدم بها محمد عمران.

«المعالجة الصحافية للأحداث الخارجية في الصحافة المصرية والفرنسية.. دراسة مقارنة بين صحيفتي الأهرام واللوموند الفرنسية»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، تقدم بها كمال قابيل.

«التأويل النحوي حتى القرن الثالث الهجري»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في جامعة حلب بسورية، تقدم بها محمود الجاسم.

«فنية الرد عند الكاتب الفرنسي فريدريك تريستان»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة عين شمس، تقدمت بها رندة رابح.

«أدب الحوار في الإسلام»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في جامعة القاهرة، تقدم بها جمال فتحي نصار.

«خطب الرسول صلى الله عليه وسلم.. دراسة أسلوبية»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة جنوب الوادي المصرية، تقدمت بها نورا علي أحمد.

«الأسطورة في الفكر السياسي المعاصر»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة طنطا، تقدمت بها لويمان حسان.

«الخدمة المكتبية في المدارس الابتدائية في محافظة الغربية»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة طنطا، تقدمت بها حنان أحمد فرج.

و«فضاءات الروح»، وروايته اليتيمة «نهايات صيف».

فلسطين

إدانة قرار منع تداول كتب إدوارد سعيد

أدان بيان وقّعته مجموعة من الكُتّاب والمثقفين والشعراء العرب بينهم الشاعر الفلسطيني محمود درويش والسياسي شفيق الحوت القرار الذي أصدرته السلطة الفلسطينية بمنع تداول كتب المفكر الأمريكي الفلسطيني الأصل إدوارد سعيد بسبب معارضته اتفاقيات أوسلو الموقعة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وأعلن الموقعون على البيان عن تضامنهم مع إدوارد سعيد، ودهشتهم لصدور القرار.

تونس

كتب جديدة

السيف والسفينة، مجموعة قصصية لعبدالرحمن مجيد الربيعي، صدرت عن دار نقوش عربية في تونس.

العرب والحداثة السينمائية، تأليف الهادي خليل، صدر عن دار الجنوب.

ماليزيا

مركز لتصحيح المفاهيم الدينية

قرر رئيس وزراء ماليزيا الدكتور محاضير محمد إنشاء مركز لإعادة التأهيل وتصحيح المفاهيم الدينية ضمن خطة التنمية السابعة. وأعلن أن الحكومة الاتحادية سوف تخصص هذا المركز لتنفيذ برامج لإعادة تأهيل المسلمين الذين انحرفوا في مفاهيمهم الدينية، أو اقترفوا جرائم مخالفة للشريعة، وتعليمهم المبادئ الإسلامية الصحيحة.

بحث مستقبل اللغة العربية

شارك مئة باحث وأكاديمي من مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي في مؤتمر يبحث «مستقبل اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين» في منتصف شهر ربيع الآخر الماضي.

ناقش المؤتمر على مدى ثلاثة أيام 46 بحثًا من أهمها: موقع اللغة العربية في القرن المقبل وكيفية تطويعها والحفاظ على قوتها في عصر الحاسوب، والتقنيات المعاصرة التي فرضت تغييرات جذرية على استخدام مجموعة من اللغات الغربية والشرقية، وكيفية التعامل اللغوي مع تعقيدات التقنية، وقضية تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

البوسنة

سراييفو تحتضن حفل توزيع جائزة علي وعثمان حافظ الصحفية

أقامت الأمانة العامة لجائزة علي وعثمان حافظ الصحفية حفلها السنوي - مؤخرًا - لتوزيع الجوائز على الفائزين بالجائزة لعام 1996م في فندق هوليداي إن بسراييفو.

والمكرمون بنيل الجائزة هم: فخامة الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش (جائزة مفكر العام)، الصحافي أيمن حبيب (جائزة التحقيقات الصحفية)، الكاتب د. عاصم الحمدان (جائزة العمود الصحافي)، الصحافية شيخة الفهد (جائزة الحوار الصحفي)، الكاتب الصحافي جمال بدوي (جائزة المقالة الصحفية)، فنان الكاريكاتير جلال الرفاعي (جائزة الكاريكاتير الصحافي).

النمسا

مهرجان ثقافي عربي

تستعد العاصمة النمساوية فيينا لاستضافة أكبر مهرجان ثقافي عربي تشهده النمسا في شهر مايو 1997م المقبل.

وقام السفراء العرب بتشكيل لجنة لإعداد ترتيبات المهرجان الذي يُنتظر أن يضم عروضًا فنية وثقافية وندوات ومحاضرات وأمسيات في مختلف فنون الثقافة العربية، وحددت اللجنة يوم الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة الجاري (نهاية شهر أكتوبر 1996م) موعدًا نهائيًا لقبول طلبات المشاركة في المهرجان.

البرتغال

اكتشاف إناء إسلامي فريد

عُثر في مدينة تافيرا بجنوب البرتغال على إناء إسلامي يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

ويعد هذا الكشف فريدًا في نوعه، حيث إن حواف الإناء العليا زُينت بتماثيل لموسيقيين يقرعون الطبول ومحاربين وامرأة، بينما لا يوجد في تاريخ الحضارة الإسلامية أي أثر لتماثيل لرجال ونساء، ويعتقد الآثاريون أن الإناء كان يستعمل في حفلات الزواج، وأن التماثيل تصور موكب العرس.

بريطانيا

محاولات لاستجلاء غموض وثائق نجع حمادي

شاركت مجموعة من علماء التاريخ والمصريات في مؤتمر نظمته جامعة إكستر استهدف محاولة كشف غموض وأسرار مخطوطات نجع حمادي التي عُثر عليها في مصر منذ خمسين عامًا وتحوي وثائق ومخطوطات تلقي الضوء بشكل غير مسبوق على بدايات الديانة النصرانية.

يُذكر أن هذه الوثائق يعود تاريخها إلى القرن الميلادي الأول، وتضم عددًا من الأناجيل لم تكن معروفة من قبل.

معرض لفناني فرنسا في القرن 19م

يستضيف المتحف البريطاني للفنون حاليًا معرضًا فنيًا لمراحل الحركة الإبداعية لفناني فرنسا خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

يلقي المعرض الضوء على نخبة من الأعمال الإبداعية لكبار التشكيليين الفرنسيين مثل كارو، ولاكروا وغيرهما، إضافة إلى إبراز أهم التيارات الفكرية والفنية التي تأثر بها الفنانون، وما أضافوه إلى خصائص المدرسة التأثيرية التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

وفاة آخر شعراء الحرب

فقد الأدب الإنجليزي واحدًا من أبرز شعرائه بوفاة الشاعر جيفري دريمر، الذي كان آخر شعراء الحرب عن عمر ناهز 102عام.

ولدريمر مجموعتان شعريتان نشرهما بعدالحرب العالمية الأولى، وقد اشتهر بوصفه شاعرًا رومانسيًا إلى جانب عمله محررًا في محطة الإذاعة البريطانية.

أحدث الكتب

تجنيس الشرق الأوسط، تأليف مجموعة من الباحثات بإشراف دنيز كانديوتي، صدر عن دار نشر توروز.

مناحة على بلاد الرافدين، ديوان للشاعر العراقي نبيل ياسين، صدر عن منشورات استديو الشعر.

حقوق الحيوان ونواقصه، تأليف روجر سكروتن، صدر عن دار نشر ديموس.

فلتشرق الشمس من جديد على الأمة العربية، تأليف محمد فاضل الجمالي، صدر عن دار الحكمة.

مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تأليف تقي الدين أحمد المقريزي، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، صدر عن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

الحركة الثقافية في شهر

الدنمارك

أيام مصر الثقافية

نظمت وزارة الثقافة الدنماركية بالتعاون مع المجلس الأعلى للثقافة في مصر أسبوعًا ثقافيًا مصريًا في العاصمة كوبنهاجن تحت عنوان «أيام مصر الثقافية» خلال المدة من 10 إلى 17جمادى الأولى الماضي (23 - 30 ديسمبر 1996م).

شمل الأسبوع محاضرات وأمسيات شعرية وثقافية وفكرية شارك فيها كل من د. عبدالقادر القط، وفتحي غانم، وإدوار الخراط، ود. ميلا حنا، ود. أسامة الغزالي حرب، وفاروق شوشة، وحسن طلب، وأحمد الشهاوي.

السويد

ندوة عن الثقافة العربية

نظمت الجامعة الشعبية في جنوب السويد ومجلة «الجسر» العربية الثقافية الشهرية ندوة فكرية عن «الثقافة العربية».

هدفت الندوة إلى تسليط الأضواء على الثقافة العربية وتنشيط العلاقات الثقافية السويدية العربية، والتواصل الحضاري بينهما، وشارك فيها على امتداد يومين مجموعة من المتخصصين بالثقافة العربية ونخبة من أساتذة الجامعة.

فرنسا

لبناني يشتري مجلة لونوفيل إيكونومست

اشترى رجل الأعمال اللبناني جورج غصن مجلة «لونوفيل إيكونومست» الأسبوعية تمهيداً لتحويلها إلى مجلة نصف شهرية.

وكانت المجلة على وشك التوقف بعد أن تزايدت ديونها في السنوات الثلاث الأخيرة إلى ما يعادل 24 مليون دولار.

يذكر أن جورج غصن كان يملك قبلاً صحيفتي «أجيفي» و«لاتربيون ديفوسي» ثم باعهما قبل ثلاث سنوات.

مهرجان التصوير الصحفي

نُظم في مدينة بيربينيان جنوبي فرنسا - مؤخراً - المهرجان الدولي الثامن للتصوير الصحفي بمشاركة مصورين صحفيين من أنحاء العالم كافة. واشتملت فعاليات المهرجان على إقامة 35 معرضًا تنافس فيها العارضون على خمس جوائز كبرى. ويرمي المهرجان إلى ترقية مهنة التصوير الصحفي والمطالبة بحماية الصحفيين وجذب الأنظار إلى خطورة عملهم وتضحياتهم في أثناء سعيهم لتصوير الأحداث الخطيرة كالحروب وأعمال الإرهاب وغيرها.

أحدث الكتب

المملوكة، رواية روبير سوليه، صدرت عن دار نشر سوي في باريس .

نساء أسرة كيندي، تأليف لورونس ليمد، صدر عن دار نشر جراسيه.

ذكريات عن الرومانسية، تأليف تيوفيل جوتيه، صدر عن دار نشر سوي.

رومانيا المعاصرة، تأليف نيكولاس بيلسيه، صدر عن دار نشر هارتمان.

تاريخ ثورة، (عن سقوط شاوشيسكو) إعداد جان ماري لوبرتون.

جان بول سارتر، تأليف نور الدين لاموش.

صدر الكتابان السابقان عن دار نشر لارتمان.

الأعمال الكاملة للشاعر جاك بريفير، الجزء الثاني، أعدها للنشر دانيال جازيجليا، وصدرت عن دار نشر جاليمار.

مقاربة للثقافات المتوسطية منذ البدايات الأولى، تأليف أنطوان قسيس صدر بالفرنسية عن جماعة الجامعات المتوسطية.

اليابان

مؤتمر يبحث مستقبل الشعر

شارك أكثر من 700 مثقف من بينهم 220 شاعراً ينتمون إلى 35 دولة في مؤتمر لبحث مستقبل الشعر استضافته - مؤخراً - العاصمة طوكيو.

استمر المؤتمر أربعة أيام، وناقش عبر ثمانية لجان واقع الشعر في العالم، وما يُؤَمَّل له، وما يتوقع أن يكون في المستقبل.

ألمانيا

معرض الكونفيجورا الدولي الثاني

استضافت مدينة ايرفورت بولاية تورنجين المؤتمر الدولي الثاني في مجال الإبداع المرئي (كونفيجورا) الذي يقام كل خمسة أعوام.

وتسمية (كونفيجورا) تعني «مع التشخيص»، ويوحي هذا العنوان بالترحيب بالاتجاهات الفنية المتعارضة مع الاتجاهات العبثية، ويختلف هذا اللقاء مع البيناليات في أنه لا يتضمن أجنحة مستقلة للدول؛ حيث إن توزيع الأعمال الفنية في الهواء الطلق والميادين يسمح بتداخل الأعمال وتجاورها.

وكالعادة في كل دورة تناول المشاركون قضية للنقاش حولها، ودار الملتقى هذا العام حول محورين رئيسيين: «حوار الحضارات» و«غزو الحضارات».

وتمثلت المشاركة العربية هذا العام في ستة فنانين مصريين منهم زكريا الخناني، وحسن عثمان.

أستراليا

مؤتمر دولي للأعلام

استضافت سيدني - مؤخراً - المؤتمر الدولي العشرين للإعلام، الذي تنظمه كل عامين الرابطة الدولية للإعلام.

شهد المؤتمر مناقشات حول وضع الإعلام الحالي، وما يراد له أن يكون، وكيفية النهوض بالعمل الإعلامي، وقرر المؤتمرون في ختام مؤتمرهم اختيار مصر لاستضافة المؤتمر رقم 22 المقرر إقامته عام 2000م.

سويسرا

جائزة لجنة الآداب لـ «نزيف الحجر»

مُنح الكاتب الليبي إبراهيم الكوني جائزة لجنة الآداب العليا السويسرية عن روايته «نزيف الحجر».

وقد اختيرت الرواية لنيل الجائزة كأحسن رواية مترجمة إلى اللغة الألمانية، وهي المرة الأولى التي تمنح فيها الجائزة لكاتب من العالم الثالث.

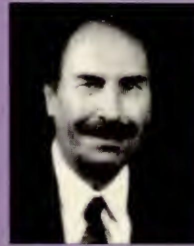
الولايات المتحدة

معرض.. أرثر ملك بريطانيا

استضافت مكتبة هانتجون في لوس أنجليس - مؤخراً - معرضاً بعنوان «أرثر ملك بريطانيا».

يكشف المعرض النقاب عن الحقبة التاريخية التي عاشتها بريطانيا خلال حكم الملك أرثر، وأهم إنجازاته السياسية والثقافية عبر مجموعة من المخطوطات الأثرية والمؤلفات الأدبية خلال القرنين الخامس والسادس عشر الميلاديين.

رأيتُ وسمعتُ في مجلس الملك عبدالعزيز 1



عاصم محمد بهجة البيطار

كانت أيام الملك المؤسس حافلة بالنشاط والعمل، بعد سنوات طويلة عسيرة أمضاها في القضاء على التمزق والفتن، والتنازع على السلطة، والخروج على الحنيفية السمحة، إلى أن تمّ الله على يديه إقامة الدولة السلفية على قواعد راسخة من تعاليم الإسلام، ومظاهر الحضارة.

كان، رحمه الله وجعله في أعلى عليّين، يجلس في الصباح في قصر الحكم في «الديرة» ينظر فيما يُعرض عليه من أمور الدولة. وكان له مجلس آخر بعد عصر كل يوم في قصر «المربّع» له روّاد يملؤون القاعة الواسعة، ويستمعون جميعًا إلى قراءة في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، ومجلس ثالث بعد عشاء كل يوم في قصر المربع أيضًا يُقرأ فيه ما تيسّر من تفسير ابن كثير. وكان جلالته يعلق على ما قُرئ ثم يبتّ في أمور كثيرة تُعرض عليه. وقد بدا لي - بمناسبة اليوم الوطني للمملكة - أن أصف مجلسًا واحدًا من هذه المجالس الكثيرة التي أنعم الله عليّ بحضورها، والتي تتجسد فيها القواعد الصالحة التي أقام عليها الملك المؤسس إدارته للبلاد.

كانت القاعة التي يجلس فيها جلالة الملك واسعة رحبة، يدلف إليها الداخل من باب في منتصفها، فيجد إلى يمينه (الخويّا) الحرس وقد قعدوا على الأرض المفروشة بالطنافس (السجّاد) وإلى يساره سمطين طويلين من المقاعد المريحة الوثيرة يجلس عليها مرتادو المجلس، وفي الصدر يجلس جلالة المليك، وعلى يمينه مقاعد فارغة معدّة لكبار الضيوف. وكان الداخل إلى المجلس يجد مكانًا له فيسلّم على المليك من مكانه ثم يجلس. وإني مورد وصفًا لأحد هذه المجالس يكشف عن كثير من منهج الملك الموحد في الحكم.

يبدأ رجل كان يدعى الشيخ عبدالرحمن (وكنت أسمعهم يقولون: أخو شقراء) يبدأ قراءته بصوت رخيم، فيه تغن وتنغيم. فإذا وصل إلى مكان يحسن الوقوف عليه، رفع الملك يده قائلاً: بركة. ثم يبدأ بالتعليق على ما قرأ الشيخ في التفسير وفي التاريخ، وقد يشارك بعض الحاضرين في التعليق أو المناقشة، فيكون العلم قاعدة راسخة من قواعد بناء الدولة، فالتفسير فيه أمر الله ونهيه، وقواعد الحرب والسلم، وكل ما ينتظم به أمر الراعي والرعية في دينهم ودنياهم، وفي علاقة الدولة بأمم الأرض. والتاريخ فيه دراسة أحوال الأمم في نهضتها وازدهارها، وكبوتها واندحارها، وما يأخذ بيدها فتنهض، وما يفتّ في عضدها فتقعد عاجزة لا تريم إذا لم تتقهقر وتخسر في كل يوم ما بذل الآباء والأجداد جهودهم وأعمارهم في بنائه.

كان صقر الجزيرة يعتقد اعتقادًا جازمًا أن العلم بمعناه الواسع دعامة راسخة في بناء الدولة، وكان رجلاً مؤمنًا يطيل النظر والتفكير في الدولة الإسلامية الأولى والقواعد الإلهية الخيّرة التي أقيمت في ضوئها، فكانت ظاهرة عجيبة لم يعرف التاريخ لها نظيرًا. لقد انطلق الملك الموحد في إرساء قواعد ملكه على أسس العقيدة الإسلامية النقية من كل البدع والضلالات، وقد حرص - بالإضافة إلى ذلك - على الاستفادة إلى أقصى الحدود من معارف العصر، وثمرة العلم مما يتفق مع قواعد الشرع، ويستجيب لأوامر الله في أن يتفكّر المسلم ويتدبر ويستفيد من عبر التاريخ وعظاته.. ولذا كان القرآن والسنة وما كان عليه سلف الأمة نصب عينيه، كما كان العالم كله وما استحدثه من ثمرات العقول والعلوم رافدًا له. قال أحد المفكرين: لا خطر على الشرق إذا استفادوا من الغرب ما هو من ثمرات العلم، ولكن الخطر كل الخطر حينما يأخذ الشرق من الغرب في جوٍ من نسيان النفس والماضي.. وكان الملك عبدالعزيز يدرك ببعد نظره وبغيرته الدينية ذلك كله تمام الإدراك، ويؤمن بأن العلم زاد إنساني يشترك بالصالح فيه الجميع؛ أما العادات الاجتماعية فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.

إن القاعدة الأولى التي بنى عليها أسد الجزيرة دولته الممتدة هي الشريعة الإسلامية، والاستفادة في ظلها من التاريخ ومن معطيات العلم.. ولذا غرس البذور الأولى لنهضة علمية تجني المملكة الآن ثمارها، بعد أن تعهدها أشباله البررة الميامين بالرعاية والتنمية، فتمخضت جهودهم عن قيام عدد من الجامعات والمراكز العلمية والمؤسسات الصحية وآلاف المدارس للبنين والبنات، وكل ما من شأنه أن يقيم دولة عصرية تستوعب كل صالح لا يسيء إلى معتقدات الأمة، ولا يفسد أخلاقها. ومن حسنات العاهل الباني أنه طبّق مبدأ التعليم الإلزامي منذ أكثر من نصف قرن، وسنّ سنة «البعثة الداخلية» التي يتفرغ فيها طالب المعرفة للتزود بما يخدم به دينه ووطنه وأمته، وذلك حين فكّر في تأسيس «دار التوحيد» لأبناء نجد في مدينة

الطائف، فقد أمر بأن يؤخذ من كل بلدة عدد معين من أبنائها الذين ما عرفوا إلا الكتاتيب وسماع المواعظ في المساجد، وهو يريد أن تتصل أسبابهم بأسباب العلوم العصرية التي لا تمسّ العقيدة؛ بل تستجيب لأوامر الله فيها بأن يتأمل المرء في السموات والأرض، وأن يستفيد مما في جوف الأرض وأعماق البحار ليزداد إيمانًا بعظمة الله وقدراته، وليتضاعف نصيبه في خدمة أمته والسير بها إلى الغد المشرق الذي يعيدها إلى مسرح التاريخ لتكون قدوة لكل دولة تود أن تنهض وهي لا ترجو إلا الله والدار الآخرة.

وطلب من والدي - رحمه الله - أن يضطلع بأعباء هذا العمل الجليل، وجمع له مئة طالب من مدن نجد المختلفة، وكان بعض أمراء المدن يضطرون إلى انتزاع الطلاب من أهليهم انتزاعًا؛ وكان مما أوصى به والدي: أريد لهذه الدار أن يتخرّج فيها علماء على تقوى من الله، ومعرفة وثيقة به، وأريد لهم أن يتعلموا من أمور الدنيا ما لا يخلّ بعقيدتهم، ولا يصرفهم عن السلفية النقية.. وترك لوالدي - رحمه الله - أن يختار من يشاء ليشارك في التأسيس والتدريس.. وهُيِّئت للطلاب بيوت مريحة ينزلون فيها، وكان يقدم لهم الطعام والشراب والكسوة، وخصص لهم رواتب شهرية.. وكنت أحد المدرسين أعلّم الطلاب وأتعلم منهم، وكان والدي يجمعهم في الإدارة مرتين في كل أسبوع يدرّسهم علم الصرف، فتوطدت بينهم صلات المودة، ولعلهم كانوا خير فريق من الطلاب عرفتهم الدار.

ومن أعجب ما رأيت: المدارس المتنقلة في الصحراء ترافق أصحاب الأنعام والأغنام إلى مساقط الغيث ومنابت الكلأ في الربيع كيلا يُحرم أطفالهم من التعلّم، فقد قام فريق من طلاب جامعة الملك سعود برحلة إلى الصحراء لسماع اللهجات العربية من أصحابها البدو، وكنت في رحلتي الثالثة إلى السعودية (1383- 1388هـ= 1963- 1968م) أدرّس في كلية اللغة العربية (من الكليات والمعاهد) فدُعيت إلى مرافقتهم ففعلت فرحًا، وقصدنا مضارب البدو على بعد ستين كيلاً من الرياض، ودخلنا المراعي، ودُعينا إلى (صيوان) كبير جدًا فجلسنا هناك نتبادل الحديث.

وسألت كبير القوم: أليس من الظلم أن يُحرم (العيال) من مدارسهم، فقال: مدرستهم ومدرسوهم ينتقلون معنا، مزودين بكل ما يلزم الطلبة من كتب وكراريس وأقلام... فإذا أصبنا المراعي الواسعة، والكلأ الوفير، نصب كل فريق خيامه في مكان يختاره، وجُعلت المدرسة في الوسط، وهي الآن على بُعْد خمسة عشر كيلاً منا. وللمدرسة سيارات تطوف لتجمع الأطفال ثم لتعيدهم عند انتهاء اليوم الدراسي.

إن القارئ الكريم يذكر أن أمير الشعراء أحمد شوقي نشأ في قصور الحكام، وغرق في نعيمهم حتى أذنيه، غير أنه كان يعلم أن الدول لا بُدّ لها من دعائم راسخة تُبنى عليها، حتى تكون متينة الأركان، وقد قال في إحدى قصائده يخاطب الحاكم، بل كل حاكم:

إن سرَّك الملك تبنيه على أسس

فاستنهض البانِيَيْنِ العلمَ والأدبا

وارفع له من حبال الحق قاعدة

ومُدَّ من سبب الشورى له طُنُبا

أليس هذا بعض ما صنعه الملك الفذّ؟

وأعود مرة ثانية إلى مجلس المليك، والأفكار التي كانت تملأ رأسي فيه، كنت أستمع إلى قارئ الدرس يقرأ، وأتفرّس في وجوه الحضور. كان فيهم الشيوخ الكبار، والكهول، ولم يكن فيهم من الشبان إلا عدد لا يكاد يُذكر، وكنت أحسّ بشيء من الهيبة حينما أنظر إليهم، وجوه يكسوها جدٌّ صارم، وعيون لم يُخف طول الأيام بريقها، ونظرات حادة تشعر بأنها تنفذ إلى الأعماق.

كان كثير منهم مطرقًا برأسه لا يكاد يهتم بما يُقرأ... عجبت لشأن هؤلاء الرجال الذين كنت أراهم في كل يوم ومجلس جلالة المليك معمور بهم.. وسألت الشيخ يوسف ياسين (السكرتير الخاص للملك عبدالعزيز آنذاك) فسمعت منه ما أذهلني... قال: هؤلاء أناس غير عاديين، إنهم كانوا بالأمس القريب رؤساء قبائل، وأمراء مناطق، وقادة للطامعين بالمغانم؛ لقد كانوا يحكمون أكثر بلاد نجد، يغير بعضهم على بعض، ويمزّقون وحدة البلاد، ويُنزلون أشد النكبات بالعباد، ثم قيّض الله لهذه الجزيرة بطلها المظفّر، ففتح البلاد، وأسلس له الكبار والصغار القياد، وظفر بأكثر هؤلاء حين وقعوا أسرى بين يديه، وكانوا لا يشكّون لحظة أنهم مقتولون.. ولكن الملك الصالح تأسّى بالرسول عليه السلام حين فتح مكة وقال لأهلها: اذهبوا فأنتم الطلقاء. لقد عفا عبدالعزيز عن خصومه، وأكرمهم، وقرَّبهم منه، وأصلح ذات بينهم، واستل من نفوسهم بفضل الله كل شحناء وبغضاء، وجعلهم رفاقه في مجلسه، وصحبه في حله وترحاله، فانعقدت القلوب على محبته، وتضافرت الأيدي على نصرته، واستحالت هذه القلوب التي مزّقتها الفتن والمنازعات قلبًا واحدًا، وغدت هذه الأيدي التي طالما سفكت الدماء وانتهكت المحارم يدًا واحدة... وردّهم بحنكته وحسن تأتّيه للأمور إلى حظيرة الإيمان، فأصبحوا، لا يعرفون إلا طريق التوحيد سبيلاً، ولا يجدون إلا الاعتصام بحبل الله ملجأ وملاذا، وساروا تحت لواء عبدالعزيز يؤازرون مسيرته، ويعينونه على إتمام رسالته، حتى تمّ الفتح، وانتشر الإسلام في المملكة الواسعة الموحدة.

لقد رأيت في ذلك الدعامة الثانية التي بنى عليها حكمه الصالح، إنها وحدة الأمة ووحدة الغاية والهدف.. لقد كان يدرك - رحمه الله - أن معركة التوحيد التي كان يخوضها تحتاج إلى أن ينظر دائمًا إلى الأمام، وأن يحرص الحرص كله على أن يترك وراءه جبهة متحدة متحابّة كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا. لقد جمعهم على الهدى، وألّف بينهم، وفيهم من أصابه برصاصة في المعارك، وفيهم من كان يحرص على قتله... ولكنه أنكر حظّ نفسه في سبيل الرسالة السامية، ونسي ما أصابه ليتم ما بدأ به، وصحّ فيه وفيهم قول الله تعالى: *هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ.* **الأنفال**: 62، 63. وقوله سبحانه: *واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تَفَرَّقُوا واذكُروا نعمةَ الله عليكم إذْ كنتُم أعداءً فألّفَ بينَ قلوبكم فأصبحتُم بنعمته إخوانا..* **آلَ عمرانَ**:103.

دولة دستورها القرآن الكريم، ودعائم بنيانها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد اتخذت من العلم النافع منارا، ومن الأخوّة ووحدة الأمة شعارًا. إنها دولة الإسلام والسلام، والله لا يخذل من ينصره.

ولقصة هذا المجلس صلة وبقية.



الجوف عبر التاريخ

كتاب باللغة الإنجليزية يتضمن مسحًا وتحليلاً شاملين لتاريخ منطقة الجوف في المملكة العربية السعودية، والإصدار ترجمة لكتاب «الجوف وادي النفاخ» الذي ألّفه الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري عام 1986م، كما أنه يحتوي على إضافات وتنقيحات أعدتها مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية.

وفي الكتاب تاريخ المنطقة من خلال مقدمة وخلفية، وسبعة فصول تناولت فترات ما قبل الإسلام، وصدر الإسلام، والدولتين السعودية الأولى والثانية، والمرحلة التي شهدت توحيد المملكة على يد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وحتى الآن. وتضمن الفصل السابع وصفًا للعلاقات العشائرية وعادات أهل الجوف، وأُدرج في الكتاب بعض ما كتبه الرحالون عن المنطقة، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، كما يشتمل الكتاب على صور تاريخية نادرة، وقوائم ببليوجرافية.

يقع الكتاب في 208 صفحات من القطع الكبير، وقد صدر عن دار ستاسي إنترناشيونال في لندن.



عندما تتكلم الدماء

مجموعة قصصية تتناول مرحلة مهمة من تطور القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي، فقد عالج المؤلف عبدالناصر محمد مغنم - في مقدمة وسبع عشرة قصة قصيرة هي محتويات الكتاب -، مواقف واقعية من الجهاد الفلسطيني، وخاصة تلك الصور البطولية التي برزت خلال الانتفاضة، والمواجهات الدامية بين الشباب الفلسطيني وقوات الاحتلال. من قصص المجموعة: «لن تعيشوا بسلام»، «لا يُقهرون»، «الهدية»، «عذاب وعذاب»، «مأساة في منتصف الليل»، «مثل شجرة الزيتون»، «المهندس»، «بلا رحمة» «ربح البيع يا أم إسماعيل»، «اقتلوا الرضيع»، «أقسى من الحجر»، «مروءة امرأة»، «ثأر الكرامة»، «أحقاد بلا حدود»، «رد الكتائب»، «على طريق القافلة»، و«مسح العار».

اتخذ المؤلف من بدايات الانتفاضة ومن الوقائع المشاهدة في خطط الكفاح الفلسطيني المسلح، مداخل ناقش من خلالها معاني الفضيلة والبذل والإيثار والترابط والأخوة والاحترام والثبات وقوة الإصرار، والتمسك بالعقيدة، وحب الجهاد، ورفض الاستسلام.

يقع الكتاب في 104 صفحات من القطع المتوسط، وقد صدر عن الندوة العالمية للشباب الإسلامي - لجنة شباب فلسطين - الرياض.



من فصحاء العرب

كتاب جمع فيه الفريق يحيى عبدالله المعلمي، أحاديث عن عدد من الأعلام الذين عُرفوا بفصاحة اللسان، ويجيء على رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وخلفاؤه الراشدون وبعض صحابته الكرام. وقام المعلمي بمعالجة الموضوع - الذي أخذ جل مادته من كتب الحديث وكتب تراجم الصحابة - من طريق عرض ترجمة للأعلام الذين اختار نماذج من أحاديثهم، من فصيح القول وبليغ الخطب.

اشتمل الكتاب على 21 اسمًا من فصحاء العرب، هم: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، وأم المؤمنين حبيبة (رملة) بنت أبي سفيان، وأسماء بنت يزيد، وعمرو بن الأهتم، والطفيل بن عمرو، وسلمان الفارسي، وجعفر بن أبي طالب، وأم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية، وأم معبد عاتكة بنت خالد بن منقذ، وكعب بن مالك الأنصاري، وقس بن ساعدة الإيادي، والخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد، ورقيقة بنت أبي صيفي، وقيس بن عاصم المنقري، وخولة بنت ثعلبة، وهند بن أبي هالة.

يقع الكتاب في 90 صفحة من القطع المتوسط، وقد صدر عن دار المعلمي للنشر في الرياض.



ما وراء الأشياء الجميلة

مجموعة قصصية تضم سبع قصص قصيرة للقاصة ألفة الأدلبي عالجت من خلالها مواقف إنسانية مختلفة، محورها المرأة. وقد اعتمدت الكاتبة على الموازنة بين المواقف المتناقضة لكشف العلاقات الدقيقة غير المرئية بين الأشياء، واستخراج دلالات عميقة من ممارسات قد تبدو عفوية. ففي القصة التي اختارتها عنوانا لمجموعتها وظفت الكاتبة الحوار البسيط لكشف تناقض الرغبات من خلال نموذج: حنو بعض الناس على أنواع من الحيوانات والعطف عليها من جانب، وميلهم إلى الزهو باتخاذهم وسائل لزينة مصدرها حيوانات أخرى، من جانب آخر. وهكذا في بقية قصص المجموعة: «الحزن الحميم»، و«طفلها المدلل» و«كادي»، و«النصر الغالي»، و«الذاكرة القاتلة»، و«إنها أختي»، كانت البساطة مدخلاً إلى الشمول واستخلاص العبر.

تقع المجموعة في 112 صفحة من القطع الصغير، وقد صدرت عن دار إشبيلية في دمشق.

مسابقة مجلة الفيصل

١- جوائز المسابقة :

جوائز كثيرة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ - ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريال، ١٥٠ ريال)

ب - خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج - عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د - خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢- شروط المسابقة :

أ - الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية - وليس نسخة مصورة - للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثياً أو رباعياً - إن أمكن - وعنوان المراسلة.

ب - ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة ، مجلة الفيصل،
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ - أية إجابات تصل بعد ٤٥ يوماً (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د - من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد 237

ج1 : عَدَّ الإسلام الزنا جريمة تستحق أقصى العقوبة؛ لأنه من أكبر الأسباب الموجبة للفساد والانحراف وانحطاط الآداب، ومورِّث لأقتل الأدواء، ومروِّج للعزوبة واتخاذ الخدينات؛ ومن ثم كان أكبر باعث على الترف والسرف والعهر والفجور. لكن الشارع الحكيم احتاط في تنفيذ عقوبة الزنا بقدر ما أخاف الزناة وأرهبهم، واشترط شروطاً لإقامة الحد على الزاني، هي العقل والبلوغ والاختيار والعلم بالتحريم. كما وضع جملة احتياطات لثبوتها، منها: أنه درأ الحدود بالشبهات؛ فلا يقام حد إلا بعد التيقن من وقوع الجريمة. وأنه لا بد في إثبات هذه الجريمة النكراء من أربعة شهود عدول من الرجال؛ فلا تُقبل فيها شهادة النساء ولا شهادة الفسقة. وهذا هو نصاب الشهادة في حد الزنا. قال تعالى: *واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم..* **النساء:** 15، وقال تعالى: *والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء..* **النور:** 4، وقال عز من قائل: *لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء..* **النور:** 13. وقد جوّز الظاهرية شهادة امرأتين مكان كل رجل، فإذا شهد ثمان نسوة وحدهن قُبلت شهادتهن، كما جوّز عطاء شهادة ثلاثة رجال وامرأتين.

ومن الاحتياط كذلك أن يكون الشهود جميعا قد رأوا عملية الزنا نفسها كالميل في المكحلة، والرِّشاء (الحبل) في البئر. ولو فُرض أن ثلاثة منهم شهدوا بهذه الشهادة، وشهد الرابع بخلاف شهادتهم، أو رجع أحدهم عن شهادته أُقيم عليهم حد القذف. كما أن هناك احتياطات أخرى لم نذكرها لضيق المقام.

ج2 : من الآيات الكريمات التي تحث على الوفاء بالنذور:

قول الله تعالى: *وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه..* **البقرة:** 270. وقوله عز وجل: *يوفون بالنذر ويخافون يومًا*

نتائج مسابقة العدد 237

أ - فازت بالجائزة المالية الأولى، وقدرها 500 ريال سعودي، ليلى الدليم، المحرق - البحرين.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها 350 ريالاً سعوديًا، أحمد عارف الفاني، بيروت - لبنان.

وفازت بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها 150 ريالاً سعوديًا، حورية أحمد محمد الفائق، صنعاء - اليمن.

ب - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (24 عددًا)، كل من:

1- إحسان محمد البسيط، الرياض - المملكة العربية السعودية.

2- رزق بركات محمد الصباغ، الدقهلية - مصر.

3- سارة محمد سعيد، الدوحة - قطر.

4- يوسف محمد عبدي، القامشلي - سورية.

5- هيفاء بنت محمد بن علي البعيلي، نابل - تونس.

ج - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (12 عددًا)، كل من:

1- وجد علي شعلان، عمّان - الأردن.

2- إسماعيل ساوس أزي صهران، مكة

كان شرُّه مستطيرًا. **الإنسان**: 7. وقوله تعالى: *ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطَّوَّفوا بالبيت العتيق*. **الحج**: 29.

ج3: من الأحاديث الشريفة التي تحث على الزواج ممَّن تكون ذات خلق ودين، ما رواه البخاري ومسلم، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». وما رواه النسائي ـ وغيره ـ بسند صحيح، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال: « خير النساء من إذا نظرت إليها سرّتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا أقسمت عليها أبرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك».

ج4: من الموسيقيين الذين ألَّفوا عن حكاية روميو وجولييت: شارل فرنسوا جونو (1818- 1893م)، له أوبرا روميو وجولييت وضعها سنة 1867م. ولويس هكتور برليوز (1803- 1869م)، له سيمفونية عن روميو وجولييت وضعها سنة 1839م، كما أن له سيمفونية أخرى عنها. وبيوتر إيليتشي تشايكوفسكي (1840- 1893م)، له سيمفونية وضعها سنة 1870م.

ج5: العاصفة والإجهاد (أو العاصفة والاندفاع كما يرد في بعض الكتابات)، اسم يُطلق على مرحلة من الأدب الألماني (1767- 1787م)، ثار فيها الشباب الموهوب على التقاليد والعادات السائدة، واستمدوا إشعاع أعمالهم من أعمال جان جاك روسو (1712- 1778م) وجوتهولت إيفرايم ليسنج (1729- 1781م). وأصل الاسم مستمد من مسرحية لفريدرخ ماكسمليان فون كلينجر (1752- 1831م) بعنوان «الفوضى أو العاصفة والإجهاد»، وقد بدأت بمؤلف يوهان جوتفريد هردر (1744- 1803م): «شذرات عن الأدب الألماني الحديث» 1767م، وانتهت بمسرحية فريدرخ فون شيلر (1759- 1805م): «دون كارلوس» 1787م. ومن أبرز أدباء هذه المرحلة شاعر ألمانيا الفذ يوهان فولفجانج فون جوته (1749- 1832م). وقد ظهرت سمات هذه الحركة في الأدب الفرنسي والإنجليزي أيضًا.

المكرمة ـ المملكة العربية السعودية.

3- محمد دمناتي صادقي، صفرو ـ المغرب.

4- عبدالكريم عقبة أحمد، الهامل ـ الجزائر.

5- عبداللطيف محمود عبدالقادر أحمد، مدينة الثورة ـ سورية.

6- أحمد محمد مبارك، الشارقة ـ الإمارات العربية المتحدة.

7- حبيبة معتصم علي، تزنيت ـ المغرب.

8- حنان محمد عباس أوان، مكة المكرمة ـ المملكة العربية السعودية.

9- فائزة محمد مصطفى، الخرطوم ـ السودان.

10- ليث عوني محمود العقيلي، وادي السير ـ الأردن.

د ـ كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كل من:

1- زمزم أبو الوفا إسماعيل خطاب، الأقصر ـ مصر.

2- مسعودة قويدري، بو سعادة ـ الجزائر.

3- يسلك ولد الحسن، نواكشوط ـ موريتانيا.

4- شيخة أحمد ناصر، الجهراء ـ الكويت.

5- دجانة سيف الدين حسين، الحسكة ـ سورية.

أسئلة مسابقة العدد 240

السؤال الأول:

حثَّ الشارعُ الحكيمُ المسلمينَ على أداء الزكاة، وتوعَّد مانعيها بعذاب شديد. اذكر ثلاثة أحاديث شريفة في ذلك.

السؤال الثاني:

أخبرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن المرض الذي يصيب المسلم يُكَفِّر عنه سيئاته ويمحو ذنوبه. اذكر حديثين شريفين في ذلك.

السؤال الثالث:

أحد أعلام اللغة العربية في عصره وفيما تلاه من عصور. من أشهر كتبه: «الصاحبي»، و«مقاييس اللغة». فمن هو؟

السؤال الرابع:

تُعَدّ شركة «أرامكو» من أكبر الشركات العالمية في مجال التنقيب عن النفط. متى تأسست؟

السؤال الخامس:

شوبان، شوبرت، شومان. أيّ من هؤلاء الثلاثة كان موسيقيًا؟

ويأتيك بالأمثال

أتْبِع الفَرَسَ لِجَامَه والنَّاقَةَ زِمَامَهَا

يضرب لاستكمال المعروف. والمعنى: ما دمت قد جدت بالفرس، واللجام أيسر خطبًا فأتم الحاجة، وكذا الشأن بالنسبة للناقة.

قالوا:

إذا أحببت أخًا في الله فلا تماره ولا تشاره، ولا تسأل ثم أحدًا، فلربما أخبرك بما ليس فيه، فحال بينك وبينه.

معاذ بن جبل

احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع.

آردشير بن بابك

لقد أعطاك الله وجهًا، فلماذا تصنع لنفسك وجها آخر!

وليم شكسبير

البطالة والفراغ هما رأسمال الشيطان.

أندريه موروا

الجمال بلا فضيلة كالزهرة بلا عبير.

لورد بايرون

عندما ينهار احترام الحقيقة، أو حتى يهن قليلاً، فكل الأشياء تبقى عرضة للشك.

أوغسطينوس

الجمال لوحة أسطورية لم يتعرف عليها الأحياء بعد.

ألبير كامي

أرح لسانك أكثر مما تريح عينيك وأذنيك.

جورج إليوت

إننا ندنو من العظمة حين نكون عظماء في تواضعنا.

طاغور

حساب الكريم

قال أحدهم لأعرابي: إن الله محاسبك غدًا. فقال الأعرابي: رضي الله عنك يا أخي، لقد سررتني، فإن الكريم إذا حاسب تَفَضَّل.

الحق لا يخجل

قال العقوق: غطوني بورق التين. وقالت النذالة: زينوني بالأوسمة. وقال الشر: ألبسوني ملابس الخير والصلاح. وقالت الرذيلة: زينوني برداء الفضيلة. وقالت الكراهية: ألبسوني ملابس الحب. وقال الخداع: ضعوا تاج الأمانة على هامتي.

وعندئذ قال الحق: اتركوني عريانا، فأنا لا أخجل.

أحسنتن في السكوت

مر الإمام أبو حنيفة النعمان يومًا على جماعة يتنزهون في بستان وكانت معهن مغنيات يغنين، فلما وقف عليهن سكتت المغنيات عن الغناء. فقال لهن: قد أحسنتن. فعوتب من قبل رفقائه على ذلك حيث قالوا: كيف تستحسن غناءهن؟ أليس هذا رضا منك بمعصية الله؟ فقال أبو حنيفة: أقلتُ أحسنتن حين غنين أم حين سكتن؟ قالوا: بل حين سكتن.

فقال: الله أكبر، لقد أردت أحسنتن في السكوت لا في الغناء.

أحسن إليهم

قال أعرابي لأولاده يوما: والله لقد أحسنتُ إليكم قبل أن تولدوا وصغارًا وكبارًا، فقالوا: عرفنا إحسانك إلينا صغارًا وكبارًا، فكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟! قال: تَخَيَّرتُ لكم من الأمهات مَنْ لا تُعَيَّرون بها.

يرثي له

كان القائد الإنجليزي الفيلد مارشال مونتجمري مشهورًا بعدم إقباله على الطعام، وأن مائدته لا تحتوى إلا على أقل القليل منه. وحدث أن دعا القائدَ الألمانيَّ الجنرال فون توما، بعد أن أُسر الأخير في معركة العلمين، إلى العشاء، فاحتج بعض النواب في مجلس العموم على ذلك، فَهَدَّأهم السياسي العجوز ونستون تشرشل قائلاً: مسكين فون توما، إنني أرثي له فقد تعشيت مرة مع مونتجمري، وقمت أتحسس بطني من شدة الجوع.

ثلاثة وثلاثة

ثلاثة تجب حمايتها: الدين، والشرف، والوطن. وثلاثة يجب ضبطها: اللسان، والنفس، والأعصاب. وثلاثة يجب التخلص منها: التملق، والوشاية، والتبذير. وثلاثة يجب اجتنابها: الحسد، والغرور، وكثرة المزاح. وثلاثة محبوبة: التطوع، والشجاعة، والصراحة. وثلاثة ممقوتة: الكذب، والنفاق، والكبر.

تعلّم

تعلّم فليس المرءُ يولد عالمًا
وليس أخو علمٍ كمَنْ هو جاهلُ
فإن كبير القوم لا علم عنده
صغير إذا التفت عليه المحافل

قلوبهم ماتت

اجتمع إبراهيم بن أدهم يومًا بأهل البصرة، فقالوا: ما لنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟ فقال: لأن قلوبكم ماتت بعدة أشياء: عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، وزعمتم حب النبي صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته، وقرأتم القرآن ولم تعملوا به، وقلتم إن النار حق ولم تهربوا منها، وقلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا! فأنّى يستجاب لكم؟!

توأمان

لقي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أحد كبراء فارس يومًا، فقال له: مَنْ أحمد ملوككم سيرة؟ قال الفارسي: كسرى أنو شروان. فقال علي: وما كان أغلب خصاله؟ قال: الحلم والأناة. قال

استراحة العدد

علي بن أبي طالب: نعم توأمان ينتجهما علو الهمة.

المقام الأول

سُئل الرئيس الأمريكي الأسبق أبراهام لنكولن عما يعلو الذهب قيمة ويفوق الألماس ثمنًا، فقال: الصديق الوفي. فقيل له: ومَنْ أعظم منه؟ قال: الأم.

نابليون والصحافة

سُئل القائد الفرنسي نابليون بونابرت عن الصحافة وأثرها فقال: إنني أوجس خيفة من ثلاث جرائد فقط، أكثر مما أوجس خيفة من مئة ألف مقاتل.

ذكاء جارية

قال ابن السماك يومًا لجاريته: كيف ترين ما أعظ به الناس؟ فقالت الجارية: هو حسن إلا أنك تكرره، فقال: إنما أكرره ليفهمه مَنْ لم يكن فهمه. قالت: يا سيدي إلى أن يفهمه البطيء يثقل على سمع الذكي.

من غرائب الشعراء

كان الشاعر الإنجليزي ملتون لا يستطيع جمع أفكاره إلا إذا غطَّى رأسه وجسمه بالألحفة والملاءات، أما الشاعر شيللر فكان يضع قدميه في ماء مثلوج، ثم يجلس إلى منضدته ليدون بها ما يعن له من أفكار.

أصمتُ فأسلمْ

يُروى أن رجلاً دخل مجلس الشعبي وظل صامتًا، فقال له الشعبي: ألا تتكلم؟ قال الرجل: أصمُتُ فأسلمْ، وأسمعُ فأعلم، إن حظ المرء في أذنه له، وفي لسانه لغيره. قال الشعبي: قد أصبت.

من عجائب الخلق

اكتشف علماء في جامعة كاليفورنيا أن جسم الإنسان يحتوى على مادة تُدعى «وينورفين»، عبارة عن مخدر طبيعي يفرزه الجسم، ويمكن أن ينقذ من يتعرضون للسكتة الدماغية

أقصر منه

ذهب رجل قصير إلى الوالي وقال: أرجوك أن تنصفني من خصمي لأنني مظلوم، فقال الوالي: لا أصدق أن أحدًا يظلمك، فالناس لا تظلم قصار القامة. فقال الرجل: نعم يا مولاي لكن الذي ظلمني أقصر مني.

مقدمة للمازني

كتب إبراهيم المازني في مقدمة مجموعة قصصية له تحوي عشر قصص: «يحوي هذا الكتاب عشر قصص قصيرة، سهرت في كتابتها الليالي الطويلة، ولقيت في طبعها عنتًا وإرهاقًا، وقدمته لك أيها القارئ العزيز بعشرة قروش، أي إن القصة الواحدة لا تساوي إلا قرشًا واحدًا!».

حَسبه حارس الغابة

يروى أن ملك بريطانيا جورج الخامس التقى رجلاً يصطاد، ولم يكن الرجل يحمل إذنًا للصيد، فقال له الملك بخشونة: ماذا تفعل هنا؟ فلم يرد الصياد خوفًا وحذرًا، فتابع الملك كلامه: أتدري مَنْ أنا؟ أنا الملك جورج الخامس، فتنهَّد الصياد وقال بنبرة ثابتة: الحمد لله، لقد حسبتك حارس الغابة.



الصقر .. رفيق الصيد الذي لا يصيبه الكلال



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع. وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

نبض الجروح

شعر: **حفظ الله أحمد عبدالسلام**
كلية التربية، صنعاء، اليمن

لما رأيت الجـرح ينزف بالأسى — أخفيتُ جرحي في فؤادي الدامي
وجمعتُ نبضي بين قلبي بعدما — نثرت بجسمي نبضها المترامي
وسكبتُ دمعي بعد حيري والدما — بين السطور بكت بها أقلامي
ومشيتُ لكن في السطور لأنني — من كثر سيري أنهكت أقدامي
ونطقت لكن ليس همسًا من فمي — بل كان صمتًا من أسى آلامي
لما رأيت الجرح ينزف بالأسى — كسَّرت قوسي واحتضنت سهامي
ومضيتُ أسكب في فؤادي ما بقى — من كأس صبري كي يطولُ مقامي

التعليق:

أبيات نبض الجروح هي أبيات في بحر الكامل، وقافية المتواتر وروي الميم، ففي هذه الأبيات نزف جرح «حفظ الله» بالأسى والألم، فأخفى جرحه في فؤاده الذي سال دمُه. ولملم نبضه الذي جعلته الجروح منتشرًا بجسمه. وانهملت دموعه بين سطوره وكان مصدر بكائها أقلامه. وكان مشيه بين السطور لأنّه كاتب السعي ومصور آلامه. وقد أنهكت أقلامه لطول سيره وامتداده. وقد تحوّل نطقه صمتًا لشدّة ما حاق وأحدق به من آلام، ولشدة ما علق بأقلامه التي مشى بها من أسى وحزن. وعندما نزف جرحه حزنًا وحسرة كَسَّر قوسه واحتضن سهامه، وصبّ ما بقي له من صبرٍ في فؤاده؛ لأنه يأمل طول المقام والبقاء.
فأبياته قد جاءت مصوِّرة ومجسِّمة لآلامه العميقة. أما لغته في أبياته فسهلة وخياله جيّد، ولكنه خيال محصورٌ في زاوية الألم فقط.
وفي موسيقى الأبيات رنّةٌ صادرة من إيقاع بحر

الكامل، ولعل الغنّة التي في جسم حرف الميم ـ الذي هو الروي ـ كانت كذلك وراء هذا التنغيم الذي في الأبيات. ولعل المآخذ على «حفظ الله» ههنا تنحصر في قالب الصياغة. فقد وقع أسيرًا لتكرار فكرته في تحسسه الآمه وأساه، حين كرر شعوره بالألم في قوالب يبدو فيها التشابه. فيا حبذا لو كان اكتفى بتصوير هذا كله ببيت واحد يُعمّقُ فيه الشعور، ثم يوسّع الفكرة في صور أخرى متعددة تُجسِّم تلك الصورة. فالبلاغة في الإيجاز والاكتفاء يكون بإيماءة خفيفة.

وكذلك لم نعهد في مذاهب الشعراء أن يكسر أحدهم قوسه ويحتضن سهامه عندما ينزف جرحه أسى؛ بل المعهود أن يزداد أملاً ويفيض عزمًا إذا كثرت آلامه وتشابكت مآسيه؛ لأن هذا المسلك سيقوده إلى أن يندم على فعلته هذه ندامة الكُسعي؛ وهو الصائد الماهر الذي لا يخطئ الرميَ. فقد رمى صيداً ذات ليلة وتوهم أنه أخطأ فكسّر قوسه. وفي الصباح وجد صيده ميتًا وسهامه مضرجة بالدماء فندم، وعضّ على أنامله حتى قطعها، وضُرب به المثل في الندم. قال الفرزدق:

ندمت ندامة الكسعيّ لمّا

غدت مني مطلقةً نوارُ

وقد اكتنف بيت «حفظ الله»:

ومشيت لكن في السطور لأنني

من كثر سيري أنهكت أقدامي

ثقلٌ في عبارته «كثر سيري». وإنه لممّا يجعله سهلاً في الأداء أن يضع «طول سيري» بدلا من «كثر سيري». والله أعلم

د. محمد أحمد سليمان إدريس

متابعات

الأخ محمد علي مشوط الأحمري، كلية التربية، جامعة الملك سعود، فرع أبها:

موضوعك «نظرة في حياة الإنسان الحجري» يحتاج إلى بعض العمق في التناول، ولعل في الرجوع إلى المراجع المعتمدة ما يحقق هذا الغرض. ونأمل أن نتلقى منك مشاركات أخرى تجد طريقها إلى النشر.

الأخ أيمن أحمد خليل زيته، دمشق، سورية:

قصتك «من مات بالدخان» لها مضمون هادف، إلا أنها تفتقر إلى فنيات البناء القصصي التي تضفي عليها الجاذبية والتشويق، كما أن هناك هنات في اللغة، تتطلب منك مزيداً من الاهتمام بإثراء حصيلتك اللغوية، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة على القراءة الجادة والاطلاع المثمر.

الأخ م. زكريا معين حسن محمد، قنا، مصر:

قصيدتا «قدري»، و«عتاب وأمل» فيهما ميل واضح إلى العامية، وتكرار لصور تقليدية كثر تداولها في الشعر العربي، لذلك ننصح لك الاهتمام بتعرف القواعد السليمة لنظم الشعر وعروضه، وذلك بالوقوف على الدواوين المشهورة لشعراء العربية في العصور المختلفة، للإفادة منها، ثم تحاول بعد ذلك الاستقلال بشخصيتك الشعرية التي تعبّر عنك، من غير تقليد للآخرين، أو اجترار لصورهم وأساليبهم.

الأخت أم البنين الجدوبي، أصيلة، المغرب:

في قصتك «أغنية الأحرار» حوار طويل يميل إلى الانفعال، يجعله لا يتناسب مع الموقف، ولذلك ننصح لك بالاهتمام بقراءة قصص كبار الكتاب لمعرفة أسلوب البناء القصصي الذي يختلف ـ بلا شك ـ عن أساليب الكتابة الأخرى، ويحتاج إلى تكثيف الفكرة، وتعميق الصور، ولا يتحقق ذلك إلا بالمثابرة على القراءة، وتكرار محاولة الكتابة حتى يصل الكاتب إلى النضج الذي يتطلبه هذا الفن، كما ننبهك إلى عدم الكتابة على وجهي الورقة عند مراسلة الصحف والمجلات، لأن ذلك قد يؤدي إلى عدم الاهتمام برسالتك. ونحن في انتظار محاولات أخرى منك، آملين لك التوفيق والسير قدمًا في درب هذا الفن الذي تميلين إليه.

الأخت منى علي الحجيلي، المدينة المنورة:

مسرحيتك «العقاب» إن هي إلا إعادة لقصة «أصحاب الغار» التي صاغها الأديب الراحل علي أحمد باكثير مسرحيةً، وأصبحت مقررة على طلبة الثانوية.

وليس هناك ما يعيب في تقليد الأدباء الكبار الذين لهم نتاجهم الثر في الفنون الأدبية المختلفة، لأن هؤلاء الأدباء ما بدؤوا خطواتهم الأولى في مجالات إبداعهم إلا بالطريقة ذاتها، لذلك نتوقع نضجًا أكبر في أعمالك القادمة، ما دمت تواظبين على الاطلاع، ومحاولة الكتابة بلا يأس، فمن سار على الدرب وصل.

الأخ محمد الأمين إبراهيم، الرياض:

قصتك «بعض ما حدث لحسن طافية» يصعب فهمها على الذين لا ينتمون إلى البيئة التي تنتمي إليها، كما يغيب عنها الهدف التربوي الذي يُسَوِّغ نشرها. لذلك ننصح لك بأن تضع في حسبانك القارئ الذي يطالع عملك الفني، حتى تنطلق في بنائك القصصي من واقع الخبرة المشتركة بينكما، وهذا يحتاج إلى دربة وطول مران، فلا تيأس من تكرار المحاولة، حتى تمتلك أدواتك الفنية الخاصة التي تصل بعملك إلى غايتها.

ردود خاصة

الأخ عبدالسلام كامل عبدالسلام، أم درمان، السودان:

لا يمكن لأحد أن يغفل الأدباء السودانيين أو غيرهم من المبدعين، لأن الأدب الأصيل يبقى في ذاكرة الأمة. وقد يظل مثل هذا الأدب منسيًا لسبب من الأسباب، إلا أن الزمن كفيل بإنصاف المبدعين في أي مكان. و«الفيصل» ترحب بإبداعات الكتاب والأدباء والمفكرين من العرب وغيرهم، من غير تمييز بينهم، ما داموا ملتزمين الصدق والموضوعية في طروحاتهم.

ونأمل ألا يكون هناك افتئات على واحدة من الجهات التي ذكرتها في رسالتك، لأن المبادرة - في بعض الأحيان - ينبغي أن تكون من المبدع الذي عليه أن يحاول إيصال رسالته إلى المعنيين بها.

الأخ صلاح عبدالقادر الشهاوي، دمشيت، طنطا، مصر:

نحن نحترم الآراء الواردة في تعليقك على باب «من تجاربهم» للأستاذ يوسف فجر رسلان، وحيث إن الوقائع التي ذكرتها عن ذلك الشاعر الشهير وغيرها معروفة للكثيرين، فلا نرى داعيًا لنشرها، ونأمل أن نتلقى منك مشاركات أخرى في القريب، إن شاء الله.

الأخت أميرة مارش قحطان سعيد، تعز، اليمن:

نشكر لك ثناءك، ونفيدك أن المجلة تولي موضوع التوزيع أهمية كبيرة، وسوف تجدينها توزع قريبًا، إن شاء الله، في مدينتك تعز وغيرها من مدن اليمن العزيز، كما سنعمل على حل مشكلة توزيعها في العاصمة صنعاء. والعدد (232) من المجلة من الأعداد التي نفدت تمامًا من الأسواق، وسوف نحاول إرساله إليك ما أمكن ذلك. ونعتذر لك - وللإخوة القراء الذين طلبوا هذا العدد - إذا لم نستطع إجابة طلباتكم.

الأخ رحمون محمد بناية، الجلفة، الجزائر:

نشكر لك مشاعرك الصادقة تجاه إخوانك في العقيدة، ونحن نرحب بمشاركات جميع الإخوة، أينما كانوا، فمرحبًا بك صديقًا للمجلة.

الأخ زين العابدين نور الله، أندونيسا:

لا تقدم المجلة اشتراكات مجانية كما هو موضح في ذيل هذا الباب، ولكن يسعدنا أن نرسل إليك بعض الأعداد السابقة، لعلها تكون مفيدة لك، ومعينة لك في دراستك.

الأخ علي عنان علي سعيد، بلدية سبها، أوباري، ليبيا:

ليس في المجلة باب للتعارف، لأن التعارف بين القراء يتم عبر تداول الآراء والتحاور بينهم من خلال أبواب المجلة الخاصة بذلك، كما أن المجلة ترحب بمشاركات الإخوة القراء بمقالات في شتى صنوف العلم والمعرفة. وقد صدر العدد الأول من المجلة في رجب 1397هـ، وهي مجلة ثقافية جامعة، وسوف تصل إليك أعداد منها لتقف على المنهج الذي تسير عليه في النشر.

الأخ فؤاد الغلبزوري، الحسيمة، المغرب:

لا تتوافر لدينا المعلومات التي طلبتها عن الكليات التي تدرس الأدب الفرنسي في الجامعات الفرنسية، وشروط القبول بتلك الكليات، وهذه المعلومات والشروط يمكنك الحصول عليها بمخاطبة المستشارية التعليمية أو الثقافية في سفارة فرنسا في المغرب.

الأخ عباس السر الجعلي، الخرطوم، السودان:

نوافقك على كثير من آرائك التي وردت تحت عنوان «المرأة في المجلات العربية»، وقد طُرح هذا الموضوع من قبل في الفيصل كما أشرت في رسالتك. واهتمامنا بالرد على الإخوة القراء نابع من احترامنا لكل صاحب رأي مهما كان رأيه، ومن رغبتنا في التواصل الدائم بين القراء والمجلة، ولإثراء النقاش والحوار فيما بينهم حول القضايا المختلفة، فلك الشكر على ثنائك على هذا الأسلوب في التعامل مع رسائل القراء.

الإخوة: الدبعلي عبدالرحمن بن أحمد، ولاية أدرار، الجزائر، يوسف حسام الدين، محمد عمر فلان، كوماسي، غانا، بشرى محمد بن مصطفى كمال، أندونيسيا:

لا تستطيع المجلة تلبية الطلبات الخاصة بالكتب والمصاحف، وغيرها، وكل ما نستطيعه إرسال بعض الأعداد من المجلة، ونفيدكم أن هناك جهات معنية بتوفير المصاحف والكتب الدينية لطالبيها، وهي لا تألو جهدًا في ذلك. وبخصوص طلب الأخ محمد عمر بعض أعداد مجلة الدعوة، فإنه يمكنه مخاطبتها على العنوان التالي: ص.ب 626، الرياض 11421، هاتف 4353743.

الأخ مرهج محمد، دمشق، سورية:

المجلة ترحب بمشاركات جميع الإخوة القراء التي تلتزم ضوابط النشر بها، فنأمل أن نتلقى منك من المقالات ما يجد طريقة إلى النشر.

الأخ عبدالخالق عبدالله محمد يحول، حضرموت، اليمن:

القصص التي أرسلتها لم تُجز للنشر، لأسباب فنية بحتة، ونأمل في المرات القادمة الكتابة على وجه واحد من الورق، وإذا فزت في إحدى المسابقات فسوف تُرسل الجائزة إليك على عنوانك، ونتمنى لك التوفيق، إن شاء الله، في الأعداد القادمة.

الأخ مصطفى بلمشري بن تاجروني، خميس مليانة، الجزائر:

قيمة كشاف الفيصل 50 ريالاً سعوديًا، يمكنك إرسالها على عنوان المجلة، وسوف يصل إليك الكشاف في أقرب وقت ممكن.

بين القارئ والقارئ

أرغب في الحصول على كتب إسلامية للأطفال، للاستعانة بها على تربية النشء من أطفال الحي الذين نقوم بتعليمهم أمور دينهم، وخاصة أن الأطفال أنفسهم يطلبون كتبًا ليقرؤونها، ولكنها - للأسف - غير متوافرة، فآمل من الإخوة قراء «الفيصل» المساعدة بكتب مناسبة.

نورا شريف إبراهيم
بواسطة: محمد شريف إبراهيم سراج
المحطة الأرضية للأقمار الصناعية
أم حراز، الخرطوم، السودان.

أرغب في الحصول على كتب، وإصدارات، ومعاجم، وموسوعات، عن الطب العربي، والعلاج الطبيعي، والطب الحديث، حيث إنني أقوم بإعداد رسالة دكتوراه عن الطب النبوي.

ونظرًا لأن هذا البحث هو الأول من نوعه في الجامعات الهندية، بحسب علمي، فإنني أتطلع إلى مساعدة قراء «الفيصل» الكرام، كما آمل أن تساعدني الجهات والمؤسسات ذات الصلة بهذا المجال، في المملكة العربية السعودية، والعالم العربي، وأوربا، وحبذا لو حصلت على كتب، وإصدارات، ومعاجم، وموسوعات في المجال المذكور.

حسين كوتي بالاتولي
USSAN KUTTY PALATHOLE
PACHEER IKUTH (H) P.O. ELAD
(VIA) CHERUKARA 679340
KERALA - INDIA

نرغب في الاستزادة من الثقافة الإسلامية، وأملنا كبير في أن نجد المساعدة والعون من الإخوة قراء «الفيصل»، لذا فنحن نطلب تزويدنا الكتب التالية أو بعضها: «المحلى» لابن حزم الأندلسي، «المغنى» لابن قدامة، و«نيل الأوطار» للشوكاني، ومعجم فقه السلف، وتفسير ابن كثير، وسائر الكتب الدينية.

مركز الثقافة الإسلامية
P.O BOX 8042
KUMASI - GHANA

ملحوظة:

تهدف هذه الزاوية «بين القارئ والقارئ» إلى إيجاد قناة مباشرة بين القراء أنفسهم لتبادل المعلومات عن الكتب النادرة أو المجلات التي توقفت عن الصدور أو نفدت أعدادها.

عناوين

الأخ محمد حامد آل جابر، مكة المكرمة:
عنوان المجلة الجغرافية الأمريكية
NATIONAL GEO-GRAPHIC SOCIETY
POST OFFICE BOX 98186
WASHINTON, D.C. 20090 - 8186
U.S.A

الأخ علي محمد النجمي، الرياض:
عنوان مركز الوثائق والدراسات في الإمارات العربية المتحدة:
أبو ظبي، ص.ب 2830

الأخ سمير محمد أحمد، الخرطوم، السودان:
عنوان الهيئة العامة للآثار ودور الكتب في اليمن:
صنعاء، ص.ب 10188

الأخ بلقاسم إبراهيم الأحمد، وهران، الجزائر:
عنوان الخزانة العامة للكتب والوثائق في المغرب:
الرباط، ص.ب 1003

الأخ أنور جمال، كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية:
يصدر كتاب «الأمة» عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر، وعنوانها:
مركز البحوث والدراسات
الدوحة ص.ب 893،
هاتف: 447300، فاكس: 447022

إيضاحات

تعتذر المجلة سلفاً من عدم تقديم اشتراكات مجانية، ومن عدم التجاوب مع طلبات للحصول على إصدارات أخرى (كتب ومجلات) لاعلاقة لها بها.

المسائل الشخصية كطلب وظائف أو مساعدات مالية أو إعانة على زواج، أو ماشابه ذلك والتعارف بين هواة المراسلة، ليست من اختصاصات المجلة ولا اهتماماتها، ومن حقها عدم الالتفات إلى رسائل تختص بهذه الأمور أو الرد عليها.

يتعذر على المجلة الرد الشخصي البريدي على جميع القراء الذين يراسلونها وذلك لكثرة الرسائل، وتكتفي بالرد عليهم من خلال «ردود خاصة»، أو بنشر مشاركاتهم في الصفحات المخصصة لذلك.

الرسائل ذات العلاقة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أو بأي نوع من خدماته، يُرجى توجيهها إليه مباشرة على عنوانه: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية.

عند مراسلة الصفحات المخصصة للقراء (مناقشات وتعليقات، بريد، المسابقة، تباشير، ردود خاصة - بما في ذلك زواياها الجديدة: بين القارئ والقارئ، عناوين) يرجى ذكر اسم الباب أو الزاوية على المظروف، مع شكرنا للجميع.



نحو إعلام عربي مستقل



طالعت الإطلالة المعنونة «الإعلام بالإعلام وأثره»، في العدد 237، ربيع الأول 1417هـ، ولم تمر قراءتي لهذه المقالة مرور الكرام؛ بل جعلتني أتوقف عند العنوان بالدرجة الأولى وما يوحي به إلى القارئ من دلالات وتساؤلات، ويدعوه للتفكير في مضمونه لما له من أثر وأهمية؛ ذلك لأنه يوحي إلينا بأمور على درجة كبيرة من الأهمية. فلا يخفى على أحد أثر الإعلام ووسائله في مستوى الأفراد والجماعات والأمم. ولذلك أخذ التنافس الإعلامي حيزًا كبيرًا من اهتمام الأمم والحكومات والأنظمة. فالدكتور الكريم رَصَدَ لنا بدقة متناهية غنية بالمعرفة هذا الجانب. فتحدّث عن الإعلام وجوانب من أهميته، وعرَّج على المعركة الحضارية الإعلامية، وتوظيف الإمكانات المادية والبشرية والتقنية والنفسية في هذه المعركة، لما للإعلام من تأثير، وتوقّف ليذكر لنا دور التواصل الإعلامي وأثره في المجتمعات، ومدى تأثير الإعلام الصهيوني في آراء الغرب، وتوقّف عند التبعية الثقافية والثقافة الاستهلاكية، وتشويه الحقائق وتغييرها، وتساءَل عن دور وسائل الإعلام العربي الذي يقوم بدور الوسيط وعدم العمق في تجربة الإعلام.

إنّ المقالة غنيّةٌ بطرحها، وقد تأسَّسَت على ثوابت من الحسِّ العربي والإسلامي، وتضرب على العَصَب، ونحن - العرب - نتابع مسيرة الإعلام العالمي. هذا الإعلام الذي دخل بيوتنا واستحلَّ مساحات واسعة من تفكيرنا يُمْلي علينا ما يريد، ويدعو لما يريد ونحن سكوتٌ نتلقّفُ من دون تأنٍّ وتمحيص، ونتداول من دون رويَّة ومحاكمة، ننقل ما نشاهد ونسمع.

هذا الموضوع يثير في نفسي حسرة وأسى لواقعنا العربي. فنحن شهود عصر لما يجري؛ ولكننا لسنا صنَّاع خبر وعصر. فمازال الإعلام العربي يتخبّط بين التبعية والنقل، ولا يواكب حركة التطور العالمية، وليس هذا لضعف في إمكاناتنا المادية، أو البشرية من مفكرين وعلماء وفنيين، ولكن لأنّنا لم نؤمن بعد بأهمية الإعلام الذي أخذ مكانةً من النفوذ، تضاهي نفوذ الاستعمار، ولكن بشكل حضاريّ أنيق من دون اللجوء إلى السلاح والعنف، بل بزرع أفكاره ومفاهيمه التي تدخل من باب واسع وتستقرُّ في كل بيت ونفس.

إن الغزوَ الثقافيّ الذي يدسُّ السموم والعفن، ويبثّ المفاهيمَ المسيئة لإسلامنا وعروبتنا، ويشوِّه وجودنَا، ويُذيبُ شخصيتنا، أداتُه الأساسية الإعلام وبالدرجة الأولى التلفاز. هذا الأمر يستدعي تساؤلات على درجة من الأهمية. تلاحقني وأنا أتابع الإعلام الغربي وأرى مدى تأثيره في نفوسنا ونفوس شبابنا المتوثب إلى الحياة التي تليق به وبنا. كما أنظر إلى تأثيره في الأطفال الأبرياء الذين ننتظر منهم الكثير في المستقبل. فنسبةٌ كبيرةٌ من برامج الأطفال والمسلسلات المدبلجة تُعْرَضُ على الشاشة، وتجدُ من يدعو لها ويراهن عليها، وهي لا تناسبنا أبدًا. فأين رجالُ إعلامنا؟ وماذا أعْددْنَا لمواجهة هذا الغزو الذي يتفاقم يومًا بعد يوم؟.. أنبقى على الهامش نؤدي دور الوسيط كما ذكر الدكتور؟ إلى متى وأخبارُنا وهمومنا وأسرارنا وفضائحنا العالمية الملفَّقةُ علينا يتبنّاها إعلامُ أعدائنا ومن ورائه الصهيونية العالمية التي وضعت كلَّ إمكاناتها لمعاداة الإسلام والعروبة، وقد أبانت في أكثر من مكان عن نواياها السيئة؟

مازلتُ أرنو بشوق وأدعُو بحرقة لحركة إعلامية ثقافية مبرمَجة وموحّدة الهدف والرؤية. تُولَدُ بعد شتات وسبات. إعلامنا العربي بحاجة رلى يقظة واستقلالية واندفاع مُتسلّح بالغيرة. وبحاجة إلى منهج واحد بيّن مستنبط من هويتنا العربية الإسلامية. هذا الإعلام مهمّته نبيلةٌ وثمينةٌ وضرورية. يرسِّخُ معالم وجودنا ويعبِّرُ عن قضايانا بموضوعية ويفنّدُ مزاعمَ أعدائنا ويرُدّ عليهم بما يملك من وسائل. إنَّ المسافرَ إلى الغرب يعرف مدى تأثير الإعلام الصهيوني والغربي في تكوين الرأي العام المعادي لعروبتنا وإسلامنا. ونحنُ نردِّدُ بانفعال وغضبٍ من دون اللجوء إلى خطوة إيجابية فعّالة.

أرى أن من واجب إعلامنا في هذه الأيام - أكثر من أيّ وقت مضى - أن يتحرّى الحقائق، وأن يتسلّح بالجرأة، وهو قادر على ذلك إن تحرّر من تبعية الغرب الذي يجد فيه الكثيرون قدوةً ومثالاً يُحتذى. كفانا سكوتًا، وكفانا تبعية وارتداء ملابس غيرنا واستعارة أصوات غيرنا.

وشكرًا من الأعماق للدكتور الكريم الذي عوّدنا على هذه الإطلالات النقيّة الشفّافة في زمن مملوء بالهباب الثقافي والسرطان الفكري، واللّه لا يضيع أجرَ من أحسنَ عملاً.

محمود محمد أسد
ص. ب. 12522
حلب، سورية

موسى في القرآن الكريم



قرأت - كما قرأ غيري - البحث الذي كتبه الدكتور الفاضل حسن ظاظا بعنوان: «موسى في التلمود» في العدد 237، ربيع الأول 1417هـ.

وكان في الحقيقة بحثًا علميًا رائعًا، أبدع فيه الدكتور الحبيب أيما إبداع، وحقق فيما كتب ودقّق، وجعل القارئ يشاهد عيانًا ما رقمه الدكتور بيانًا.

وإني لأشبه بحوثه بروضة غنَّاء فيها من الأزهار أجملها، ومن الورود أحسنها، ومن الهواء أنعشه، ومن الماء أعذبه، غاص في بحور الكتب فأخرج من بطون أصدافها لآلئ، وطار في سماء العلم، فجاء بثريات جميلة؛ فجزاه الله خيرًا وبارك فيه.

إلا أني أخذت عليه بعض ما كتب في ذلك البحث، وهي ملاحظات هينة، وهي:

أولاً: قوله: «الكتاب الذي أُنزل على موسى - عليه السلام - أول شريعة قامت عليها أول ديانة تدعو إلى توحيد الله تعالى وحده لا شريك له».

وفي نظري أن الدكتور لم يحالفه الصواب في هذا الكلام من وجهين:

الأول: أن الله - سبحانه وتعالى - أخبرنا أنه أنزل على إبراهيم صحفًا، قال تعالى: *صحف إبراهيم وموسى*. **الأعلى**: 19، وقد كان إبراهيم - عليه السلام - قبل موسى وديانته وملته الحنيفية كما قال تعالى: *يَاأَهْلَ الكتاب لِمَ تُحَاجُّونَ في إبراهيمَ وَمَا أُنْزِلَت التوراةُ والإنجيلُ إلا من بعده أفلا تَعْقِلُونَ*. **آل عمران**: 65، ومعلوم أن التوراة أُنزلت على موسى - عليه السلام -، إذن فهناك كتب أُنزلت قبل كتاب موسى.

الثاني: أن الأنبياء والمرسلين جميعًا من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - متفقون في دعوتهم، وهي الدعوة إلى توحيد الله - سبحانه وتعالى - كما قال تعالى: *وما أرسَلْنَا من قبلكَ من رسول إلا نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدُون*. **الأنبياء**: 25، فشريعة موسى - عليه السلام - لم تكن أول شريعة قامت عليها أول ديانة تدعو إلى توحيد الله وحده، وإنما هي امتداد لدعوات الأنبياء قبله.

ثانيًا: وصف الدكتور شريعة موسى - عليه السلام - بـ«الموسوية».

وهذا في نظري خطأ - أيضًا -، إذ لا ينبغي إطلاق هذا الاسم على شريعة موسى - عليه السلام -، ولاسيّما إذا علمنا أن هناك فرقة من فرق الشيعة تُدعى بهذا الاسم، وسُمِّيت بذلك لانتظارها موسى بن جعفر(1)؛ وفي لفظ «شريعة موسى»، أو «رسالة موسى» مندوحة عن إطلاق هذا الاسم عليها.

ثالثًا: قوله تحت عنوان: سيرة تحوطها الألغاز: «وأصبح موسى بمرور الزمن لغزًا وطلسمًا وأسطورة لجميع الباحثين إلى الآن».

ويتوجه النقد إلى هذا الكلام من وجهين:

الأول: أن موسى - عليه السلام - نبي مرسل، وهو كليم الله، كلّمَ اللهَ من غير ترجمان، وهو من أولي العزم من الرسل، فليس من اللائق أن يقال فيه هذا الكلام، أو أن يُوصف بمثل هذا الوصف بهذه الألفاظ: «لغزًا، طلسمًا، أسطورة»، فمن واجب الأدب مع الصفوة المختارة من البشر أن لا يقال عنهم مثل هذه الألفاظ، مع يقيني بسلامة قصد الدكتور.

الثاني: أن الله - سبحانه - قصّ علينا في القرآن الكريم عن موسى كثيرًا: عن ميلاده، وعن قصة دخوله إلى قصر فرعون أول ما دخل طفلاً، ونجاته من القتل، وعن رجوعه إلى أمه، وعن بعثته، وعن قصته مع الرجلين وقتله الذي هو من عدوّه، وعن خروجه بعد ذلك من مصر إلى أرض مدين، وما جرى له هناك من سَقْيه للمرأتين، ثم زواجه من إحدى هاتين المرأتين، وعن خروجه من أرض مدين قافلاً إلى مصر، وما حصل له في الطريق من التيه وتكليم الله له، وبعثه نذيرًا ورسولاً إلى فرعون، ثم عن مناظرته مع فرعون ومع السحرة، وعن فلق البحر له، وعن إنزال المن والسلوى على بني إسرائيل بدعائه، وعن خروجه من مصر مرة أخرى إلى بيت المقدس ومعه قومه، وعن قصته مع قومه من دخولهم في التيه، وعن أسئلتهم المتعنّتة - كطلبهم رؤية الله، وإنزال المنّ والسلوى -، وقصة ذبح البقرة، وعن قصته مع الخضر - عليه السلام -، وعن قصته مع قارون. وفي أثناء تلك الحوادث والقصص ذكر شمائله وفضائله وأخلاقه وغير ذلك، والقرآن مملوء بما قصَّه الله عن موسى، فلا تكاد تقرأ سورة من سوره إلا وتجد فيها ذكر موسى - عليه السلام - إمّا مجملاً وإما مفصلاً.

ثم، وبعد هذا الإيضاح الذي أوضحه الله - سبحانه وتعالى - أيبقى موسى - عليه السلام - لغزًا وطلسمًا يحار فيه الباحثون إلى الآن؟! لا ريب أن هذا من خطل القول.

وأما ما ذكره من الأسئلة التي يريد عنها جوابًا كقوله عن موسى - عليه السلام -: هل هو حقيقة ابن عمران أنجبه من أمّه التي كانت بنت عمّه؟ وهل كان يعرف اللغة العبرية؟ وهل كان يتكلم الفرعونية؟ وغيرها من الأسئلة.

فإني أقول: إن هذه الأسئلة لا فائدة في ذكرها، ولو كانت فيها فائدة لذكرها الله في كتابه أو لبيَّنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سنّته.

وفي الختام أدعو الدكتور الفاضل إلى تقبل النقد في حيّز الأخوة، وتصحيح الأخطاء.

أحمد بن نجا الرحيلي
مدرسة حبيب بن زيد الأنصاري
المدينة المنورة

الهوامش:

1- الشيعة والتشيع فرق وتاريخ، للشيخ إحسان إلهي ظهير، ص240.



حول التاريخ الإسلامي المُفترى عليه



وردت مقالةُ الدكتور محمد عبدالستار نصار في العدد 237 بعنوان «تاريخنا المُفترى عليه بين الجُمود والتطرّف»، لتضع النِّقاط على الحروف، وتُلخِّص بشكلٍ مُكثف هفوات وأغاليطَ بعض المؤرخين الذينَ تصدُّوا لتاريخ العصور الإسلامية وتدوين أحداثه بمنهجٍ يتراوح بين المبالغة والتعصُّب من جهة، والتهاون وغياب الحِسّ النقدي والحكم المنطقي الصحيح من جهة أخرى. والمؤسف أن هذه الروايات المُضلِّلة ما تزال تُلقي بظلالها على الباحثين والقائمين بتدريس التاريخ الإسلامي، مما يؤدّي إلى إصدار أحكام ونتائج مُتعسِّفة غير صحيحة.

ومن الإنصاف القولُ بأن دعوة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي تلَقى الاستحسان والقبول من فئة ليست قليلة من المهتمين بهذا المجال، ولا شكَّ في أن كثيراً من الأفراد العاديين يَشعرون في قرارة أنفسهم بموجة من الشكّ وعَدم التصديق تجاه المبالغات والأكاذيب في تاريخهم الإسلامي، والتي تُلقى على مسامعهم ومناظرهم في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، ويتمنون أن تظهر الحقائق التاريخية الصحيحة دون أي لبس، أو أهواء شخصية، أو مذهبية. وللاستدراك لم تبدأ أي محاولة جادّة في هذا المشروع المهم، ويكتفي معظم الباحثين بإيراد أحكامٍ عامة دون الخوضِ في التفاصيل إلا ما ندر.

ولنبدأ بشخصية تاريخية ما يزالُ يتردَّدُ صَداها حتى وقتنا الحاضر، هي شخصية «الحجاج بن يوسف الثقفي» المتوفَّى 95هـ - 714م، والذي جعلته بعض وسائل الإعلام مادة لبعض برامجها التمثيلية، فَصوّرتهُ على أنه سفَّاحٌ سَفّاكٌ للدماء، يطربُ لسماعِ أنّات المعذَّبينَ تحت السياط... إلى آخر ما تجودُ به قريحةُ مُنَفّذي مثل هذه البرامج، مع المبالغة الشديدة في التركيز على هذه الناحية لدرجة التّطرف الشديد، مما يجعلُ المشاهدَ أو المتلقي تحت تأثير طاغٍ لهذه الفكرة، وتغَيبُ عنهُ - في الوقت نفسه - الأعمال المرموقة والإنجازات الحضارية العظيمة التي تمّت في عصر الحجاج والحكم الأموي. ولا بُدَّ من التوضيح بأننا لا ندافعُ عن الظلم عند استعراض مثال الحجاج، فنحنُ نرفضُ - انطلاقًا من مبادئ الإسلام الحنيف الإنسانية - أن يَقَعَ ظَلمٌ أو تعسفٌ ضد أي إنسان من دون تمييز، ولا نُسيغ مثل هذه الأعمال، ولكن البحث التاريخي الصحيح الذي يتناول أي شخصية تاريخية مهمة، كان لها دورُها المميّز يستدعي الإحاطة الكاملة بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتلك الحقبة التاريخية التي ظهر فيها، فالإنسان ابنُ بيئته، وما يقوم به في معظم الأحوال من أعمال أو قرارات هي صَدَى أو انعكاسٌ لما يَدورُ حولَهُ.

لقد ظهر في القرن الرابع الهجري بعضُ المؤرخين ممن كانوا أصحاب مواقفَ مُناهضة للعصر الأموي، منهم المؤرّخ مُطهر بن طاهر المقدسي (ت: بعد 355هـ) الذي وصف الحجاج في كتابه «البدء والتاريخ» قائلاً: «وكان قَتَلَ من الأشراف والرؤساء المذكورين مئة ألف وعشرين ألفًا صبراً سوى عَوامّ الناس، ومن قُتل في معارك الحروب، ومات في حبسه خمسون ألف رجلٍ وثلاثون ألفَ امرأة».

ولا بُدَ من وقفة تأمُّل في هذه الأرقام الخيالية التي يتبنّاها على علاّتها من دون أي نقد أو تمحيص أحدُ الباحثين المعاصرين: حسين مُروّة، وضمّنها كتابَهُ «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية» وأصدرَ حُكْمًا مُتسرِّعًا عن الحجاج، فقال: «وكانت استراتيجيتُه أن يأخذَ أهلَ العراق جميعًا بالإرهاب الدموي دون تمييز، ولَمْ تثبت براءةُ أحد قط، وكان الإعدام هو العقابَ المفضّل عند الحجاج، حتى قيل إن عدد الجلادينَ لم يكن يكفي لإعدام العدد الكثير من الناس، وأن من أعدِمُوا بلغوا 130 ألف نسمة»؛ مما دفع الناقد الأستاذ فرج الله ديب صالح للتساؤل قائلاً: «هذه العبارات عن الحجاج بن يوسف، وظُلم الوُلاة، نَسوقُها ليسَ للدفاع عن الحجاج، بل لنسأل الأستاذ مُروّة كيف عَبَرَ بها من كتب التاريخ دونما إشارة، والتزم بها وبصحّتها، فكيف نفهم عبارة «جميعًا بالإرهاب الدموي دون تمييز»، وكيف تتماشى مع عبارات «مصالح الإقطاع وكبار المُلاّك» وهؤلاء أُخِذُوا بالإرهاب؟ وكيفَ نُؤرخ إذا كان عدد الجلادين لا يكفي لإعدام الكثير من الناس؟ فمن كان معه ومن كان يُؤيده؟ وكيفَ يستقر له حكمُ عشرين عامًا في الحجاز والعراق؟ وإذا حسبنا على الأصابع أنهُ ترك ثمانين ألف أسير و130 ألف قتيل من ضحاياه في 17 عامًا، وإذا حسبنا متوسط الأسرة خمسة أفراد، وعلمنا أنّ مَنْ كان ضدَّ حُكمه في العراق مليونًا وخمسين ألفًا، دونما ذكرِ القرابة والقبيلة، والعصبية، فكم كان سُكان العراقَ في حينه؟ وهل ظاهرة صحيحة تاريخيًا أن يَبقى حكم والٍ لهُ هذا القدرمن البطش وليس له من إيجابيات سوى نفاذ الموظفين المولجين بالإعدام».

ويتابع الناقد ديب صالح كلامه قائلاً: «وكيف نُصدّق هذه الأرقام على علاّتها، وهذا شبيب بن يزيد الخارجي وزوجته غزالة تدخلُ الكوفة بأقل من عشرين فارسًا فيخافُها الحجاج ويتحصّن في قصره، ولا يجرؤ على الخروج إلا بعد رحيل شبيب وزوجته، حتى قيل:

غزالةٌ في مئتي فارسٍ
يَئِطُ العراقُ منها أطيطا

وهكذا في نفس الصفحة، وعند المقدسي

يرتفعُ عددُ فرسان غزالة من 20 إلى 200. ألم يكن ابن خلدون مُشيرًا للعجَب عندما سخر من أرقام مؤرخينا في مقدمته وديوانه؟».

نُلاحظ أن استنتاج أحكام عامة بناءً على أخبار تفتقر إلى الجرح والتعديل، والتزامَ الباحث مُروّة منهجًا فكريًا (أيديولوجيًا) معينًا قد أوقعه في مزالقِ التطبيق.

إن الحجاج الذي وَلّاهُ عبدُالملك بن مروان قيادةَ الجيش في ظروف حالكة قاسية كادت تُطيح بالخلافة الأموية، كان أحدَ الركائز التي شاركت في تثبيت دعائمَ الأمويين من خلال معاركه الحربية ضدَّ الخوارج وانقلاب عبدالرحمن ابن الأشعَث (قُتل :85هـ)، ودعوة عبدالله بن الزبير (قُتل: 73هـ). وغني عن البيان أن المتربصين والمُعادين للخلافة الأموية كانت تدفعهم أهواءٌ ومصالح مختلفة، وإشارةُ الجاحظ بليغة وذاتُ دلالة في هذا الشأن، حيث قال: «دولةُ بني العباس أعجمية خُراسانية ودولةُ بني مروان عربية أعرابية».

وليس سرًّا أنّ الحجاج وجّه اهتمامهُ للعمل الصادق بسبيل إنعاش البلاد التي أنهكتها الحُروب، فعُنيَ بشؤون الرَّيِّ وإصلاح القنوات التي تحمل مياه نهري دجلة والفرات، واستصلاح الأراضي البُور من طريق إصلاح السُدود المائية التي تمنع تصحّر الأراضي، كما اهتم بإصلاح نظام النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس. وبنى مدينة واسط بينَ البصرة والكوفة. وبلغت الفُتوحات الإسلامَية في عهده شأوًا عظيمًا، فقد وجّه القائد محمد بن القاسم الثقفي إلى الهند أيام الوليد بن عبدالملك فَفَتَحَ جزءًا عظيمًا منها.

يقول الأستاذ الباحث حسن صالح شهاب: «إن الحجاجَ كان أولَ من أجرى في البحر السُفُن المُسمّرة غير المُخَرَّزة والمدهونة والمُسطحة غير ذوات الجُؤْجؤ».

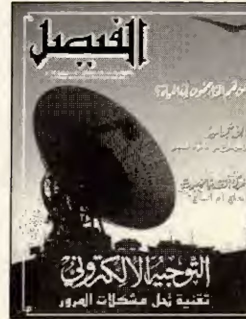
وفي رأينا أن شخصية الحجاج قد وقع عليها تجنٍّ واضح وظلم مفرط، فَغُيِّبَت الجوانب الإيجابية الكثيرة في عهده والتي لا يتسع المقام لسردها، وتم التركيز على بعض حالات العُنف الدَّموي التي يُمكن أن تحصُل في أي وقت وزمن. وإبرازُ هذه الصورة المشوّهة هو تطرّفٌ وتحاملٌ غير مقبولين أو سائغين، فالتاريخ الإسلامي ليس مَطيَّة لأحدٍ ولن يكون.

د. محمد فؤاد الذاكري
ص. ب 12684
حلب، سورية

المصادر:

1- مطهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ.
2- حسين مرّوة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج1، ص514.
3- مجموعة باحثين: الماركسية والتراث العربي الإسلامي، ص236.
4- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية.
5- أحمد أمين: ضُحى الإسلام، الجزء الأول.
6- حسن صالح شهاب: المراكب العربية، تاريخها، أنواعها، ص 19.

عروبة الأدب الجزائري



طالعت العدد 233 من مجلة الفيصل الثقافية، وكان من ضمن محتوياته مقالة عن الروائي الجزائري رشيد ميموني، كتبها الأستاذ عادل البطوسي، الذي رمى من مقالته حول تجربة رشيد ميموني الروائية إلى التعريف بالأدب الجزائري. وأبدى ألمه العميق من رحيل هذا الأديب، وصَمْت وسائل الإعلام العربية عنه، مع أن وكالات الأنباء العالمية تناقلت خبر وفاته! وإذ نقدّر لفتة عادل البطوسي - الطيبة - إلى التعريف بالأدب الجزائري من خلال واحد من أدبائه، فإننا نسجّل - بصدق - استياءنا العميق وصدمتنا الكبيرة فيما حواه المقال. وسنحاول تصحيح بعض النظرات المغلوطة عن الأدب الجزائري، التي نجملها في النقاط التالية:

1- إن ضعف التواصل الثقافي والفكري بين أدباء الجزائر وأدباء المشرق عمومًا، وندرة تجاوز الكتاب الجزائري حدوده الجغرافية، أوجد فراغًا كبيرًا في المكتبات العربية بخصوص الحركة الثقافية والفكرية في الجزائر؛ مما أدى بالباحث في شؤون الأدب العربي إلى الجهل بأدبنا، ودفعه إلى الاعتماد في بحوثه على الإصدارات التي تنتج خارج حدودنا الجغرافية. والذي ينهل من النبع ليس مثل الذي يشرب من المجرى أو المصب.

2- إن الأدباء والباحثين (الأكادميين) الذين أُتيحت لهم فرص التعبير في مختلف قنوات الاتصال المشرقية، وأُتيحت لهم فرص المشاركة في الفعاليات الثقافية المتعددة، لم يسعوا إلى التعريف بالأدب الجزائري، ولم تتجاوز غايتهم التعريف بأنفسهم واصطناع هالة حول قدراتهم الفكرية والأدبية، لأنهم مرفوضون في الواقع الأدبي الجزائري، لتوجهاتهم المنافية لقيمنا العريقة وأخلاقنا الفاضلة، أو لجهلهم بطبيعة الحركة الفكرية في الجزائر، وعدم تعمقهم في دراسة تاريخ الأدب الجزائري.

3- إن ضعف قنوات الاتصال بين الأدباء الجزائريين والقنوات الثقافية في الوطن العربي، وقلة محاولات أدبائنا للتحرر من الدائرة المغلقة المضروبة عليهم، وفك الحصار المفروض عليهم لأسباب عديدة - ليس هذا مجال عرضها - ساعد على ترسيخ فكرة التفسيرَ التاريخي لظاهرة كتابة الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية وضعف النتاج الأدبي الجزائري. والتفسير التاريخي يقول: إن قرابة قرن ونصف القرن من الاستعمار نتج منه شارع يتكلم اللغة الفرنسية وأدب يُكتَبُ بها. وهذه النظرة هي

التي افتتح بها عادل البطوسي مقاله!

والحقيقة أن الكتابات الأدبية، خصوصًا في زمن الاستعمار، اعتمدت في نشرها على الصحيفة؛ لأنها كانت ترمي إلى توعية الشعب وشدّه إلى أصوله ومعتقداته الفاضلة، متحدية المخططات الاستعمارية التي اعتمدت على المدارس المنتظمة ووسائل الإعلام. وقلائل هم الأدباء والشعراءالذين جُمعت أقاصيصهم ورواياتهم وأشعارهم في كتب مستقلة، بينما بقي النتاج الأدبي الكبير في أسر الصحف، بينما كتّاب اللغة الفرنسية من الجزائريين استطاعوا نشر رواياتهم وأشعارهم خارج الدائرة الاستعمارية في الجزائر. وفي فرنسا بالذات. فأدب الشعب الحقيقي هو ذاك الذي كتب بالجمر والدم في الكهوف والمغارات والدهاليز والأرياف، وتلقّفه الشعب بعد الاستقلال، فاحتضن منه ما عبّر عن واقعه المرير، وما حاول أن يرسم أحلامه وآماله وهو طالع من الرماد، ورفض منه ما مسّ قيمه وابتعد من أصوله وحمل الزّيف والتّزييف.

فإن كانت محاولات الاستعمار طمس مقومات الشخصية الجزائرية (العربية الإسلامية)، حتى تتكون أجيال مفصولة عن جذورها، ناكرة لامتداداتها التاريخية العريقة جاهلة بتراثها، قد أُجْهِضَتْ، واستطاعتْ جهود الأدباء والمشايخ والمصلحين المحافظة على الذات الجزائرية الأصيلة، وإشباع الروح الوطنية بخصوصياتها العريقة؛ فإننا نعدّ مثل كتابات عادل البطوسي - على براءتها - محاولة لفصل الأدب الجزائري عن مجراه العربي الإسلامي وتشويه حقيقة لغته وانتمائه، ودعوة لاتباع أدب غربي؛ قد نقرؤه ونستلهم منه، وقد نتأثر به، ولكننا لا نرضى أبدًا الذوبان فيه أو الالتصاق به. ولو كان في إمكاننا - نحن أدباء الجزائر - أن نحذف أسماء وكتابات لفعلنا، ولكن جنسية الكتابة من جنسية الكاتب، وكله محسوب على الأدب. وإنّا لنعجب من عادل البطوسي حينما يضمن مقاله، أسماء روائيين يكتبون باللغة الفرنسية، ليؤكد أن الفرنسية هي لغة الأدب الجزائري - في جنس الرواية -، وكأني بأدبنا مقفر من الروائيين الذين يبرون عظامهم أقلامًا، ويكتبون بالعربية. فلو أن الكاتب أشار إلى مدة زمنية معينة كَثُر فيها النتاج الروائي بالفرنسية، لكان مقاله أقل وطأة علينا واقترب من الحقيقة. إنّني أحاول استشعار إحساس قارئ مقال البطوسي، وأحاول تصوّر انطباعه عن حقيقة الأدب الجزائري - وهذا ما دفعني إلى الكتابة -، فإذا كان الكاتب يجهل تاريخ الحركة الأدبية والفكرية في الجزائر، فكيف يكون حال القارئ، وأي جناية على أدبنا إن ترسخت هذه النظرة وترسّبت تلك الفكرة في الأعماق.

لقد كانت الجزائر في زمن الاستعمار مرتبطة بالشرق متتبعة الخطوات الإصلاحية والحركات الأدبية، وكان الشرق مؤثرًا قويًا وفاعلاً في الحياة الثقافية الجزائرية عمومًا. فقد وظف كثير من الشعراء والأدباء أقلامهم؛ يوجهون الشباب، ويدعونهم إلى الشرق، لينهل من مختلف مشاربه العلمية، وليقف على حياة الزعماء والإصلاحيين. وكان هذا العمل لمواجهة المخطط الاستعماري الذي أغرى فئات من الشباب بالتوجه إلى الغرب في محاولة لفصل الواقع الجزائري عن واقعه العربي. والأدب الجزائري حافل بالكتابات الأدبية - الشعرية على وجه الخصوص - التي شاركت وجدانيًا في القضايا العربية، ولاسيما قضية فلسطين وتحرر بعض البلدان العربية، إضافة إلى مراثي عظماء الشرق من أمثال شوقي وحافظ وشكيب أرسلان. وقد اجتهد كتابنا في نقل المعارك الأدبية والمساجلات الفكرية بين المدارس الأدبية والأدباء، وإثارة القضايا الفكرية والأدبية لإغناء الواقع الثقافي ودفعه إلى مسايرة الواقع الثقافي في المشرق. فالأدب الجزائري هو امتداد أصيل للأدب العربي، والأديب الجزائري، عربي، في ذوقه وحسّه وأخلاقياته وفكره، لم يعدم الصلة يومًا بواقعه العربي.

وَدِدْت في الأخير أن أسجّل استفهامًا: لماذا لم يحاول البطوسي تعليل حقيقة صمت الوسائل الإعلامية العربية - والجزائرية على الخصوص - تجاه وفاة ميموني؟ ولماذا لم يتعمق البطوسي في دراسة شرف القبيلة؟ هذه الرواية التي رفضها الأدباء الجزائريون مثلما رفضها جمهور القراء. إن في الجزائر أدباء ممّن كتبوا بالفرنسية واستمروا يكتبون بها، ومنهم من كتب بالفرنسية، ثم كتب بالعربية، وفيهم من يقاطع القارئ العادي كتاباتهم لإباحيتهم وفساد معتقداتهم، وقبح ما تتضمنه رواياتهم الهدّامة من أفكار منافية لأخلاقنا وقيمنا النبيلة معادية للرسالة الأدبية السامية.

فإن يكن رشيد ميموني قد نال جوائز في الغرب وبكته وسائل إعلامه؛ فقد دُفن في صمت في الجزائر. ولهذا الحدث دلالته التي لا نريد الغوص فيها، فالصمت أبلغ من كل كلام. ولعل القائمين على تلك الجوائز الغربية قد أصابوا هدفًا حينما تعثّر البطوسي في شرف القبيلة، مثلما تعثّر في «نجمة» كاتب ياسين الذي قال: «أنا ضد الدين؛ لأن الدين سجن العروبة».

نحن لا نتحامل على الذين كتبوا الرواية باللغة الفرنسية، فمنهم أدباء ومفكرون يعيشون في وجدان شعبنا وتستوطن كتاباتهم ذاكرتنا. كان من المجدي تقديم دراسة وافية عن تاريخ الأدب الجزائري، ولكن الحماسة قد تطغى والانفعال قد يتملك، حينما يكون السّهم مسمومًا، ونابله كاتب عزيز علينا، أفجعنا من حيث لا يدري، ولا يَسَعنا إلا شكره.

محمد ياسين رحمة

برج بن عزوز 07345 طولقة،

بسكرة، الجزائر

الفصحى والعامية في المغرب العربي



الشيء الذي جذب اهتمامي في مقالة الدكتور مرزوق بن تنباك - المنشورة في العدد 218 من مجلة الفيصل بعنوان: «اللغة العربية بين العامية والفصحى» - هي تلك الحَمِيَّة التي أبداها تجاه اللغة العربية الفصحى، وما اكتنف مقالته من نقد صريح وبنّاء زيادة على بيان الحجج والأدلّة، وارتكازه في التحليل على آراء متباينة لعدّة أدباء ومفكّرين.

وإنّي إذا نظرت إلى الهَنَة الوحيدة في هذه المقالة المتينة، فإني أشير إلى تلك القسوة التي عامل بها الدكتور ثلّة من الكتّاب والنشرات، فقد تجاوز أصول النقد بما أدرجه من تشهير وتلميح وصل في بعض الأحيان إلى محاولة لإبراز عدم التكافؤ بين المنصب الذي يشغله الأديب وما قد أدلى به من تصريحات تتنافى مع توجّهاته.

فنراه مثلاً يوجّه نقدًا لاذعًا إلى الأمين العام لاتحاد الكتّاب والشعراء العرب «محمد العروسي المطوي» تجاوز

الفكرة والمضمون ليصل إلى حدّ الأسلوب. وخلال قراءتي بقية المقالة أعجبني ذلك الردّ المباشر ضدّ أعداء الإسلام الذين عجزوا عن استئصاله بالقوّة، فاختاروا سلاح الغزو الثقافي الذي نفذوه - بكل أسف - بنجاح تام في بعض الأقطار العربية، والأدهى من ذلك أنّهم استعانوا في مخطّطهم بالعرب ذاتهم.

وبحكم انتمائي إلى المغرب العربي، فإني سأمدّكم بلمحة عن واقع اللغة العربية هناك.

فعلى الرغم من أنّ العامية التونسية في القديم أقرب إلى الفصحى من بقية العاميات، إلا أنها، بكل صراحة، أصبحت عامية تخلط بين الفصحى والفرنسية وبعض الألفاظ البربرية.

تخرج إلى الشارع التونسي فتجد شبابًا يفتخر ببعض الألفاظ الفرنسية كأنّما «صرعة» جديدة اكتسحت السوق.

أمّا العاميّة الجزائرية فحدّث ولا حرج! فهي في هذه الأيام أصبحت عامية فرنسية في الأساس، فلا تجد في ألفاظها كلمة عربية واحدة، بينما تسيطر اللغة البربرية سيطرة مطلقة في الجنوب.

وإذا كان «كاتب ياسين» المنبتّ يحضّر لحرب شعواء ضدّ الإسلام، فإني أنصحه - أي كاتب ياسين - بمزيد من الاطلاع على تاريخ المغرب العربي، حيث أنقذ الإسلامُ البربرَ من الهمجية التي كانوا يعيشونها، وأسس لهم دولة مستقلة بذاتها بعد أن كانوا يعانون من استعمار إلى آخر: من الفينيقيّين، إلى القرطاجيين، إلى الرّومان، إلى الوندال، إلى البيزنطيين. كما أدخل الإسلام إلى بلادهم فنًا جديدًا للعمارة، فشيّدت عدّة مدن، مثل القيروان منارة الإسلام في الغرب، الإضافة إلى صنوف العلوم الفقهية والصحيحة؛ فانتشلهم من جاهليتهم ووفّر لهم الحماية من الأخطار الخارجية، ودحضَ الشعوب النصرانية في الحوض الغربي.

وأذكّر كاتب ياسين في الأخير بأن يمتنع عن الخطابة بلسان البربر المسلمين؛ لأننا، والحمدللّه، مازلنا متمسكين باللغّة العربية والإسلام ديننا الحنيف.

محمد المعلول
فرمبالية - 3080
الجمهورية التونسية

مجلة الفيصل.. وحرف العين

بكل محبة وشوق تلقفت العدد 236 من مجلة الفيصل مع هديتها الجميلة، وشرعت في قراءته والاغتراف من معينه، وكانت الموضوعات منوعة كبستان يحوي أزهارًا مختلفة الألوان والرائحة، ولكن استرعى بصري سيطرة حرف «العين» على هذا العدد.

فالافتتاحية لرئيس التحرير كانت «العرب أمة بلا ذاكرة»، وقد أثارت في نفسي انفعالاً وثورة على هذه الذاكرة التعسة ومبدأ «عفا الله عما مضى» الذي جعلنا نهدر دماء شهدائنا الطاهرة بكل بساطة، بينما عدونا يجعل من كل حادثة تمر به - مهما كانت صغيرة - مأساة العصر، ويعاود تذكير المجتمع العالمي بها في كل مناسبة. ثم تجولت في



باب «العالم قريتي»، وأثار اهتمامي موضوع «التلفاز والعبث بالأخلاق»، حيث استشعرت مدى خطورة هذا الجهاز وهو الآن سلاح ذو حد واحد، وليس بذي حدين، وهذا السلاح مصوب مباشرة إلى أخلاق أمتنا والعبث بها.

وسافرت إلى جزر هاواي الحالمة في باب «العالم من حولنا»، ودرست باهتمام «عربسات 2 المزايا والإمكانات» في باب الفضاء وعرفت مدى تطوره التقني (التكنولوجي) والاستفادة منه. بعدها استمتعت بمقالة الدكتور حسن ظاظا «عنتريات يهودية مقدسة»، ورأيت كيف تحولت خرافات يهودية إلى مُسلَّمات إيمانية، وألقيت الضوء على «الأساطير العربية»، واختلاط تعريف الأسطورة وعلاقتها بالحقيقة والخيال. ثم تعرفت إلى عدد من «الشعراء العمانيين»، وفي دراسة أدبية، وجدت «العنف والشخصية اليهودية في الشعر العبري الحديث»، وهو موضوع مثير ونادر في مجلاتنا العربية. وأثارت شجوني قصيدة «عبرات العربية» للشاعر أكرم جميل قنبس، وخاصة عندما يقول:

عتبت على أهلي الكرام عتابا
وأنفقت عمري ما أفدت جوابا
فيا من على حَمْل الأمانة عزمُكم
صلوا أمكم تزدد ندًى وعِرابا
وقوموا نَصُن أم اللغات لأنها
حَصَان لنا، إن تأخذوا الأسبابا

وفي قصيدة الشاعر محمد السيد محمد جاب الله «عانقتك رسمًا» إلى أم الضياء مدينة الرياض: تشعر بروعة هذه المدينة حينما يقول:

عبقٌ من التاريخ قد دانت له
سمة الخلود بمجده تتأثر
عانقتك رسمًا يبوح لناظري
جعل النهى من سحره تتحير

وكان باب تقويم البلدان عن «عمّان قصبة البلقاء» رحلة في أعماق تاريخ هذه المدينة: مدينة المياه التي تشكو الآن قلة الماء بعد أن كانت تسبح فوق الينابيع والأنهار. وفي الباب الأقرب إلى قلبي «تباشير»، حيث القلم الواعد نقرأ في قصيدة «العيد»:

أقبل العيد في دلالٍ وسحر
قادم ضمغ الجواء بعطر

وقد أنساني هذا البيت قول الشاعر المتنبي في تشاؤم:

عيد بأية حال عدت يا عيد

وعندما انتهيت من المجلة شرعت أقرأ بشغف هدية العدد، وهي بالفعل نعم الهدية: الفيصل: الملك الإنسان.. الفيصل بن الملك عبدالعزيز. وجالت بفكري وخيالي الحرب القذرة التي جرت رحاها في البوسنة والهرسك والغزو العراقي للكويت، عندما أمسك الفيصل نظارة الميدان وأطال النظر حتى نسي من حوله على مشارف «ميدي» المدينة اليمنية، وقال ردًا على مداعبة أحدهم عندما سأله: هل خفت! فَرَدّ الفيصل العظيم: لا، والله ما خفت، ولا تراجعت، لكني كنت أفكر كيف أحمي النساء والأطفال والشيوخ، والمدينة ذاتها من تجاوزات جيشنا وتجاوزات أهلها. رحم الله الفيصل الملك الإنسان.

وفي الختام أتمنى لكم المزيد من التقدم والتطور للفيصل المجلة.

د. سمير زين الدين نصر
ص. ب. 317، جرمانا
دمشق، سورية

رسالة مؤثرة !

د. حلمي محمد القاعود

من حين لآخر يفاجأ القارئ المهتم بشؤون الأدب والفكر والثقافة؛ بأن الأوساط المعنيّة في عاصمة ما تحتفل بأديب أو شاعر أو فنان، لم يسمع عنه أحد غير أصدقائه المحيطين به، وهم في الغالب قلّة تعدّ على أصابع اليدين. وقد يبدو الأمر غير مثير للانتباه، فالمحتفون والمُحتفى به أحرار فيما يفعلون ما داموا ينفقون على حفلاتهم من أموالهم الخاصة.. ولكن المسألة تثير الانتباه والاهتمام حينما يكون المُحتفى به لا يملك موهبة حقيقية أو خبرة عميقة في المجال الذي يكتب فيه أو يمارس الفن من خلاله، وعندما يكون الاحتفال أو «الاحتفالية» - كما يسمونها - على حساب دافع الضرائب. هنا يصبح الأمر غير طبيعي، ويثير العديد من التساؤلات، ويؤكد أن هنالك خللاً ما في حياتنا الأدبيه والثقافية بوجه عام.

إن كثيرين من كتّابنا وأدبائنا وباحثينا الكبار، قدراً ومقاماً، والذين أنفقوا كل ما يملكون: مالاً وجهداً وعافية ووقتاً من أجل الكلمة: إبداعاً وترجمة وتأليفاً وتحقيقاً، لم يحظوا بمثل ما يحظى به أولئك الفقراء في الموهبة والفن والثقافة.. وذنبهم الأول والأخير؛ أنهم لا يجيدون فنّ «العلاقات العامة»، الذي يجعل ذكرهم مرفوعاً في الصحف والمجلات وأجهزة الدعاية المسموعة والمرئية.. ويقترب بهم من المؤتمرات والندوات والجوائز..



فن «العلاقات العامة» إذاً، هو الذي يحرّكُ في الغالب نحو الشهرة ومضاعفاتها، وهو فنّ يفرض على صاحبه الكثير من التنازلات، ويوجب عليه الانتماء إلى «السُّلطة الأدبية» المهيمنة أيّاً كان لونها أو اتجاهها، حتى لو خالفت المبادئ والقيم والأعراف الصالحة..

قبل مدّة، كُتب ونُشر أن هيئة رسمية قررت أن تقيم «احتفالية» لرسّام صحفي بمناسبة بلوغه سنّ التقاعد. المذكور متواضع القيمة فنيّاً، ولا أستطيع الحديث عن سلوكه الشخصي لأسباب موضوعية، ولكن المحتفين به أغدقوا عليه من الصفات ما يجعله في خانة «العظماء» غير المسبوقين! المفارقة أنه لم يحضر «الاحتفالية» لأنه كان مشغولاً بأمر أعفّ عن ذكره.

وقبل مدّة تلقيت رسالة كريمة من أحد أعلامنا المعاصرين. وأصفه بالعَلَم؛ لأن الأمة الإسلامية تفخر به كاتباً وشاعراً وباحثاً ورائداً في ميدان مهم، فضلاً عن عشرات الكتب والدواوين والترجمات، ثم عضوية مجمع اللغة العربية، والتعليم في الجامعات.

في الرسالة الكريمة فقرات مؤثرة توقفت عندها طويلاً، والتفتُّ إلى ما يجري على الساحة الأدبية والثقافية، ووازنت، وحزنت، وتألّمت..

يقول الأستاذ العَلَم في رسالته: «ولا يسعني إلا أن أشكر لك تكرمّك بالكتابة إليّ وتذكرك لي، فإن مثل هذا هو كل دنياي. لقد ذهب بصري فأنا أملي ما أكتب، وأكلّف غيري القراءة لي، والحمدلله على حالٍ من الحال».

تأمل ما يقوله: «فإن مثل هذا هو كل دنياي»! بعد أن نيّف الرجل على ثمانين عامًا؛ صار كل ما يتمناه أن يكتب إليه تلميذ من تلامذته الذين استفادوا منه على البعد.. بينما الحياة الأدبية مشغولة بتكريم بعض المنتسبين إليها ممّن لا يقيمون عبارة سليمة، ولا يمثّلون قدوة تُحتذى، ولم يقرأ لهم غير الأصدقاء؟

إن الأستاذ العَلَم، هو الدكتور «حسين مجيب المصري»، الذي أجاد الفارسية والتركية، ونظم بهما، وكتب من خلالهما دراسات مقارنة رائدة، ومنحته الباكستان «وسام الجدارة» عام 1988م، ونال الدكتوراه الفخرية من جامعة مرمرة بإستانبول عام 1995م، ويُتوقع أن ينال مثلها من جمهورية قازاقستان بعد أن ترجم إلى الشعر العربي ديوان شاعرها الأشهر «آباي».

تمنيت لو أن الأديب الكبير الأستاذ «وديع فلسطين» كتب عن الرجل حديثًا من أحاديثه المستطردة، فهو من أقرب الناس إليه، على مدى عمره المديد إن شاء الله، كي تتعرّف الأجيال الجديدة إلى بعض أعلامنا المجاهدين في ميدان الكلمة، الذين لم تعرف الأضواء طريقها إليهم، لأنهم انصرفوا إلى العمل وحده، ولم يتقنوا فنّ «العلاقات العامة»!